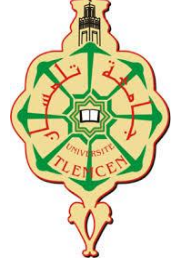




كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي



أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في آداب المغرب الإسلامي والحضارة المتوسطية

من أعلام الأدب والحضارة في المغرب الإسلامي
من بداية القرن التاسع الهجري إلى نهاية القرن العاشر الهجري
- مقارنة تاريخية فنية -

إشراف الأستاذ الدكتور:
محمد مرناس

إعداد الطالب:
عياد عبد القادر

أعضاء لجنة المناقشة			
أ. د. محمد طول	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ. د. محمد مرناس	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا
أ. د. أحمد طالب	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا
أ. د. محمد سعيدي	أستاذ التعليم العالي	جامعة مسنغانم	عضوا
د. أحمد دواغ	أستاذ محاضر "أ"	المركز الجامعي - مغنية	عضوا
د. مصطفى جلال	أستاذ محاضر "أ"	المركز الجامعي - عين قوشنت	عضوا

السنة الجامعية: 1439 - 1440 هـ / 2018 - 2019 م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أهراء



أهري هذا العمل إلى كل من له الفضل علمي
إلى روح الوالدين ❁ إلى أساترتي الطيبين
إلى زوجتي الوفية ❁ إلى أولادي الأعزاء
إلى كل من ساندني من الإخوة والأخبة

شكر وتقدير



إنّ من أهمّ ما يجب القيام به هو شكر الله عزّ وجلّ على توفيقه وإحسانه. ثمّ أتقدّم بالشكر الجزيل والعرفان الجميل من صميم القلب إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور "محمد مرتاض" المشرف على هذا البحث، والذي لا ينكر فضله وجهوده المشهودة في خدمة الأوب المغربيّ. والشكر موصول كذلك إلى الأساتذة الكرام أعضاء لجنة المناقشة.

اقتباس



إننا وضعت التراجع

للتعريف المناصب

أحمد زروق (قواعد التصوف)

مقرّمة



يعدّ المغرب الإسلامي ساحة شاهدة على مشاركة أعلامه من المفكرين والأدباء والعلماء والساسة والفنانين وغيرهم في بناء الحضارة الإنسانية، وكان لهم الأثر المشهود في أكثر مناحي الحياة العامة (الأدبية، السياسية، الاجتماعية، العلمية، الدينية، العمرانية...)، والذين أسهموا في التّواصل الفكريّ والثّقافيّ والحضاريّ بين مختلف أقطار العالم الإسلاميّ وبلدان حوض المتوسط. ولذا ينبغي أن نسعى إلى إبراز ما قدّموه من معارف وعلوم، ولن يتأتّى ذلك إلّا بدراسات جدّية وعميقة لكلّ ما يتعلّق بتراثهم، والعمل على إخراجهم في أبهى حلّة وأجمل صورة. وهذا العمل منوط بأهل التّخصّص في كلّ ميدان. ومن ضمن ما يبحث فيه في هذا الباب الإقبال على ترجمة وافية للأعلام الفاعلين في مختلف الحقول المعرفيّة ودراسة آثارهم وتحقيقها. وبهذا الخصوص وقع اختيارنا على عنوان لأطروحتنا المقدّمة لنيل شهادة الدّكتوراه، موضوعها قائم على دراسة حياة عدد من أعلام الأدب والحضارة دراسة تاريخيّة وفنّيّة في فترة زمنيّة تمتدّ من بداية القرن التاسع الهجريّ إلى نهاية القرن العاشر الهجريّ، وهذه الفترة أعقبت الفترات الذهبيّة لتاريخ المغرب الإسلاميّ بخاصّة والعالم الإسلاميّ بعامّة. واخترنا من بين أعلام المغرب الإسلاميّ شخصيّات أسهمت في الحياة الأدبيّة والحضاريّة، منهم الملوك والعلماء والفقهاء والأدباء والشّعراء.. ومن ثمّ، كان عنوان الأطروحة موسوماً: «من أعلام الأدب والحضارة في المغرب الإسلاميّ من بداية القرن التاسع الهجريّ إلى نهاية القرن العاشر الهجريّ».

ويقوم اختيارنا لهؤلاء الأعلام على جملة من المعايير أساسها التّنوّع والإبداع. فاخترنا الأعلام المشهورين والمغمورين من مختلف الطّوائف والديّانات، ومن مختلف بلدان المغرب الإسلاميّ شمال الحوض المتوسط وجنوبه. وركّزنا على عنصر الإبداع والتّفوّق في المجال الأدبيّ والحضاريّ. وقد جاء العنوان مصدّراً بحرف الجرّ (من) التّبعيضيّة لبيان أنّ هناك العديد من الأعلام لم نخصّهم بدراسة أو لم نشر إليهم في ثنايا هذا البحث، إمّا لأنّه وقع منّا سهواً أو لم نصل إلى المظانّ التي ذكرتهم. وجاء العنوان جامعاً بين عاملي الزّمان والمكان، فالإطار المكانيّ شمل عدداً من أقطار المغرب الإسلاميّ ولذلك جنحت الدّراسة لنوع من التّوسّع المكانيّ، وحصرنا الإطار الزّمنيّ في القرنين التاسع والعاشر الهجريّين، فضاقت زمانياً واتّسعت مكانياً، باعتبار أنّ هذا المشروع يتطلّب منّا جهداً مضاعفاً واهتماماً كبيراً واطّلاعاً واسعاً.

وإنّا نسعى من وراء هذا البحث إلى تحقيق عدد من الأهداف؛ منها: الاطلاع على الواقع السياسي والثقافي والفكري والأدبي والنقدي، وبيان أهم السمات الموضوعية والفنية للأدب وبعض المظاهر الحضارية في هذه الفترة، والتعريف بعدد من الأعلام الفاعلين في مختلف الحقول المعرفية والحضارية، وهذا من خلال الاطلاع على تكوينهم العقلي ونشأتهم العلمية، وإبراز آثارهم المادية والمعنوية التي تكتنز نصوصا معرفية مهمة تكشف عن بعض المظاهر الحضارية في هذه الفترة، وعن واقع الحياة العامة في بلاد المغرب الإسلامي. ومن المقاصد التي نطمح لها هو محاولة وضع نواة معجم لأعلام الأدب والحضارة في المغرب الإسلامي، وبيان إسهاماتهم في الحقلين الأدبي والحضاري، ودراسة حياتهم وآثارهم ومنجزاتهم، والبحث عن الأعلام المغمورين والتراث المفقود.

وموضوع الأطروحة يكتسي أهمية في تصوّرنا، فهو يعنى بدراسة جانب من التاريخ الأدبي والحضاري بالمغرب الإسلامي وأعلامهما خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين، فالدراسة تهتم بتقّي الآثار الأدبية والمنجزات الحضارية لطائفة من أعلام المغرب الإسلامي، وتُلقي الضوء على كثير من الأحداث التاريخية المساعدة على فهم الفكر الحضاري للمغرب الإسلامي في هذه الفترة، فكل واحد من هؤلاء الأعلام يمثل لبنة في الصرح الحضاري الإسلامي والإنساني، وهذا يدعم الارتباط الحضاري ويكشف عن الوحدة الثقافية لدى المكوّن البشري ببلدان المغرب الإسلامي.

ومن الإشكالات التي تسعى هذه الرسالة إلى الإجابة عن بعض أسئلتها هي:

- ما هو الواقع السياسي والثقافي والفكري والأدبي في بلدان المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين؟

- ما هي السمات الفنية والموضوعية لأدب هؤلاء الأعلام في هذه الفترة؟

- وفيما تتمثل الجهود الحضارية للأعلام الذين اخترناهم؟

- وما هي أهم القيم الحضارية التي تجلّت في حياتهم العلمية والعملية؟

أمّا عن الدوافع الذاتية لاختيار هذا البحث فتعود إلى اقتراحات أستاذنا الفاضل الأستاذ الدكتور (محمد مرتاض) في لقاءاتنا العلمية التي جمعتنا به، فصادف هذا المقترح في نفسنا

قبولا وميولا، وبعث فينا حماسا ونزوعا، وهذا مع وجود رغبات لدينا ملحّة نحو البحوث التاريخية حول رجال الأدب والحضارة، وحبّ الاطلاع على سير الشخصيات الأدبية. أمّا عن الدوافع الموضوعية فيعدّ الاهتمام بالموروث الأدبي والحضاري لمنطقة المغرب الإسلامي من الأمور الضرورية والمسؤوليات التاريخية الملقاة على عاتق النخب المثقفة والباحثين المغاربة للتعريف بأعلام الأدب والحضارة في هذه البلاد، وقراءة آثارهم الأدبية والنقدية والوقوف على منجزاتهم الحضارية.

ولأجل بيان ذلك كلّه أعدنا خطة تتكوّن من مدخل وثلاثة فصول وخاتمة. أمّا المدخل فهو بعنوان (لمحة عن الحياة السياسية والحياة الثقافية في المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين) تناولنا فيه الحياة السياسية في المغرب الإسلامي في الفترة الزمنية التي تشمل القرنين الهجريين التاسع والعاشر، فمعرفتها ضرورية لتأثيرها بطريقة أو بأخرى في سير الحركة الثقافية والفكرية والأدبية.

وقمنا بتخصيص الفصل الأول للخطاب النثري وفنونه وأعلامه، فجاء الفصل بعنوان (من أعلام النثر في المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين). ترجمنا فيه لسبعة أدباء من مختلف أقطار المغرب، وطريقة اختيارنا لهم بحسب شهرتهم الأدبية واشتغالهم بالفنون النثرية ولو كانت لهم مشاركة في الخطاب الشعري. فأتينا على ذكر أسمائهم وأنسابهم وشيوخهم وتلاميذهم ومؤلفاتهم وأقوال الآخرين فيهم، وعرض بعض النماذج من خطاباته النثرية والشعرية. ثم قمنا بدراسة لبعض النماذج النثرية المختارة تحليلا فنيا للكشف عن بعض السمات الموضوعية والفنية والملاحح البارزة للخطاب النثري. محاولين دراسة بعض النصوص النقدية لمعرفة طبيعة النقد الأدبي في الفترة المذكورة ومعرفة بعض الآراء النقدية.

وتناولنا في الفصل الثاني بعض القضايا التي تتعلّق بالشعر وأعلامه في هذه الفترة، وجاء تحت عنوان (من أعلام الشعر في المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين). اخترنا ثمانية أعلام اشتغلوا بالخطاب الشعري واشتهروا بذلك وإن كانت لهم خطابات نثرية، فقمنا بترجمة لهم متبعين العناصر نفسها التي مرّت بنا في الفصل الأول، والتي تصحبنا في

الفصل الثالث أيضا. واخترنا بعض النماذج الشعرية حيث أخضعناها للتحليل الفني وهذا قصد الوقوف على أهم السمات الموضوعية والفنية البارزة في الخطاب الشعري عند هؤلاء الشعراء. وتطرّقا في الفصل الثالث لتراجم الأعلام الذين كانت لهم مشاركة في مختلف المجالات الحضارية، وحاولنا الكشف عن إسهاماتهم في بناء الحضارة الإنسانية، والتي تجلّت في إبداعاتهم المعرفية وإضافاتهم العلمية وجهودهم العملية في مختلف العلوم والفنون، فكان عنوان هذا الفصل موسوما (من أعلام الحضارة في المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين). وقمنا باختيار أحد عشر علما ممن برعوا في عدد من العلوم العقلية ونبغوا في العلوم العقلية، وشاركوا في الحياة السياسية والفكرية.

ثمّ أنهينا الدراسة بخاتمة أجملنا فيها أهمّ النتائج التي توصّلنا إليها في البحث. وعقدنا عددا من الفهارس الفنية ليسهل على القارئ الوصول إلى الفصول، بداية بفهرس للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وفهرس للأعلام والبلدان بترتيبهم ترتيبا أبجديا، ويكون ترتيب الأعلام بتقديم اسم الشخص أو ما اشتهر به من كنية أو لقب أو نسبة. وأوردنا مكتبة للبحث تمثّلت في المصادر والمراجع العربية والأجنبية والرسائل الجامعية والدوريات. وختمنا بفهرس للموضوعات.

ولا ندّعي الانميّاز بهذا البحث ولا السبق فمعرفة تاريخ الرجال ودراسة آثارهم قديمة، انبرى لها علماء الأمة ولا يزالون، فكثرة كتب التراجم والسير لخير شاهد على ذلك. وقد حملت هذه المؤلفات والمصنّفات عناوين مختلفة سلك أصحابها مختلف المناهج في ترتيب الأعلام وضبط أسمائهم وتحقيق أنسابهم وذكر أخبارهم وكلّ ما يتعلّق بهم إمّا على سبيل الإيجاز أو الإطناب. ومن هؤلاء من اتخذ من عاملي الزمان والمكان منهجا لترجمة الأعلام المنتسبين إلى مختلف بلدان المغرب الإسلامي، فعلى سبيل التمثيل لا الحصر (دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر) لابن عسكر الحسني الشفشاوني، و (البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان) لابن مريم التلمساني، و (جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس) لابن القاضي المكناسي. وحديثا (معجم أعلام الجزائر) لعادل نويهض. وقد استعنا في بحثنا بهذه المؤلفات وبعده من المصادر والمراجع الأخرى القديمة والحديثة التي

توزّعت ما بين المؤلّفات التاريخية والأدبية والنقدية والتّراجم. نذكر منها تلك المصادر والمراجع التاريخية التي عيّنت بالتّاريخ لكلّ دولة من دول المغرب الإسلامي، ككتاب (الأدلة البيّنة النّورانية في مفاخر الدّولة الحفصية) لابن الشّماع، و(الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) لأحمد النّاصري السّلاوي، و(تاريخ الجزائر الثّقافي) لأبي القاسم سعد الله، و(المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب) لأحمد بك النّائب الأنصاري. ومن المؤلّفات الموسوعيّة التي استفدنا منها كتابا المقرّي التّلمساني (أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض)، و(نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، وذكر وزيرها لسان الدّين ابن الخطيب). ومن كتب التّراجم التي اعتمدنا عليها كتاب (الضّوء اللّامع لأهل القرن التاسع) للسّخاوي، و(نيل الابتهاج بتطريز الدّياج) لأحمد بابا التّنبكتي، ومن المؤلّفات النّقدية كتاب (العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده) لابن رشيق القيرواني، وغيرها من المصادر والمراجع التي أثبتناها في مكتبة البحث.

أمّا عن الدّراسات السّابقة في هذا الباب فهي كثيرة ومتنوّعة، منها ما هو مختصّ بأعلام بلد معيّن أو تخصّص معيّن، ككتّابي عبد الله كنون (موسوعة مشاهير رجال المغرب) و(ذكريات مشاهير المغرب في العلم والأدب والسّياسة)، وكتاب (أعلام ليبيا) للطّاهر أحمد الرّاوي. ومن الدّراسات المعاصرة التي استفدنا منها وكانت عمدتنا في هذه الرّسالة كتاب أستاذنا محمّد مرتاض (من أعلام تلمسان - دراسة تاريخيّة فنيّة) وأحسب موضوع رسالتي امتدادا لموضوع الكتاب.

هذا وقد أثرنا الاستعانة بعدد من المناهج التي تُعيننا على موضوع هذه الرّسالة، منها المنهج التّاريخي وذلك لأنّ طبيعة البحث تقتضي ذلك، فهو يعالج جملة من القضايا التاريخية كدراسة الواقع السّياسي والثّقافي، وتتبع حياة الأعلام إضافة إلى أنّ الرّسالة محدّدة بفترة زمنيّة. واستفدنا من المنهج الفنّي في تحليل النّصوص الأدبية والشّعريّة، والذي يقوم على عدد من الإجراءات المتمثّلة في التّحليل اللّغوي، التّناس، التّكرار، الانزياح، والصّور الشّعريّة والصّور الفنيّة والجوانب الإيقاعيّة. ولرصد بعض الظّواهر الأدبية والنّقدية في النّصوص الثّورية والشّعريّة وبعض القيم الحضاريّة في سير بعض الشّخصيّات العلميّة والأدبيّة ومنجزاتهم الماديّة والمعنويّة استعنا بالمنهج الوصفي والتحليلي.

ومن نافلة القول التأكيد بأن أي عمل أو جهد لا يخلو من صعوبات، وإن أهم ما وقف عقبة أمامنا في موضوعنا؛ عملية تصنيف الشخصيات وفق مجالات التخصص، لأن ذلك يعدّ ضرباً من المجازفة فكثير من الأعلام مشهود لهم بالموسوعية، فقد ضربوا بسهم في مختلف الحقول العلمية ولهم مشاركات في الأدب وفنونه. وما شغلنا أيضاً هو صعوبة تحديد بعض مواليد الأعلام أو وفياتهم فأشكل علينا كيفية ترتيبهم ضمن قائمة المترجم لهم، ولذا أدرجناهم قبل معاصريهم أو بعدهم وفق الترتيب الأبجدي. ومن العقبات التي واجهتنا أيضاً عدم تمكّنا من الوصول إلى عدد من المصادر خصوصاً بعض المخطوطات التي تحوي تراجم عدد من الأعلام ونصوصاً أدبية (نثرية وشعرية)، وهذا كلّه عائد لأسباب اجتماعية ومالية، ولذا اضطررنا إلى التخلّي عن ترجمة بعض الأعلام.

هذا وإنّي لأجد نفسي ممتناً لأستاذي المشرف الأستاذ الفاضل الأستاذ الدكتور (محمد مرتاض) على كلّ ما قدّمه لي ولزملائي من توجيهات ونصائح، وأشكره على صبره الجميل رغم كثرة انشغالاته وارتباطاته، وأسأل الله له دوام الصّحة والعافية. كما لا أنسى أن أشكر كلّ من أعانني في هذه الرسالة من إخواني وزملائي، وأخصّ بالشكر أخي (قدور حمو الثاني) الذي أهدى إليّ عدداً من المصادر والمراجع جلبها لي من المغرب الأقصى.

الطّرواق في: 10 شعبان 1440هـ الموافق لـ 16 أبريل 2019م

عبد القادر

مدخل



لمحة عن الحياة السياسيّة والحياة الثقافيّة
في المغرب الإسلاميّ في القرنين التاسع
والعاشر الهجريّين

1 - الحياة السياسية:

شهد المغرب الإسلامي⁽¹⁾ كثيراً من الأحداث المتسارعة على الصعيد السياسي والعسكري في مختلف أقطاره خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين. وبعد انهيار الدولة الموحدية ظهرت دول مستقلة عن بعضها؛ الحفصيون بالمغرب الأدنى (625-981هـ/1228-1573م)، والزيريون بالمغرب الأوسط (633-962هـ/1236-1555م)، والمرينيون (592-869هـ/1195-1470م) ومن بعدهم الوطاسيون (876-961هـ/1471-1553م) ثم ورثهم السعديون بالمغرب الأقصى (956-1022هـ/1549-1613م)، وبعدهم الأندلس هناك النصريون بغرناطة (629-897هـ/1238-1492م)⁽²⁾. ضربت هذه الدول بسهم في بناء حضارة البحر الأبيض المتوسط أيام عزها وقوتها، ويظهر ذلك جلياً في الآثار المادية والثقافية التي خلفها أولئك الفاعلون في مختلف حقول الحضارة من عمارة دينية ومدنية وعسكرية وعلوم وآداب وفنون، غدت آثارهم خالدة في الوجدان الإنساني. انصبّ اهتمام كثير من حكام دول المغرب الإسلامي بتشييد المنشآت العمرانية المدنية من إنشاء للمستشفيات⁽³⁾ وتفنن في بناء

1- المغرب الإسلامي: هو المنطقة الممتدة من غربي مصر إلى المحيط الأطلسي غرباً مع بلاد الأندلس شمال البحر الأبيض المتوسط، على رأي جمهور الجغرافيين والمؤرخين، وهناك طائفة قد قصرت المغرب الإسلامي على المغرب العربي الكبير حالياً. ونميل إلى الخيار الأول في هذه الرسالة. ثم إن مدلول هذه الكلمة قد تعرض للتوسع والتقلص عبر الفترات التاريخية. وبعد سقوط غرناطة سنة (897هـ/1492م) تقلصت الخريطة السياسية فصارت مقصورة على المغرب العربي الكبير، والذي يشمل المغرب الأدنى والأوسط والأقصى. ينظر: في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، د. ط، د. ت، ص 9-11.

2- ينظر: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، المستشرق زامبور، أخرجه: زكي محمد حسن بك، حسن أحمد محمود، سيده إسماعيل كاشف، حافظ أحمد حمدي، أحمد ممدوح حمدي، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، د. ط، 1400هـ/1980م، ص 93-125.

3- أسس أبو فارس عبد العزيز الحفصي المارستان بتونس عام (823هـ/1420م)، والذي لم يسبقه أحد في إفريقية من المتقدمين لمثل ذلك، وخصّصه للضعفاء والغرباء وذوي العاهات من المسلمين، وأوقف عليه أوقافاً كثيرة تقوم به وتفي بمصالحه. ينظر: تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، عبد الله الترجمان الميورقي، تحقيق: عمر رفيق الداعوق، دار البشائر الإسلامية، ط1، 1408هـ/1988م، ص 87.

القصور⁽¹⁾ وتتصيد الحقائق، وبناء القناطر والسدود⁽²⁾... وأخرى عسكرية للدفاع عن بلدانهم من تشييد للحصون، وبناء السفن، وتجهيز الجيوش⁽³⁾، وكذا شغلوا بالعمارة الدينية فابتنوا المساجد⁽⁴⁾ والزوايا والمؤسسات التعليمية⁽⁵⁾، موازاة مع تقريب العلماء والمفكرين والأدباء⁽⁶⁾ تشجيعا للحركة الثقافية وإثراء للجانب الفكري.

هذا وقد سجل التاريخ على هذه الدول في مسيرتها كثيرا من الأخطاء، كان لها تأثير كبير في مصير المغرب الإسلامي. من ذلك أن طبيعة العلاقة بين دول المحور الأفقي - جنوب المتوسط - (بنو حفص، بنو زيان، بنو مرين، بنو وطاس، السعديون) والتي - في غالب الأحيان - كانت قائمة على ثقافة الصراع والنزاع، وحب التوسع، تتخللها مهادنة زمنا وتتخلل عنها أزمننا. فعلى سبيل المثال ما يكشف عنه الحسن الوزان حين حديثه عن تلمسان: «وقد استقر الملك في بني زيان ثلاثمائة سنة، غير أنهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس - أي بني مرين - الذين احتلوا مملكة تلمسان أكثر من عشر مرّات... وتعرضوا أحيانا أخرى إلى الطرد

- 1- من منجزات المنصور السعدي العمرانية القصر البديع بمراكش ابتداء سنة (986هـ / 1578م) واستغرق العمل فيه سنة عشرة عاما. ينظر: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، تحقيق: عبد الكريم كريمة، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، د. ط، د. ت، ص 252- 263.
- 2- ينظر: روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، أحمد بن محمد المقرئ، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1403هـ / 1983م، ص 20- 22.
- 3- شيد والي الجزائر العثماني حسان باشا بن خير الدين حصن الإمبراطور بكدية الصابون بالجزائر العاصمة، ومستشفى للجنود الأتراك والعجزة والمعطوبين، وبنى الحمامات الفخمة للعمامة وبالمجان. ينظر: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مبارك ابن محمد الهلالي الميلي، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، د. ط، 1964م، ج 3 ص 76.
- 4- مسجد الحسن بن مخلوف الراشدي، ومسجد الشيخ السنوسي، ومدرسة أبركان بتلمسان أيام السلطان أحمد العاقل (ت866هـ / 1462م). ينظر: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، عاصمة دولة بني زيان، الحاج محمد بن رمضان شاوش، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2011م، ج 1، ص 93.
- 5- أمر السلطان الحفصي محمد المنتصر بن المنصور بن أبي فارس (839هـ / 1435م) ببناء المدرسة المنتصرية، وأمر السلطان أبو عمرو عثمان الحفصي (821- 893هـ / 1418- 1488م) ببناء زاوية الشيخ أحمد بن عروس (ت868هـ / 1464م). ينظر: الأدلة البيئية التورانية في مفاخر الدولة الحفصية، أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن الشماخ، تحقيق: الطاهر ابن محمد المعموري، دار العربية للكتاب، د. ط، 1984م، ص 120- 129.
- 6- وصف المقرئ إكرام المنصور السعدي للعلماء ولا سيما الوافدين مما جعله مقصد كثير من العلماء والأدباء. ينظر: روضة الآس، المقرئ، ص 14- 20.

من قبل ملوك تونس...»⁽¹⁾، إضافة إلى الصراع بين الحفصيين والمرينيين، وبين الوطاسيين والسعديين في كثير من الوقائع⁽²⁾.

أما مملكة بني نصر بالأندلس هي الأخرى لم تكن بمنأى عن الصراعات الداخلية والخارجية، فهي تكابد من أجل البقاء، ضد حركة الاسترداد المسيحية التي تهدد وجودها، وتقوّض نفوذها، وتستنفد أرضها، وتستنزف مقدراتها، انتهت بسقوط الأندلس سنة (897هـ / 1492م). إلى ما هنالك من صراعات محلية بين أبناء الأسرة الحاكمة في كل قطر من أقطار المغرب الإسلامي، وانقسامات داخلية لا مبرر لها، وليتخيل القارئ حال البلاد وقتئذ. فمثلا حكم الأندلس ما بين (797 - 897هـ / 1394 - 1492م) اثنا عشر أميراً⁽³⁾، وفي تلمسان تولى الحكم تسعة أمراء في فترة مابين (923 - 957هـ / 1517 - 1550م)⁽⁴⁾، منهم من خلع أكثر من مرة بسبب النزاع من أجل الحكم والثورات المتكررة، والاستتجاد بالنصاري، وطلب مساندتهم في تثبيت حكمهم أو استرجاعه⁽⁵⁾.

كلها أسباب عجلت بحتمية ضعف هذه الدول أو انقسامها أو زوالها وأقولها وقيام دول أخرى. حتى صارت أرض المغرب الإسلامي عرضة لغارات الأعداء وهجماتهم، بدأت بسقوط المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى، وانتهت بتسليم غرناطة آخر معقل للحكم الإسلامي بالأندلس،

1- وصف إفريقيا، الحسن بن محمد الوزان الفاسي، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1983م، ج2، ص8.

2- ينظر: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري السلاوي، تحقيق: جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط1، 1418هـ / 1997م، ج4، ص110.

3- ينظر: دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1418هـ / 1997م، ج4، ص564 - 568.

4- ينظر: تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1384هـ / 1965م، ج2، ص270.

5- من ذلك: الاتفاقية التي جرت بين أبي عبد الله محمد السابع الزياني وملكة إسبانيا دينا إيزابيل سنة (939هـ / 1532م) ضد الأتراك مقابل النزول لها عن مدينة الجزائر بعد تحريرها من أيدي الأتراك. وقد حوّل للإسبان هذا الحلف تمكين وجودهم فشيّدوا ثكنة عسكرية في مدينة أرشقول على الساحل التلمساني. ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص224 - 227.

وما انجر عنه من تبعات اصطلى بناؤها أهل الأندلس⁽¹⁾. ولم تسلم المدن الساحلية للمغرب الإسلامي جنوب البحر المتوسط من الاعتداءات النصرانية الإسبانية والبرتغالية، بما في ذلك المدن الداخلية. فقد تواترت الحملات العسكرية الاستباقية قصد القضاء على أي محاولة لاسترداد المدن الأندلسية، وقطع خطوط الإمداد عنها. فاستولى الإسبان والبرتغال - بعد ضعف الحفصيين وتضعع الرّيانيين وتنازع المرينيين - على مدن إستراتيجية ذات أهمية اقتصادية وتجارية وعسكرية وثقافية أدت إلى نكبات عظيمة. احتلّ البرتغاليون بالمغرب الأقصى مدنا كثيرة منها: مدينة سبتة، طنجة، أصيلا، البريجة، أكادير، المهدية... ما بين (818- 920هـ/ 1415- 1515م)⁽²⁾، وبالمغرب الأوسط والأدنى استولى الإسبان على كلّ من: عنابة، وهران، المرسى الكبير، تنس، بجاية، الجزائر ما بين (867- 917هـ/ 1463- 1511م)⁽³⁾.

واحتلّت تونس أكثر من مرة آخرها سنة (980هـ/ 1572م)، وطرابلس سنة (916هـ/ 1510م)⁽⁴⁾، وأخرى فرضت عليها الحماية العسكرية العثمانية، نتيجة ضعف السلطة المركزية في كلّ من تلمسان وتونس، عجّلت بحماية الأتراك منتصف القرن العاشر الهجري فبسطوا نفوذهم، وألحقوا المغريين الأوسط والأدنى بالخلافة العثمانية من طرابلس شرقا إلى تلمسان غربا، وأنهبوا بذلك حكم آل زيان (962هـ/ 1555م)⁽⁵⁾ وآل حفص (981هـ/ 1574م)⁽⁶⁾.

1- وضع محمد بن محمد بن داوود أحد الثّوار المورسكيين قصيدة يصف حال مسلمي الأندلس ومعاناتهم الشديدة تحت حكم النّصارى بعد سقوط غرناطة، مستجدا بالسلطان العثماني. ينظر: دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ج4، ص362، 363.

2- ينظر: الاستقصا، السّلاوي، ج4، ص89، 92.

3- ينظر: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492- 1792م)، أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ط، د. ت، ص110- 128.

4- ينظر: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، أحمد بك النّائب الأنصاري، مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب، ليبيا، د. ط، د. ت، ج1، ص184، 185.

5- ينظر: تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجبالي، ج2، ص270.

6- ينظر: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ابن أبي دينار، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ط1، 1286هـ، ص182.

2 - الحياة الثقافية:

للقوف على واقع المشهد الثقافي نستقرئ بعض النصوص التي تصف الحياة الثقافية في هذه الفترة، والتي من خلالها يكاد يجمع الباحثون في التاريخ الثقافي لمختلف أقطار المغرب الإسلامي على تراجع الحركة الثقافية - مقارنة بما سبق من القرون - في كثير من المدن التي كانت مراكز إشعاع فكري، ومواطن استقطاب للفاعلين في مختلف ميادين الحضارية، وقبلة للرحالة والقاصدين، وهذا ابتداءً من النصف الأخير من القرن التاسع الهجري. فقد كان المغرب الإسلامي على العموم يعيش حالة من الضعف السياسي والفكري، إذ: «بلغ الغرب الإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع وأوائل القرن العاشر حدًا من التدهور والانحلال لم يصل إليه قط»⁽¹⁾، ويتفق معه أبو القاسم سعد الله (1349 - 1435هـ / 1930 - 2013م) في توصيفه للواقع الثقافي بالجزائر حيث يرى أن: «إنتاج القرن التاسع... من أوفر إنتاج الجزائر الثقافي ومن أخصب عهودها بأسماء المثقفين (أو العلماء) والمؤلفات... يفوق أعدادهم في القرون الباقية متفرقة ولاسيما القرن العاشر الذي عرف نقصا كبيرا في عدد العلماء وفي المؤلفات»⁽²⁾. ويميل محمد الطمار إلى الحكم بالتعثر الثقافي والجفاف الفكري أواخر الدولة الزيانية، وأيام الحكم التركي في النصف الأخير من القرن العاشر الهجري⁽³⁾. وأمّا إبراهيم حركات (ولد 1348هـ / 1929م) فيرى أن العصر الوطاسي شهد تراجعا في الحركة العلمية والأدبية والفكرية من عدة أوجه: «... فلم ينبج المغرب في هذا العهد عددا كبيرا من العلماء الفطاحل»⁽⁴⁾. ويرى عبد الله كنون (1326 - 1409هـ / 1908 - 1989م) أن الحركة الثقافية توقفت في عهدهم، وأمّا الحياة الأدبية قد وقفت وقفا كليًا⁽⁵⁾. وهذا حال الواقع الثقافي في الأندلس أيضا في عصرها الأخير، فقد شهد فراغا ملحوظا في ميادين الفكر والأدب، وعدد قليل

1- الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، محمد حجي، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، د. ط، د. ت، ج1، ص37.

2- تاريخ الجزائر الثقافي (1500 - 1830)، أبو القاسم سعد الله، دار البصائر، الجزائر، ط6، 2009م، ج1، ص39.

3- ينظر: تاريخ الأدب الجزائري، محمد الطمار، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د. ط، 2006م، ص317.

4- المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، دار الرّشاد الحديثة، الدّار البيضاء، ط1، 1398هـ / 1978م، ج2، ص223.

5- ينظر: النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، ط2، د. ت، ج1، ص239، 260.

من المفكرين والأدباء⁽¹⁾. بيد أن الحياة الثقافية انتعشت في عهد الدولة السعدية منتصف القرن العاشر الهجري بإجماع الباحثين وبخاصة زمن المنصور السعدي (956 - 1012هـ / 1549 - 1603م)، تجلت في تزايد المؤسسات التعليمية، كثرة العلماء والأدباء والطلبة، وكثرة المؤلفات في مختلف العلوم والفنون مع ازدهار الآداب⁽²⁾.

إن القارئ لهذه النصوص يرى أن الدارسين للتاريخ الفكري والثقافي لمختلف أقطار المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين يبنون أحكامهم حول الحركة الثقافية على عدد العلماء والأدباء والمتقنين، وعلى المردود الفكري، وعلى دور المؤسسات الثقافية والتربوية، وهذا مقارنة بما سبق من القرون السالفة، فمعيار النهضة يقوم على مدى الاهتمام بالحركة الثقافية.

وهذا النكوص الثقافي والضّمور الفكري الموصوف لدى الدارسين في هذه الفترة راجع لمؤثرات كثيرة؛ خارجية وداخلية، أهمها: الحالة السياسية المتقلبة التي ألمت ببلدان المغرب الإسلامي، منها الخطر الخارجي المتمثل في المدّ المسيحي الذي أتى على كثير من المدن الزّاخرة بالمراكز الثقافية، فطمس معالمها الحضارية وقضى على الحياة العلمية بها. وأخرى تدهور حالها نتيجة الحروب الداخلية، مما أثر سلبا على الحياة الثقافية والعلمية. وهذا حال مدينة سبتة - على سبيل المثال - التي وقعت تحت غزو البرتغاليين سنة (818هـ / 1415م) فباتت شبه مهجورة بعد أن كان بها ألف مسجد، وسبع وأربعون (47) مابين زاوية ورابطة واثنتان وستون (62) خزانة علمية⁽³⁾.

وهناك أسباب أخرى اجتماعية واقتصادية منها: كثرة المجاعات، وانتشار الأوبئة والأمراض الفتّاكة، كوباء تونس سنة (872هـ / 1467م) والذي دام قرابة سنة حتى بلغ عدد الضحايا ألفاً

1- ينظر: دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ج4، ص488.

2- ينظر: الثقافة المغربية في عصر السعديين، الحسن السائح، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، العدد: 3، السنة: 7 (ديسمبر 1965م / رجب 1383هـ)، ص20 - 28.

3- ينظر: اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار، محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ط2، الرباط، 1403هـ / 1983، ص27 - 32.

يوميًا⁽¹⁾. والأوبئة التي حلت بتلمسان سنوات (845-871هـ / 1414 - 1466م) قضى بسببها عدد من العلماء منهم: ابن زاغو التلمساني (782 - 845هـ / 1380-1441م)⁽²⁾، وابن العباس العبادي (ت 871هـ / 1466م)⁽³⁾. ومن الأسباب الاقتصادية قلة المداخل المخصصة للمؤسسات التعليمية خصوصا الأوقاف التي تضررت بفعل الحروب، وهو عامل من العوامل المؤثرة سلبا على سير الحياة الثقافية بالمغرب الإسلامي⁽⁴⁾.

ومن الأسباب كذلك هجرة العلماء والمتقنين داخل المغرب الإسلامي وخارجه طلباً وهرباً، اختياراً واضطراً. فتمت النخبة منهم الحواضر الإسلامية العلمية الداخلية والخارجية من خلال تلك الرحلات البرية والبحرية، لأسباب عدة ودوافع مختلفة منها؛ الدافع المعرفي، إذ نلني الصفوة من العلماء والنخبة من طلبة العلم يرتحلون إلى المشرق توسيعاً لمعارفهم وإثراء لها بلقاءهم العلماء المشهورين بهذه الحواضر. ومنها الدافع الديني وهو المحرك الأساس لعمليات الانتقال، وفي طليعته الحج إلى مكة المكرمة وزيارة المدينة المنورة، والقدس الشريف طلباً للثواب والبركة والمجاورة⁽⁵⁾. وممن قصد المشرق الإسلامي أو به استقر إلى أن توفي؛ أبو الفضل المشدالي (821 - 865هـ / 1416-1461م)⁽⁶⁾، وابن الأزرق الأندلسي (831-896هـ / 1428 - 1491م)⁽⁷⁾ وابن سعد التلمساني (ت 901هـ / 1496م)⁽⁸⁾ وغيرهم.

- 1- ينظر: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، د. ط، 1966، ص 156.
- 2- ينظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط 1، 1389هـ / 1989م، ص 120.
- 3- ينظر: المصدر نفسه، ص 547.
- 4- ينظر: وصف إفريقيا، الوزان، ج 2، ص 227.
- 5- ينظر: تلمسان في العهد الزياني، عبد العزيز فيلاي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د. ط، 2002م، ج 2، ص 329.
- 6- ينظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن محمد السخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ط، د. ت، ج 9، ص 180 - 188.
- 7- ينظر: الأئمة الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين الحنبلي، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان، د. ط، د. ت، ج 2، ص 255، 256.
- 8- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص 575.

وأحيانا أخرى يكون التحول عن الأوطان قسرا واضطرارا، إثر تدهور الأوضاع السياسية، وبعد الإحساس بالخوف على النفس والأهل ببلدانهم، فيتوجهون خارج بلدانهم طلبا للأمن والاستقرار. وممن مسّه ذلك أبو العباس الونشريسي (840 - 914هـ / 1430 - 1509م) إذ خرج من تلمسان إلى فاس⁽¹⁾. كما هاجرت أسرة أحمد بن داود البلوي (ت 938هـ / 1531م) من غرناطة إلى تلمسان بعد سنة (890هـ / 1485م)⁽²⁾. وفي الواقع إنّ هجرة الكفاءات العلمية والأدبية من جهة خسارة لبلدانهم، ومن ناحية أخرى تعدّ مكسبا للبلدان التي استوطنوها، إذ ساهموا في مختلف الميادين والمجالات منها الحياة الثقافية والعلمية والفكرية⁽³⁾.

ومن العلماء من وقع ضحية التقلّبات السياسية والمواقف الدينية، كحادثة قتل عبد الواحد بن أحمد الونشريسي (880 - 955هـ / 1475 - 1548م) لرفضه مبايعة أبي عبد الله محمد الشيخ السعدي (896 - 964هـ / 1491 - 1575م)⁽⁴⁾، واغتيال القاضي عبد الحق السكوني بسبب فتيا شرعية ضدّ من قتله⁽⁵⁾، وذبح أبي يحيى محمد بن محمد ابن عاصم الغرناطي (ت 857هـ / 1453م)⁽⁶⁾. ومنهم من وقع أسيرا بأيدي القراصنة الأوروبيين كحال الحسن بن محمد الوزان (888 - 957هـ / 1483 - 1550م)⁽⁷⁾.

إنّ هذا الحكم العام حول الحياة الثقافية لا يعني بالضرورة غيابا كليّا لأيّ نشاط ثقافي وفكري، وأنّ جذوته قد انطفأت، بل نلمس حركة علمية وفكرية تظهر من خلال انتشار معاهد التعليم والتدريس من مساجد ومدارس وزوايا ورياطات، ولاسيما في المراكز الحضرية الكبرى كتلمسان، بجاية، تونس، فاس، مراكش، غرناطة... ومن الرّحالة الذين عنوا برصد الحياة

1- ينظر: نيل الابتهاج، التّنبكتي، ص 135.

2- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

3- ينظر: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين (16 - 17)، محمد رزّوق، أفريقيا الشرق، الدّار البيضاء، ط3، 1989م، ص 274.

4- الاستقصا، النّاصري، ج 5، ص 22، 23.

5- ينظر: حياة الرّحالين إبراهيم بن عبد الجبار وابن أخيه، محمد بن عبد الحقّ الودغيري، مجلة دعوة الحق، العدد: 2، السّنة: 11 (رمضان 1387هـ / دجنبر 1967م)، ص 114، 115.

6- ينظر: نيل الابتهاج، التّنبكتي، ص 537.

7 - ينظر: تاريخ تطوان، محمد داود، معهد مولاي الحسن، د. ط، 1339هـ / 1959م، تطوان، ج 1، ص 87.

العلمية والفكرية ببعض بلدان المغرب الإسلامي الحسن الوزان. فهو يقدم وصفا للمراكز التعليمية بمدينة فاس، وطرق التعليم بها ومناهجه، والمواد المدرسة، والكراسي العلمية، وهيئة التدريس، وطلبة العلم، في قوله: «وفي فاس حوالي سبعمائة جامع ومسجد... وفي المدينة جامع عظيم يدعى جامع القرويين... يشاهد المرء كراسي مختلفة الأشكال يدرس عليها العديد من العلماء الأساتذة... في كل مدرسة أساتذة لمختلف العلوم، فهذا يلقي درسه في الصباح، وذلك في المساء، ويتقاضون جميعا مرتبات حسنة أوصى بها مؤسس المدرسة، وكان كل طالب من طلبة الزمن الماضي معفى من مصاريفه ولباسه مدة سبع سنوات. أما الآن فلم يبق له غير السكن»⁽¹⁾. ويتلمسان: «مساجد عديدة جميلة، صيئة، لها أئمة خطباء، وخمس مدارس حسنة جيدة البناء، مزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية»⁽²⁾.

إلى جانب ذلك انتشار المكتبات والخزائن، وما لها من دور في تنشيط الحركة الثقافية بما توفره من مؤلفات في مختلف ميادين المعرفة لمرتاديها، قد يعسر عليهم تحصيلها، حرص أصحابها على تزويدها بالكتب المغربية والمشرقية، حتى غدت مقصدا للرحالة لزيارتها والانتفاع بها. وتجد هذه المكتبات بالمساجد والزوايا والمدارس وقصور الحكام. منها مكتبة جامع الزيتونة التي أوقفها على طلبة العلم أبو فارس عبد العزيز الحفصي، نقلها من قصره إلى الجامع عام (822هـ / 1419م)، وجعل لها نظاما خاصا، وهي تحوي أمهات الكتب والدواوين في مختلف العلوم والآداب⁽³⁾. ويفجيج خزانة علمية ضخمة أسسها عبد الجبار الفجيجي⁽⁴⁾، وبفاس مكتبة القاضي محمد بن الغرديس التغلبي استفاد منها الونشريسي صاحب المعيار⁽⁵⁾. وحرص كثير من الآباء على اقتناء الكتب لأبنائهم ولو من خارج بلدانهم، كحرص والد أبي عبد الله الرصاص (866هـ / 1489م) على شراء كتاب (شرح ابن يونس على المدونة) من بلاد

1 - وصف إفريقيا، الوزان، ج1، ص223، 224، 227.

2 - المصدر نفسه، ج2، ص19.

3 - ينظر: الأدلة البينة النورانية، ابن الشماخ، ص114.

4 - ينظر: الحركة الفكرية بالمغرب، محمد حجي، ج2، ص520، 542، 543.

5 - ينظر: روضة الآس، المقرئ، ص187.

الأندلس، فجاء له بخزانة فيها كتاب ابن يونس، وذلك لأنّ ولده كان في أمّس الحاجة لذلك المصدر⁽¹⁾.

ومما ساعد على هذا النشاط الثقافي عناية الحكّام والسلاطين الذين شجّعوا المجهود الفكري والأدبي، وساهموا في تطعيم الحياة الثقافية، فبنوا المدارس والزوايا والرباطات وأجروا عليها الجرايات، وقربوا العلماء والأدباء وبالغوا في إكرامهم وتقريبهم وتشجيعهم. وممن اشتهر عنه ذلك السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان (821 - 893 هـ / 1418 - 1488 م)⁽²⁾، والسلطان الزياني أبو مالك عبد الواحد (833 هـ / 1430 م)⁽³⁾، والسلطان المنصور السعدي الذي انتعشت الحياة الأدبية أيامه، وتزاحم الشعراء والأدباء بمحلّته من مختلف بلدان العالم الإسلامي⁽⁴⁾.

كان من ثمار النشاط العلمي بالمغرب الإسلامي خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين ظهور نخبة من العلماء والأدباء، أنثروا الحياة العلمية والفكرية والأدبية من خلال ما قدّموه من جهود مشهودة، وآثار محمودة. يصف القلصادي (815 - 891 هـ / 1412 - 1386 م) في رحلته ازدهار الحياة العلمية بتلمسان سنة (840 هـ / 1436 م)، وكثرة العلماء بها بقوله: «... وأدركت فيها كثيرا من العلماء... وسوق العلم حينئذ نافقة، وتجارة المعلمين والمتعلمين رابحة، والهمم إلى تحصيله مشرفة، وإلى الجد والاجتهاد مرتقية»⁽⁵⁾. وسئل أحمد بن داود البلوي الأندلسي عن علماء تلمسان وقد لاحظ كثرتهم فقال: «العلم مع التنسي والصّلاح مع السنوسي والرياسة مع ابن زكري»⁽⁶⁾.

1- ينظر: فهرست الرّصاع أبي عبد الله محمد الأنصاري، تحقيق: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، د. ط، د. ت، ص148.

2- ينظر: الأدلة البيّنة النّورانية، ابن الشّماع، ص122 - 128.

3- ينظر: تاريخ بني زيّان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدّرّ والعقيان في بيان شرف بني زيّان)، محمد بن عبد الله التنسي، تحقيق: محمود آغا بوعيايد، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرّعاية، الجزائر، د. ط، 2011م، ص236.

4- ينظر: روضة الآس، المقرّي، ص14.

5- رحلة القلصادي، أبو الحسن عليّ القلصاديّ الأندلسي، تحقيق: محمد أبو الأجنان، الشركة التّونسيّة للتّوزيع، تونس، د. ط، 1978م، ص95.

6- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، عبد الحيّ بن عبد الكبير الكتاني، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1402 هـ / 1982 م، ج1، ص267.

وترجم المقرئ في روضة الآس لأربع وثلاثين شخصية في مختلف التخصصات
والمجالات (علوم نقلية وعقلية، آداب، فنون...)، كانت تعجّ بهم فاس ومراكش أيام الدولة
السعدية⁽¹⁾.

1- ينظر: روضة الآس، المقرئ، ص 71 - 345.

3 - الحياة الفكرية:

من مظاهر الحركة الفكرية التنوع الفكري والعقدي، فقد اشترك في تغذيته مختلف المكونات الفكرية والعقدية والمذهبية في مجتمعات المغرب الإسلامي. ومن ذلك أثر الحركة الصوفية في تفعيل النشاط الثقافي خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين. فالتصوف كان من ملامح شخصية المغرب الإسلامي وقتئذ، وفي الواقع هو امتداد لحركة التصوف في القرون الماضية، والذي غذى هذا الانتشار الحالة السياسية التي آلت إليها بلدانهم من تفكك سياسي داخلي وخطر الاستعمار الخارجي⁽¹⁾.

ونلفي التصوف ذا اتجاهات مختلفة، منها التصوف السني الذي مثله ثلة من العلماء. والواقف على سيرهم وتراجهم يلحظ جهوداً لهم كبيرة في المجالات الدينية والاجتماعية والسياسية. فاشتغلوا بالعملية التعليمية والإصلاحية، فأخذت جهودهم أشكالاً متعددة، كنشر العلوم بين الناس، وتوعيتهم وإرشادهم، وتأليف الكتب، وإصلاح ما فسد من أمور الدين والدنيا، وما اندرس من السنن، ومحاربة البدع. كما أخذ الاتجاه الصوفي صبغة عسكرية، فحملوا راية الجهاد، وخرجوا إلى الثغور لقتال الإسبان والبرتغال، واتخذوا الرباطات قواعد لصد الهجمات، على نحو صنيع الفقيه عبد الله الورياغلي (ت910هـ / 1504م) الذي جمع بين تلقين العلوم شتاءً والرباط بالثغور الهبطية صيفاً⁽²⁾. فكان لكل منهم مشروعه الإصلاحية (الاجتماعية، العلمية، الفكرية، السياسية...).

ومن المتصوفة الذين أثروا في الحياة العامة بالمغرب الإسلامي في هذه الفترة؛ عبد الرحمن النعالي (786 - 875هـ / 1385 - 1471م)⁽³⁾ وأحمد زروق (846 - 899هـ / 1442 -

1- ينظر: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، روبر بارنشفيك، ترجمة: حمادي السّاحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ج2، ص357.

2- ينظر: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، تحقيق: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ط2، 1397هـ / 1977م، ص31.

3- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص257 - 261.

1493م⁽¹⁾ وعبد الوارث اليلصوتي (888 - 971هـ / 1483 - 1563م)⁽²⁾ وابن يجّيش التّازي (ت 920هـ / 1514م)⁽³⁾ ومحمد بن يحيى البهلوي⁽⁴⁾ وعليّ بن ميمون الغماري (854 - 917هـ / 1450 - 1511م)⁽⁵⁾ وغيرهم.

ولم تكن العملية الدعوية قاصرة على بلدانهم فحسب، بل شهدت صحراء إفريقيا جهود محمد ابن عبد الكريم المغيلي (790 - 909هـ / 1425 - 1504م) الإصلاحية⁽⁶⁾، وبلدان المشرق شاهدة على العمل الإصلاحيّ لعليّ بن ميمون الغماري. وآثارهم دالة على هذه الأعمال، فقد ألف ابن ميمون النّاقد الدّيني والاجتماعي: «كتبا كثيرة كلّها نافعة، وأنكر على المشاركة جميع ما أحدثوه من البدع، وأماتوه من السنن»⁽⁷⁾، دعا فيها إلى تصحيح كثيرا من المفاهيم الصّوفية، وعمل على توضيح أسس التربية، والتّصوف المعتدل، وما عمي عن كثير من النّاس.

وقد سار على هذا التّهج الإصلاحيّ عدد من المتصوّفة في مختلف بلدان المغرب الإسلاميّ منهم عبد الوارث اليلصوتي كتب رسالة سمّاها (المسلك القريب الموصلة إلى حضرة الحبيب) أنهاها سنة (942هـ / 1535م) للردّ على الطّائفة اليوسفيّة⁽⁸⁾ والشيخ أحمد زروق⁽⁹⁾

1- ينظر: نيل الابتهاج، التّنبكتي، ص 130 - 133.

2- ينظر: دوحة النّاشر، ابن عسكر، ص 5، 6.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص 71.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص 59 - 60.

5- ينظر: من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني، محمد بن عبد العزيز الدّباغ، مكتبة الأمانة، الدّار البيضاء، ط 1، 1413هـ / 1992م، ص 291.

6- ينظر: التّلمسانيّ محمد بن عبد الكريم المغيلي - بعض آثاره وأعماله في الجنوب الجزائريّ وبلاد السّودان، عبد القادر زبّاد، مجلة الأصالة، وزارة التّعليم الأصليّ والشّؤون الدّينية، الجزائر، العدد: 26، السّنة: 4 (رجب، شعبان 1395هـ / جويلية، أوت 1975م)، ص 209 - 215.

7 - دوحة النّاشر، ابن عسكر، ص 29.

8- ينظر: التّصوف والبدعة بالمغرب طائفة العكاكزة ق 16 - 17م، عبد الله نجمي، مطبعة النّجاح الجديدة، الزّباط، ط 1، 1422هـ / 2000م، ص 226 - 232.

9- ألف أحمد زروق في هذا الباب كتبا منها: (قواعد التّصوف)، و(عدّة المرید الصّادق) ينظر: أحمد زروق والزّروقيّة، عليّ فهمي خشيم، دار المدار الإسلاميّ، ط 3، 2000م، ص 82.

وعبد الرحمن الأخضر⁽¹⁾ وغيرهم في كتاباتهم التّظهيرية للفكر الصّوفي السّنيّ، وتخليصه ممّا شابه من البدع والخرافات والانحرافات التي بدت في سلوك بعض المتصوّفة⁽²⁾. وهذا في سبيل تحقيق الأمن العقديّ والفكريّ، وبخاصّة من تلك الأفكار والتّصورات التي انبنت عليها بعض الطّرق الصّوفيّة المنحرفة ودعت إليها، كالطّائفة اليوسفيّة (وتعرف أيضا بالعكاكزة)⁽³⁾، وبعض التّصرفات الصّادرة عن بعض المتصوّفة كحال عمرو بن سليمان الشّيطميّ الثّائر مدعي النّبوة⁽⁴⁾، وما نسب لابن عروس التّونسيّ (ت 868 هـ / 1464 م)⁽⁵⁾.

ومن مظاهر انتعاش الحركة النّقائيّة في هذه الفترة خاصّة بحواضر المغرب الإسلاميّ الكبرى - باعتبارها مراكز إشعاع علميّ ومواطن احتكاك فكريّ - تسجيل كثير من المناقشات العلميّة والمناظرات في مختلف العلوم (فقه، نحو، عقيدة، تصوف...)، دارت بين العلماء الأقران، وبين التّلاميذ والشيوخ على نحو منازعة ابن الشّاط الهنديسيّ شيخه محمّد بن بلقاسم المشداليّ في مسألة ترافعا فيها إلى قاضي تلمسان قاسم العقبانيّ⁽⁶⁾. وأحيانا داخل الأسرة الواحدة كالمناقشة الفقهية العقبانية بين الجدّ أبي الفضل قاسم العقبانيّ (768 - 854 هـ / 1368 - 1450 م) والحفيد محمّد العقبانيّ (ت 871 / 1467 م). ولابن زكريّ التّلمسانيّ (ت 899 هـ / 1493 م) مجادلات ومناظرات مع الشّيخ السنوسيّ (832 - 890 هـ / 1428 - 1490 م) في مسائل عقديّة، ومناقشات حول عدّة قضايا دينيّة واجتماعيّة؛ كقضية يهود توات التي شغلت الفقهاء وكانت آراؤهم متباينة ما بين معارض لرأي المغيليّ وموافق.

1- للأخضر⁽¹⁾ أرجوزة (القدسيّة) في آداب السلوك، بيّن فيها سبل تهذيب النّفس، وطرق التّصوف السّنيّ، وذمّ المبتدعة المتصوّفة. طبعت ضمن مجموعة الرّسائل المنيرية، تحقيق: محمّد منير عبده آغا الدّمشقيّ، المطبعة المنيرية، د. ط، 1343 هـ، ج 4، ص 196.

2- للاطلاع على بعض هذه السلوكات، ينظر: وصف إفريقيا، الرّزان، ج 1، ص 269، 270.

3- دوحة النّاشر، ابن عسكر، ص 125.

4- ينظر: الاستقصا، النّاصريّ، ج 4، ص 122.

5- ينظر: تاريخ إفريقيا في العهد الحفصيّ، روبر بارنشفيلك، ج 2، ص 357 - 362.

6- ينظر: تعريف الخلف برجال السّلف، أبو القاسم محمّد الحفناويّ، مطبعة بيبير فونتانة الشّرقية، الجزائر، د. ط، 1323 هـ / 1906 م، ج 2، ص 301.

ولم تكن المناظرات مقصورة على قطر معين بل بلغ صداها مختلف حواضر المغرب الإسلامي كمناقشات ابن مرزوق الحفيد (766 - 842هـ / 1364 - 1438م) ومناظرته للقاضي أبي القاسم محمد بن سراج الغرناطي (ت 848هـ / 1444م)، ومراجعته للمفتي أبي عبد الله محمد بن عقاب (ت 851هـ / 1447م)⁽¹⁾.

وفي الغالب كانت المناظرات تأخذ طابعاً حضارياً يقوم على الاحترام والتقدير المتبادل، وأحيانا تستحيل إلى خصومات ومؤامرات مبعثها التعصب للرأي، وحب الرئاسة وتقلد المناصب. كالمناظرة التي دارت بين الثالث أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الجزائري (ت 963هـ / 1556م) وأبي محمد عبد الله الهبطي (ت 963هـ / 1556م) والقاضي محمد بن أحمد اليسيتي (ت 959هـ / 1551م) سنة (956هـ / 1557م)، حول الرسالة العقدية (رسالة ذي الإفلاس إلى خواص مدينة أهل فاس) التي بعثها أبو عبد الله الخروبي إلى علماء فاس، والتي أثارت جدلاً كبيراً في الأوساط العلمية، كان من نتائجها السيئة مكيدة اليسيتي لعبد الله الهبطي ومحاولة الإيقاع به أمام السلطان محمد الشيخ السعدي (896 - 964هـ / 1491 - 1575م)⁽²⁾.

والجدير بالذكر هو تبحر كثير من الأعلام في مجالات تخصصهم، وكانت لهم إسهامات في مجال التأليف نظماً ونثراً، شرحاً وتحشية في مختلف العلوم النقلية التي كانت محور الحركة العلمية والفكرية (كالفقه وأصوله، النوازل والفتاوى والقضاء والتوثيق، الحديث، السيرة، الفرائض، العقائد...) والعقلية (المنطق، الطب، الفلك...) (3). فهذا القلصادي قد ضرب في كل

1- ينظر: المناظرات والمناقشات العلمية لعلماء تلمسان في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين - الرابع والخامس الميلاديين، نبيل شريخي، دورية كان التاريخية الإلكترونية، السنة: 4، العدد: 13 (سبتمبر - أيلول - 2011م / شوال 1432هـ)، ص 62 - 65.

2- ينظر: دوحة الناشر، ابن عسكر، ص 10، 11.

3- أورد صاحب النبوغ المغربي كثيراً من المصنفات في مختلف العلوم في هذه الفترة، ينظر: النبوغ المغربي، عبد الله كنون، ج 1، ص 216 - 221، 256 - 260.

علم بسهم، ف خلف كتباً كثيرة لا تحصى على كثرتها⁽¹⁾، وآخر من له مؤلفات كثيرة ومتنوعة من أهل الأندلس⁽²⁾.

ومن جملة ما ألف في العلوم النقلية العناية بالفقه وأصوله، فتجد الشروح والتعليقات والتقييدات والحواشي على أهم كتب المذهب المالكي، والمنظومات لتسهيل الفروع الفقهية وتقريبها. من ذلك الاهتمام بالمدونة إذ تولى شرحها سليمان بن يوسف بن إبراهيم الحسناوي البجائي (ت 877هـ / 1482م)⁽³⁾. كما لقي مختصر خليل بن إسحاق قبولا لدى علماء المغرب الإسلامي، وكان أول من أدخله إلى تلمسان وأشاعه بفاس ابن الفتوح التلمساني (ت 818هـ / 1415م)⁽⁴⁾، وأقدم من شرحه بالمغرب ابن مرزوق الحفيد في كتاب سماه (المنزعة النبيل في شرح مختصر خليل)⁽⁵⁾. وفي أصول الفقه كتاب (الضياء اللامع في شرح جمع الجوامع) لأحمد ابن عبد الرحمن القيرواني المعروف بحلؤل (815 - 898هـ / 1412 - 1493م)⁽⁶⁾. وكتاب (إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام أبي عبد الله مالك) لأبي العباس أحمد الونشريسي (834 - 914هـ / 1430 - 1509م)، يشتمل على مائة وأربعة وعشرون (124) قاعدة فقهية، وأكثر من ألف مسألة فقهية مطبقة على تلك القواعد⁽⁷⁾.

ومما ألف في فقه النوازل والفتاوى والحوادث فتاوى قاضي الجماعة أبي القاسم محمد بن سراج الغرناطي⁽⁸⁾، ولأبي العباس الونشريسي موسوعته الموسومة (المعيار المعرب والجامع

- 1- ينظر: درة الحجال في أسماء الرجال، أبو العباس أحمد بن محمد الكناسي الشهير بابن القاضي، تحقيق: محمد الأحمد أبو النور، مكتبة التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس، د. ط، د. ت، ج 3، ص 251.
- 2- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص 339.
- 3- ينظر: المصدر نفسه، ص 186.
- 4- ينظر: فهرس ابن غازي، ص 76.
- 5- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص 507.
- 6- ينظر: المصدر نفسه، ص 127.
- 7- ينظر: إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام أبي عبد الله مالك، أحمد بن يحيى الونشريسي، تحقيق: الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط 1، 1427هـ / 2006م، ص 39.
- 8- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص 526.

المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب⁽¹⁾. ومما ألف في القضاء من المنظوم) تحفة الحكام بمسائل التداعي والأحكام) لعلي بن قاسم الزقاق (ت912هـ / 1506م) اشتهرت باللامية، وهي مؤلفة من مائتين وستين بيتاً، تولى شرحها نجله أحمد (ت932هـ / 1525م)⁽²⁾، ومن المنثور كتاب (الافتتاح من الملك الوهاب في شرح رسالة سيدنا عمر بن الخطاب) لمحمد ابن محمد بن أبي القاسم القسنطيني (ت846هـ / 1442م)، وهو شرح للرسالة العمريّة لأبي موسى الأشعري (21 ق.هـ - 44هـ / 602 - 665م) في القضاء⁽³⁾. وأمّا التفسير فنجد كتاب (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) لعبد الرحمن الثعالبي، وهو اختصار لتفسير ابن عطية الغرناطي (481 - 542هـ / 1088 - 1148م)، مع إضافة فوائد وزوائد كثيرة⁽⁴⁾، ونلمس اهتماماً بالحديث وعلومه، فصحيح البخاري ومسلم لقيا اهتماماً كبيراً من لدن علماء المغرب الإسلامي، فللسنوسي شرح على صحيح البخاري لم يكمله - وُصف بالعجيب، وله كتاب (مكمل إكمال الإكمال) تلخيصاً لكتاب (إكمال الإكمال) للأبي⁽⁵⁾. وفي مسائل العقيدة وعلم الكلام ألف ابن مرزوق الحفيد (عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد)، وعلى مناه سار السنوسي في عقيدته الصغرى المعروفة بأسماء البراهين وغيرها⁽⁶⁾. ولابن زكريّ منظومة (محصل المقاصد مما به تعتبر العقائد) تربو على ألف وخمسمائة (1500) بيت، شرحها أحمد المنجور (929 - 995هـ / 1523 - 1587م) في كتاب (نظم الفرائد ومبدي الفوائد لمحصل المقاصد)⁽⁷⁾.

حظي التأليف التاريخي وفن السير والتراجم باهتمام من المشتغلين بهذا الجانب المعرفي، مما نتج عنه تدوين للأحداث التاريخية ضمن مؤلفات ومصنّفات حوت نصوصاً في مختلف مظاهر

1- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص135.

2- فتح العليم الخلاق في شرح لامية الزقاق، محمد بن أحمد ميارة الفاسي، تحقيق: رشيد البكاري، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1429هـ / 2008م، ص20، 21.

3- ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، ج1، ص132، 133.

4- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص258.

5- ينظر: المصدر نفسه، ص571.

6- ينظر: المصدر نفسه، ص507، 508.

7- ينظر: فهرس أحمد المنجور، أحمد المنجور، تحقيق: محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1396هـ / 1976م، ص80.

الحضارة، وكشفت عن كثير من الوقائع والأحداث، عمد أصحابها للتأريخ للأسر الحاكمة وللمدن، وتتبع سير الأعلام الذين سجلوا حضوراً فكرياً أو ثقافياً أو روحياً أو أدبياً أو سياسياً أو عسكرياً أو مذهبياً. من ذلك كتاب محمد بن عبد الله التتسي (ت899هـ/1494م) (نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان) أهداه للسلطان محمد المتوكل (ت890هـ/1485م)، ويعدّ الكتاب من أهم المصادر التاريخية العربية للمغرب الأوسط في العصر الوسيط، والتي عنيت بالتأريخ لدولة بني زيان. وهو ذو قيمة أدبية أيضاً بما يحويه من نصوص نثرية وشعرية⁽¹⁾. ومنظومة قاضي تطوان محمد الكراسي الأندلسي (ت964هـ/1575م) (عروسة المسائل فيما لبني وطاس من فضائل) تربو على أربعمئة بيت، يرصد فيها صاحبها الأحداث السياسية أيام بني وطاس، فرغ منها سنة (950هـ/1543م) أهداها للسلطان أحمد الوطاسي⁽²⁾.

وفي تاريخ المدن والحوضر كتاب (اختصار الأخبار عما كان بسبته من سني الآثار) لمحمد ابن القاسم الأنصاري السبتي أنهاه سنة (825هـ/1422م) بعد الاحتلال البرتغالي (818هـ/1415م)، أتى فيه صاحبه على ذكر تاريخ سبته⁽³⁾. ومما صنّف في التراجم والسير والمناقب كتاب (النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب) لابن سعد التلمساني (ت901هـ/1496م)⁽⁴⁾. كما صنّف أبو العباس أحمد بن عثمان الشماخي (ت928هـ/1521م) كتاب (السير) ترجم فيه لأعلام الإباضية وطبقاتهم عبر التاريخ، ورصد فيه حركات العلم والعمران في أماكن وجود الإباضية بالمغرب منذ عرف المذهب حتى أوائل القرن العاشر الهجري⁽⁵⁾.

وكتب محمد بن عبد الكريم المغيلي في السياسة الشرعية عددا من الرسائل منها: (تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين)⁽⁶⁾، وفي علم الاجتماع السياسي ألف ابن الأزرق

1- ينظر: نيل الابتهاج، التبتكي، ص573.

2- ينظر: تاريخ تطوان، محمد داود، ج1، ص146-155.

3- ينظر: اختصار الأخبار عما في سبته من سني الآثار، محمد بن القاسم السبتي، ص57، 11.

4- ينظر: نيل الابتهاج، التبتكي، ص575.

5- ينظر: مؤرخون من ليبيا مؤلفاتهم ومناهجهم (عرض ودراسة)، علي مصطفى المصراطي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، ط1، 1977م، ص67-81.

6- ينظر: مقدمة محقق تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، محمد بن عبد الكريم المغيلي، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/1994م، ص13.

كتابه (بدائع السلك في طبائع الملك) متأثراً بمقدمة ابن خلدون، فلخصها وشرح نصوصاً منها، إضافة إلى أقوال غيره، مع زيادات كثيرة وفوائد عديدة⁽¹⁾. ويعدّ كتاب (وصف إفريقيا) للحسن الوزان من أهم ما كتب في الجغرافيّة، فقد عني بجغرافيّة إفريقيا العامّة، من حيث تحديد المواقع الجغرافيّة للمدن والحوضر، والتضاريس والمناخ، كما تناول الحياة العامّة لسكانها؛ الاجتماعيّة منها والاقتصاديّة والفكريّة والدينيّة⁽²⁾.

ومن الذين شاركوا في العلوم العقليّة كالفلك والحساب والهندسة عبد الرحمن التّاجوري الطّرابلسي (ت 960هـ / 1552م) علامة الزّمان في علم الميقات له رسالة في علم الميقات سمّاها (الدرر المنتثرات على ربع المقنطرات)⁽³⁾. وممّن عرف بكثرة التّأليف في الرياضيّات والهندسة القلصاديّ له مؤلّفات في الحساب منها (كشف الجلباب عن علم الحساب) و(قانون الحساب)⁽⁴⁾.

اشتغل كثير من العلماء بعلم المنطق فألّفوا فيه كثيراً، واعتنوا بكتاب الجمل لمحمّد الخونجي (590 - 646 هـ / 1194 - 1248م) شرحاً ونظماً، فلاّين مرزوق الحفيد أرجوزة نظم بها الجمل، وشرحاً بعنوان (نهاية الأمل في شرح الجمل). كما ألّف عبد الرحمن الأخضرّي (السلم المرونق) أرجوزة في علم المنطق وله شرح عليها⁽⁵⁾. وممّن لهم عناية بالطّب والصّيادلة، ومؤلفاتهم جليّة القدر، بالغة الأهميّة؛ أبو القاسم الوزير الغسانيّ الأندلسي (955 - 1019هـ / 1548 - 1611م) طبيب البلاط السّديّ. له مؤلّفات في الطّب جليّة القدر منها (حديقة الأزهار في الأعشاب والعقار) وضعه عام (994هـ / 1585م)، وهو معجم للأعشاب والعقاقير واستعمالاتها، يذكرها بأسمائها الطّبيّة وما يقابلها عند العامّة⁽⁶⁾.

1- ينظر: مقدّمة محقّق بدائع السلك في طبائع الملك، أبو عبد الله ابن الأزرقي، تحقيق: علي سامي النّجار، دار السّلام للطباعة والنّشر والتّوزيع والترجمة، القاهرة، ط1، 1429هـ / 2008م، ج1، ص25 - 27.

2- ينظر: حياة الوزان الفاسي وآثاره، محمّد المهدي الحجويّ، المطبعة الاقتصاديّة، الرباط، 1354هـ / 1935م، ص51-57.

3- ينظر: أعلام ليبيا، الطّاهر أحمد الزّاويّ، دار المدار الإسلاميّ، بيروت، لبنان، ط3، 2004م، ص209، 210.

4- ينظر: نيل الابتهاج، التّنبكتي، ص339.

5- ينظر: تعريف الخلف، الحفناويّ، ج1، ص63.

6- ينظر: روضة الآس، المقرّي، ص217.

وأظهر علماء المغرب الإسلامي اهتماماً بعلوم اللغة من نحو وبلاغة وعروض... بيد أن المستقرى لهذا الإنتاج التأليفيّ يلحظ كثرة الشروح والاختصارات والأراجيز. من ذلك شرح ابن مرزوق الحفيد لكتاب التسهيل لابن مالك، وشرح أحمد المنجور على الخلاصة لابن مالك، وله في علم البلاغة شرح نظم علاقات المجاز ومرجحاته لأبي الفضل ابن الصبّاغ المكناسي⁽¹⁾، ولابن الخلف القسنطيني⁽²⁾ (829 - 899هـ / 1425 - 1494م) نظم التلخيص للقزويني في المعاني والبيان، وله ميميّة أسماها (مواهب البديع في علم البديع) في علم البديع وشرح عليها⁽³⁾. كما حفلت شروح الدواوين الشعرية والمدائح النبوية بكثير من المعلومات اللغوية والأدبية والنقدية، مثل شروح ابن مرزوق الحفيد على البردة؛ منها (إظهار صدق المودة في شرح البردة) ضمته سبعة فنون في كلّ بيت⁽⁴⁾.

وفي ميدان الترجمة برز ثلّة من المترجمين الذين ألّموا بلغات عديدة، بحكم نشأتهم بالضفة الشماليّة للبحر الأبيض المتوسط، أو اتصالهم بأهلها بسبب تجارة أو سفارة أو أسر. ساعدهم تمكّنهم من اللغة على ترجمة كثير من الأعمال التي تعدّ مظهراً من مظاهر التّواصل الحضاريّ بين عدوتي المتوسط خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين. نذكر من هؤلاء القسيس الإسباني أنسيلم ترميدا (Anselmo Di Turmeda) (756 - 837هـ / 1355 - 1433م) الذي اختار اسم عبد الله التّرجمان بعد إسلامه، ثمّ اشتغل في ديوان السلطان أبي العباس أحمد بن محمد الحفصيّ وابنه أبي فارس⁽⁵⁾. كما ترجم أبو القاسم الوزير الغسانيّ (955 - 1019هـ / 1548 - 1611م) كتاباً في الطّب إلى العربية أسماه (مغني الطّبيب عن كتب أعداء الحبيب) أهداه للمنصور السّعديّ⁽⁶⁾.

1- ينظر: فهرس أحمد المنجور، ص80.

2- ينظر: الضوء اللامع، السخاوي، ج2، ص122.

3- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص506.

4- ينظر: العمر في المصنّفات والمؤلّفين التّونسيين، حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة وإكمال: محمّد العروسيّ المطويّ ويشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1425هـ / 2005م، ج1، ص407 - 411.

5- ينظر: روضة الآس، المقرّي، ص218، 219.

4 - الحياة الأدبية:

كانت الحياة الأدبية تحاكي واقع الحضارة العربية الإسلامية في هذه الفترة الزمنية، يغلب على الأدب الركود والانحطاط، مع فقدان الابتكار والتجديد، وأضحى أسير الصنعة اللفظية مسلوب القوة، هو أحوج ما يكون إلى الإلهام والإبداع⁽¹⁾، مع غياب ذلك اللون الشعري الذي يبحث عن الجمال، والمستنفر للعواطف والأحاسيس، والساعي وراء التعبير الفني، مع ضعف الملكة الشعرية والإمكانات الفنية لدى بعض من تصدى للشعر، وهذا ما يميل إليه المهتمون بالحركة الأدبية بالمغرب الإسلامي⁽²⁾. على الرغم من وجود وجوه كثيرة من الأدباء في القرنين التاسع والعاشر الهجريين، ونبوغ عدد من الشعراء ممن لهم صيت ذائع، من مثال ابن الخلوف القسنطيني (829 - 899 هـ / 1425 - 1494 م)، وابن فركون الغرناطي (781 - 820 هـ / 1379 - 1417 م) وأبي يحيى ابن عاصم الغرناطي (ت 857 هـ / 1453 م) وابن الأزرق وغيرهم. إلا ما تُلُوّفِي في المنتصف الأخير من القرن العاشر الهجري بالمغرب الأقصى أيام السعديين⁽³⁾.

شارك في الحياة الأدبية كثير من شرائح المجتمع المثقفة، فأسهموا في تنشيط سوق الأدب وفنونه. فكان منهم السلاطين والوزراء والعلماء والأدباء والمتصوفة وغيرهم. ويُسجّل للفقهاء دور في تنشيط الحركة الأدبية، فمعظم رجال الأدب في هذه الفترة من الفقهاء، جمعوا بين قول الشعر في مختلف الأغراض - مع ميلهم أكثر إلى الشعر الديني - وبين العلوم الدينية التي تُلزمهم بخصوصيات؛ أهمّها الترفع عن الغلو في مدح السلاطين والتزلف لهم، والتنزه عن فحش القول في الغزل والهجاء⁽⁴⁾.

1- ينظر: الهجرة الأندلسية إلى إفريقيا أيام الحفصيين، محمد طالبي، مجلّة الأصالة، العدد: 26، السنة: 4 (رجب، شعبان 1395 هـ / جويلية، أوت 1975 م)، ص 69، 70.

2- ينظر: النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، أحمد مختار عمر، منشورات الجامعة الليبية، 1391 هـ / 1971 م، ص 227، 237.

3- ينظر: النبوغ المغربي، عبد الله كنون، ج 1، ص 227.

4- ينظر: مقدّمة الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي، محمد مرتاض، دار الأوطان للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة، الجزائر، ط 1، 2009 م، ج 1، ص م.

إضافة إلى اهتمامهم بالشعر التعليمي، فأكثرُوا النظم في مختلف العلوم والفنون - وقد أتينا على ذكر بعض النماذج - ونظم الأغاز في المسائل الفقهية والنحوية وغيرها⁽¹⁾. كما أظهرُوا اهتماماً بالجانب النثري من إنشاء للرسائل وإلقاء الخطب والمواعظ في مختلف الموضوعات والمناسبات. ومن مظاهر المشاركة في الحقل الأدبي تشجيع الناس على الجهاد ضد الأعداء وردّ كيدهم، واستنهاضهم لردّ الهجمات، واسترجاع ما احتلّ من البلاد، فكان الخطاب الشعري والنتري وسيلتهم لذلك، ممّا أنتج أدبا جهادياً له رواده. يقول صاحب (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) في معرض كلامه عن الاحتلال البرتغالي للمغرب الأقصى وأثره على الحياة الثقافية والأدبية في القرنين التاسع والعاشر الهجريين: «ولقد ألف الناس في ذلك العصر التأليف في الحضّ على الجهاد والتّغريب فيه. وقال الخطباء والوعاظ في ذلك فأكثرُوا، ونظم الشعراء والأدباء فيه ونثروا»⁽²⁾. كان منهم ابن يَجْبَش التّازي الذي ألف كتابه (تنبيه الهمم العالية على الصدقة والانتصار للملّة الزّاكية، وقمع الشّرذمة الطّاغية) جمع فيه بين الشعر الجهادي والنتر الجهادي، مبيّناً أحكام الرّباط والجهاد، منبّها على الأخطار المحدقة بهم⁽³⁾. ولأبي عبد الله محمّد بن يحيى البهلولي (ت903هـ/1497م) جزليات - وإن كانت لا تعيننا في مجال الأدب الفصيح إلّا أنّها تعيننا في الوقوف على النّضال الصّوفيّ - منها لامية يخاطب بها السّلطان الوطاسيّ محمّد البرتغالي (ت932هـ/1525م) مطلعها⁽⁴⁾:

قُلْ لِلْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ يَا طَلْعَةُ لَهْلَالٍ ❀ لَوَيْلَةٌ فِي السُّوَاخِلِ مَنْ أَفْضَلُ اللَّيَالِ

1- من ذلك ما ألغزه ابن غازيّ المكناسيّ عن القلم في نظم وبعث به إلى أحمد بن الحاج البيديّ منه قوله - الطويل -:

وَمَيِّتٌ قَبْرُ طَعْمُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ ❀ إِذَا ذَاقَ مِنْ ذَلِكَ الطَّعَامِ تَكَلَّمَ

فأجابه ابن الحاج بنظم وفق وزنه وقافيته، منه قوله:

هُوَ الْقَلَمُ، الْقَبْرُ الدَّوَاءُ وَطَعْمُهُ ❀ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ كُلُّ مَا كَانَ أَجْرَمًا

ينظر: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ابن مريم الملبتيّ المديونيّ التلمسانيّ، تحقيق: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1435هـ / 2014م، ص70.

2- الاستقصا، السّلاويّ، ج4، ص112.

3- ينظر: أضواء على ابن يَجْبَش التّازي، أبو بكر البوخصيّبي، دار الثقافة، الدّار البيضاء، ط1، 1396هـ / 1976م، ص123 - 153.

4- دوحة النّاشر، ابن عسكر، ص59، 60.

هذا وإنَّ شعراء المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين عالجوا معظم الأغراض الشعرية المعروفة، فأشعارهم وموشحاتهم وأزجالهم تناولت المدح والفخر والرتاء والهجاء والوصف والحنين والتهنئة والشعر الديني...

ففي غرض المدح حظي ملوك أقطار المغرب الإسلامي في هذه الفترة بشعراء ملحقين ببلاطهم، قصروا أكثر شعرهم على مدحهم بتعداد مناقبهم، والإشادة بمآثرهم، وتنافسوا في التثويه بشجاعتهم وجودهم وانتصاراتهم. فلا تكاد تخلو قصائدهم وموشحاتهم أو دواوينهم من مدح مخدوميههم، فغدوا مختصين بالتأريخ لأيامهم بأدبهم. ففي غرناطة اختص الشاعر ابن فركون بالسلطان يوسف الثالث (778 - 820هـ / 1386 - 1418م)، وعمل على جمع ما قيل في سلطانه من أمداح في كتاب سماه (مظهر النور الباصر في أمداح مولانا أبي الحجاج الملك الناصر)⁽¹⁾. وبتونس الحفصية اشتد التنافس بين الشعارين ابن الخلف القسنطيني ومحمد الخير المالقبي (831 - بعد 888هـ / 1427 - 1483م) في مدح ولي العهد أبي عبد الله المسعود محمد بن عثمان الحفصي (ت 875هـ / 1470م)⁽²⁾. وبالبلاط السعدي جمع من الشعراء؛ منهم النابغة محمد بن علي الهوزلي شاعر الدولة وكاتبها، له كتاب (مدد الجيش) جمع فيه ما ينيف عن ثلاثمائة موشح في مدح المنصور السعدي⁽³⁾.

ومن المدائح التي قيلت في الملوك والأمراء قصيدة ابن فركون يمدح فيها ملكه، وهي قصيدة طويلة لزومية افتتحها بمقدمة غزلية؛ منها قوله⁽⁴⁾ - الكامل -:

هُوَ نَاصِرُ الدِّينِ الْخَلِيفَةُ يُوسُفُ	✽	مَلِكٌ غَدَا كَهْفِ الْمُلُوكِ ثِمَالُهَا
مَلِكٌ كَأَنَّ الشَّمْسَ غُرَّةً وَجْهَهُ	✽	تَهْدِي إِلَى سُبُلِ الْهُدَى ضَلَالُهَا
مَلِكٌ كَأَنَّ الْغَيْثَ جُودٌ يَمِينُهُ	✽	مَهْمَا أُنَالَ الْقَاصِدِينَ نَوَالُهَا

1- ينظر: مظهر النور الباصر، أبو الحسين ابن فركون، تحقيق: محمد ابن شريفة، د. ط، 1412هـ / 1991م، ص5.

2- ينظر: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، روبر بارنشفيك، ج2، ص429، 430.

3- ينظر: روضة الآس، المقرئ، ص162.

4- ديوان ابن فركون، تحقيق: محمد ابن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، المغرب، ط1، 1407هـ / 1987م، ص116.

ومن الأمداح أيضا مدح الأقران والشيوخ والإخوان، ومن أشهر القصائد المدحية قصيدة ابن الأزرق يمدح فيها شيخه ابن عاصم، أوردها المقرئ في كتابيه (نفح الطيب)⁽¹⁾ و (أزهار الرياض)⁽²⁾ مطلعها - الكامل -:

خَضَعْتَ لِمَعْطِفِهِ الْغُصُونُ الْمَيْسُ ❁ وَرَدَا فِهَامَ بِمُقْلَتَيْهِ النَّرْجِسُ

ومن الشعراء في هذه الفترة من اتخذ الشعر وسيلة استجداء وتكسب وتحقيق للمقاصد والغايات، فمنهم من يستجدي بشعره الملوك والسلاطين، مصرّحا بمطلبه تارة ولمحا تارة أخرى. ذكر عبد العزيز الفشتالي شاعر المنصور السعدي أنّ السلطان كانت له سنة موسمية ليلة عيد الفطر من كلّ عام، يخلع على خاصّته أنواع الملابس والخلع والعطايا. واتفق عام (993هـ / 1585م) أن انتظره من كان هذا عهدهم، فسبق الشاعر عبد العزيز الفشتالي لينال سهما من هذه العطايا، منشدا على البديهة أبياتا يخاطب فيها المنصور السعدي قائلا⁽³⁾ - الرمل -:

يَا إِمَاماً شَدَادَ مَجْدًا أَقْعَسَا ❁ وَعَلَى هَامِ الثُّرَيَّا عَرَّسَا
مَا لِرِيقِي لَمْ يَجُذْ بِطَحَاءِهِ ❁ عَارِضٌ مِنْ رَاذِلَيْكَ انْبَجَسَا
أَمْطَرَ الْخُلُقَ تَخْوَتًا⁽⁴⁾ وَكَسَى ❁ مَطَرًا جُودًا وَعِنْدِي احْتَبَسَا
أَفَلَا عَبْدُكَ عَبْدٌ جَاءَكَ ❁ مِنْ ثَنَاهُ لِعِلَاكُم سُدُوسَا
فَإِذَا مَا اخْتَالَ غَيْرِي فِي مُلَا ❁ قَدْ كَسَاهُ الْفَخْرُ أَبْهَى مَلْبَسَا
فَلَدَى الْمَنْصُورِ أَرْجُو نَائِلًا ❁ يُثْقِلُ الظَّهْرَ وَيُثْنِي الْأَرْوَسَا

1- نفح الطيب، المقرئ، ج6، ص151.

2- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أبو العباس المقرئ النكسماني، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد العظيم شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د. ط، 1358هـ / 1939م، ج3، ص320.

3- مناهل الصفا، الفشتالي، ص229.

4- التّخوت جمع تخت: وعاء تصان فيه الثياب. ينظر: لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، مادة (تخت).

ونجد بتلمسان محمد بن عبد الرحمن الحوضي (ت910هـ / 1505م) يمدح السلطان أبا عبد الله المتوكل الزياني (ت890هـ / 1485م) بمقطوعة نلمس فيها شيئا من المغالاة، وتعرضا لعطاء السلطان ونواله⁽¹⁾ - الخفيف - :

أَصْبَحَ الْمُرْنُ مِنْ عَطَائِكَ يَحْكِي * يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ لِلْأَنَامِ عَطَاءَ
كَيْفَ يُدْعَى لَكَ الْعِمَامُ شَبِيهَا * وَلَقَدْ فُقِّتَهُ سَدًا وَسَدَاءَ
أَنْتَ تُعْطِي إِذَا تَقَصَّرُ مَالًا * وَهُوَ يُعْطِي إِذَا تَطَوَّلَ مَاءَ

وهذا الكاتب محمد بن عمر الشاويّ ينشد أبياتا خمسة لغرض تحصيل عُشْرِ الزَّيْت من مغارم قبيلة من قبائل مسفيوة، فأجازه المنصور السعديّ، فكانت تصرف له كلّ عام حتّى غدا من الأغنياء وأهل الثراء، فالشعر بهذا من أنجع الوسائل لتحقيق المآرب⁽²⁾. ويقدم ابن فركون قائمة رغبات بما يرنو من السلطان يوسف الثالث تحقيقها له في قالب شعريّ إثر تهنئته بالبيعة قائلا⁽³⁾ - الطويل - :

فَعَبْدُكَ يُهْدِيهَا إِلَيْكَ وَسَائِلًا * أَبَى اللَّهُ أَنْ تُلْفَى بِجُودِكَ مُهْمَلَةً
أَقْلَهُ أَنْزَلَهُ وَفَّ مَا قَدْ وَعَدْتَهُ * قَدِيمًا وَبَلَغَهُ الَّذِي مِنْكَ أَمَلُهُ

ومن أبرز الأغراض الشعريّة والتّجارب النفسيّة التي عالجها شعراء المغرب الإسلاميّ الحنين. وهو الشعر الذي عليه مسحة الحزن وأنين من لوعة فراق الأحبة، وحرقة الشّوق إلى الأوطان، واستحضار ذكريات الماضي، فتثمر هذه العواطف الجياشة قصائد شعريّة. من ذلك ما أفصح عنه أبو الفتح التّونسيّ نزيل دمشق الشّام في نونيته التي أنشأها عام(951هـ / 1544م)، بثّ فيها أشواقه، وأفضي فيها بأحزانه، وصوّر آلامه، وأودعها - بسبب ما آلت إليه تونس من وراء الاحتلال التّركي والإسبانيّ - حسرته، ويعتذر لأحبابه عن البعاد وطول الغياب، فقال في مطلعها⁽⁴⁾ - الطويل - :

1- نفح الطّيب، المقرّي، ج4، ص241.

2- ينظر: مناهل الصّفا، الفشتاليّ، ص228، 229.

3- ديوان ابن فركون، ص104.

4- نفح الطّيب، المقرّي، ج5، ص29 - 32.

سَلُّوا الْبَارِقَ النَّجْدِيَّ عَنْ سُحْبِ أَجْفَانِي * وَعَمَّا بِقَلْبِي مِنْ لَوَاعِجِ نِيرَانِ
وَلَا تَسْأَلُوا غَيْرَ الصَّبَا عَنْ صَبَابَتِي * وَشِدَّةِ أَشْوَاقِي إِلَيْكُمْ وَأَشْجَانِي

كان لسقوط مدن الأندلس نهائياً، وما ذاقه المسلمون من ألوان الاضطهاد والقسوة والتشقي إثر ذلك صدّى في الشعر العربي الأندلسي. فقد خلّفت قصائد ندب فيها أصحابها الأندلس، وبكوا مدنها، ووصفوا ما يلقاه المسلمون بها على أيدي النصارى. من ذلك قصيدة لأبي العباس أحمد الدّقون (921هـ / 1515م) سماها (الموعظة الغراء بأخذ الحمراء) يقول منها⁽¹⁾ - البسيط - :

أَمِنْتُ مِنْ عَدُسِ آمَالٍ وَأَحْوَالِ * وَعِشْتُ مَا بَيْنَ أَعْمَامٍ وَأَحْوَالِ
وَلَا ابْتُلَيْتُ بِمَا فِي الْقَلْبِ مِنْ نَكْدِ * فَالْجِسْمُ مَشْتَغِلٌ مِنْ غَيْرِ أَشْغَالِ
وَكَيْفَ لَا وَبَقَاعُ الدِّينِ خَالِيَةً * مِنْ أَرْضِ أُنْدَلُسٍ مِنْ أَجْلِ أَهْوَالِ

ومن الأغراض الشعرية التي تتقاطع مع الحنين لوجود الأحزان وكثرة الآلام لفراق الأحبة وفقدانهم الرثاء. فقد سُجِّلَت قصائد ومقطوعات شعرية بكى أصحابها الولد والوالد والزوجة والعلماء. ومن مرثي الأقارب رثاء الملك يوسف الثالث زوجته المتوفاة سنة (812هـ / 1409م) بسبب الولادة. فقال متفجعا لفقدائها متألماً لفراقها، مظهرا حزنا ووفاء لذكرها⁽²⁾ - الطويل - :

لَئِنْ أَوْدَعُوهَا فِي الثَّرَى فَمَحَلُّهَا * مِنْ الْقَلْبِ مَحْمِيٌّ بِطُولِ حَيَاتِهِ
وَهَيْهَاتَ يَمْحُو الدَّهْرُ ثَابِتَ وُدِّهَا * وَمَا رَسَمَتْ أَيْدِي الْهَوَى فِي حَصَاتِهِ

ومن مرثي العلماء مرثية أحمد بن عبد الله الجزائريّ الزّواويّ شيخه عبد الرحمن الثّعالبي⁽³⁾. وللشاعر محمد الحوضي التلمساني قصيدة لزومية يرثي فيها الشيخ السنوسي معددا مناقبه، مشيدا بجهوده الدّعوية والإصلاحية، ومنوها بدوره البناء في تنشيط الحياة الثقافية في القرن التاسع الهجريّ، مظهرا الأسف والحسرة على فقدّه، ممّا جعله يفتح قصيدته بشيء من التّهويل فقال⁽⁴⁾ - الكامل - :

1- أزهار الرياض، المقرئ، ج1، ص104 - 108.

2- مظهر النور الباصر، ابن فركون، ص9.

3- ينظر: تعريف الخلف، الحفناوي، ج1، ص35.

4- المصدر نفسه، ج2، ص397.

مَا لِلْمَنَازِلِ أَظْلَمَتْ أَرْجَاوُهَا ❁ وَالْأَرْضُ رُجَّتْ حِينَ خَابَ رَجَاوُهَا

وَأَتَى عَلَيْهَا النِّقْصُ مِنْ أَطْرَافِهَا ❁ وَتَرَكَمَتْ وَتَعَاظَمَتْ أَرْزَاوُهَا

وبعدها راح يعدد خصاله، ثم راح يبكيه ويتفجع قائلاً⁽¹⁾:

فَلِمَثْلِهِ يَبْكِي الْوُجُودُ، مُصِيبَةً ❁ عَظُمَتْ فَأَحْزَنْتِ الْوَرَى إِغْمَاوُهَا

كثر شعر الاستجداد والاستغاثة في المغرب الإسلامي في هذه الفترة لضعف الحركة الجهادية أمام الزحف الأسباني والبرتغالي والغارات المتواترة على البلدان. فكانت توجّه السفراء بطريقة رسمية إلى ملوك البلاد الإسلامية طلباً للعون والنجدة، كسفارة ابن الأزرق إلى مصر⁽²⁾، أو بطريقة غير رسمية كرسالة الاستصراخ التي بعثها الثوار الأندلسيون إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني بعد ما لقي أهلها ألواناً من الاضطهاد بعد سقوط غرناطة، والقوانين المجحفة في حقهم، مما اضطرهم للقيام بعدة ثورات، واجهها الإسبان بكل الوسائل لإجهاضها وقمعها. وهذه الرسالة ضمنوها قصيدة تروى على مائة بيت يشكون فيها ما آل إليه حال المسلمين بعد سقوط غرناطة؛ من محنة التنصير أو النفي والجلاء⁽³⁾.

وفي هذه الظروف القاسية التي مرت بها بلدان المغرب الإسلامي نفقت سوق أدب السجون. حيث انعكست هذه الأحداث سلبياً على حياة الشاعر بسبب مشاركته في الحروب أو لأجل موقف سياسي مما كلفه السجن، فذاق مرارة الأسر وآلام الوحدة، ولاذ بالشعر ليخفف عن نفسه ما يجد، ويصف تجربته النفسية القاسية في ذلك المكان، ويضمّنه همومه وأحزانه. وممن ذاق هذا الألم الفقيه أبو بكر محمد بن عاصم الغرناطي (760 - 829هـ / 1359 - 1426م) الذي سجن سنة (814هـ / 1411م) فقال في ذلك⁽⁴⁾ - الخفيف -:

أُودَعُونِي تَحْتَ الثَّرَى وَنَسَوْنِي ❁ فَمَقَامِي فِيهِ مُقَامُ طَوِيلُ

1- تعريف الخلف، الحفاوي، ج2، ص398.

2- ينظر: نفع الطيب، المقرّي، ج2، ص702.

3- ينظر: أزهار الرياض، المقرّي، ج1، ص109 - 115.

4- مقدّمة جنّة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، أبو يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، تحقيق: صلاح جرار، دار البشير للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، د. ط، 1410هـ / 1989م، ج1، ص41.

أَذَا حَيٍّ وَحَالَتِي حَالُ مَيِّتٍ ❀ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لِلْخُرُوجِ سَبِيلُ

كان الوصف حاضرا في شعر المغرب الإسلامي، وطرق الشعراء مختلف الموضوعات الوصفية، فكان منها وصف الطبيعة وهو من أغراض الشعر التي تستهوي كثيرا من الشعراء، ويستفّر قرائحهم جمال الطبيعة وسحرها من رياض وأزهار وحدائق وأنهار، فتستحيل شعرا أسرا. ومن الذين شاركوا في هذا الغرض ابن الخلف القسطنطيني، ففي قصيدة (روضة الأزاهر ولجة الجواهر) يصف جمال الروض بعد غيث نزل، ويصور الغمام وكأنه ساقٍ في حانة يدور بدنان الخمر يسقي بها الرياض في ليلة ظلماء، وفي هذه الغمرة يفجؤهم الصبح بضيائه المبدد لظلام الدجى، وكأنه حساء تباهي بجمال طلعتها غيرها حين ألقت عنها نقابها حاسرة عن وجهها الوضاء لتريهنّ كيف يكون الانتقاب فقال⁽¹⁾ - الكامل - :

أَدِرِ الْمُدَامَةَ فَالذَّسِيمُ يُشَبِّبُ ❀ وَالرَّوْضُ يَسْقِيهِ الْعَمَامُ فَيَشْرَبُ

وَالصُّبْحُ قَدْ أَلْقَى الْقِنَاعَ لِكَيْ يَرِي ❀ وَجْهَ الدُّجَا بِالْفَخْرِ كَيْفَ يُنْقَبُ

عمد الشعراء إلى وصف المنشآت الحضارية بقصائد ومقطوعات شعرية، منها ما نقش على جدران المباني، فسجل الخطاب الشعري جمال تلك المعالم من قصور وقباب وحدائق وغيرها. وأظهر الشعراء تنافسا في بيان سمات الحسن ومكامن الإبداع فيها، عكس تفاعل الأدب مع الجمال الحسي الحضاري. ومن المعالم التي عكف الأدباء على وصفها شعرا ونثرا القصر البديع وملحقه البستان المسمى (المشتها) الذي شيد أيام المنصور السعدي. وفي هذا يقول المقرئ في روضة الآس: «... ومنها البديع الذي يضرب به المثل في مشارق الأرض ومغاربها... وبالبديع البستان الشهير الذي أنشأه مولانا نصره الله، ويسمى المشتها. وقد أكثر أعلام حضرته في وصف البديع والمشتها فأجادوا إلى الغاية»⁽²⁾.

إلى جانب هذا كان لكثير من الأدباء دور بارز في تسجيل كثير من القضايا السياسية ووصف للأحداث الحربية، والشخصيات الفاعلة في كثير من ميادين الحياة، والتي قد تكون غابت عن المؤرخين، فتأتي راتقة للحدث التاريخي توضيحا أو استدراكا أو تفصيلا، وهذا في

1- ديوان أحمد بن القسم الخلف الأندلسي، المطبعة السليمية، بيروت، 1872م، ص21.

2- روضة الآس، المقرئ، ص21.

مختلف أقطار المغرب الإسلامي. ومما سجله الشعراء من وقائع؛ تلك الصراعات الداخلية بين المسلمين أنفسهم من جهة وبينهم وبين أعدائهم من النصارى، ضمّنوا شعرهم التّهاني والتبريكات بالفتوحات والانتصارات. فالشعر بهذا ذو قيمة تاريخية في الحدث الذي سجله دون أن يفقد قيمته الأدبية الشاهدة على واقع الشعر آنذ. من ذلك تصوير الصراع النصري المريني بين يوسف الثالث النصري وأبي عثمان سعيد بن محمد بن أبي سالم المريني عام (813هـ/ 1410م) حول جبل الفتح⁽¹⁾. حفل ديوان ابن فركون بقصائد تسجل هذه الأحداث، وقرينة الشاعر متفاعلة مع هذه الوقائع. يشير ابن فركون إلى استخلاص جبل الفتح من المرينيين مهتئاً ملكه يوسف الثالث، وإلى الجيش البري والبحري الذي جهّزه لحصار الجبل بين عامي (813 - 817هـ / 1410 - 1415م) في قصيدة مطلعها - الطويل - :

تَجَلَّى صَبَاحُ الْفَتْحِ مِنْ جَبَلِ الْفَتْحِ ❀ فَهَنَنْتَهَا بُشْرَى تَجَلُّ عَنِ الشَّرْحِ

كما أنّ الشاعر قد واكب الصراعات والوقائع الحربية بين المسلمين والنصارى من أسبان وبرتغال، فانبرى عدد من الشعراء لوصف معركة وادي المخازن (986هـ/ 1578م) التي انتصر فيها السعديون على البرتغال⁽²⁾. من هؤلاء الشعراء محمد بن علي الهوزالي شاعر الدولة السعدية أيام المنصور السعدي، والذي يشيد في قصيدة سينتية بهذا النصر ويمدح سلطانه الذي شارك في المعركة ثم تولى بعدها الحكم، افتتحها بمقدمة طليّة قائلًا⁽³⁾ - الطويل - :

فَقَا نَشْتَكِي هَذِي الرُّبُوعُ الدَّوَارِسُ ❀ لِمَا جَرَعَتْهُنَّ الرِّيَّاحُ الرَّوَامِسُ

رُبُوعٌ لَهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ مَرَابِعُ ❀ تُمَاثِلُ غَيْرَ أَنَّ تِلْكَ بِسَابِسُ

ثم تخلص إلى وصف ممدوحه وما لاقاه في المعركة فقال⁽⁴⁾ :

وَحَسْبُكَ فِي وَادِ الْمَخَازِنِ وَقْعَةٌ ❀ بِهَا الشَّرْكُ حَتَّى آخِرِ الدَّهْرِ تَاعِسُ

1- ينظر: الاستقصا، السلاوي، ج4، ص93.

2- ينظر: المصدر نفسه، ج5، ص69 - 81.

3- المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، أحمد بن القاضي، تحقيق: محمد رزوق، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، د. ط، 1986م، ج2، ص673.

4- المصدر نفسه، ج2، ص674.

بِهَا عَرَفَتْ أَبْدَاءُ عِيصٍ بِأَنَّهُمْ ❀ عَيْدُ الْعَصَا مَا نَاسَ فِي الْأَرْضِ نَائِسُ

وهذا الفقيه عبد الرحمن بن موسى الوجيدي (929 - 1011هـ / 1523 - 1603م) يهتئ الحاكم العثماني للجزائر الباشا حسن بن خير الدين عند هدم الحصن الأعلى من برج المرسى وهروب الإسبان منه عام (970هـ / 1563م) بقوله⁽¹⁾ - الطويل - :

هَنِيئًا لَكُمْ بِأَشَا الْجَزَائِرِ وَالْعَرَبِ ❀ بِفَتْحِ أَسَاسِ الْكُفْرِ مَرْسَى قُرَى الْكُذِبِ

ولم يغب الزجل عن مواكبة الصراع الجزائري الإسباني، حيث لجأ الشاعر إليه لتسجيل الوقائع الحربية. من ذلك تسجيل الشاعر الأكل بن خلوف المغراوي (899 - 1024هـ / 1479 - 1585م) لوقائع مفصلة عن معركة مزغران (965هـ / 1558م) التي دارت بين حاكم الجزائر الباشا حسن بن خير الدين بعون من عدة قبائل وبين الإسبان بقيادة (الكونت دالكوديت) حاكم وهران الذي قضى في هذه المعركة⁽²⁾. وهذا في قصيدة من تسعة وتسعين بيتا (99) منها قوله⁽³⁾ :

الْأَمِيرُ حَسَنُ يَوْمِ مَزْغَرَانِ ❀ اخْلَفَ الثَّارَ مَنْ الْغَدُو تَحْقِيقُ

رَجَعَ لِلْبَهْجَةِ عَاصِمَةُ الْبُلْدَانِ ❀ بَغْدَايِمُ شَدَّتْ وَنَصْرُ لُبَيْقُ

أضحى تغير الأحوال وتبدلها بسبب جور سلطان أو تعدد قاض، أو فقدان أمان، أو ضيق عيش، وانسداد باب الأرزاق بالمدن، أو لعدم ملائمة مناخها دافعا لهجرها وذريعة لهجوها. هذا اللون من الشعر يصور جانبا من الواقع الاجتماعي بمدن المغرب الإسلامي في هذه الفترة. فمن هجائي القرن العاشر الهجري ابن الخطيب الزرويلي (ت 993 / 1585م)، الشاعر الذي لم يعثر له على شعر في أي غرض إلا في هجاء المدن والأشخاص⁽⁴⁾. وشارك ابن غازي المكناسي في هذا الميدان بمقطوعة شعرية يهجو مكناسة⁽⁵⁾.

1- البستان، ابن مريم، ص 262، 263.

2- ينظر: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492 - 1792)، أحمد توفيق المدني، ص 372 - 376.

3- ديوان سيدي لخضر بن خلوف، تحقيق: محمد بن الحاج الغوثي بخوشة، ابن خلدون للنشر والتوزيع، تلمسان، د. ط، د. ت، ص 182، 187.

4- ينظر: جذوة الاقتباس، ابن القاضي، ج 2، ص 413.

5- ينظر: المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، ج 2، ص 226.

وهناك التفات إلى الشعر الذي يحمل على الفكاهة والضحك والدعابة وهو قليل بمقابل الأغراض الأخرى. من ذلك تصوير القاضي عبد الواحد الحميدي (936 - 1003هـ / 1530 - 1594م) حال رجل يدعى الحمام سرقت ثيابه من الحمام بقوله⁽¹⁾ - السريع - :

فَلَوْ رَأَيْتَ مِشْيَةَ الْحَمَامِ * خَرَجَ غُرْيَانًا مِنَ الْحَمَامِ
بِصَلْعَةٍ بِيضَاءٍ كَالْتُّغَامَةِ * يُشْبِهُ فِي مِشْيَتِهِ أُسَامَةَ

يعدّ الشعر الغزليّ من أبرز الأغراض الشعرية حضوراً في شعر هذه الفترة، فنجد في مفتح قصائد المديح النبويّ ومقدمات الشعر الصوفيّ. يُحصى لابن الخلف القسنطينيّ ثمانون (80) بيتاً شعريّاً في الغزل في بديعته (مواهب البديع في علم البديع)⁽²⁾. ومن الغزليات الصوفيّة مقدّمة غزليّة لإبراهيم التازي (حوالي 810 - 866هـ / 1407 - 1462م) خلص بعدها إلى مدح النبي (ﷺ)، منها قوله⁽³⁾ - الطويل - :

أَبَتْ مُهْجَتِي إِلَّا الْوُلُوعَ بِمَنْ تَهْوَى * فَدَعِ عَنْكَ لَوْمِي وَالنَّفُوسَ وَمَا تَقْوَى
هَوَانُ الْهَوَى عِزٌّ وَعَذَبٌ أَجَاغُهُ * وَعَلَقْمُهُ أَحْلَى مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى

وتجد الشعراء أفردوا لهذا الغرض قصائد وموشحات، كالموشحة الغزليّة للمنصور السّدي⁽⁴⁾ :

رَيَّانُ مِنْ مَاءِ الصَّبَا * * * أَهْيَفُ مُمْتَلِي الدُّرْدِ
قَدْ قُلْتُ لَمَّا أَنْ سَبَا * * * بِحُسْنِهِ لُبِّي :
مِنْ عَيْنِهِ سَلَّ ظُبَا * * * وَأَعْمَدَهَا فِي قَلْبِي
أَسْرَنِي مَاضِ الشَّبَا * * * أَوْطَفَ مُرْنَجُ الْقَدِّ
كَالْغُصْنِ هَزَّتْهُ الصَّبَا * * * فَوْقَ الرُّبَى الشُّهْبِ

1- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، محمد الصغير الوفراني، مطبعة بريدن، أنجي، 1888م، ص173.

2- ينظر: ابن الخلف القسنطينيّ، وديوانه جنى الجنّتين في مدح خير الفرقتين (المعروف بديوان الإسلام)، العربي دحو، دار المعية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 2013م، ص63.

3- نيل الابتهاج، التّبكتي، ص63، 64.

4- المنتقى المقصور، ابن القاضي، ج2، ص662.

حظي الشعر الديني لدى شعراء المغرب الإسلامي في هذه الفترة باهتمام كبير، وساروا فيه سير من سبقهم، تناولوا الموضوعات ذات الصلة بالدين من تصوف وزهد ومديح نبوي. وزاد الشغف بالمعارضات والتخميسات والتشطيرات. ومن الذين يمثلون هذا الاتجاه الشعري في هذه الفترة ابن جبش التازي صاحب الكلام العالي والباع المديد والقدم الراسخ في التصوف نظما ونثرا - كما وصف - له قصيدة في هذا الباب عارض منفرجة ابن النحوي (433 - 513هـ / 1041 - 1119م) التي تجمع بين الأدب والتصوف⁽¹⁾. ولإبراهيم التازي قصيدة لامية تعرف بالمرادية نسبة لمطلع القصيدة⁽²⁾ أولها - الطويل - :

مُرَادِي مِنَ الْمُؤَلَّى وَغَايَةُ آمَالِي ❀ دَوَامُ الرِّضَى وَالْعَفْوُ عَنْ سُوءِ أَحْوَالِي

وممن خمّسها من أعلام القرن التاسع الهجري ابن الحاج الليدي (930هـ - 1523م)، وله أيضا تخميس على قصيدة لأبي مدين شعيب⁽³⁾. ولأبي العباس أحمد الحباك المكناسي (ت 868هـ / 1464م) تجربة في هذا الميدان بأبيات شعرية عليها مسحة صوفية، يشير إلى الخمرة الإلهية، ويرمز بالسّاقى إلى الله (ﷻ)، يقول فيها⁽⁴⁾ - مجزوء البسيط - :

خُضْرَةُ آسٍ وَجَمْعُ نَاسٍ ❀ وَصَفْوُ رَاحٍ فَمَنْ عَذِيرِي
رَاحٌ لَهَا فِي الْقُلُوبِ قَدَمَا ❀ مَحْضُ سُرُورٍ وَفَيْضُ نُورٍ
مَنْ يَدِ سَاقٍ وَأَيُّ سَاقٍ ❀ قُدْسٌ فِي الْحُسْنِ عَنْ نَظِيرِ
فَأَسْكَرَ الْقَوْمَ دُونَ كَاسٍ ❀ وَكَانَ سُكْرِي مِنَ الْمُدِيرِ

كانت مناسبات المولد النبويّ فرصة لإنشاد الشعر، وميدانا خصبا للشعراء الذين تنافسوا في نسج قصائد تقوم بنيتها على مدح النبي (ﷺ) وتعداد معجزاته وشمائله، بعد مقدّمة في الغزل والتّسيب ومن ثمّ يخلصون إلى مدح السّلاطنة.

1- ينظر: أضواء على ابن جبش التّازي، البوخصيي، ص 60.

2- ثبت أبي جعفر أحمد بن عليّ البلويّ الوادي آشي، تحقيق: عبد الله العمراني، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1403هـ / 1983م، ص 327.

3- البستان، ابن مريم، ص 74.

4- الوافي بالأدب العربيّ بالمغرب الأقصى، محمّد بن تاويت، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1404هـ / 1984م، ج2، ص 596، 597.

وقد كثرت القصائد المولدية، وممن سلك هذا المضمار عبد العزيز الفشتالي بقصائد منها قصيدة طويلة عدد أبياتها مئة وأحد عشر بيتاً (111) مطلعها⁽¹⁾ - الطويل -:

هُم سَلْبُونِي الصَّبْرَ وَالصَّبْرُ مِنْ شَانِي ❁ وَ هُمْ حَرَمُوا مِنْ لَذَّةِ الْغَنَصِ أَجْفَانِي

وأوليت العناية بفنّ البديعيات - والبديعية قصيدة قوامها المزوجة بين ألوان علم البديع والمديح النبوي - من أشهر شعراء هذا الفن ابن الخلف القسنطيني ببديعيته (مواهب البديع في علم البديع) تقع في ستّ وعشرين ومأتي بيت (226 بيتاً)، منها ثمانون بيتاً في المديح النبوي⁽²⁾.

وإلى جانب الخطاب الشعري هناك أدباء أظهروا اهتماماً بالخطاب النثري، فكان منهم الكتاب والخطباء والفقهاء وغيرهم. تمثل النتاج النثري في الرسائل بأنواعها الإخوانية والسلطانية، والمرائي الصوفية⁽³⁾ والإجازات والرحلات والمناظرات والفتاوى وغير ذلك من الفنون النثرية. هذه الخطابات النثرية ذات السمات الأدبية نلفيها المبنوثة في مختلف المؤلفات؛ الدينية منها والأدبية والتاريخية وكتب التراجم والسير وغيرها.

ومن المسجل على الخطاب النثري حضور عنصر التصنع الأدبي، والاعتماد على المحسنات البديعية، والجمل المسجوعة التي تتطلب ثقافة موسوعية، ومعجماً لغوياً واسعاً. وهذا النوع من الأسلوب قد يجنح بالمبدع للتكلف، ويُسلمه إلى ركوب الصّعب، وإجهاد الذّهن. ولم تسلم عناوين المؤلفات ومقدماتها والرسائل والفتاوى من هذا الأسلوب، وقد مرّ بنا عنوان كتاب ابن جبّش النّازي (تنبيه الهمم العالية على الصدقة والانتصار للملة الزاكية، وقمع الشرذمة الطاغية)، ولأبي العباس الونشريسي رسالة في حكم هجرة أهل الأندلس بعد سقوط غرناطة بعنوان (أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النّصارى ولم يهاجر، وما يترتب

1- روضة الآس، المقري، ص 120 - 125.

2- ينظر: ابن الخلف القسنطيني، العربي دحو، ص 63.

3- وهي رحلة خيالية أو أحلام يراها صاحبها، ومن ثمّ يسجل تلك الرّوى في كتاب أو رسالة، وموضوع المرائي في الغالب هو رؤية النبي (ﷺ) ويقع الحديث بينهما، فتارة يأمره بشيء أو ينهاه عن أمر، أو يبشّر أو ينذر أو يوصي، وهي تعكس الحالة النفسية لصاحبها والواقع الاجتماعي والديني. ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، ج1، ص 101، 104.

عليه من العقوبات والزواج⁽¹⁾. وإلى هذا المذهب جنح أكثر الكتّاب، ووظفوه في مقدّمات كتبهم وخطبها إظهاراً لمهارتهم اللغوية وبراعتهم الأدبية ومقدرتهم الإنشائية، وهو أسلوب شائع وقتئذ. وخير من مثل هذه المدرسة في هذه الفترة أبو يحيى ابن عاصم في خطابه النثرية. من ذلك مقدّمة كتابه (جَنَّة الرِّضا في التَّسليم لما قَدَّر الله وقضى)، إذ أوردها منمّقة مسجوعة سجعا مركّبا، وهو الأسلوب الغالب على هذا الكتاب. فمن نصّ المقدّمة قوله: «... إنّ في حوادث الأيام لأولي الأفهام اعتباراً، وفي طوارق الليالي لأرباب الهمم العوالي اعتباراً، وفي مجاري الأقدار للذّوات الشريفة استظهاراً، وفي مجاني الألفاف الدّانية القطاف المائسة الأعطاف، في روضها الجَمّ النّطاف استبصاراً»⁽²⁾. وتجد بجانب هذا المذهب من الخطاب النثريّ من استعمل الأسلوب المرسل الذي تخلّص من قيود التّصنّع اللفظيّ إلا ما جاء منه عفواً على غير قصد، مع القدرة على السّجع⁽³⁾. وممّن سلك هذا النّهج أحمد زروق في مؤلّفاته، ومن النّماذج النثريّة له ما أدرجه في كتابه (الكنّاش) - وهو مؤلّف وضعه حول سيرته الدّائية - أثناء حديثه عن أساليب جدّته التّربويّة، فقال: «وكانت تأمرني بالصّلاة، فأصليّ بلا وضوء، فتقول لها خالتي في ذلك. فتقول لها: «دعيه يصليّ بلا وضوء حتّى يصليّ بالوضوء». ولمّا ناهزت الاحتلام تُهيئ لي كلّ يوم درهما، إذا قمت في الصّبح أمّدت عينيّ وإذا بدرهم مطروح على الوسادة، فتقول: «صلّ الصّبح وتعال خذه». وتقول: «هذا الدّره يعينه على الصّلاة، ويمنعه من الفساد، ويقيه من التّشوف للنّاس في الشّهوات»⁽⁴⁾.

ومن أنواع الخطاب النثريّ الرّسائل السّلطانيّة أو الدّيوانيّة، وهي رسائل ذات طابع سياسيّ وعسكريّ في الغالب، تناولت موضوعات الصّلح، والمعاهدات والاستجداء والفتوحات والظّهائر

1- ينظر: المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيّة و الأندلس والمغرب، أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسيّ، تحقيق: جماعة من الفقهاء بإشراف محمّد حجيّ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، الرّباط ودار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1401هـ / 1981م، د. ط، ج2، ص119.

2- جَنَّة الرِّضا، ابن عاصم، ج1، ص94.

3- ينظر: تاريخ الأدب الجزائريّ، محمّد الطّمار، ص324.

4- الكنّاش، أحمد زروق، تحقيق: عليّ فهمي خشيم، المنشأة الشّعبية للنّشر والتّوزيع والإعلان، ليبيا، 1980م، ص14.

الملكيّة⁽¹⁾، وخطاب الرعيّة... وبخاصّة أنّ هذه الفترة هي فترة مليئة بالتقلبات السياسيّة والنزاعات والحروب. ومن نماذج المكاتبات الديوانيّة الرّسالة الأندلسيّة السلطانيّة الأخيرة التي أنشأها الأديب أبو عبد الله الشّريف العقيليّ بأمر من السلطان أبي عبد الله ابن الأحمر آخر سلاطين بني نصر بغرناطة بعد خروجه منها نحو المغرب. وجّهها إلى السلطان محمّد الوطاسيّ (910هـ / 1505م)، وهي رسالة طويلة موضوعها الاعتذار للسلطان الوطاسيّ عمّا أصاب الأندلس وأهله بسبب أخطاء اقترفها، وسياسة انتهجها. جاءت بأسلوب يغلب عليه السّجع الذي لا كلفة فيه، قدّم لها بعنوان مسجوع مقفّى أيضاً وهو (الروض العاطر الأنفاس في التّوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس). وبعد الافتتاح قدّم بين يدي المنشور من الرّسالة قصيدة ميمية طويلة تربو على مئة بيت⁽²⁾. هذه الرّسالة عكست براعة منشئها الأدبيّة، وسعة اطلاع، فهي لا تخلو من الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبويّ، والمقدرة على استثمار الأحداث التاريخيّة والأفكار الفلسفيّة، والأحكام الفقهيّة والنّحوية، والأمثال والحكم.

ومن نماذج هذا النوع من التّرسّل مجموع (رسائل سعديّة) سلطانيّة أيام الدّولة السعديّة، عمل عبد الله كنون على تحقيقه. وهذا المجموع يضمّ حوالي اثنتين وستين (62) رسالة من إنشاء كتّاب الدّولة وأدبائها، وأكثرها من إنشاء المنصور السّعدي نفسه⁽³⁾. وما يطبع فنّ التّرسّل في هذه الفترة إضافة إلى نوع الأسلوب الأدبيّ، هو المزوجة بين النثر والشعر، على نحو ما جاء في رسالة أبي عبد الله الشّريف العقيليّ، وكذلك الجنوح إلى الطّول، ولنا أن نقف مثلاً على الظّهير الملكيّ الغرناطيّ الصّادر في صفر سنة (857هـ / 1453م) - والقاضي بتولية ابن عاصم الابن ناظراً في أمور الفقهاء - لتأكيد هذه الظّاهرة، إذ جاء نصّ المنشور في ثمان صفحات من كتاب أزهار الرّياض للمقريّ⁽⁴⁾.

1- الظّهائر الملكيّة أو السلطانيّة: جمع ظهير وهو ما يكتب من مراسيم صادرة عن السلطان تخصّ قضايا الدّولة من تعيينات لأرباب الوظائف كالقضاة والكتّاب والولاة، وغيرها من القرارات ينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن عليّ الفلقسنديّ، دار الكتب المصريّة، القاهرة، د. ط، 1430هـ / 1922م، ج1، ص4، 11، 24.

2- ينظر: أزهار الرّياض، المقريّ، ج1، ص72 - 102.

3- ينظر: رسائل سعديّة، عبد الله كنون، دار الطّباعة الملكيّة، تطوان، المغرب، د. ط، 1373هـ / 1954م، ص9 - 11.

4- ينظر: أزهار الرّياض، المقريّ، ج1، ص172 - 179.

وهناك الرسائل الإخوانية التي تحمل أبعادا اجتماعية وعلمية ودينية وأدبية. وقد تناولت موضوعات متنوعة منها الوعظ والنصح، والأسئلة والأجوبة، وفتاوى ونصوص الإجازات. ومن نماذج المراسلات الإخوانية رسالة عبد الرحمن النعالي إلى الفقيه محمد بن أحمد بن يوسف الكفيف، وهي جواب عن سؤال وصل إليه من هذا الفقيه يستشيريه في نقل الكتب إلى بلاد زواوة خوفا عليها من الأعداء، فأشار عليه بنقلها حفظا للموروث الفكري. واغتنم الفرصة ليحثهم على التأهب لقتال الإسبان وإعداد العدة لذلك. وهذا بأسلوب بسيط مباشر لا تعقيد فيه، مع تسجيل بعض الأخطاء اللغوية والألفاظ العامية والتراكيب الناشئة، إذ الرسالة وإن كانت موجهة لفقيه فإن الهدف وصول أثرها لعامة الناس. ولإلهاب الحماسة وإيقاظ الهمم استعان بالرؤى النبوية الحاملة لبشائر النصر والتحذيرات المتوالية من مdahمة الأعداء. ومما جاء فيها: «... وبعد: فقد وفقني الله وإياكم لمرضاته، وأنعم علينا وعليكم بجزيل شأنه وعميم خيراته. فقد وقفت على كتابكم وأنتم تستشرونني (كذا) في نقل كتبكم إلى زواوة خوفا من عدو الدين أن ينزل بساحة المسلمين. فاعلم - رحمك الله - أن نقلها من الحزم... وفرحت بحمد الله باشتغالكم بدرق العود، فما يوجد أنفع للشباب ولا لدفع مضرته من درق العود... وأهل بلدنا وما قرب منها بل وما بعد عنهم لما أن حرّضتهم على درق العود اجتهدوا في ذلك حاضرة وبادية... وقد قدمت إلى فضلائهم أن النبي (ﷺ) أكد وأكد كثيرا فحرّضت الناس جهدي... وقد تكرّر عليّ التحريض نحو سبع مرّات، وفي بعضها شد روحك يعني في التحريض، وفي بعضها أنتم منصورين (هكذا بالياء)»⁽¹⁾.

ومن موضوعات الرسائل الإخوانية نصوص طلب الإجازات والجواب عنها، وفي هذا النوع من القطع الأدبية تجد أساليب مختلفة، راح بعض كتابها يتأنق في كتابتها كي تكون أكثر تأثيرا، فخطابها موجه إلى شخصية علمية، متوسلين بالخطاب المنثور أو المنظوم أو بكليهما معا⁽²⁾، وفضل آخرون الخطاب المباشر. وهذا النوع من الرسائل يعكس عمق التواصل الثقافي

1- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، دار البصائر، الجزائر، ط3، 2007م، ج1، ص208-210.

2- من ذلك جواب أبي عثمان سعيد بن أحمد المقرئ عم صاحب نفح الطيب عن استدعاء إجازة من أحمد بن القاضي، فجاء الخطاب منظوما أنشأه أبو عبد الله أحمد بن الحباك بطلب من المفتي سعيد المقرئ. ينظر: روضة الآس، المقرئ، ص266.

بين مختلف أقطار العالم الإسلامي⁽¹⁾. ومن نماذج خطاب الاستجاسة المحلية استدعاء ابن الحاج اليبدي التلمساني (ت930هـ / 1524م) لشيخه ابن زكري التلمساني بطلب الإجازة في رسالة منمقة مصنوعة، ضمّنها أرجوزة قام بتشطير أبيات من ألفية ابن مالك، لخص فيها مطلبه. فمّا جاء في الاستدعاء: «... سيدي أحمد بن محمد بن زكري، الذي صارمه في كلّ فنّ من فنون العلم يقرئ، أتمّ الله علينا نعمة لقائه بطول بقائه، وأحلّه الدرجة العليا في الآخرة والدنيا، إرادة العبد من سيده ومولاه أن يتطوّل علينا بما قد كان أولاه، بإجازة تقيد ما كان أملاه... إجازة مطلقة عامّة، وافية بالغرض المقصود تامّة، تحتوي جميع أنواع العلم وفنونه، وتجمعه بمفروضه ومسنونه، وتشمله بحديثه وشجونه...»⁽²⁾.

أثر عدد من الرحالة الذين زاروا مختلف أقطار العالم الإسلامي في هذه الفترة الزمنية تدوين رحلاتهم، فأسهّموا بها في إنعاش أدب الرحلة. ومن هؤلاء أبو الحسن عليّ بن محمد القلصاديّ، له رحلة سمّاها (تمهيد الطالب ومنتهى الرّغب إلى أعلى المنازل والمناقب)، وتعرف برحلة القلصاديّ، وأيضا هناك رحلة عبد الرحمن الثعالبي⁽³⁾. وكلتاها من الرحلات المشرقيّة، بيد أنّه يغلب عليهما طابع العلميّة. حافظ هذا اللون الأدبيّ على طابعه الدينيّ، فتجد الاهتمام بالتراجم والإجازات ونصوصها والأسانيد وسير الشيوخ. وهذا الضرب من التّأليف يحاكي أسلوب كتب الفهارس والأثبات، حيث تصوّر صاحبه جانبا من الحياة الثقافيّة في تلك الفترة (طرق التّعليم، الكتب، المدارس، والمكتبات...) في مختلف الأقطار التي زارها. وكلّ هذا بأسلوب سهل يقوم أكثره على السّجع.

وفي أواخر القرن العاشر الهجريّ سنة (997هـ / 1589م) بعث المنصور السّديّ وفدا دبلوماسيّاً مصحوبا بهديّة ليبّغ عنه رسالة إلى السّلطان العثمانيّ مراد الثالث. وكان ضمن الوفد الفقيه عليّ بن محمد التّمكروتيّ (1003هـ / 1594م) الذي دوّن مشاهداته وانطباعاته أثناء

1- ينظر: فهارس علماء المغرب منذ النّشأة إلى نهاية القرن الثّاني عشر للهجرة (منهجيتها - تطورها - قيمتها العلميّة)، عبد الله المرابط التّرجي، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، ط1، 1420هـ / 1999م، ص559.

2- البستان، ابن مريم، ص83-87.

3- رحلته مطبوعة مع مؤلّف آخر له بعنوان (غنيمة الوافد وبغية الطّالب الماجد) تولّى تحقيقه الأستاذ: محمّد شايب شريف. صدر عن دار ابن حزم للنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ / 2005م.

رحلته التي دامت ثمانية أشهر إلى تركيا ذهابا وإيابا، انطلاقا من تطوان إلى تركيا عن طريق البحر. تناول فيها الوصف الجغرافي للبر والبحر، والوصف العمراني للمعالم المدنية والعسكرية والثقافية للمدن التي زارها، والحياة الاجتماعية والسياسية ببلاد الترك. سمى رحلته (النقحة المسكية في السفارة التركية)⁽¹⁾.

وأما فن الخطابة فعلى الرغم من أن العديد من شخصيات القرن التاسع والعاشر الهجريين يوصفون في كتب التراجم والفهارس وغيرها بالخطباء والواعظين، كوصف البلوي شيخه ابن مرزوق الكفيف (824 - 901 هـ / 1421 - 1486 م) بخطيب الخطباء، وخاتمتهم وصدرهم وجمالهم⁽²⁾، وما تنقله لنا كتب التاريخ من مواقف نسج فيها أصحابها خطبا بليغة، استمالت القلوب، وحيرت العقول، على نحو ما وقع في مجلس الصلح بين أبي العباس محمد البرتغالي الوطاسي وأبي العباس محمد الشيخ السعدي في حدود سنة (942 هـ / 1535 م) حين أحجم عن التقدم لكتابة وثيقة الصلح عدد من الفقهاء الحاضرين هيبة من ذلك المحفل، فاختر عبد الواحد الونشريسي لذلك، فابتدأ في الحين بإنشاء: «خطبة بليغة ونسج الصلح على منوال عجيب، واخترع أسلوبا غريبا تحير فيه الحاضرون، وعجبوا من ثبات جأشه وجموم قريحته في مثل ذلك المشهد العظيم الذي تخرس فيه ألسن الفصحاء هيبة وإكبارا، فقام قاضي الجماعة وقبّله بين عينيه، وقال: جزاك الله عن المسلمين خيرا»⁽³⁾، إلا أننا لا نكاد نظفر بمؤلفات جمعت فيها خطبهم، تمكّن الدارسين من الوقوف على أهم خصائص فن الخطابة في هذه الفترة، سوى ما نجده من خطب للمؤلفين في صدر كتبهم.

ومن أنواع الخطاب النثري أيضا المرائي الصوفيّة، وممن عرف عنه الاهتمام بهذا اللون عبد الرحمن الثعالبي كما مرّ بنا، وقد أورد له صاحب نيل الابتهاج في ترجمته مرأى رأى فيها النبي (ﷺ)، إحداها في الحض على تعلّم الطب⁽⁴⁾.

1- ينظر: مع أبي الحسن التّمكروتي في رحلته إلى القسطنطينيّة، عبد القادر زمامة، مجلّة المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، المغرب، العدد: 25، السنة: 9 (صفر 1403 هـ / 1982 م)، ص 221 - 236.

2- ينظر: ثبت البلوي، ص 218، 238، 246، 295.

3- الاستقصا، السلاوي، ج 4، ص 151، 152.

4- ينظر: نيل الابتهاج، التّبكتي، ص 261.

وممن برز في هذا الخطاب النثري محمد بن عبد الله الفراوسني البجائي (882هـ/1477م) الذي ألف كتابا في هذا الباب سماه (تحفة الناظر ونزهة المناظر)، جمع فيه تسع ومائة رؤيا (109) رأى فيها النبي (ﷺ). سرد في هذا الكتاب مرآئيه مع إدراج المكان الذي رآها فيه وزمانها، بداية بالرؤيا الأولى سنة (851هـ / 1447م)، وانتهاء بالرؤيا الأخيرة التي كانت سنة (861هـ / 1457م)⁽¹⁾.

1- ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، ج1، ص100.

الفصل الأول



من أعلام التّشريع في المغرب الإسلاميّ في
القرنين التاسع والعاشر الهجريّين

يتناول هذا الفصل عددا من قضايا النثر وأعلامه في بلدان المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين، حيث عمدنا إلى ترجمة عدد من الأعلام الذين كانت لهم إسهامات في مختلف الجوانب الحضارية، ونخص أولئك الذين أظهروا اهتماما بالخطاب النثري، وهذا بالوقوف على سيرهم وحياتهم ونشأتهم العلمية وتكوينهم العقلي بشيء من التفصيل، فالتراجم ذات أهمية بالغة في الوصول إلى معرفة الشخصيات الفاعلة في مختلف الحقول الحضارية عبر التاريخ، وبيان مكانتهم العلمية أو الأدبية ونوعية إسهاماتهم من خلال دراسة آثارهم، وفي هذا يقول أحمد زروق: «إنما جعلت التراجم لتعريف المناصب»⁽¹⁾.

ويتناول هذا الفصل أيضا قضايا ذات علاقة بالخطاب النثري، حيث عمدنا إلى اختيار نماذج من خطاباتهم النثرية والشعرية، لأن كثيرا من هؤلاء الأعلام كان لهم اهتمام بالشعر وقرضه وطرقوا مختلف الأغراض الشعرية، حتى إننا وقعنا في حيرة تصنيفية هل ندرجهم ضمن قائمة الشعراء أم الأدباء؟.

وحاولنا الوقوف على أهم الملامح البارزة للخطاب النثري في هذه الفترة وخصائصه، وذلك بتتبع مختلف فنون النثر من رسائل ومقامات ورحلات وخطب وأدب التراجم والسير، وتحليل عدد من النماذج النثرية المختارة تحليلا فنياً وفق إجراءات تقوم على: دراسة بعض السمات الموضوعية والفنية، وتشمل المعجم اللغوي، والتراكيب والجميل، والصورة الفنية وتشكلها، من حيث الوقوف على الأشكال البلاغية، وليس فقط إحصاؤها وإنما معرفة مدى تناغمها وتناسقها داخل نسيج النص، والاهتداء إلى وظائفها، ودورها في تكوين بنية الخطاب⁽²⁾. وكذلك بالوقوف على الجوانب الإيقاعية والاطلاع على أسلوب الأدباء وطريقة إخراج خطاباتهم النثرية موسيقياً أثناء هذه الفترة، وذلك برصد بعض هذه الظواهر كظاهرة التزيين اللفظي والمعنوي من سجع وفواصل وجناس وطباق وغيرها، وذلك لأهميتها في نسيج النص وبناءه.

1- قواعد النصوص وشواهد التعرف، أبو العباس أحمد زروق الفاسي، تحقيق: نزار حمادي، المركز العربي للكتاب، الشارقة، د. ط، د. ت، ص 102.

2- من أهم غايات التحليل الأسلوبية، ينظر: علم الأسلوب، صلاح فضل، ص 294.

ونسعى أيضا إلى جانب الدراسة الفنيّة للخطاب النثريّ أن نستخرج بعض النصوص النقيديّة لهؤلاء الأدباء إن كانت لهم مشاركة في هذا الميدان، والبحث عنها قصد الاطلاع عن كثب على تاريخ النقد الأدبيّ في المغرب الإسلاميّ في هذه الفترة الزمنية، والكشف عن واقع الخطاب النقديّ وطبيعته والوقوف على أهمّ الرّؤى النقيديّة.

اخترنا من أعلام النثر في القرنين التاسع والعاشر الهجريين - ممّن استطعنا أن نصل إليهم وبما توفّر لدينا من المظانّ - سبعة من الأدباء من مختلف أقطار المغرب الإسلاميّ، وربّناهم داخل الفصل ترتيبا تاريخيا يقوم على مراعاة تاريخ وفاتهم، وهذا منهج مطّرد في كامل الفصول، وهم على التّوالي:

- 1- الفقيه عمر بن الحاج المالقيّ (كان حيّا 844هـ / 1441م).
- 2- ابن عاصم الغرناطيّ (ت 857هـ / 1453م).
- 3- أبو عصيدة البجائيّ (ت حوالي 865هـ / 1461م).
- 4- أحمد زروق البرنسيّ (846 - 899هـ / 1442 - 1493م).
- 5- أبو عبد الله التّنسيّ (حوالي 820 - 899هـ / 1417 - 1494م).
- 6- ابن يجّيش التّازيّ (ت 920هـ / 1514م).
- 7- عليّ بن محمّد التّمكروتيّ (941 - 1003هـ / 1534 - 1595م).

ومن الخطابات التي نتناولها بالدراسة الفنيّة بشيء من التفصيل (رسالة الغريب إلى الحبيب) وهي رسالة أبي عصيدة البجائيّ إلى أبي الفضل المشدّاليّ، و(كتاب الجهاد) أو كتاب (تنبيه الهمم العالية على الصّدقة والانتصار للملّة الزاكية، وقمع الشّردمة الطّاغية) في الحضّ على الجهاد في سبيل الله لابن يجّيش التّازيّ. ومن النصوص النقيديّة التي نتناولها بالتّحليل نصّ لأحمد زروق نبّح فيه رؤيته النقيديّة، ونصّان آخران نقديان لأبي عبد الله التّنسيّ نقف على طبيعة الممارسة النقيديّة لديه.

1- الفقيه عمر بن الحاج المالقي (كان حيًا 844هـ/1441م):

1- اسمه ونسبه وكنيته:

هو عمر بن علي بن الحاج السعيد المالقي، كنيته أبو علي، من أهل مالقة وإليها ينسب. انتقل إلى غرناطة وبها استقر، واتصل بالأسرة الحاكمة، فكان كاتباً أيام السلطان الأيسر النصري، كما عين قاضياً، ويظهر أنه كان يعزل عن منصبه كلما عزل محمد الأيسر، وهذا ما يفهم من نص ابن عاصم الابن في التعريف به، حيث كان يولّى تارة ويعزل أخرى⁽¹⁾. لا يعلم له تاريخ ميلاد ولا تاريخ وفاة، غير أنه كان حيًا سنة (844هـ/1441م)⁽²⁾.

2- آراء الآخرين فيه:

الفقيه عمر من طبقة الفقهاء الأدباء المشهورين بالأندلس، يعرف في المصادر بالفقيه عمر، فقد قال فيه المقرئ: «الأديب الشهير الفقيه عمر، الذي لم تزل أخباره إلى الآن سمر... فهو أشهر من نار على علم»⁽³⁾. وقال فيه ابن عاصم الابن وهو يشيد به أديبا كاتباً بليغاً: «صاحبنا الكاتب البار الخصل»⁽⁴⁾ الموهوب النصل...⁽⁵⁾، ولتمكّنه في ميدان الأدب شعره ونثره راح يفضلّه على الفقيه أبي عبد الله الشّرّان، من حيث نوعيّة أسلوبه ومشاركته في كلّ فنون الأدب، ومن حيث حجم ما أنتجه وأثره في المتلقّين حيث كثر إقبال النّاس على أدبه، فقال: «ولا أظنّ الرّئيس أبا عبد الله»⁽⁶⁾ يلحقه في النّفنّ في الأدب، والنّفاذ منه في كلّ أسلوب»⁽⁷⁾.

1- ينظر: روضة الأعلام، ابن الأزرقي، ج2، ص591، 592، 593.

2- وهذا مستفاد من تاريخ كتابة مقامته في الوباء التي كتبها في ربيع الآخر سنة (844هـ/1441م) يدعو فيها السلطان محمد الأيسر إلى الخروج من غرناطة إلى مالقة خوفاً من الوباء، وفيها دليل على علاقته الجيدة التي تجمعها بالسلطان. ينظر: أزهار الرياض، المقرئ، ج1، ص132.

3- المصدر نفسه، ج1، ص116.

4- الخصل هو الذي يصيب ويغلب في الرمي. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (خصل).

5- روضة الأعلام، ابن الأزرقي، ج2، ص592.

6- يقصد أبا عبد الله محمد بن إبراهيم الشّرّان الأندلسي الغرناطي (كان حيًا 837هـ/1433م).

7- روضة الأعلام، ابن الأزرقي، ج2، ص593.

3- خطابه النثري:

على الرغم من شهرة الفقيه عمر ومشاركته في تنشيط الحياة الأدبية بالأندلس وكثرة إنتاجه النثري وتنوعه من رسائل ديوانية وأخرى موجهة للحضرة النبوية وخطب ومقامات، إلا إنه ما وصلنا منه إلا النزر القليل. وقد يكون السبب في ذلك عائد إلى أن أكثر أدبه كان من المحفوظ لدى العامة، فيكون من جملة ما نسي لسبب أو لآخر كالموت أو ما ألم بهم من فتن. والمقري نفسه لم يصرح بمصادره التي نقل منها ما أورده من أدبه المنثور والمنظوم. ومن خطابه النثري المحفوظ؛ مقامتان إحداها المقامة الجدّية وهي مقامة نثرية بحتة، كانت في أمر الوباء الذي وقع بغرناطة، أنهاها في ربيع الآخر سنة (844هـ/1441م)⁽¹⁾. ومضمون هذا النص النثري هو رسالة من الفقيه عمر إلى أهل الحل والعقد بقصر الحمراء بغرناطة يدعوهم فيها إلى العمل على إخراج السلطان محمد الأيسر النصري منها إلى مالقة، وهذا خوفاً عليه من الوباء الذي حلّ بها، ويحثهم على التعجيل ويلومهم على التأخير. وآثر أن يكون الخطاب على لسان مدينة مالقة الوفيّة للسلطان الأيسر إلى غرناطة مقرّ الحكم، حيث افتتح نصّ مقامته بقوله: «إلى حمراء الملك وقلعته، ومقرّ العزّ ومنعته، ومطلع كل قمر نصريّ يخجل الأقدار بطلعته، أبقاها الله على تعاقب الزّمان، منزل أمان ودار إيمان، وأمتعها بحياة الملك الخرجيّ اليمان، من موجبة إجلالها كما يجب، المعترفة بفضلها وشرفها وأنوار الشّمس لا تحتجب، والواقفة عند إشارتها وطاعتها، فإن تأمر أمتل وإن تدعُ أستجب، مالقة، المستمسكة بزمّتها الوثيقة، المتشوّفة إلى أخبارها تشوّف المحبة الشّفيقة، إلى ريحانة قلبها في الحقيقة...»⁽²⁾.

تقوم بنية نصّ المقامة على عدّة محاور كبرى، وهذا بعد أن استفتح رسالته بتحديد المرسل إليه وهو غرناطة والقصد هو مخاطبة أهل العقد والربط بها من وزراء ومستشارين ولومهم في التردد حول الخروج من غرناطة الموبوءة، وثنى بالتّحية والسّلام على السلطان وثلث بالحمدلة والتّصليّة، ثمّ خلص إلى إيضاح الدّافع النّفسيّ لكتابة خطابه النثريّ وبيان مراده وغايته⁽³⁾.

1- ينظر: أزهار الرّياض، المقريّ، ج1، ص116 - 125.

2- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص125.

3- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص125، 126.

ضمّن الفقيه عمر هذا النصّ كثيرا من المناقشات الفقهية حول مشروعية الخروج من البلد الذي حلّ به الطّاعون، وانتهى إلى القول بأنّ الاحتجاج بحديث رسول الله (ﷺ) في الطّاعون ليس على ظاهره كما يبدو، ولكنّ الأمر الوارد في النصّ هو على سبيل الإرشاد وليس على وجه الإلزام⁽¹⁾، ونصّ الحديث هو: «الطّاعون رجسٌ أرسلَ على طائفةٍ من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرضٍ، فلا تقدّموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ، وأنتم بها فلا تخرجوا، فرارا منه»⁽²⁾،

كما أثار مسائل في العقيدة وأورد حججا عقلية حاول إقناع المتردّين والمتحجّجين بالقضاء والقدر والقائلين بوجوب التسليم في مثل هذه الحال، فقال: «وأنا أقول: أمّا واجب التسليم لتقدير العزيز العليم فمتأكّد شرعا، لا يضيق به مؤمن ذرعا، لكن ما يفعل المستسلم بالروح والجسد إذا قيل له اهرب من الأسد، وقد أبصره مقبلا إليه أو منقضا عليه، يأخذ في تحفظه واحتراسه أم يصبر لافتراسه؟...»⁽³⁾. واعتمد على الموازنة والمقارنة للإشادة بمدينة مالمقة ذات الهواء النقي والطبيعة الخلابة، وموطن الوفاء والولاء للسلطة بغرناطة، وردّ على من انتقص قدرها⁽⁴⁾، ولولا موضوع الوفاء لقلنا إنّها رسالة في المفاضلة بين مالمقة وغرناطة. ثمّ يختم كتابه بدعوة غرناطة برّد جواب مقنع في أمر الوفاء، مع تحية وسلام للسلطان ودعاء له، وينهيها بتدوين تاريخ الانتهاء من مقامته⁽⁵⁾.

أمّا من الناحية الفنية فإنّ هذا الخطاب النثريّ سمّي تجوّزا مقامة⁽⁶⁾، حيث لم يلتزم صاحبها بالبنية الفنية للمقامة المشرقية، بل هي نصّ رسالة طويل، وهذا ما صرح به الفقيه عمر نفسه

1- ينظر: أزهار الزّياض، المقرّي، ج1، ص129.

2- صحيح البخاريّ، محمّد بن إسماعيل البخاريّ، تحقيق: محمّد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النّجاة، ط1، 1422هـ، ج4، ص175، رقم: 3473.

3- أزهار الزّياض، المقرّي، ج1، ص127.

4- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص128، 129، 130.

5- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص131، 132.

6- المقرّي عدّها مقامة، ولكنّه احترز بقوله: «وإن كان بعض فصولها لا يجري على المشهور من مذاهب العلماء». المصدر نفسه، ج1، ص125.

على لسان مدينة مالقة: «ومبنى هذه الرسالة إليك على قولهم (الشفيق مولع بسوء الظن)»⁽¹⁾. وهذا التداخل بين فنيّ المقامة والرسالة هو تقليد أندلسيّ جنح له عدد من الأدباء الأندلسيين، ولم يتقيد أكثرهم بالبنية الفنيّة للمقامة المشرقيّة، فلم تحضر شخصيّة الراوي والبطل، وغابت حكاية الكدية، وأخذت شكل الرسالة تحققت فيها العناصر المكوّنة لها (الاستفتاح، الغرض، الخاتمة)، وعولجت فيها موضوعات مختلفة، وأضحت المقامة مجالا لإبراز البراعة الفنيّة والبيانّة⁽²⁾.

وأما المقامة الثّانية فهي ذات طابع هزليّ، سمّاها (تسريح النّصال إلى مقاتل الفصّال)⁽³⁾ تعدّ من المقامات الاجتماعيّة، وهي آخر مقامات الكديّة المحفوظة في تاريخ الأندلس⁽⁴⁾. من أهمّ سماتها إخراجها في قالب شعريّ؛ فهي مقامة شعريّة نونيّة طويلة بلغ عدد أبياتها ثلاثة وثمانين بيتا (83)، افتتحها صاحبها بمقدّمة نثرية، جاءت في طابع أدبيّ هزليّ، حوت أبياتا أفحش فيها صاحبها وأقذع، ولذا رأى المقرّي أن يضرب عنها صفحا في كتابه (أزهار الرّياض) وأثبتها في (نفح الطّيب)⁽⁵⁾. بطل هذه المقامة رجل اسمه (الفصّال) صاحب حيل ومكر وخديعة، يظهر في صورة صاحب طريقة صوفيّة عليه لباس المتصوّفة ليخدع النّاس وينال مرغوبه، فهو راهب بالتهار وفاجر بالليل، وقد أوتي من خلاصة اللّسان ما يسحر الألباب، ويبدأ الفقيه عمر بمقدّمة نثرية ساخرة تهكميّة، أغفل الاستفتاح بالتّحديث من الراوي، مخالفا بذلك ما عهدناه في مقامات بديع الزّمان والحريريّ، وراح يتابع حركات البطل، فهو قد خبر الفصّال من قبل ورافقه وهو أعلم النّاس بأسراره وحيله، قائلا: «يا عماد السّالكين، ومحطّ رحال المستفيدين والمتبرّكين وثمان الضّعفاء والمساكين والمتروكين، في طريقك يتنافس المتنافس، وعلى أعطافك تزهى العبارات

1- أزهار الرّياض، المقرّي، ج1، ص116-125.

2- ينظر: المقامات الأندلسيّة من القرن الخامس إلى القرن التاسع (دراسة استقصائيّة - تاريخيّة - تحليليّة - أسلوبيّة)، شريف علاونة، وزارة الثقافة، عمّان، المملكة الأردنيّة الهاشميّة، ط1، 1429هـ / 2008م، ص301، 302.

3- ينظر: أزهار الرّياض، المقرّي، ج1، ص116، 125.

4- هذا الحكم أرسله صاحب كتاب (المقامات الأندلسيّة) بناء على السّنة التي كتبت فيها هذه المقامة، ولكنّه وقع منه سهو، فالسّنة التي ذكرها هي التي أنهى فيها الفقيه عمر مقامته في الوباء وليست هذه المقامة. ينظر: المقامات الأندلسيّة، شريف علاونة، ص271.

5- ينظر: نفح الطّيب، المقرّي، ج5، ص44.

وتروق الدّلافس؛ وبكتابك تحيا جوامد الأفهام، وبمذبتك تشرد ذباب الأوهام... وبعصاك يهش على بدائع المعارف»⁽¹⁾. ثمّ راح يترجّاه أن يكون مريده وتابعه ليتعلّم منه أنواع العلوم ويتلقّى عنه فنون الحيل، حتى يصير ذا مكانة اجتماعيّة بعد أن أضحي منبوذا مطرودا عن كلّ مجلس صوفيّ، أي أنّه أخفق في الاحتيال على النّاس، فقال: «الله الله في سالك ضاقت عليه المسالك، وشاد رُمي بالبعاد، أدركته متاعب الحُرفة، وأقيم من صفّ أهل الصّفة؛ فلا يجد نشاطاً على ما يتعاطى، ولا يلقي اغتباطاً، وإن حلّ زاوية أو نزل رباطاً أقصي عن أهل القرب والتّخصيص... فأحيل عليك، وتوقفت إقالته على توبة بين يديك...»⁽²⁾. ثمّ خلص إلى قصيدته التي دعاه فيها إلى العود إلى الحيل السّاسانيّة، والحنف بالأيمان المغلّظة على الوفاء دون خداع ولا مكر من أحدهما، وهذا كلّ بعد أن سأله أن يصغي إليه ويقبل عرضه دون إعراض ولا تعريض - فقال - الطّويل -⁽³⁾:

تَعَالَ نَجِدْهَا طَرِيقَةَ سَاسَانِ	✽	وَعَضَّ عَلَيْهَا مَا تَوَالَى الْجَدِيدَانِ
وَنَصْرِفُ إِلَيْهَا مِنْ مُثَارِ عَزَائِمِ	✽	وَنَحْلِفُ عَلَيْهَا مِنْ مُوَكَّدِ أَيْمَانِ
وَنَعْقِدُ عَلَى حَكْمِ الْوَفَاءِ هَوَاءَنَا	✽	لِنَأْمَنَ مِنْ أَقْوَالِ زُورٍ وَبُهْتَانِ
وَنُقْسِمُ عَلَى أَلَا نُصَدِّقَ وَاشِدِيَا	✽	يَرُوحُ وَيَغْدُو بَيْنَ إِثْمٍ وَعُدْوَانِ
يَطْرُقُ حَوَالَيْنَا لِيُفْسِدَ بَيْنَنَا	✽	بِمَنْطِقِ إِنْسَانٍ وَخُدْعَةِ شَيْطَانِ
عَلَى أَنَّنا مِنْ عَالَمٍ كُلَّمَا بَدَا	✽	تَعَوَّذَ مِنْهُ عَالَمُ الْإِنْسِ وَالْجَانِ

وبعدها راح يبين عن شخصيّة الفصّال الحقيقيّة المتخفيّة وراء الهيئّة الصّوفيّة، ويفضح تصرفاته الماجنة، في ثتاي هذه القصيدة، بأسلوب ساخر هزليّ، منها قوله⁽⁴⁾:

وَيَا بَابِي الْفَصَّالُ شَيْخُ طَرِيقَةٍ	✽	خَلُوبٌ لِأَلْبَابِ لَعُوبٍ بِأَذْهَانِ
إِذَا جَاءَ فِي الثُّوبِ الْمُحْبَرِ خِلْتُهُ	✽	زُنَيْبِرَةٌ قَدْ مُدَّ مِنْهَا جَنَاحَانِ

1- أزهار الرّياض، المقرّي، ج1، ص117.

2- المصدر نفسه، ن. ص.

3- المصدر نفسه، ج1، ص117، 118.

4- المصدر نفسه، ن. ص.

فَمَا تَأْمَنُ الْأَبْدَانُ آفَةً لَسَعِهَا ❁ وَإِنْ أَقْبَلَتْ فِي سَابِغَاتٍ وَأَبْدَانٍ
سَادَعُوكَ فِي حَالَاتٍ كَيْدِي وَكُدَيْتِي ❁ بِشَيْخِي سَاسَانٍ وَعَمِّي هَامَانٍ

ونسجل حضورا كثيفا للتناص الديني والثقافي والتاريخي، فقد أدرج كثيرا من الشخصيات والمؤلفات والأحداث التاريخية والدينية والأدبية الإسلامية وغيرها، وهذا يعكس موسوعية الفقيه عمر، وتحس أنه جعل من مقامته فسحة لإظهار هذه موسوعيته وبراعته النثرية والشعرية. وميوله إلى توظيف الخطاب الماجن والفاحش في مقامته الشعرية - حسب المقرئ - قصد الترويح عن النفوس، فالمقامة من جنس الخطابات النثرية التي هي من المغتفر لدى الناس من هذا النوع من الكلام⁽¹⁾.

4- خطابه الشعري:

يعدّ الفقيه عمر من الأدباء الذين جمعوا بين النثر والشعر، حيث نظم قصائد في أغراض مختلفة، غير أن شعره يعدّ في حكم المفقود، ولم يصلنا منه إلا القليل. ومن الأغراض التي شارك فيها شعر التّهاني، وقد وصف ابن عاصم تألقه في قرض الشعر وخوضه في مختلف أغراضه: «... واختلق في التّهاني القصائد، وابتدع في سنى الأغراض المذهبات القلائد»⁽²⁾. ويرى المقرئ⁽³⁾ أن شعر الفقيه عمر أفضل من نثره، سار وفق طريقة أبي العلاء المعري⁽⁴⁾. وأغلب خطابه الأدبي يميل إلى الهزل، كما أن المقرئ أورد له مقطوعات غرضها ديني، ويبدو أنها كانت في آخر حياته، فهو يترجى فيها الله أن يغفر له، ويعتذر إليه ممّا جناه، ويسأل حسن الخاتمة، مع دعوة الذين استمتعوا بشعره ونثره إلى الترحم عليه بعد موته⁽⁵⁾.

1- ينظر: أزهار الرياض، المقرئ، ج1، ص124، 125، ج3، ص103.

2- روضة الأعلام، ابن الأزرقي، ج2، ص593.

3- ينظر: أزهار الرياض، المقرئ، ج1، ص132.

4- ولم يفصح عن وجه الشبه بينه وبين الخطاب الشعري للمعري، ولعلّه في لزوميّاته.

5- ينظر: أزهار الرياض، المقرئ، ج1، ص132.

الفقيه عمر من أشهر الزجالين في الأندلس في هذه الفترة، حتى عرف بعمر الزجال⁽¹⁾، بيد أن خطابه الزجليّ معدود في حكم المفقود، إلا تلك المقطوعة الزجلية التي حفظها الوزير الغسانيّ في مؤلفه الطيّب (حديقة الأزهار)، وموضوع المقطوعة التّغنيّ بجمال غرناطة، يقول منها⁽²⁾:

غَرْنَاطَةُ فِتْنَةٌ لِلْبَشَرِ * * * آخر النَّهَارِ وَزَهْرُهَا بِيَدِي
قَرَبٌ وَصَلَّ وَعَدِّي
وَالْحَمْرُ لَا زَمَ تَنْدَكُرُ * * * مَعَ الدُّشْرِ، مَعَانِيهَا تَبْدِي
زَيْدَتُ بِخَلْدِي * * * *
وَأَطْرَافُ الدُّمَارِ * * * قَدْ زُخِرَتْ بِالْجَنَارِ
صَفَرٌ وَآخِرُ دِيْدِي * * * خَلْفُوْنِي وَعَدِي
الْبِنْفَسَجُ حِينَ شَدَا * * * مَا أَعَزَّ عَلَيَّ كَبْدِي
مَا أَنَا وَحْدِي * * * *

يبدو من النصّ أن عمر الزّجال كان مغرماً بجمال غرناطة، فراح يصف جمال حدائقها الغناء وثمارها ورياضها وأزهارها لحظات قبيل غروب الشّمس.

5- خصائص أدبه:

يقوم الأسلوب الأدبيّ للفقيه عمر على المزوجة بين المتقابلات، فقد زواج بين الأدب الهزليّ والجديّ، وبين الأسلوب المسجوع والمرسل، وتوظيف اللّغة الفصيحة الرّاقية واللّغة المبتذلة، وميله إلى استعمال اللّغة العامية باعتبارها القاسم المشترك بين مختلف طبقات المجتمع، وهي تستهوي أكبر شريحة من النّاس وتستقطبهم، حيث أقبلوا على أزجاله ومقاماته سماعاً وحفظاً، فكان إنتاجه من الأدب السّائر في الأندلس بين العامّة، وفي هذا يقول ابن عاصم وهو يعدّ ألونا من هذا النوع الأدبيّ الشّعبيّ: «... الأزجال والملاعب والمزوّجات والمقالب والنّوادر

1- ينظر: حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار، أبو القاسم بن محمّد بن إبراهيم الغسانيّ (الشّهير بالوزير)، تحقيق: محمّد العربي الخطّابيّ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، لبنان، ط2، 1410هـ / 1990م، ص84.

2- المصدر نفسه، ص85.

والمضحكة المغربية، والمقامات المطرفة المطربة، فهناك يتمكّن المبنى، ويتبادر للفهم المعنى، ويتوصّل لتحصيله الكهل والوليد والذكّي والبليد، والحاضر والبادي والمبتدي والشّادي، والكاتب والأمّي والخاصّي والعامّي»⁽¹⁾. وقد كان الفقيه عمر مبرزاً في هذا النوع من الخطاب الأدبيّ، ممّا حدا بالطّبقة المثقّفة إلى رفضه⁽²⁾.

أمّا أدب الفقيه عمر الفصيح فهو من أدب الطّبقة التي برعت في الأدب بالأندلس ذلك الوقت، وأبدعت في نسج الخطابات في مختلف الأغراض والموضوعات، لم يترك الفقيه عمر نوعاً من أنواع الأدب إلّا وخاض فيه - على حسب وصف ابن عاصم: «... لو تعلّقت المعاني بالعنان لاسترلّتها بلاغته من صياصياها، ولو استصعبت شوارد القوافي لأمكنته جزالته واقتداره من نواصياها... ولا نوع من أنواع الأدب إلّا وقدحه فيه المعلّى، وتاجه من أصناف يواقيته المحليّ»⁽³⁾. حسب قول ابن عاصم فإنّ الفقيه عمر أظهر براعة في نسج الخطابات، وأبدع في تحرير الرّسائل الديوانيّة والمراسيم السّلطانيّة وأتى بجديد لم يسبق إليه من قبل في هذه الفنّ، حيث قال: «واخترع في الكتب السّلطانيّة فنونا خالف فيها الطّرق الشّهائر»⁽⁴⁾، ولا ندري هل ما اخترعه الفقيه عمر من حيث الشّكل أو المضمون؟ أم أنّ ابن عاصم قد بالغ في تركيته؟. ما دما لم نقف على نماذج من خطابه السّلطانيّ فإنّنا لا يمكننا معرفة هذا التّجديد الفنّي في تحرير الظّهائر السّلطانيّة.

1- روضة الأعلام، ابن الأزرقي، ج2، ص591، 592، 593.

2- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

3- المصدر نفسه، ج2، ص594.

4- المصدر نفسه، ج2، ص593.

2- ابن عاصم الغرناطي (ت857هـ / 1453م):

1- اسمه ولقبه وأسرته:

هو محمد بن أبي بكر محمد بن محمد بن محمد بن عاصم القيسي الغرناطي الأندلسي المالكي، كنيته أبو يحيى⁽¹⁾. لم تفصح الكتب التي ترجمت له عن سنة ولادته، غير أنه حسب بعض المعطيات يرجح أنها كانت بين عامي (794 - 799هـ / 1392 - 1397م)⁽²⁾. سليل بيت غرناطي اشتهر بالعلم والأدب والقضاء والجهاد، كان لأفراده دور بارز في تنشيط الحياة الثقافية وأثر في الحياة السياسية بغرناطة. وهذا ما يوضحه نص الظهير السلطاني - الصادر في صفر سنة (857هـ / 1453م)، والقاضي بتولية أبي يحيى ابن عاصم ناظرا في شؤون الفقهاء - جاء فيه: «... ألا وإن بيته هو البيت الذي طلع في أفقه كل كوكب وقاد ممن رسخ به للعلوم اتقاء وانتقاد، وتراءى به للمدارك وانتقاد، فأعظم بهم أعلاما وصدورا وأهلة وبدورا، خلدت ذكرهم الدواوين المسطرة، وسرت في محامدهم الأنفس المعطرة»⁽³⁾. كان منهم الوالد أبو بكر العالم الفقيه القاضي والكاتب صاحب الأرجوزة في القضاء (تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام)، نبه المنشور الملكي على جملة من فضائله: «... كبير العلماء شهير العظماء، حجة الأكابر والأعيان، مصباح البلاغة والبيان، قاضي القضاة وإمامهم، أوجد الجلة وطود شمامهم، الشيخ الفقيه أبي بكر بن عاصم...»⁽⁴⁾. ومنهم العم أبو يحيى العالم الإمام الخطيب الكاتب الشهيد في معركة أنتقيرة (محرم 813هـ / ماي 1411م)⁽⁵⁾. هو بيت كما وصفه ابن الأزرقي في قصيدته المدحية⁽⁶⁾ - الكامل - :

1- أورد هذا النسب صاحب نيل الابتهاج، التنبكتي، ص 537، رقم: 651. وأضاف كلمة (القرشي) صاحب إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي، تحقيق: محمد شرف الدين بالنقايا رئيس أمور الدين، والمعلم رفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت، ج 1، ص 369.

2- هذا ما رجحه صلاح جرار بعد تتبع بعض المعطيات التاريخية. ينظر: مقدمة جنة الرضا، ابن عاصم، ج 1، ص 36، 37.

3- أزهار الرياض، المقرئ، ج 1، ص 175.

4- المصدر نفسه، ج 1، ص 173.

5- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص 483، 484.

6- أزهار الرياض، المقرئ، ج 3، ص 320، 321.

بَيِّنْتُ عَلَى عَمَدِ الْفَخَارِ مُطَنَّبٌ ❁ مَجْدٌ عَلَى مَتْنِ السَّمَاءِ مُؤَسَّسٌ

2 - شيوخه:

ابتدأ ابن عاصم حياته العلمية بغرناطة وتلقَّى علومه على أشهر علماء غرناطة، منهم والده أبو بكر وعمّه أبو يحيى، وابن سراج الغرناطيّ وأبو عبد الله المُنْتَوَرِيّ (ت834هـ / 1430م) وأبو عبد الله محمد بن محمد البيّانيّ (ت876هـ / 1472م) وغيرهم⁽¹⁾.

3 - تلامذته:

لم تفصح المصادر التي بين أيدينا تصريحاً عن الذين أخذوا عن ابن عاصم، ولكنّ محقّق (جَنَّة الرِّضَا) لابن عاصم ذكر منهم ثلاثة⁽²⁾: ابن الأزرق الغرناطيّ (831 - 896هـ / 1428 - 1491م)، أبو عبد الله محمد بن يوسف الغرناطيّ الشَّهير بالمواق (897هـ / 1492م)⁽³⁾.

4 - آراء الآخرين فيه:

لقي ابن عاصم ثناء طيّباً وذكرنا حسناً من لدن العلماء والأدباء وأصحاب التّراجم من معاصريه وغيرهم، فراحوا يخلعون عليه ألقاباً كثيرة ومتنوّعة عكست مكانته العلميّة والأدبيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة، فوصف في الظَّهير الملْكِيّ ب: «إمام الأئمّة وعلم الأعلام وعماد ذوي العقول والأحلام، وبركة حملة السيّوف والأقلام، وقُدوة رجال الدّين وعلماء الإسلام»⁽⁴⁾. وقال عنه المقرّي: «الإمام العلّامة، الوزير الرّئيس، والكاتب البليغ الجليل الخطيب الجامع الكامل، الشّاعر المُفْلِق النّاثِر، الحجّة والخاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق... السيّد الأستاذ العلم الصّدر المفتي القاضي رئيس الكتّاب، ومعدن السّماحة، ومنبع الآداب سيّدي أبي يحيى ابن

1- ينظر: نيل الابتهاج، التَّنْبِكِيّ، ص537.

2- ينظر: مقدّمة جَنَّة الرِّضَا، ابن عاصم، ج1، ص36، 37.

3- ذكر صلاح جرّار في مقدّمة تحقيق كتاب (جَنَّة الرِّضَا) أنّ المواق من تلامذة ابن عاصم، ويبدو الأمر مستبعداً كون صاحب (شجرة النّور الزّكيّة) عند ذكر شيوخه أدرج عبارة (محمد بن عاصم) دون قيد، ممّا يفتح عدّة احتمالات بين الابن والوالد، ولكن عندما ذكره ضمن طبقة المُنْتَوَرِيّ وابن سراج وكلّهم شيوخ ابن عاصم الابن، وكذا المصادر التي أشار إليها لا تصرّح بشيء، ومن ثمّ يترجّح لدينا مشيخة ابن عاصم الوالد للمواق وليس الابن. ينظر: شجرة النّور الزّكيّة في طبقات المالكيّة، محمد بن محمد بن عمر بن قاسم بن مخلوف، خرّج حواشيه وعلق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط2، 2010م، ج1، ص378، رقم: 988.

4- أزهار الرّياض، المقرّي، ج1، ص173.

عاصم - رحمه الله ورضى عنه -⁽¹⁾، وقال عنه: «كان آية الله في النظم والنثر»⁽²⁾. وقال عنه التنبكتي: «... العلامة الحافظ النظار الوزير الجليل الرئيس المعظم الكاتب الخطيب البليغ الشاعر الفصيح الجامع الكامل، ذكر أنه تولى اثنتي عشر [عشرة] خطّة في وقت واحد»⁽³⁾. أثنى كثير من الأدباء على ابن عاصم، وراح عدد من الشعراء يمدحه، فتناول شعرهم مناقبه وفضائله. ومن هؤلاء تلميذه ابن الأزرق الغرناطي، حيث مدحه بقصيدة سينية، أوردتها المقرئ في كتابيه (نفح الطيب)⁽⁴⁾ و (أزهار الرياض)⁽⁵⁾ مطلعها - الكامل - :

خَضَعْتَ لِمَعْطِفِهِ الْغُصُونُ الْمَيْسُ ❁ وَرَدَا فَهَا بِمُقْلَتَيْهِ الذَّرْجُسُ

5- وظائفه:

إن كثرة النصوص التي اقتصرت ألقابا لابن عاصم أغلبها مستوحى من الوظائف الكثيرة التي شغلها بمملكة غرناطة، كان منها اثنا عشر منصبا دينيا وسياسيا وإداريا شغله في زمن واحد؛ منها توليته منصب قاضي الجماعة سنة (838هـ/1434م)⁽⁶⁾، ونظرا لكفاءته ومكانته العلمية، وحسن سيرته في القضاء، كلفه السلطان محمد الأيسر بمهام أخرى؛ إذ عُيِّن بعد وفاة والده أبي بكر كاتباً بالديوان الملكي وأمين سره: «إلى أن أحله قضاء الجماعة درّة أفاقه الأصعد، وبوّأه عزيز ذلك المقعد؛ فشرف الخطّة... والمجلس السلطاني - أعلاه الله تعالى - يختصه بنفسه... إلى أن خصّه بالكتابة المولوية، ورأى له في ذلك حق الأولوية؛ إذ كان والده المقدّس - نعم الله ثراه ومنحه السعادة في أخراه - مشرف ذلك الديوان»⁽⁷⁾. ثم اختير سنة (857هـ/1453م) مشرفا على أحوال الفقهاء والقضاة والخطباء والكتاب وناظرا في شؤونهم المادية والمعنوية بمملكة بني نصر كلّها⁽⁸⁾.

1- أزهار الرياض، المقرئ، ج1، ص145، 146.

2- المصدر نفسه، ن. ص.

3- نيل الابتهاج، التنبكتي، ص537.

4- نفح الطيب، المقرئ، ج6، ص151.

5- أزهار الرياض، المقرئ، ج3، ص320.

6- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص537.

7- أزهار الرياض، المقرئ، ج1، ص176.

8- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص178.

أخذ ابن عاصم على نفسه النصح للمسلمين ودعوتهم إلى الاتحاد ونبذ الفرقة، والتحذير من المعاهدات المذلة مع النصارى، ويظهر ذلك جلياً في الرسالة التي كتبها لأهل غرناطة، مبيناً فيها شروط الظهور والانتصار وأسباب الضمور والانكسار⁽¹⁾.

6 - محنته:

مرّ ابن عاصم بكثير من المواقف الصعبة والمحن نتيجة الصراعات السياسية الداخلية، بداية بسجن والده سنة (814هـ/1411م) أيام السلطان يوسف الثالث ممّا دفعه للتخفي في بيت أحد أصحابه سبعة أشهر خشية الاعتقال⁽²⁾. وفي عهد السلطان أبي عبد الله محمد بن نصر الأيسر الذي قرب ابن عاصم وجعله من خاصته، كان الخطر يحيق به كلما خلع سلطانه. وهو ذا يقصّ بعض ما عاشه أيام السلطان أبي الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر من خوف شديد على نفسه وأهله، وكان شاهداً على ذهاب ماله وتدمير أملاكه وتخريب دوره، من بعض وزراء السلطان ومقربيه غلاً وحسداً: «... فإنّ أرباب دولته كان من رأيهم الأنكد إغراء العامة بي، وتسليط الرّاع على جهتي، فوقع من توعّدهم بهدم الدّور وخراب الأملاك، ما كان مقتضى الحال شاهداً بوقوعه ودليلاً على حصوله»⁽³⁾.

7 - وفاته:

كان ابن عاصم من جملة النّخب الذين كانوا ضحايا الفتن والتّقلبات السياسية التي ألمّت بغرناطة، إذ تمّ قتله ذبحاً أواخر سنة (857هـ/1453م)⁽⁴⁾.

8 - مؤلفاته:

خلف ابن عاصم عدداً من المؤلفات في الفقه والتّراجم والفهارس وغيرها منها:

1- (جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى) ألفه بعد سنة (850هـ/1446م) وهو كتاب موضوعه المحن والابتلاءات وأنواعها ومظاهرها وسبل مواجهتها. وقد استشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال والحكم والحكايات والأشعار والأحداث التاريخية، عكست موسوعية

1- ينظر: نفح الطيب، المقرئ، ج1، ص507 - 510.

2- ينظر: جنة الرضا، ابن عاصم، ج3، ص57، 58.

3- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص180.

4- ينظر: نيل الابتهاج، التّنكّي، ص537.

ابن عاصم العلمية والأدبية والتاريخية، مع ربط الحدث التاريخي بواقع الحال المرير في غرناطة في عصره، ولعلّه من الحوافز التي دفعته لتأليف هذا الكتاب⁽¹⁾.

2- شرح على أرجوزة والده (تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام) في أحكام القضاء⁽²⁾.

3- (الروض الأريض في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقريض) وهو ذيل للإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، يقع في عدة مجلدات⁽³⁾. يبدو من خلال العنوان أنّ الكتاب يتناول ترجمة سلاطين بني نصر والكتّاب والشعراء بغرناطة. وهو من كتب التراث المعدودة في حكم المفقود⁽⁴⁾.

4- له تقييد عزّف فيه أهل بيته ذكره صاحب نيل الابتهاج وأفاد منه في ترجمة أعلام من أسرة ابن عاصم⁽⁵⁾.

5- وله في الفقه تعليقات في مسائل فقهية⁽⁶⁾.

9- خطابه الأدبي:

يعدّ ابن عاصم من طبقة الأدباء والبلغاء الذين أحكموا صناعة الأدب نثرا وشعرا بالمغرب الإسلامي في القرن التاسع الهجري. فهو شخصية أدبية وسياسية جمع بين الأدب والعمل السياسي والإداري، فكان وزير القلم النصريّ، وشاعرا وكاتباً بارعا، لأجل ذلك عرف في الأندلس بابن الخطيب الثاني، ووجه التشبيه من حيث البلاغة والبراعة والرئاسة والسياسة⁽⁷⁾.

1- الخطاب النثري:

كان الخطاب النثريّ لابن عاصم مجالا هاما أظهر فيه براعته الإنشائية وعالج من فنون النثر الرسائل الديوانية بحكم وظيفته الإدارية لدى البلاط النصريّ، غير أنّه لم يصلنا من ذلك

1- ينظر: مقدّمة جنة الرضا، ابن عاصم، ج1، ص73-82.

2- حقّقه إبراهيم عبد سعود الجنابي مع مقارنة مع المذاهب الإسلامية الأخرى في ثلاث مجلدات، صدر دار ابن حزم، 2013م.

3- ينظر: أزهار الرياض، المقرّي، ج1، ص145.

4- ينظر: نفح الطيب، المقرّي، ج6، ص146، 147.

5- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص483.

6- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

7- ينظر: نفح الطيب، المقرّي، ج5، 22، ج6، ص148، 162.

شيء، وأوكل إليه تحرير المنشورات الملكية والحجج الوقفية⁽¹⁾. وله أيضا في الرسائل الإخوانية، وبين أيدينا رسالة بعثها إلى القاضي أبي القاسم بن محمد بن طركاط العكي (ت بعد 854هـ/ 1450م) في أوائل ذي الحجة عام خمسة وأربعين وثمانمائة (845هـ/ 1441م)، يشيد فيها بابن طركاط قاضيا، ويذكره خطورة وظيفة القضاء، وما ينبغي أن يكون عليه القاضي من عدل وذكاء وفطنة وسعة علم لإحقاق الحق ودحض الباطل، فقال: «القضاء - حفظ الله تعالى كمالك وأنجح آمالك - إذا لم يحطه العدل من كلا جانبيه سبيل معوج، ومذهب لا يوافق عليه مناظر ولا ينصره محتج، كما أنه إذا حاطه العدل جادة للنجاة، وسبب في حصول رحمة الله تعالى المرتجاة، وسوق لنفاق بضاعة العبد المزجاة، وأجمل العدل ما تحلى به في نفسه الحكم، وجرى على مقتضى ما شهدت به الآراء المشهورة والحكم، حتى يكون عن البغي رادعا، وبالقسط صادعا، ولأنف الأنفة من الإذعان للحق جادعا...»⁽²⁾.

ثم ضمن خطابه شيئا من العتاب بسبب انمياز ابن طركاط بمراسم خاصة، خرج عن المتعارف عليه بين القضاة، منها ما هو راجع إلى طريقة تسييره مجلس القضاء؛ من طول الاحتجاب عن الناس، وردّ الشفاعات، والمغالاة في أجرته، وفي كيفية الحكم بين الناس التي تقوم أحيانا على الحكم بالتوايا دون سماع للمتحاكمين، ومنها ما هو عائد إلى طريقة ملبسه التي خالف فيها غيره من القضاة، فقال: «وأنت - حفظك الله تعالى - قد قمت من غلظ الحجاب بالمقام المعصوم، ومثلت من سعة المنزل في الفضل والطول كالشهر المصوم، والباب قد سدّ، وداعي الشفاعة قد ردّ، والميقات للإذن قد حُدّ، ومطلب الأجرة المتعارفة قد بلغ الأشد... بحيث تحدّ لخلع النعلين حدّا لا يتجاوز طواه، وتسدّ في بعض الأوقات الباب سدّا لا ترفع بالمحاجر كواه، وتفصل بين الخصمين أحيانا بالنّية دون الكلام ولكلّ امرئ ما نواه... وقد امتزت عن سواك من القضاة بمراسم لا تليق بجملتهم معارفها، وتخصّصت عنهم بملابس تعجّ عجيجا من

1- له نصّ وثيقة وقفية حررها سنة (829هـ/ 1426م) بعد تحبّيس السلطان الغالب بالله نسخة من كتاب الإحاطة لابن

الخطيب على المدرسة اليوسفية بغرناطة. ينظر: نفح الطيب، المقرّي، ج7، ص103-105.

2- المصدر نفسه، ج6، ص153.

جذامهم مطارفها»⁽¹⁾. ويتابع اللوم والعتاب بسبب تقاعسه عن ردّ جوابٍ للرسالة التي أرسلها إليه، والتي لم يكلف نفسه عناء ردّ جوابها، ولم يحفل به⁽²⁾.

ولابن عاصم كذلك رسائل موجّهة إلى الحضرة النبويّة تعكس شوقه لزيارة قبر النبي (ﷺ)، تقليداً لمن سبق من أدباء المغرب الإسلاميّ قبله كالقاضي عياض (476- 544هـ / 1083- 1149م)⁽³⁾ وغيره. وهذا ما يفهم من قوله⁽⁴⁾ - الخفيف -:

وَبُودِّي لَوْ أَسْعَدَ الدَّهْرُ قَصْدِي ❁ فَيَدَالِ الْبِعَادُ مِنْهُ بِقُرْبِ
وَيَزُورَ اللَّحْدَ الْمُقَدَّسَ جِسْمِي ❁ بَعْدَ أَنْ لَمْ أُرْزَهُ إِلَّا بِكُتُبِ

وتناول ابن عاصم النثر التّأليفيّ والنثر الوصفيّ للشّخصيات والأعلام، وقد نقل لنا المقرّي نصّاً في ترجمة السّلطان الغنيّ بالله محمّد بن يوسف بن إسماعيل النّصريّ (739- 793هـ / 1339- 1391م) تحت عنوان (شموس العصر من ملوك بني نصر)، وناقنا من سيرة وزيره لسان الدّين ابن الخطيب (713- 776هـ / 1313- 1374م)، وترجمة لعصريّه إبراهيم ابن فتوح العقيليّ (ت 867هـ / 1463م)⁽⁵⁾. ومن فهرسته نصّ في ترجمة والده أبي بكر، يقول فيه: «إِنْ بَسَطْتُ الْقَوْلَ أَوْ عَدَدْتُ الطَّوْلَ، وَأَحْكَمْتُ الْأَوْصَافَ وَتَوَخَّيْتُ الْإِنْصَافَ، أَنْفَدْتُ الطَّرُوسَ وَكُنْتُ كَمَا يَقُولُ النَّاسُ فِي الْمَثَلِ مِنْ مَدْحِ الْعُرُوسِ»⁽⁶⁾، وإن أضريت عن ذلك صفحاً فلبئسما صنعت، ولشّر ما أمسكت المعروف ومنعت، ولكم من حقوق الأبوّة أضعت، ومن ثدي للمعقّة رضعت، ومن شيطان لغمصّة الحقّ أطعت، ولم أرد إلاّ الإصلاح ما استطعت، وإن توسّطت واقتصرت وأوجزت واختصرت فلا الحقّ نصرت، ولا أفنان البلاغة هصرت، ولا سبيل الرّشد أبصرت ولا عن هوى الحسدة أقصرت...»⁽⁷⁾.

- 1- نفح الطّيب، المقرّي، ج6، ص154.
- 2- ينظر: المصدر نفسه، ج6، ص154، 155.
- 3- أزهار الرّياض، المقرّي، ج4، ص11- 20.
- 4- جنة الرّضا، ابن عاصم، ج1، ص151.
- 5- ينظر: نفح الطّيب، المقرّي، ج6، ص146، 147.
- 6- يشير إلى المثل القائِل: «من يمدح العروس إلاّ أهلها». ينظر: جمهرة الأمثال، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكريّ، تحقيق: أحمد عبد السّلام، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1408هـ / 1988م، ج1، ص350.
- 7- أزهار الرّياض، المقرّي، ج3، ص6.

ما يطبع الخطاب النثري عند ابن عاصم هو قيامه على التزيين اللفظي والمعنوي، من سجع وجناس وطباق، ونسجلاً اهتماماً بالصورة الفنية في خطابه فنلفيه يوظف الاستعارات والكنائيات والتشبيهات وغيرها لبناء الصورة الفنية لديه، كما أن خطابه جاء غنياً بكثرة التناصبات الظاهرة السطحية والباطنة العميقة ذات الطابع الديني (قرآن وحديث) والعلمي (نحو وعروض ومنطق) والأدبي (أمثال وحكم وأشعار)، مع جزالة في اللفظ وفخامة في العبارة.

2- خطابه الشعري:

إلى جانب البراعة في النثر نجد ابن عاصم أيضاً بارعاً في ميدان الشعر، عالج جملة من الأغراض الشعرية تناول فيها المدح والغزل والتهنئة والاعتذار، مع الخوض في الشعر الديني، وهذه الأغراض موزعة على ثلاثة عشر نصاً شعرياً منه خمسون وموشحان⁽¹⁾، ونجدها مبنوثة بين عدة مصادر، منها نصابان في جنة الرضا⁽²⁾، وأربعة في مظهر النور الباصر⁽³⁾، وما بقي نلفيه في نفح الطيب وأزهار الرياض للمقري، ولا نجد أغراضاً أخرى كالرثاء على الرغم من وجود أسبابه، فموت الوالد واستشهاد العم من المحفزات لنشاط القريحة في هذا الغرض الشعري.

1- المدح:

من الخطاب الشعري لابن عاصم أمداحه المقصورة على بعض ملوك الدولة النصرية، منهم يوسف الثالث الذي كثر مادحوه، وابن عاصم من جملتهم، له من ذلك قصيدتان في مدحه، منها دالية افتتحها بمقدمة غزلية منها قوله:⁽⁴⁾ - الكامل -:

نَامَتْ وَأَوْدَعَتْ الْجُفُونُ سَهَادَهَا	❀	مَنْ قَدْ عَدَتْ شُهْبُ السَّمَاءِ حُسَادَهَا
سَلَبَتْ مَنَامَ الْعَيْنِ حِينَ تَوَهَّمَتْ	❀	أَنَّ الْخَيَالَ لَدَى الْكَرَى قَدْ عَادَهَا
فَبَحْبُهَا اكْتَدَفَ الْغَرَامُ فُلُوبَنَا	❀	وَتَحَمَلَتْ مِنْ ثِقَلِهِ مَا آدَهَا

- 1- جمع الأستاذان محمد عويد السائر ومحمد عبيد السبهياني جانباً من أدب ابن عاصم شعراً ونثراً مع دراسة للجوانب الفنية لأدبه. ينظر: أدب ابن عاصم الغرناطي (ت857هـ)، محمد عويد السائر ومحمد عبيد السبهياني، مجلة جامعة الأنبار للآداب والأدب، جامعة الأنبار، العراق، العدد: 3، السنة: 2010م، ص151- 191.
- 2- جنة الرضا، ابن عاصم، ج1، ص143، 171.
- 3- مظهر النور الباصر، ابن فركون، ص28، 39، 71، 73.
- 4- المصدر نفسه، ص73.

ثم تخلص إلى تعداد مآثر ممدوحه ومحاسنه وفضائله، فأشاد فيها بتقواه وحلمه وكرمه وشجاعته وحنكته، ففي الجود غيث أشبه حاتم الطائي (ت 46 ق. هـ / 578 م) في كرمه، وفي الشجاعة ليث أشبه إقدام المقداد بن الأسود (37 ق. هـ - 33 هـ / 587 - 653 م)، وله يد جمعت بين الندى والردي، فقال (1):

مَلِكٌ عَلَى تَفَوُّى الْإِلَهِ بِجُودِهِ	✽	أَعْلَى رُسُومِ الْمَكْرُمَاتِ وَشَادَهَا
كَالْغَيْثِ إِذْ يَهْمِي بِدَرٍّ نَافِعٍ	✽	لَكِنْ يَعْثُ سُهُولَهَا وَنِجَادَهَا
كَالْمَشْرِفِيِّ مَضَاوُهُ لَكِنَّهُ	✽	أَبَدًا تَرَاهُ مُجَدَّلًا أَسَدَهَا
مَا نَظَمْتَ أَرْمَاحَهُ أَجْسَامَهَا	✽	إِلَّا لِيَنْثَرِ سَيْفُهُ أَجْسَادَهَا
وَإِذَا تَحَلُّ بِهٍ تُؤَمِّلُ جُودَهُ	✽	بَلَّغْتَ نَفْسَكَ مِنْ مُنَاكَ مُرَادَهَا
فَتَعُدُّهُ يَوْمَ السَّمَاحَةِ حَاتِمًا	✽	وَتَرَاهُ فِي يَوْمِ الْوَعَى مِقْدَادَهَا

وله قصيدة دالية طويلة بلغت تسعة عشرة ومائة بيت (119) في مدح السلطان أبي الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر، نسجها بشكل بديع غريب مع تكلف ظاهر وصنعة لفظية واضحة. ويظهر ذلك في كون قصيدته المدحية حبلية بتوأمين؛ قصيدتين وموشحتين، وكل قصيدة منهما تتولد عنها موشحة، حيث يقول في ذلك (2) - الطويل -:

وَقَدْ وَلَدَتْ بِنْتَيْنِ ثِنْتَيْنِ مِثْلَهَا	✽	يَرُوقُكَ مِنْ مَعْنَاهَا مَا تَوَدُّهُ
وَكِلْتَاهُمَا قَدْ جَرَّدَتْ مِنْ نِظَامِهَا	✽	مُوشَّحَةٌ كَالسَّيْفِ رَاقٍ فِرْنْدُهُ (3)

ومن مظاهر الإبداع في هذه القصيدة استعمال الألوان في كتابة بعض ألفاظها، وعند رصف هذه الألفاظ ذات اللون الواحد بشكل تراتبي تتشكل منها قصيدة، وبنفس النسق تنبثق منها موشحة، مع حضور رمزية اللون ودلالته؛ فالأسود مستمد من سواد العين رمز العناية

1- مظهر النور الباصر، ابن فركون، ص 74.

2- أزهار الرياض، المقرئ، ج 1، ص 152، 153.

3- فِرْنْد السَّيْف بكسرتين وإفْرِنْدَه بكسر الهمزة والراء وشي السَّيْف. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (فرند).

والحرص أو الجمال، والأخضر دلالاته على رغد العيش وصفوه أيام ممدوحه، والأحمر ذو دلالة على كثرة الأحزان المتوالية حتى صيرت الدمع دماً. وفي هذا يقول⁽¹⁾ - الطويل -:

وَأَنْقَاسُهَا⁽²⁾ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ غَرِيبُهَا ❀ وَتَرْتِيبُهَا مِنْ ذَاتِهِ يَسْتَعِدُّهُ

فَأَكْذَلُهَا مِنْ مُقْلَتِي أَسْتَمِيعُهُ ❀ وَأَحْمَرُهَا مِنْ أَدْمُعِي أَسْتَمِدُّهُ

وَأَخْضَرُهَا مِنْ طِيبِ عَيْشِي الَّذِي مَضَى ❀ لَدَيْكَ وَأَرْجُو بِالرِّضَا تَسْتَرِدُّهُ

وبنية قصيدته الأمّ وبنيتها وموشحتها تقوم كلهن على الافتتاح بالمقدمة الغزلية ومن ثمّ التخلّص للمدح. فمطلع القصيدة الأمّ⁽³⁾:

أَمَّا وَالْهَوَى (مَا كُنْتُ) مُذْ بَانَ عَهْدُهُ ❀ أَهْيَمُ بِإُقْيَا مَنْ (تَنَازَّرَ) وَدُهُ

فالقصيدا الحمراء الخارجة من الأمّ لامية مطلعها⁽⁴⁾ - السريع -:

(مَا كُنْتُ لَوْ أَنْصَفَ) بُغْدَ الْمِطَالِ ❀ (أَصْلَى لَظَى الْوَجْدِ الْأَلِيمِ) النَّكَالِ

و مطلع موشحتها الخارج من المرسوم الأحمر⁽⁵⁾:

مَا كُنْتُ لَوْ أَنْصَفَ ❀ أَصْلَى لَظَى الْوَجْدِ الْأَلِيمِ

أما القصيدة الثانية وهي التونية الخضراء فمطلعها⁽⁶⁾ - المنسرح -:

(تَنَازَّرَ الدَّمْعُ) مِنْ جُفُونِي ❀ (كَالدُّرِّ) مِنْ سِدْكِهِ الثَّمِينِ

ومطلع موشحتها الخضراء⁽⁷⁾:

تَنَازَّرَ الدَّمْعُ كَالدُّرِّ ❀ مُذْ أَعْوَزَ الْوَصْلُ مِنْ بَدْرِ

1- أزهار الرياض، المقرئ، ج1، ص152، 153.

2- أنقاس وأنقس مفردة النّقس بالكسر وهو المداد. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة(نقس).

3- أزهار الرياض، المقرئ، ج1، ص146.

4- المصدر نفسه، ج1، ص155.

5- المصدر نفسه، ن. ص.

6- أزهار الرياض، المقرئ، ج1، ص153.

7- المصدر نفسه، ج1، ص154.

2- شعر التهنئة:

لابن عاصم في التهنئة قصيدتان⁽¹⁾ هتأ فيهما يوسف الثالث بالأمير المولود الجديد، حملتا معاني الفرح والبهجة بنجل السلطان، والذي يرى الشاعر في مولده بشارة سارة، وفأل خير على أهل الأندلس. القصيدة الأولى رائية أنشأها سنة (811هـ/1408م) مطلعها⁽²⁾ - البسيط -:

الله أكبر وجهه النصر قد سَفَرَا * ونوره لضيء العفل قد بهَرَا

ثم يطلق الشاعر العنان لمخيلته فيراه ملكا شجاعا مقداما وجوادا كريما مهاب الجانب، فيكثر من تكرار صيغة (كأن به) للدلالة على قرب الوقوع ودنو المأمول فقال⁽³⁾:

كأن بنجلك يا مولاي قد بلغت * به صفات المعالي الأنجم الزهرا

كأن بكفّيه بالإنعام قد وكفت * فعم صوب نداها البدو والحضرا

كأن به وجيوش الرعب تقدمه * يزيل من ظلم الإشراك ما غمرا

كأن به يقتفي آثار أسرته * بالحق مقتديا لله مؤتمرا

وبعد التهنئة ينتقل إلى مدح السلطان يوسف بنفس الصفات التي ألفناها في مدائحه، موصيا بمدوحه بشكر هذه الآلاء فهو موجب لمزيد النعم فقال⁽⁴⁾:

فأنت شمس الهدى والملك مطلعكم * لا غرو أن أنتجت أنوارك القمر

أنسى سماعك مأمونا ومعتصما * وبأس سيفك منصورا ومدنصرا

1- مظهر النور الباصر، ابن فركون، ص39.

2- وعلى هذا يكون سن ابن عاصم زاد على أحد عشر عاما، فيكون الشعر جرى على لسانه صغيرا، وحضوره مجلس يوسف الثالث العامر بالعلماء والأدباء في هذه السن لا يكون إلا بصحبة والده الوزير، وقد يكون صاحب القصيدة ابن عاصم العم، وإشارة ابن فركون في ديوانه بداية كل قصيدة لابن عاصم بقوله (القائد المرقع) يدفعنا إلى إعادة النظر والبحث في نسبة القصائد هل هي لابن عاصم الابن أم العم؟ مع العلم أن العم مات شهيدا في واقعة انتفيرة عام (813هـ/1411م)، أي إنه كان حيا وقت إنشادها. ينظر: المصدر نفسه، ص28.

3- المصدر نفسه، ن. ص.

4- المصدر نفسه، ص29.

3- الغزل:

كان غرض الغزل حاضرا في بنية الخطاب الشعري لابن عاصم، فنجدته في مفتتح القصائد والموشحات، وهو من قبيل الغزل العذري، فغزله يحمل صورا تقليدية في الشعر العربي، مع الميل إلى رقة اللفظ وبساطة الصورة. ولم يخرج عن الإطار العام للغزل العفيف، من وصف لحال العشق والتعلق بالمحبة وما يخلفه من آثار على المحب من اشتياق وانهمار الدموع للفراق والبين، والأرق للصدود، من ذلك قوله⁽¹⁾ - مخلص البسيط -:

أَسْهَرَنِي الْوَجْدُ وَطُولُ الْغَرَامِ	✽	فَمَا عَرَفْتُ النَّوْمَ إِلَّا لِمَامِ
وَأَقْصَرَ الْعَاذِلُ لَمَّا رَأَى	✽	أَنْ لَيْسَ يَجْدِي فِي هَوَاكَ الْمَلَامِ
وَبَانَ بِالدَّمَعِ خَفِيُّ الْهَوَى	✽	وَحَانَ بِالسُّهْدِ وَفِي الْمَنَامِ
وَصَارَ بَعْدَ الْخَفْضِ مَوْصُولُهُ	✽	مُرْتَفِعًا فَكَيْفَ لِي أَنْ أُنَامِ

ثم أنشأ يصف محبوبته مشبها إياها بالبدر وبالشمس في طلعتها وحسنها وبعد نيلها، فقال⁽²⁾:

وَأَهْيَفَ كَالْغُصْنِ ذِي غُرَّةٍ	✽	كَالْبَدْرِ قَدْ تَوَجَّ جَنَحَ الظَّلَامِ
كَأَنَّهُ الشَّمْسُ إِذَا مَا بَدَا	✽	فِي الْحُسْنِ وَالنُّورِ وَبُعْدِ الْمَرَامِ
إِذَا دَنَا كَانَتْ حَيَاتِي بِهِ	✽	وَإِنْ نَأَى عَنِّي كَانَ الْحِمَامِ

4- الشعر الديني:

خاض ابن عاصم في الشعر الديني طارقا جانبا من موضوعاته الزهدية كالنوبة والإنابة والصبر على الابتلاءات وغيرها، وهذا ظاهر في نظمه لمقدمة كتابه (جنة الرضا)، وهي قصيدة طويلة عدد أبياتها مئة وعشرون (120)، بدا له نسجها أثناء كتابته للمقدمة، وهي أقرب ما تكون إلى الشعر التعليمي. ولا نجد لابن عاصم شعرا مولديا - رغم شيوع هذا الغرض زمانه - سوى

1- مظهر النور الباصر، ابن فركون، ص71.

2- المصدر نفسه، ص71، 72.

أبيات في آخر هذه القصيدة مدح فيها النبي (ﷺ) وذكر اشتياقه للأماكن المقدسة، ثم ختمها بذكر مناسك الحج وأدب الزيارة⁽¹⁾. ومن الشعر الديني لابن عاصم تخميس من ثمانين قطعة في تسبيح الله وتقديسه وتعظيمه وتمجيده، مطلعها⁽²⁾ - البسيط - :

سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ الْأَنْوَارَ وَاحْتَجَبَا * وَكُلُّ حَمْدٍ وَتَمْجِيدٍ لَهُ وَجَبَا
إِذَا ابْتَغَى الْعَقْلُ فِي إدْرَاكِهِ سَبَبَا * جَاءَ الْحِجَابُ فَأَلْقَى دُونَهُ الْحُجُبَا
حَتَّى إِذَا مَا تَلَا شَى عِنْدَهَا ظَهَرَا * *

وله قصيدة منظومة ينتصر فيها لأهل السنة ويردّ فيها على الرّمخشري (467- 538هـ / 1075 - 1144م)، ويعارض بيتيه الذين عرض فيها بأهل السنة⁽³⁾.

5- الاعتذار:

لَمَّا خَلَعَ يَوْسُفُ بْنُ الْمَوَلِ السَّلْطَانُ مُحَمَّدَ الْأَيْسَرِ سَنَةَ (835هـ / 1432م) أَبْقَى ابْنَ عَاصِمٍ كَاتِبًا لَهُ، وَأَمَرَهُ بِتَحْرِيرِ مَرْسُومٍ يَقْضِي بَعْزْلَ شَيْخِهِ قَاضِي الْجَمَاعَةِ ابْنِ سِرَاجٍ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى ابْنِ عَاصِمٍ فَأَبْطَأَ فِي كِتَابَتِهِ. وَعِنْدَمَا طَلَبَ مِنْهُ شَيْخُهُ ابْنَ السَّرَاجِ لِقَاءً سَرِيًّا خَشِيَ ابْنُ عَاصِمٍ أَنْ يَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ الْمَرْسُومِ، فَأَنْشَأَ عَلَى الْبَدِيهَةِ مَضْطَرًا أَبْيَاتًا يَعْتَذِرُ فِيهَا عَنْ إِفْشَاءِ سِرِّ السَّلْطَانِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ، وَهَذِهِ الْأَبْيَاتُ نَصَّهَا⁽⁴⁾ - الطويل - :

فَدَيْتُكَ لَا تَسْأَلْ عَنِ السَّرِّ كَاتِبًا * فَتَلْقَاهُ فِي حَالٍ مِنَ الرُّشْدِ عَاطِلٍ
وَتَضْطَرُّهُ إِمَّا لِحَالَةٍ خَائِنٍ * أَمَانَتُهُ أَوْ خَائِضٍ فِي الْأَبَاطِلِ
فَلَا فَرْقَ عِنْدِي بَيْنَ قَاضٍ وَكَاتِبٍ * وَشَى ذَا بَحَقٍّ أَوْ قَضَى ذَا بَبَاطِلِ

ومن السمات الفنية لشعر ابن عاصم جنوحه للمطولات من القصائد، فهو ذو نفس طويل، وتقوم بنية الخطاب الشعري في المدح على الافتتاح بالمقدمة الغزلية ومن ثم التخلّص للمدح. كما نلاحظ في شعره الديني نظما لا يرقى إلى كونه شعرا، وهذا ظاهر في نظمه لمقدمة كتابه

1- ينظر: جنة الرضا، ابن عاصم، ج1، ص143، 155.

2- أزهار الرياض، المقرئ، ج1، ص179- 185.

3- ينظر: المصدر نفسه، ج3، ص298، 299، 323، 324.

4- جنة الرضا، ابن عاصم، ج1، ص171، 172.

جنة الرضا، ومخمسته وفي المقطوعة التي ردّ فيها على الزمخشري، وفي اعتذاره لشيخه ابن سراج. ولا تكاد تخرج عن الموضوع الواحد، مع الولوع بالصنعة اللفظية، والصّور المكرورة.

3- أبو عصيدة البجائي (ت حوالي 865هـ / 1461م):

1- اسمه وكنيته ونشأته:

أبو عصيدة البجائي من الأعلام الذين أغفلت ذكرهم كتب التراجم، فلا نجد له ذكرا في المصادر التي اهتمت بترجمة أعلام القرن التاسع الهجري مثل (الضوء اللامع) للسخاوي و(نيل الابتهاج) للتنبكتي رغم شهرته وبخاصة في المشرق، ولا نملك من المصادر حول حياة أبي عصيدة سوى ما كتبه عنه أبو القاسم سعد الله الذي يعود له الفضل في إبراز جوانب من حياة أبي عصيدة ونتاجه الأدبي والفكري.

هو أبو عبد الله أحمد بن أحمد البجائي مولدا ونشأة، الغساني أصلا، كني بأبي عصيدة (أو بوعصيدة)⁽¹⁾، لا يعرف له تاريخ ميلاد، ويبدو أنه ولد في العقد الثالث من القرن التاسع⁽²⁾، أما عن وفاته فقد أورد ناشر كتاب (رسالة الغريب إلى الحبيب) لأبي عصيدة أنه توفي حوالي (865هـ / 1461م)، ولا ندري من أين استقى هذه المعلومة وما هي مصادره. تلقى أبو عصيدة تعليمه الأولي ببجاية على يد شيوخ منهم محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الصمد المشدالي⁽³⁾ والد أبي الفضل (ت 859هـ / 1455م)⁽⁴⁾.

2- رحلاته:

توجه أبو عصيدة في رحلة إلى المشرق وزار تونس ومصر والحجاز، ويبدو أن له رحلتين، في الآخرة منهما وصل إلى تونس رجوعا من المشرق، وحين علم بموت من سأل عنهم من

1- ينظر: رسالة الغريب إلى الحبيب، أبو عصيدة البجائي، تعريف وتعليق وتلخيص: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، ص1993م، ص44.

2- هذا ما مال إليه أبو القاسم سعد الله في التعريف بأبي عصيدة في تعليقه على (رسالة الغريب إلى الحبيب)، ولكن ما يبدو لنا أن مولده كان في العقد الثاني بناءً على أن ميلاد صديقه وعصريه أبي الفضل المشدالي (حوالي 821 - 865هـ / 1416 - 1461م) الذي تربطه به صلة وثيقة أيام الطلب ببجاية قبل يرحل المشدالي إلى تلمسان سنة (840هـ / 1436م)، فيمكن أن يكون من أقرانه، وخاصة وأنه توفي في نفس السنة التي مات فيها المشدالي (865هـ / 1461م) كما هو مذكور في صدر الكتاب.

3- منهم يقول (المشدالي) بالذال المعجمة بدل الدال المهملة. ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص538.

4- ينظر: رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص18، 19.

الأهل والأحباب قفل راجعا إلى الحجاز على نية الإقامة الدائمة⁽¹⁾. التقى في رحلته المشرقية بعدد من علماء المسلمين ذكر عددا منهم في مؤلفاته⁽²⁾. كان له اهتمام كبير بالحديث الشريف حيث جلس لإقراء صحيح البخاري بالمسجد النبوي، وكان يختمه في رمضان، كما اشتغل بتدريس مؤلفات أخرى منها كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى (ﷺ) للقاضي عياض⁽³⁾.

3- مؤلفاته:

خلف أبو عصيدة عددا من المؤلفات ذات طابع أدبي ولغوي، وعناوينها توحى بذلك، منها:

1- (رسالة الغريب إلى الحبيب)⁽⁴⁾، وهي من جملة الرسائل الإخوانية التي كتبها إلى أبي الفضل المشدائي لما كان مقيما بمصر⁽⁵⁾.

2- وله كتاب في الأدب والتصوّف بعنوان (أنس الغريب وروض الأديب)، وهو كتاب في حكم المفقود، ذكره أبو عصيدة ضمن كتابه (رسالة الغريب)، ألفه صاحبه لما كان مقيما بالحجاز، تعددت موضوعات هذا المؤلف، لبابها تتبّع أخبار أبي الفضل المشدائي بالمغرب والمشرق، وقد ضمّن أبو عصيدة أخبار رحلته من تونس إلى الحجاز، كما خصّص جانبا من هذا الكتاب في بيان العبادات وأسرارها، وعمدته في ذلك عدد من المصادر في التصوّف ككتاب الإيحاء لأبي حامد الغزالي⁽⁶⁾. وهذا الكتاب (أنس الغريب) اتخذ أبو عصيدة أنيسا له في غربته وخلوته، وعنوانه يعكس ذلك، حيث قال: «حصل لنا به أنس بالحضرة الشريفة في وقت انتصار (كذا) [انتظار] الصلوات، وبما حصل ذلك منه في محلنا أكثر الأوقات»⁽⁷⁾. وهذا الكتاب ذو قيمة أدبية وروحية وتاريخية لما يحويه: «... من الفوائد ما لعلّه لا يحصره ديوان، ويعزّ وجوده عن

1- ينظر: رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص72، 73.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص89.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص64، 65.

4- وهي الرسالة التي قام أبو القاسم سعد الله بدراسة حولها، ولكنّه لم يحقّقها لأسباب منها كونه لا يملك نسخة أخرى مقابلة. ينظر: المصدر نفسه، ص40، 41.

5- ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، ج1، ص84، 85.

6- أفصح أبو عصيدة عن عنوان كتابه وسبب كتابته والغاية منه، وأوضح خطة عمله فيه، وأبان عن موضوعاته ومصادره.

ينظر: رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص88 - 93.

7- المصدر نفسه، ص93، 94.

ذي البحث والافتتان، ومن روائق الأشعار وطرف الأخبار والسّير والآثار، وأمداح النّبيّ المصطفى المختار...»⁽¹⁾.

3- وله كتاب في النّحو سمّاه (تعليقة سنّية في حلّ ألفاظ الجرّوميّة)⁽²⁾.

4- خطابه النّثريّ:

تناول الخطاب النّثريّ لأبي عصيدة أدب التّرسل والرحلة والتّراجم، وعالج فيها عددا من الموضوعات كالاغتراب والعتاب والاعتذار والتّصوّف والطّرائف والأخبار وغيرها. وقد ألمّ بكلّ هذا في رسالته (رسالة الغريب) وكتابه (أنس الغريب).

من أدب التّرسل الذي وصلنا رسالته الإخوانيّة التي كتبها لأبي الفضل المشدّليّ، تلك الرّسالة التي كانت جوابا عن رسالة المشدّليّ، سمّاها (رسالة الغريب إلى الحبيب)، حيث كان أبو عصيدة يأنس بمكاتبات المشدّليّ ويحرص على الاطّلاع على أخباره أين ما توجّه، وهذا لفرط محبّته له. فقد قال له مترجيا أن لا يقطع عنه المراسلة: «وهنا طلب العبد من سيده ومالكة أن لا يخليه من مشرفاته ومكاتباته، وأن لا يقطع عنه التّعريف بأنبائه السّعيدة... فورودها على المملوك يمنع من ذبول غرس ودّه... لا سيما إن وردت مرسومة بخطّه»⁽³⁾.

ولأبي عصيدة رسائل هي في حكم المفقود بعثها إلى صديقه المشدّليّ قبل (رسالة الغريب)، ولكنّه لم يردّ جوابها. موضوع الأولى أخبار رحلة أبي عصيدة من مصر إلى الحجاز بعد أن فارق المشدّليّ هنالك، والثّانية موضوعها أدبيّ قال إنّها ذات منزع شرقيّ بلفظ مغربيّ، والثّالثة يخبره فيها عن الحمّى التي أصابته، ومعاناته أيّام مرضه⁽⁴⁾. وله رسالة أخرى بعثها إلى الرّجل التّونسيّ الذي عتب عليه طول المقام بالحجاز، ونصحه بالرجوع إلى وطنه وأحبابه، فردّ عليه أبو عصيدة موضّحا له الأسباب النّفسية والدينيّة التي دفعته إلى البقاء بالمدينة المنورة⁽⁵⁾. وله رسائل أخرى شفوويّة منها رسالة تحمل عتابا شديدا على المشدّليّ نقلها له رجل يقال الشّيخ

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص28.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص21.

3- المصدر نفسه، ص51.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص52، 53.

5- ينظر: المصدر نفسه، ص70 - 77.

التّواتي حملت المشدّاليّ على مكانبة أبي عصيدة، وأخرى تحمل معنىً لبيتين من الشعر ذكرها بين يدي حاملها إلى مصر وهو رجل نعته أبو عصيدة بالجناب العالي الفاضليّ الأثيريّ الزّينيّ الشمسيّ، وموضوع الرّسالة بيتان من الشعر قال فيهما⁽¹⁾:

سَيِّدِي مَا أَقُولُ أَوْ كَيْفَ أَشْكُو ❁ وَفُؤَادِي قَدْ خَانَنِي وَلِسَانِي

مَا أَطِيقُ شَكْوَى إِلَيْكَ وَلَكِنْ ❁ شَرَحَ حَالِي فِي الْهَوَى تُرْجَمَانِي

عالج أبو عصيدة من ألوان الأدب أدب الرّحلة، وقام بتدوين أخبار رحلته المشرقيّة من تونس إلى الحجاز مروراً بمصر، حيث خصّص المقدّمة من كتابه المفقود (أنس الغريب) لسرد أخبار رحلته، وأورد نقفاً من هذا الكتاب في (رسالة الغريب)، فقال: «أما المقدّمة فتتضمّن ذكر الرّحلة من حضرة تونس السّميّة الإمامة العمريّة، إلى الحلول بالحضرة الشّريفة العظيمة النّبويّة، ذكرت فيها بعض من لقيناه بها (الرّحلة)، ونبدأ من ذكر تونس بعينها... وألممت عند ذلك حال الأوطان والأهل والجيران، ونبدأ من مآثر الأصحاب والإخوان، ثمّ من لقيت بطريقي في سائر البلدان»⁽²⁾. وقد وصف رحلته أو مقدّمة كتابه بأوصاف عديدة منها؛ وضوح المعنى وجمال المبنى ممّا يترك أثراً في المتلقّي، فقال: «وجاءت ناصعة الطّرف بديعة الوصف، تسرّ الناظرين وتبهج قلوب العارفين، وتتّلعج خواطر المستصفيين المحقّقين، وتنعش أرواح المحبّين وتقطع أوصال المنتقدين الحاسدين»⁽³⁾. وأشار أيضاً في (رسالة الغريب) مخبراً المشدّاليّ بعد افتراقهما بمصر أنّه وجّه إليه رسالة دوّن فيها أخبار رحلته إلى الحجّ مفصّلة، فأتى على ذكر المواطن التي زارها، والمشاهد التي وقف عندها، وزياراته وأدعيته، وأودعها انفعالاته النّفسيّة من أشواق وحنين، فقال: «كتبت لكم رسالة عرّفت فيها جميع ما تضمّنته الرّحلة المباركة من حين انفصالي من مقرّمكم إلى حين كتبي لمقامكم، وعرّفت ببعض ما اعتراني من الشّوق الملازم والذكر المتّصل اللازم»⁽⁴⁾.

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص 57، 78.

2- المصدر نفسه، ص 51.

3- المصدر نفسه، ص 91.

4- المصدر نفسه، ص 52.

شارك أبو عصيدة في نوع آخر من الأنواع الأدبية ألا وهو أدب التراجم والسير، حيث أظهر عناية كبيرة بترجمة للأعلام الذين لقيهم بالمشرق كفخر الدين عثمان الطرابلسي الشامي وأبي الفتح بن علي بن إسماعيل الأزهري المصري⁽¹⁾، أو من العلماء المغاربة. وقد جعل من صديقه وبلديه المشدالي الشخصية الرئيسة التي كانت حافزا هاما لنتاجه الأدبي. فقد خصص جزءا كبيرا من كتابيه (رسالة الغريب) و(أنس الغريب) للكشف عن تفاصيل مهمة في حياة المشدالي، حيث تتبّع أخباره في البلدان التي نزل بها (مصر، القدس، مكة المكرمة، المدينة المنورة) في رحلاته المغربية والمشرقية، وكتب عن حياته الأدبية والعلمية، فدوّن شيئا من شعره، وعرف بعدد من شيوخه. وكذلك أظهر اهتماما لافتا بأخبار أسرته خصوصا شيخه والد المشدالي⁽²⁾. وقد عكف على تحصيل هذه المعلومات من الذين التقوا بالمشدالي، وسجل الآراء المختلفة للذين عاصروه، ومنافحاته عنه في وجه ناقيه. فقال عن بعض ما جاءت به مقدّمة كتابه (أنس الغريب): «وترجمت كتابي بترجمته الفاخرة العلية... وجمعت فيها من أوصاف المحاسن الفريدة كلّما (كذا) افترق في الأقاليم والفجاج، ومن الخصال الشريفة كلّ واضحة المنهاج... ومن البراهين القاطعة ما قطعت بها أسباب كلّ معاند حجاج، وألممت فيها برحلتيه المغربية ثمّ المشرقية... ومن أنواع الإفادات العلمية والعجائب الحسية والمعنوية القدسية منها ثمّ المكية ثمّ المدنية المشرفة ثمّ المصرية... وذكر بعض أشياخه... وطرّزت ذلك بشيء من نظمه وإن كان لا يتعاطاه إلّا قليلا ولا يحاوره إلّا تعليلا... وذكنت بعدها ترجمة سيّدنا وأخيّنا في الله تعالى الشيخ الإمام الفاضل الجليل أبا (كذا) العبّاس الأيدي... ثمّ من لقيته بالحرمين الشريفين من الأخيار...»⁽³⁾. كما أنّه كان حريصا على تدوين الآثار العلمية وجمع النصوص الأدبية لمن ترجم لهم أو لقيهم، فحفظ لنا ثلاثة أبيات للمشدالي في العلاقة بين المحبّ والحبيب، وقام

1- ينظر: رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص93، 94.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص89.

3- المصدر نفسه، ص90، 91.

بشرحها وعرض رؤيته في هذه القضية⁽¹⁾. ونقل عن جمال الدين الهمام بيتا شعرياً في المحبة والهوى يقول فيه⁽²⁾ - الرجز - :

أَنْتَ بِقَلْبِي وَأَنَا أَشْكُو النَّوَى ❁ إِنَّ حَدِيثِي لَعَجِيبٌ فِي الْهَوَى

كما أظهر اهتماما كبيرا بالتعريف بعدد من أعلام التصوف، حيث خصص جزءا من كتابه (أنس الغريب)، وأتى فيه على ذكر سير بعض شيوخ التصوف وأخلاقهم ومعاملاتهم وأحوالهم وعقائدهم وشيئا من آثارهم في التصوف⁽³⁾.

5- بعض السمات الموضوعية والفنية في (رسالة الغريب إلى الحبيب):

1- السمات الموضوعية:

نحاول أن نتتبع أهم السمات الموضوعية التي تتجلى في بنية الخطاب الترسلّي عند أبي عصيدة في هذه رسالة الغريب على الأقل، حيث لم يصلنا من تلك الرسائل التي كتبها إلا إياها، وحتى الرسالة لم تأت كاملة حيث قام بتلخيصها أبو القاسم سعد الله ولكن بالفاظ مؤلفها⁽⁴⁾ والتي من خلالها يمكننا أن نتعرف على جوانب من أسلوب أبي عصيدة في فنّ الترسل.

وأول هذه الخصائص افتتاحه لرسالته بأبيات شعرية ذكر فيها جانبا من بنية أدب الترسل منها؛ الإشارة إلى المرسل والمرسل إليه وموضوع الرسالة ومكان كتابتها والاختتام بالأدعية، وهذا خلافاً لما جرت به عادة الكتاب من تقديم رسائلهم بخطاب نثريّ أوله بالبسملة في صدر الكلام تيمنا وتبركا بها⁽⁵⁾.

ولقد تحقق في نصّ الرسالة أهم أركان فنّ الترسل، فقد ثنى خطابه الشعريّ بمقدمة جاءت مسجوعة مختارة الألفاظ، استهلّها بالحمدلة ثم تخلّص إلى بيان بعض أوصاف المرسل وألقابه دون أن يذكر اسمه حيث أخره إلى ما بعد التّحية على المرسل إليه، وهذا تأدبا منه وزيادة

1- ينظر: رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص 84، 85.

2- المصدر نفسه، ص 83.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص 92.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص 44.

5- ينظر: صبح الأعشى، القلقشندي، ج 6، ص 213.

احترام للمرسل إليه. وأدرج الباعث الرئيس على كتابة خطابه، ومكان الذي خط فيه نص الخطاب، ثم ذكر اسم المرسل إليه وعدّد أوصافه وألقابه وفي الواقع لا يجد أبو عصيدة فسحة في خطابه إلّا وتجده يكثر من الثناء على المشدّاليّ، وبعدها ألقى عليه التحيّة والسّلام وخصّه بمعاني الاحترام والتّقدير. وبعد ذلك صرّح باسم المرسل ونسبه وكنيته ومكان إقامته، مصدرًا ذلك ببعض أوصافه، فقال: «سلام كريم طيّب عميم... من العبد الفقير المعترف بالعجز والتّقصير... أحمد بن أحمد شهر بوعصيدة، البجائيّ المنشأ والدّار والغسّانيّ الأصل والمدنيّ الآن القرار...»⁽¹⁾. وبعدها ولج إلى موضوع الرّسالة، وهي خطاب طويل تتوّعت محاوره⁽²⁾، أهمّها الحديث عن رحلته من مصر إلى الحجاز، وتذكيره بالرّسائل التي لم يردّ جوابها حتى جعل أبو عصيدة يسأل عنه القادمين من مصر، ثمّ شرع في الحديث عن رسالة المشدّاليّ التي وصلته تحمل لوما وعتابا على أبي عصيدة مع ثلاثة أبيات قام بشرحها في هذه الرّسالة، فما كان منه إلّا الإكثار من الاعتذار. وشرح أبو عصيدة حياته النّفسية والعلمية والأدبية بالمدينة المنورة، وذكر تلك المراسلة من تونس تلومه على المجاورة واشتغل بالرّدّ عليها والتّوجيه، كما أخبر عن نتاجه الفكريّ حيث ألف كتابه (أنس الغريب وروض الأديب) وفصل خطّه في الكتاب وعرض موضوعاته. وعند كلامه عن هذا الكتاب أشار إلى عنوان هذه الرّسالة (رسالة الغريب إلى الحبيب)⁽³⁾، والعنوان يعتبر عتبة من عتبات النّصّ له وظائفه وأبعاده،: «فالعنوان يتضمّن العمل الأدبيّ بأكمله... ويتركّب من عدّة عناصر حين يتقدّم كجملة من مكثّفة تساهم كلّ مركّبات الخطاب في صنعها... ومما لا شكّ فيه أنّ اختيار العناوين عملية لا تخلو من قصديّة كيفما كان الوضع الجناسيّ للنّصّ، إنّها قصديّة تنفي معيار الاعتباريّة في اختيار التّسمية، ليصبح العنوان هو المحور الذي يتوالّد ويتنامى ويعيد إنتاج نفسه وفق تمثّلات وسياقات نصيّة تؤكّد طبيعة التّعلّقات التي تربط العنوان بالنّصّ والنّصّ بعنوانه»⁽⁴⁾. وبهذا فالعنوان ذو بنية تركيبية قصديّة حيث نلحظ عناية أبي عصيدة باختيار العناصر المكوّنة لعنوان خطابه وهي

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص40.

2- أوصلها أبو القاسم سعد الله إلى خمسة عشر محورا. ينظر: المصدر نفسه، ص34- 40.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص88.

4- عتبات النّصّ البنّية والدّلالة، عبد الفتّاح الحجمريّ، منشورات الزّايطه، الدّار البيضاء، ط1، 1996م، ص18، 19.

(رسالة - الغريب - الحبيب)، وأيضا هو ذو صبغة اختزالية تكمن في ارتباط وثيق بنص الخطاب الذي يقوم على بيان العلاقة الوثيقة بين المرسل الغريب والمرسل إليه الحبيب مختزلة في ثنائية (الغريب، الحبيب). والعنوان أيضا له أبعاده الدلالية كونه يوحي بألم الاغتراب الذي يعانيه أبو عصيدة وشوقه إلى الأوطان، والتعلل بكل ما يذكر بها من أحباب أو غيرهم فذكر (المشدالي ووالده، والسلطان الحفصي أبي عمرو عثمان وأبنائه وجنوده)، وقد جاءت الرسالة حافلة بمعاني الشوق وآلامه وحب الوطن والحنين إليه.

وأخيرا ختم خطابه بنص نسجه على لسان رسالته التي تمثلها خائفة من المثل بين يدي المشداليّ البليغ الفصيح، وسألته عن أشياء منها؛ كيف تصنع إن هو لم يقبلها وأعرض عنها؟ وهل تطالبه جوابا عن هذا الخطاب؟ فهذا من روعها وأوصاها بالأدب بين يديه، وأن لا تسأله جوابا وإنما استفسارا عن معاني الأبيات الثلاثة التي وردت في رسالته، ثم أنهى خطابه بطلب الدعاء من المشداليّ وتفقد السؤل عنه، ثم ختم بالتصليّة على النبي (ﷺ)⁽¹⁾. ولم يفصح عن تاريخ كتابة نص خطابه.

2- السمات الفنية:

ما يهمنّا في هذه الرسالة هو الجانب الأدبي، ومن ثمّ نتبيّن أسلوب أبي عصيدة في خطاباته النثرية، وذلك بالوقوف على الصورة الفنية في نص الخطاب، وطبيعة الأسلوب، والتّناص والانزياح.

أ - الصورة الفنية:

أظهر أبو عصيدة اهتماما بالغا بتشكيل الصورة الفنية في خطابه، فاعتمد على ألوان البيان من تشبيهات واستعارات وكنايات ومجازات وغيرها للتعبير اللغوي عن أفكاره تعبيرا غير مباشر، ومن ثمّ تتشكّل الصورة الفنية لديه.

اعتمد أبو عصيدة على التشبيه بأنواعه، إذ يعدّ من جملة المكونات البيانية التي تكسب النصّ جمالا وتعين المتلقّي على الفهم وذلك بإثارة مخياله. فأورد التشبيه المؤكّد الذي حذف منه أداة التشبيه، في قوله: «أرتاح إلى أصل الإمام بحضرتك ارتياح الصّادي لبارد الشّراب،

1- ينظر: رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص 98.

وأشتاق إلى مواسلتك اشتياق المسافر للإياب... أقبلت إقبال الحريص»⁽¹⁾. فالتشبيه أبان عن الحالة النفسية لأبي عصيدة، واستطاع أن يصور جانباً من حياته، وتقريبها للمتلقى بواسطة التشبيهات الكثيرة، فهو بين شوق وحرص وطلب للراحة وخوف، حيث يفند إلى حياة مستقرة سالمة من كل هذه المكدرات.

ومن أنواع التشبيهات التشبيه التمثيلي في قوله: «التقطهم الموت كما يلتقط الحب الحما»⁽²⁾، يشبه صورة فناء أهله وموت أحبائه بموطنه واحداً واحداً، بصورة الحمام الذي يأكل الحب ويلتقطه ويأتي عليه واحدة بعد واحدة، في خلو المكان مما كان فيه شيئاً فشيئاً. ومن التشبيه الضمني قوله: «ولكن الشمس لا يسترها الخمار»⁽³⁾، يلمح إلى تفوق المشدالي في سماء العلوم، ويرد على من أنكر هذا التفوق، ويشبههم بمن يحاول إخفاء ضوء الشمس بالخمار، فأتى بالتشبيه الضمني للبرهان على استحالة وقوع ذلك الأمر.

ولم يغفل أبو عصيدة المجاز بأنواعه، فجاء منه المجاز العقلي في قوله: «فلما ظفرتني الأيام بلقائك»⁽⁴⁾ حيث أسند فعل الظفر إلى الأيام، وعلاقته الزمنية، لوقوع فعل الظفر في تلك الأيام. ومنه قوله: «التي كادت تأتي على الأثر بعد العين»⁽⁵⁾، حيث أسند فعل الإهلاك والإمامة إلى الحمى، فالموت والإهلاك هو الله (ﷻ)، وما الحمى إلا سبب لذلك كانت العلاقة سببية. واستند على المجاز مرسل في قوله: «وأن يطوي على الشوق الأضالع»⁽⁶⁾، فالعضو المطوي تحت الأضلاع هو القلب، وهو المحل الذي به يحصل الاشتياق، والشوق هو حال من أحوال القلب، فهنا مجاز مرسل علاقته الحالية، من باب إطلاق الحال وإرادة المحل.

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص 46، 79.

2- المصدر نفسه، ص 53.

3- المصدر نفسه، ص 96.

4- المصدر نفسه، ص 46.

5- المصدر نفسه، ص 53.

6- المصدر نفسه، ص 84.

أما عن توظيف الاستعارات فقد أكثر من الاستعارة المكنية، والتي منها قوله: «قد دارت عليهم كؤوس الحمام»⁽¹⁾، حيث شبه الموت بالسّاقى الذي يدور بالكؤوس على القوم كلّ يذوق من تلك الكأس، فلا تُبقي أحد في هذا الوجود. فحذف المشبّه به وهو السّاقى وأشار إليه بأحد لوازمه وهي الدوران بالكؤوس. وأيضا في قوله: «لاح من غررها المنيرة لائحة، وشممت من عبقثها الطيّبة رائحة»⁽²⁾، شبه تلك الأبيات الشعريّة بغرة الفرس وهي أول ما يلوح منها ويظهر، وبالمسك الذي لزم صاحبه ولزق به، فحذف المشبّه به وهما الفرس والمسك وأشار إلى بعض لوازمها (الغرة، شممت). وهذا لبيان تعلّقه بتلك الأبيات والعكوف على فهمها وشرحها فلاحته له منها أفهام وإشارات. وفي قوله: «والأمر جسيما»⁽³⁾ هنا شبه الأمر وهو قيامه بشرح تلك الأبيات الشعريّة للمشدّليّ وإبراز معانيها بالكائن الحيّ الجسيم⁽⁴⁾ الضخم القويّ الشّديد الذي تعسر مصارحته وغلبيته، فحذف المشبّه به وهو الكائن الحيّ ورمز إليه بأحد لوازمه وهو لفظة (جسيم). ومن الاستعارة المكنية قوله: «وجاءت (مقدّمة الكتاب) - بحمد الله - ناصعة الطّرف»⁽⁵⁾، إذ شبه مقدّمة كتابه (أنس الغريب) بالمرأة الحسناء شديدة بياض العين، فحذف المشبّه به (المرأة) وأبقى على أحد لوازمه وهو نصوع بياض الطّرف على سبيل الاستعارة المكنية.

استخدم أبو عصيدة الكناية في قوله: «أين أهل التّحقيق من بنيات الطّريق؟»⁽⁶⁾، فبنيّات الطّرق التي تتشعب عن الطّريق الرّئيس، وهي تعني التّرهات والأباطيل⁽⁷⁾ وهي كناية عن عدم الاهتمام للفهم الصّحيح والبعد عن إصابة المعاني الصّحيحة. وأيضا في قوله: «والإخبار من

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص73.

2- المصدر نفسه، ص86.

3- المصدر نفسه، ن. ص.

4- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادّة (جسم).

5- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص91.

6- المصدر نفسه، ص86.

7- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادّة (بني).

القادمين لا يخصّص عمومها»⁽¹⁾ كناية عن انعدام الأخبار الجديدة عن المشدّاليّ بل هي أخبار عامّة عنه ألف سماعها من القادمين من مصر.

إنّ كثرة الاستعارات والكنايات والمجازات والتشبيهات في النّصّ تعكس خصوبة الخيال لدى أبي عصيدة ويتمثّل في قدرته على تجسيد الأفكار والمشاعر وتجسيدها. وخاصة في خاتمة الرّسالة حين عقد ذلك الحوار بينه ورسالته التي تمثّلها في صورة امرأة كلّفها بنقل خطابه للمشدّاليّ⁽²⁾.

ب - طبيعة الأسلوب:

جمع أبو عصيدة في خطابه بين الأسلوبين الخبريّ والإنشائيّ. فقد وظّف الأسلوب الخبريّ في مواطن القصّ والحكاية وسرد الأحداث، وقد وردت الجمل الخبريّة بأشكال متنوّعة، فجاءت مؤكّدة ومنفيّة بأدوات التّوكيد والنّفي، كما أنّها جاءت سالمة من التّوكيد والنّفي، مثل قوله: «كتبت لكم رسالة عرفت فيها ما تضمّنته الرّحلة المباركة من حين انفصالي عن مقرّم إلى حين كتبي لمقامكم، وعرّفت ببعض ما اعتراني من الشّوق الملازم والذّكر المتّصل الدائم»⁽³⁾. ومن الجمل المؤكّدة قوله: «وإنّي - يعلم الله - إلى رؤيتكم مشتاق»⁽⁴⁾ فأكدّ هذا الخبر بحرف النّصب والتّوكيد (إنّ) وبالجملّة الاعتراضيّة لتأكيد صدق محبّته للمشدّاليّ والشّوق إلى رؤيته وهذا بعد طول غيبتيّ صديقه (غيبه العين، وغيبه المكاتبه)⁽⁵⁾.

وقد حصل نفي الجمل الخبريّة بأدوات النّفي منها (ما، لا، لم، ليس) الدّاخلة على الجمل الفعلية (سواء أكان فعلها ماضيّا أو مضارعاً وعلى الجمل الاسميّة، وهذا لإفادة نفي مضمون الجملّة. من أمثلة النّفي ب (ما ولا) قوله: «ما أقللت من وظائف الكتب لسيدّي... ولا غفلت عن السّؤال في حال ولا أوان... ما حصل للعبد قطع بحقيقة مبناها، ولا حصل على يقين من صحّة

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص54.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص98.

3- المصدر نفسه، ص52.

4- المصدر نفسه، ص55.

5- ينظر: المصدر نفسه، ص54.

الغرض الذي كان عليه معناها... لا نسبة بين من ذكرته وبين ما أغفلت»⁽¹⁾. وتارة يخرج بأسلوبه الخبري إلى أغراض أخرى كالدعاء في قوله: «أجرى الله على يديكم الخيرات، وفتح بعلومكم السنية أبواب الطلبات»⁽²⁾، أو الالتماس في قوله: «أطلب إليه الإسعاف بالتعجيل وعد التطويل»⁽³⁾، أو اليأس والقنوط في قوله: «فلما عدنا خطابكم وفقدنا جوابكم»⁽⁴⁾.

ولقد جاءت الأساليب الإنشائية كثيرة ومختلفة، منها: أسلوب الاستفهام، النداء، الأمر، النهي، التعجب. حرص أبو عصيدة على توظيف الاستفهام بأدواته المختلفة (أين، كيف، من، كم، كيف)، واستخدمه للتعبير عن أغراض كثيرة كالاستعطاف واللوم والعتاب وإظهار العجز والتواضع، كقوله: «وأين منها - يا سيدي - حمى القاهرة»⁽⁵⁾. وقد تكرر الاستفهام في قوله: «وأين أين»⁽⁶⁾ وهذا للمبالغة في التوكيد، أي تأكيد خبر الحمى وبيان الفرق الكبير بين تلك الحمى التي ألت به بمصر وتلك التي أصابته بالمدينة، وهذا كله قصد التأثير في المتلقي كي يسأل عن حاله، ولفت انتباهه إلى أمور خفيت عنه من أمر بمقامه بالحجاز. ويكثر أبو عصيدة استعطاف صديقه حتى لامه فيه الناس وعاتبوه بقولهم: «إلى كم هذا التلطف المتواتر وهذا الاستعطاف»⁽⁷⁾ أفاد الاستفهام غرض اللوم والعتاب على هذه المحبة الزائدة والشوق للمشدالي الذي لا يبادلُه نفس الشعور. وقد يأتي بالاستفهام لأغراض أخرى، كقوله: «أين أهل التحقيق من بنات الطريق؟»⁽⁸⁾، لاستبعاد وإظهار التواضع ولبيان الفرق الشاسع بين فهم المحققين للمسألة ويقصد المشدالي وبين من تضاربت آراؤهم فيها دون الاهتمام للصواب ويقصد نفسه. ولنفس الغرض (الاستبعاد) استخدم أداة الاستفهام (كيف)، فقال: «وكيف أنسى ذلك المجد العميم

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص54، 78، 96.

2- المصدر نفسه، ص88.

3- المصدر نفسه، ن. ص.

4- المصدر نفسه، ص57.

5- المصدر نفسه، ص53.

6- المصدر نفسه، ن. ص.

7- المصدر نفسه، ن. ص.

8- المصدر نفسه، ص86.

والعهد الكريم»⁽¹⁾. ويستخدم نفس الأداة لغرض التعجب فيقول: «كيف رضيت همّة سيدي العالية مقاطعة محبّه»⁽²⁾، فيتعجب من موقف صديقه وحبيبه الذي أظهر برودة عاطفية نحو بلديّه المشتاق لرؤيته وسماع أخباره.

ومن أنواع الاستفهام الاستعانة بالنهي، وساقه ليؤدّي أغراضا مختلفة منها: غرض الإنكار في قوله: «ولا تقل ما عليّ ملام بل عليك ملام»⁽³⁾، فالنهي هنا يفيد الإنكار، حيث يردّ أبو عصيدة على المشدّاليّ مقولته (ما على المحبّ من ملام)، وينكر عليه هذا الموقف (القوليّ والفعليّ)، فكيف لا يلوم المحبّ حبيبه الذي جافاه وقطع الصلّة به. وقد يؤتى بالنهي للإرشاد والنصح كقوله - في مقام الحوار الافتراضيّ الذي دار بينه وبين رسالته التي هابت الوقوف بين يدي المشدّاليّ - : «لا تخافي ولا تحزني»⁽⁴⁾.

استعان أبو عصيدة بأسلوب الأمر الطلبيّ لبلوغ عدد من غاياته وتحقيق أهدافه، كالإفصاح عن بعض المشاعر والأحاسيس، وذلك محاولة منه استمالة المخاطب واسترعاء ذهنه بطلباته التي هي على سبيل الالتماس لا الاستعلاء، فقال له: «فاسمعني ساعة، وأعزّ لي أدنّ منصفة سماعة»⁽⁵⁾. ووظّف فعل الأمر لغرض الإشفاق، وذلك حين نصحه من حوله في قوله: «هون عليك فقد مضى زمن الأخوة الصّادقة الإنصاف»⁽⁶⁾، أي أشفقوا من حاله، ونصحوه بعدم إهلاك نفسه، فالمشدّاليّ لا يبادلك نفس العواطف.

استعمل أبو عصيدة المصدر المكرّر النَّائب عن فعل الأمر (عذرا - سترا) وهذا لغرض تبرير التّطويل في الخطاب وتوكيده، وهذا في قوله: «فعذرا عذرا من هذا الطّول الذي هو أخو الملل، وسترا سترا من الإكثار الذي هو رفيق الزّلل»⁽⁷⁾.

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص45.

2- المصدر نفسه، ص55.

3- المصدر نفسه، ص83.

4- المصدر نفسه، ص90.

5- المصدر نفسه، ص46.

6- المصدر نفسه، ن. ص.

7- المصدر نفسه، ص90.

ومن الأساليب الإنشائية الحاضرة بكثرة والمكررة في نسيج النصّ النداء بالياء وبدونها، حيث تكرر النداء بالياء ست عشرة مرّة⁽¹⁾ سيقّت كلّها لإظهار مكانة المخاطب ومقامه، فجاءت دالّة على التعظيم والتّفخيم والتّعظيم والتّوقير، إلّا في موضع واحد دلّت فيه على الشّكوى: «وَأين منها - يا سيّدي - حمّى القاهرة»⁽²⁾. وثلاثة مواضع أخرى وردت لغرض الاستعطاف والاستمالة بلفظ (يا أخي أو يا خي). ووقع الاستغناء عن أداة النداء في أربعة مواضع⁽³⁾، دلّ النداء فيها كلّها على التّعظيم .

ج- الجمل الدّعائية:

النّصّ حافل بالجمل الدّعائية، فأبو عصيدة لا يفتّر عن الإكثار من الدّعاء للمشدّاليّ ولا يكفّ عن ذلك، وخصوصا في المواطن المقدّسة، وقد خاطبه قائلا: «لا زالت الأيدي بالدّعاء إليك مرفوعة»⁽⁴⁾. وهذه الجمل الدّعائية لها أبعادها النّفسية والموسيقية، فمن هذه الأبعاد النّفسية اختيار أبي عصيدة الكلمات وتوظيفها في التّراكيب الدّعائية بحسب ما يراه صالحا للحال والمقام. وإلى ذلك أرشد صاحب (صبح الأعشى) قائلا: «ويأتي في المكاتبة في الإخوانيات ومكاتبات النّظرَاء من الدّعاء بما يقتضيه الحال بينهم من الودّ والإدلال، بحسب ما يراه الكاتب ويؤدّي إليه اجتهاده»⁽⁵⁾. ولذا حين أحسّ أبو عصيدة أنّ المشدّاليّ به شيء من العتب عليه والغضب راح يدعو له بما يناسب الحال، وهو صفاء القلب من الحقد والغضب وسموّ النّفس عن القطيعة وسلامة البدن من التّعب، فقال: «أسعد الله المقام العالي - أعاده الله من الحقد والغضب، ووقاه طوارق الجفا والنّصب»⁽⁶⁾، وقوله: «بلّغكم الله المرام»⁽⁷⁾ عند ما بلغته رسالته، وقوله: «حفظكم الله»⁽⁸⁾ عند وصف حاله في الغربة فيدعو الله له أن يحفظه من هذه المعاناة.

1- ينظر: رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص 53، 58، 62، 63، 70، 75، 77، 78، 80، 82، 83، 84، 87.

2- المصدر نفسه، ص 53.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص 47، 86، 97، 98.

4- المصدر نفسه، ص 48، 52.

5- صبح الأعشى، القلقشنديّ، ج 6، ص 274.

6- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص 43، 45.

7- المصدر نفسه، ص 79.

8- المصدر نفسه، ن. ص.

وفي قوله: « فذكرت لقاء سيدي - أعزه الله - بالقاهرة المعزية »⁽¹⁾، فدعا له بالعز بما يناسب المكان الذي يقيم فيه وهو القاهرة المنسوبة لمؤسسها المعز لدين الله الفاطمي (319 - 365 هـ / 931 - 975 م) الذي اختطها وسمّاها (القاهرة المعزية)⁽²⁾.

د - السمات الإيقاعية:

أ - السجع:

القارئ للخطاب النثري لأبي عصيدة يسجل اهتمامه الواضح بالجانب الشكلي وحرصه الشديد على التزيين اللفظي والمعنوي للنص الأدبي مع محاولة إظهار براعته الفنية ومقدرته الأدبية. ومن ذلك ولعه بالأساليب المسجوعة، فجاءت الرسالة في مجملها قائمة على السجع البسيط القائم على توافق الفواصل بحرف واحد أو أكثر، ولكن نفسه قصير في متابعة المقاطع المسجوعة من نفس القافية، فيكتفي بالفاصلتين والثلاث وأحيانا يجوز إلى أربع فواصل. وقد تحمله أحيانا مراعاة الفواصل على التكلف وركوب الصعب. ولم تخل فصول الخطاب من التراكيب المسجوعة، فهو حاضر في المقدمة والموضوع والخاتمة.

ب - المحسنات البديعية:

جاء هذا الخطاب غنياً بالوحدات الإفرادية التي استعان بها أبو عصيدة في نسج خطابه وتلوينه، فأسعفته في بناء النهايات المسجوعة على مستوى البنية التركيبية، كما ساعدته على تشكيل الميزان الإيقاعي وإقامة فواصله، وهذا مع المحاولة منه لإبراز المقدرة على توظيف هذه الوحدات. فأكثر من المحسنات البديعية كالجناس بأنواعه التام والناقص، فمن النوع الأول (الحمام، الحمام) من قوله: « قد دارت عليهم كؤوس الحمام، والتقطهم الموت كما يلتقط الحب الحمام »⁽³⁾ الحمام بكسر الحاء هو قضاء الموت وقدره⁽⁴⁾ والثاني بفتح الحاء الطائر المعروف.

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص 90.

2- ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط 1، 1410 هـ / 1989 م، ج 4، ص 347.

3- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص 53.

4- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (حمم).

ومنه (نصّه، نصه) من قوله: «وتحقّقنا الأمر من نصّه، أو تعاضد قياسه بنصّه»⁽¹⁾، فالقصد بالنّصّ وهو الخطاب (رسالة أو أخبار) وبالنّصّ الثّاني وهو أنّ الأخبار المرفوعة الصّحيحة. ومنه أيضا (الغرر / غرر) من قوله: «... محاسن تلك الغرر...» وشغال فكري في هذه المهامه غرر⁽²⁾، الغرر جمع غرّة بمعنى أنفس الشّيء وأفضله، والثّانية من الغرور أي ضرب من المجازفة والمخاطرة⁽³⁾. ومن الجناس الناقص وهو كثير (إبلال، اعتلال)، (جهارا، نهارا)، (الغريب، الحبيب، الأديب)، (الرصف، الوصف)، (قرّب، تقريب)، (الحجاز، مجاز)، (أنيسي، جليسي)، فالتمّائل الذي يوفّره الجناس بين الأصوات والتّقارب بينها ينجم عنه حدوث جرس موسيقيّ يلتفت انتباه المتلقّي.

ونسجّل توظيفاً للوحدات الإفراديّة المتضادّة في نسيج هذا الخطاب عن طريق المطابقة، حيث أكثر من الطّباق الذي استعان به قصد توضيح المعنى ببيان بعض الفروق بين حالات مختلفة، فالشّيء يعرف بضدّه ونقيضه، ولا تخفى القصدية الإيقاعيّة باستعمال الطّباق، فهو يختار الوحدات التي تخدم النّهاية المسجوعة. ومن أمثلة الطّباق (ليلا / نهارا / اليوم / غد / القاصي / الدّاني / الفراق / التّلاق / حقيقة / مجاز / المعروف / المألوف / معارف / نكرات / نثار / نظام / القرب / البعد / البعيد / القريب / أعربت / أعجمت، أقدمت / أحجمت). وأيضا أتى بالطّباق لتكثيف المبنى وتنويعه، فهو يبحث عن الوحدات التي تعينه في تطويل خطابه. كما أنّ أبا عصيدة استعان بالوحدات التّركيبية المتقابلة التي جاءت في صورة ثنائيات متضادّة داخل النّصّ، مثل قوله (ابتدأتني بلطف وإقبال / وأعقبتي بجفاء وملال / أطمعني أولئك / أيأسني آخرك / أكره البعد والجفاء / وأحبّ القرب والصّفا / مرارة الفراق / حلاوة التّلاق). وهذا التّوظيف المقصود للتّقابلات بين الوحدات الإفراديّة أو التّركيبية ليس فقط لتجليته المعنى وإيصال الفكرة وتنويعه المبنى، بل يحمل أبعادا نفسيّة، كبيان الحالة التي يعيشها في بلاد الغربة، وما يلقاه من أحزان وأشواق وغيرها، وذلك بالمقابلة بينها وبين أضدادها من الأحوال.

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص54.

2- المصدر نفسه، ص87.

3- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادّة (غرر).

وما نسجله أيضا حضور كثيف للوحدات المترادفة التي تؤدي معنى واحدا، سيقى لغرض إيقاعي قصد إقامة الفاصلة المسجوعة، فمثلا الترداف بين (البين = الواضح) في قوله: «وأطلب منه ستر لما اشتمل عليه من الغيب الفاضح والعبي البين الواضح»⁽¹⁾، فلو اكتفى بلفظة البين لأفهم المقصد، ولكنه احتاج إلى مرادف للبين الذي يوافق النهاية المسجوعة (الفاضح) فأسعفته لفظة (الواضح). وكذا يقال في الثنائيات المترادفة (أناب = تاب / الشرح = التبيان / مفلس = عديم / تنائي = تباعد / انفصل = انقطع / يتعاهد = يتفقّد). وقد يأتي الترداف للتوزيع خدمة لخطابه الذي يميل أكثر إلى العبارات الطويلة، من ذلك قوله: (أوضح = جلا / فقير = مفلس)⁽²⁾ أو للتأكيد وإقامة الحجة والدليل، فأبو عصيدة يحاول أن يقنع المشدائي على صدق محبته والاشتياق له، وتبرير كثرة السؤال عنه ومراسلاته له، ومصدق ذلك كله اهتمامه بخطابه الشعري وشرحه وفهمه وإبراز معانيه. فمثلا الترداف بين (تأملت = تدبرت) جاء للتوكيد وبيان الاهتمام في قوله: «وقد أردت يا سيدي التهوض إلى بيان ما لاح لي من محاسن تلك الغرر، ومفاخر تلك الدرر، فتأملت وتدبرت وأمعنت النظر»⁽³⁾.

هـ - الانزياح:

الانزياح ظاهرة أسلوبية ولغوية تقوم على الخروج عن الاستعمال العادي للغة، إما اختيارا أو اضطرارا، وذلك قصد تحقيق غايات فنية وجمالية وإيقاعية، كلفت الانتباه، وإثارة الأذهان، والتشويق أو التأكيد، ومراعاة الانسجام الموسيقي وغيرها⁽⁴⁾. ويتم الانزياح بإحداث تغيير على مستوى الوحدات الإفرادية أو التركيبية (حرف، فعل، اسم، جملة، شبه جملة) داخل البنية

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص 86.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص 86، 87.

3- المصدر نفسه، ص 86.

4- ينظر: الأسلوبية - مدخل نظري ودراسة تطبيقية، فتح الله أحمد سليمان، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط 1، 1428هـ / 2008م، ص 21.

التركيبية للخطاب، وذلك التغيير يتم بعدة أشكال منها: الحذف والإضمار والفصل والتقديم والتأخير⁽¹⁾.

أ - الحذف:

والحذف يعدّ نوعاً من أنواع الانزياح، وقد نبّه عبد القاهر الجرجاني على دوره في الخطاب: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأنت ما تكون بيانا إذا لم تُبين»⁽²⁾. فالحذف ذو أهمية كبيرة من حيث إحداث تفاعل بين المرسل والمتلقي، فالأول يأتي خطابه خارجاً عن المعهود من اللغة، والثاني يحاول التفكير في إعادة نسج المحذوف من الخطاب بعد أن لفت انتباهه واسترعى فكره، ويعطي للبعد الدلالي عمقا، ويخدم الجانب الموسيقي⁽³⁾. الحذف لا يكون بطريقة اعتباطية، بل لا بدّ أن يستجيب الحذف للأصول النحويّة، التي تضبط ظاهرة الحذف وغيرها من الظواهر، كقولهم (لا حذف إلّا بدليل، الحذف على سبيل الوجوب والجواز كثير في كلامهم، كل ما جاء لضرورة شعر أو إقامة وزن أو قافية فلا حجة فيه)⁽⁴⁾. يتم الحذف على مستوى الوحدات الإفرادية كحذف المسند إليه (الفاعل ونائبه، المبتدأ)، وحذف المسند (الخبر)، حذف المكملات (المفعول به، الحروف، الموصوف...). وقد ورد من ذلك حذف المسند إليه (الفاعل) وتمّ إضماره جوازه لأنّه معلوم لدى المتلقي، ولأجل الإيجاز والبعد عن التكرار. وهذا الضرب من الحذف كثير، فمثلا وقع حذف الفاعل لفظ الجلالة (الله) في الاستهلال حيث قال: «الحمد لله الذي فتح بمفاتيح العقول أقفال الأفهام، ورفع حجب السرائر... وبصر البصائر...»⁽⁵⁾. ومن حذف المسند إليه حذف

1- ينظر: الأصول (دراسة إستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب)، تمام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، د. ط، 1420هـ/ 2000م، ص130.

2- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمّد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة - دار المدني، جدة، ط3، 1413هـ/ 1992م، ص146.

3- ينظر: الأسلوبية، فتح الله سليمان، ص137، 138.

4- ينظر: الأصول، تمام حسّان، ص132، 133، 134.

5- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص43.

المبتدأ (اسم الإشارة هذا سلام، الضمير هو طيب) في قوله: «سلام كريم، طيب عميم»⁽¹⁾، وحذف اسم كان (الصد) في الجملتين المتعاطفتين من قوله: «وهو إما أن يكون صدّ دلال أو صدّ ملال»⁽²⁾.

ويكون الحذف على مستوى الوحدات المركبة، وذلك بحذف الجمل الفعلية أو الاسمية أو شبه الجملة، ومن ذلك قوله: «وها هو يعرض بين يديك فإمّا وإمّا»⁽³⁾، وهو يعرض رأيه المخالف لما جاء في تلك الأبيات التي وردت في رسالة المشدّليّ في عتاب أبي عصيدة بسبب كثرة مراسلاته الحاملة للعتاب واللوم على القطيعة، فالمقام مقام تخيير بين موقفين لم يفصح عنهما، وأفسح مجال التأويل للمتلقّي. وقد وقع حذف الجملة الفعلية من قوله: «ولا غفلت عن السؤال في حال ولا أوان»⁽⁴⁾، والتقدير (ولا غفلت عن السؤال في أيّ أوان)، وهذا قصد الإيجاز وتجذب التكرار. وفيه حذف لشبه الجملة الجار والمجرور (عنه، في أيّ) والتقدير (ولا غفلت عن السؤال عنه، ولا في أيّ أوان).

ومن أنواع الحذف حذف الضمير المفرد الغائب من صلة الموصول (ما علم - ما فهم) على وجه الجواز، في قوله: «لما علم من حال مملوكه ما علم، وفهم من سراء تقاطعه لهذا الجنب الكريم ما فهم»⁽⁵⁾، وهذا لأجل إقامة الميزان الموسيقي ومراعاة الفواصل.

وهناك حذف من نوع آخر وهو من التقنيات النصّية التي تعارف عليها الشعراء حديثاً، وهو استبدال المحذوف بنقاط (وتسمّى نقاط الحذف) لأجل مقاصد منها الإيجاز أو إشراك المتلقّي في بناء الخطاب، وإفساح المجال له للتأويل ولأجل تعميق الدلالات⁽⁶⁾. وأبو عصيدة تعمّد ترك

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص44.

2- المصدر نفسه، ص54.

3- المصدر نفسه، ص44.

4- المصدر نفسه، ص54.

5- المصدر نفسه، ص86.

6- ينظر: الانزياح التركيبي والدلالي في ديوان محمد جربوعة، سامية شكال، مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماستر في الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2015 - 2016م، ص59، 60.

فراغات وبياض في نسيج النص، وذلك كي يملأها المشدالي بخطابه الشعري، بغية جمع شيء من شعره.

ب - التقديم والتأخير:

ظاهرة التقديم والتأخير من أنواع الانزياح، وقد وردت في النص بأشكال مختلفة، منها تأخير المعمول وتقديم المتعلق، وهذا واقع بتقديم شبه الجملة على عاملها، كقوله: «وإني - يعلم الله - إلى رؤيتكم مشتاق»⁽¹⁾، بهذا الشكل: بهذا الشكل:

[الناسخ (إن) + اسم إن + الجملة الخبرية (اعتراض) + الجار + المجرور (مضاف + مضاف إليه) (تقديم المعمول) + خبر إن (تأخير العامل)].

تمّ تقديم المعمول الجار والمجرور (إلى رؤيتكم) وتأخير المتعلق اسم الفاعل (مشتاق) الذي يتعلّق به حرف الجرّ (إلى)، وهذا لبيان الاهتمام برؤية صديقه لتقرّ عينه، فأفاد القصر الشوق لرؤيته أكثر من سماع أخباره أو غيرها، وكذلك لغرض إيقاعي وهو الحرص على الفاصلة المسجوعة. ولنفس المقاصد جاء قوله: «سنح بتلك الفكرة الحلم»⁽²⁾، بهذا الشكل: [الفعل الماضي + الجار + المجرور (مضاف) + المضاف إليه + الفاعل (متأخر)]، حيث تأخر الفاعل عن رتبته التي تكون بعد الفعل مباشرة، وقدم الجار والمجرور والمضاف إليه قصد الاختصاص، إذ قصر فكرته (وهي تخيل حضور المشدالي إلى الحجاز) على الحلم وليس في الواقع.

ج - الاعتراض:

يعدّ الاعتراض من أنواع الانزياح على المستوى التركيبي، وهو عدول المخاطب في خطابه عن المعنى الأول إلى الثاني ثم الرجوع إلى الأول دون الإخلال بالمعنى المراد. ويكون بين وحدتين متلازمتين كالمسند والمسند إليه (الفعل والفاعل / المبتدأ والخبر) وبين المكملات المتلازمة (الموصوف والصفة / القول ومقوله)⁽³⁾.

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص55.

2- المصدر نفسه، ص55.

3- ينظر: الأسلوبية، فتح الله سليمان، ص169، 170.

ومن الاعتراض الفصل بين المسند والمسند إليه، بالوحدات الإفرادية والمركبة (الجملة، وشبه الجملة). فالاعتراض بالجملة وشبهها واقع بين اسم إن وخبرها، وهذا في قوله: «وإني - يعلم الله - إلى رؤيتكم مشتاق»⁽¹⁾، بهذا الشكل:

[الناسخ (إن) + اسم إن + الجملة الخبرية (اعتراض) + الجار + المجرور (مضاف + مضاف إليه) (اعتراض) + خبر إن].

وقع الفصل بالجملة الفعلية الخبرية، وهذا لتقوية الخبر أي أن الله شاهد على ما أقول وعالم بما أشعر به من صدق المودة والشوق للقاء. وقع الاعتراض بين المبتدأ والخبر بالجملة الاعتراضية الندائية في قوله: «كلّ محبّ يا سيدي له مرام»⁽²⁾، وهي بهذا الشكل: [المبتدأ (المضاف والمضاف إليه) + الجملة الندائية (اعتراض) + جملة الخبر (خبر مقدّم + مبتدأ مؤخر)]. وفي قوله: «وهذه - يا سيدي - منزلة من لا يدري»⁽³⁾. وهي بهذا الشكل: [المبتدأ + الجملة الندائية (اعتراض) + الخبر (المضاف + المضاف إليه)]. وقد سبق الاعتراض بالنداء تخصيصاً للمنادى بالخطاب دون غيره.

أمّا الاعتراض بين (الفعل والفاعل) بشبه الجملة بالجار والمجرور حاضر في قوله: «حصل لنا به أنس»⁽⁴⁾، حصل اعتراض بين الفعل والفاعل بالجار والمجرور مرتين متواليتين، على هذا الشكل:

[الفعل + الجار والمجرور (اعتراض) + الجار والمجرور (اعتراض) + الفاعل]. فنقديم الجار والمجرور (لنا) قصد تخصيص المذكور (الفقيه فخر الدين الشامي) بحصول المؤانسة به دون سواه، فالتفع وقع لأبي عصيدة فهو محتاج لمن يؤنسه في غربته. وتقديم الجار والمجرور (به) لإبراز الاهتمام بالمذكور والتّنويع بجمل صنيعة.

أمّا الاعتراض الحاصل بين المكملات أو الفضلات فحاضر في النصّ. ومنه الاعتراض بين الحال وصاحبه بجمل دعائية بجملة أو جملتين، وهذا في قوله: «وجاء (يقصد كتابه أنس

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص55.

2- المصدر نفسه، ص80.

3- المصدر نفسه، ن. ص.

4- المصدر نفسه، ص93.

الغريب) - بحمد الله و حسن عونه - مجموعا لطيفا... وجاءت (مقدمة الكتاب) - بحمد الله - ناصعة الطرف»⁽¹⁾. فاعترض بين الحال وهما على التوالي (مجموعا، ناصعة) وصاحب الحال وهم الضميران (هو، هي) بالجمل الدعائية، وهي بهذا الشكل: [الفعل + الفاعل الضمير صاحب الحال + الجمل الدعائية (اعتراض) + الحال + الصفة، المضاف إليه]. وهناك الاعتراض بين القسم وجوابه بالجملة الندائية (يا سيدي) في قوله: «فوالله - يا سيدي - ما العبد إلا في جلائل نعم الله الجسام»⁽²⁾.

د - الالتفات:

الالتفات من الظواهر الأسلوبية القائمة على خرق البنية الخطية للنسق اللغوي، وهو ذو قيمة تأثيرية وجمالية وتعبيرية، فظاهرة الالتفات لا شك أنها تؤثر في المتلقي من حيث إمتاعه ولفت انتباهه، وذلك حين ينتقل الخطاب من أسلوب إلى آخر فإنه يبعث في المتلقي روح النشاط بتلك التحولات والانتقالات المفاجئة وغير المتوقعة في سياق الخطاب، ومن ثم يبعده عنه الملل الناتج عن الرتابة في التعبير. وليس ذلك فحسب بل تساعد ظاهرة الالتفات على خدمة المعنى المقصود، حيث تشحن الموضوع الذي حدث فيه من الخطاب بدلالات وإيحاءات مختلفة⁽³⁾.

ومن أنواع الالتفات التي سجلناها في نص الخطاب قوله: «ما زال يشمله البر منكم والإحسان»⁽⁴⁾، هنا التفات من الضمير المتكلم المفرد إلى الغائب (يشمله والأصل يشملني) ومن الضمير الغائب المفرد إلى ضمير الجمع المخاطب (منكم والأصل منك يقصد المشدالي). والالتفات من الضمير المفرد إلى ضمير الجمع، وهذا قصد التعظيم لمقام المخاطب، وإظهار المزيد من الاحترام والتقدير، مثل قوله: «كتبت لكم رسالة عرفت فيها ما تضمنته الرحلة المباركة من حين انفصالي عن مقركم إلى حين كتبي لمقامكم»⁽⁵⁾. وغرض التعظيم والتوقير

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص 88، 91.

2- المصدر نفسه، ص 62.

3- ينظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ط، 1418هـ / 1998م، ص 27، 28.

4- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص 46.

5- المصدر نفسه، ص 52.

نجدته يتكرر كلما خاطب أبو عصيدة صديقه المشدائي بضمير الجمع، مثل قوله: «جزاه الله عنا خيرا، وأبقى بركتكم»⁽¹⁾، فهنا التفات من ضمير الغيبة المفرد العائد على فخر الدين الشامي إلى ضمير الجمع المخاطب وهو المشدائي، وهنا دفعه سياق الخطاب، ومراعاة الفواصل في هذه الفقرة، حيث استعمل ضمير الجمع المخاطب (أفعالكم وأقوالكم، أحوالكم وأخباركم، ببلدكم وسفرتكم، رحلتكم، ترجمتكم، بركتكم).

ونجد أيضا الالتفات من الضمير المخاطب إلى الغائب، حيث وجه الخطاب إلى المشدائي قائلا: «أجرى الله على يديكم الخيرات...»⁽²⁾ ثم عدل عن الخطاب إلى الغيبة فيقول: «أطلب إليه الإسعاف بالتعجيل وعدم التطويل»⁽³⁾.

و - التناص:

نسجل في هذا الخطاب حضورا لأشكال مختلفة من التناص، منها التناص الديني والأدبي، وقد استطاع أبو عصيدة أن يوظف هذا المخزون المعرفي توظيفا موضوعيا وفنيا، وعدت مصدرا من مصادر تكوين الصورة الفنية لديه. فلا عجب في ذلك فالرجل فقيه ملم بمختلف العلوم الدينية وله معرفة بفنون الأدب، أظهر ثقافته الدينية والأدبية في نص رسالته، وقد حفل الخطاب بكثير من التصوص الدينية المقتبسة والمضمنة، من ذلك التناص مع القرآن الكريم في كثير من المواطن، حيث يقتبس من القرآن الكريم بصفة مباشرة مثل قوله (تسر الناظرين، أضغاث أحلام، لا تخافي ولا تحزني)⁽⁴⁾ من قول الله (ﷻ): ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَبْرَاءُ فَافْعَلْ لَوْنُهَا تُسَرُّ النَّظِيرِينَ﴾. [سورة البقرة: 68]، وقوله (ﷻ): ﴿فَالَوْ أَضْغَتْ أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَاوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَلِيمِينَ﴾. [سورة يوسف: 44]، وقوله (ﷻ): ﴿وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّآ رَآدُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. [سورة القصص: 6].

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص 93.

2- المصدر نفسه، ص 88.

3- المصدر نفسه، ن. ص.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص 73، 91، 98.

كان للحديث النبوي نصيب من التوظيف في نص هذا الخطاب، وذلك يدلّ على اطلاع أبي عصيدة بالنصوص الحديثية، كيف لا وهو ممّن تصدر لإقراء الحديث بالمدينة المنورة. وهنا نلاحظ أثر الحديث في الخطاب النثري لأبي عصيدة. من ذلك التناص الوارد مع حديث رسول الله (ﷺ): «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»⁽¹⁾، وقد ساقه في مقام التّأويل على لذة الاغتراب، والتّأصيل لمفهوم الغربة وبيان فلسفتها. وله تناص مع حديث رسول الله (ﷺ): «أُطِيتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ»⁽²⁾، وذلك حينما تخيل المشدائيّ جالسا يدرّس في مسجد رسول الله (ﷺ) والناس قد التقوا حوله وتدافعوا للأخذ عنه، حيث قال: «وكأني بك بعد الاستقرار... جلست لهم مجلسا شريف المقدار، وقد حفّ بك من العلماء والفقهاء جمّ غفير... وأطّ المجلس وحقّ له أن يُوطّ، ما فيه موضع أربع أصابع إلّا وفيه عالم أو متعلّم...»⁽³⁾.

ومن التناص الأدبيّ الحاضر في هذا الخطاب، توظيفه للموروث الأدبيّ القديم من شعر ونثر توظيفا مباشرا وغير مباشر. فنجد تداخلا لكثير من النصوص الشعريّة القديمة مع بنية الخطاب، وتوظيفها بحيث يكون هناك انسجام وتناسق مع أفكار النصّ، ويأتي بها في الغالب للبرهنة والتّأويل على الفكرة التي يريد إيصالها للمتلقّي أو لتجلية أحواله النفسيّة. وهنا تكمن أهميّة هذا التناص، فحياة الغربة والبعد عن الأحباب وأيام المرض، واشتياقه للقاء صديقه المشدائيّ وغيرها من الأحاسيس والمواقف (اللوم، العتاب، الاسترضاء، السرور، الحزن، المناقشات، الحوارات...) جعلته يدرج شعر طرفة بن العبد والمتنبّي وأبي تمام وقيس بن الملوّح وغيرهم ليوصلها للمتلقّي.

1- سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت،

لبنان، ط1، 1996م، ج4، ص145، رقم: 2333.

2- المصدر نفسه، ج4، ص134، رقم: 2312.

3- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص54.

فمن هذه النماذج قوله بعد شفاءه من الحمى التي أصابته وقد أشرف على الهلاك، ويقينه أنه لا مناص من الموت وإن طال أجله فهو آتيه: «والموت وإن أبطأ الفتى مرة ما فهو كالطول المرخي وثنياء باليد»⁽¹⁾، فهنا تناص غير خافٍ مع قول طرفة بن العبد⁽²⁾:

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لَكَالطَّوْلُ الْمُرْخَى وَثْنِيَاهُ بِالْيَدِ

وكلما ازداد غياب صديقه المشدالي زاد شوق أبي عصيدة للقائه، حتى كان يتخيل قدمه للحجّ وزيارته للمدينة وجلوسه في حلقات العلم، ولما أفاق من سكرته ووهمه، راح يرجو الله أن يجمعهما⁽³⁾ مستحضرا بيت شعرياً يناسب المقام لقيس بن الملوّح⁽⁴⁾:

وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ الشَّتَيْتَيْنِ بَعْدَ مَا يَظَنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

ونسجل في هذا الخطاب التناص مع المنثور من كلام القدامى، وخاصة توظيفه للأمثال القديمة بشكل لافت، منها قوله: «حتى انفشعت الرّغوة عن الصّريح»⁽⁵⁾ إشارة إلى المثل الذي يقال عند انكشاف الأمر بعد خفائه وظهوره على حقيقته فيقال (وأبدى الصّريح عن الرّغوة)⁽⁶⁾. وفي قوله: «صَدَقَ الْخَبْرُ الْخُبْرُ»⁽⁷⁾، وهذا مثل تقوله العرب عند مطابقة الأخبار بالمعينة الإخبار بالسّمع⁽⁸⁾. ومنه قوله: «هذه يا سيدي منزلة من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري»⁽⁹⁾، هذه أحد أقسام الناس علما وجهلا للخليل بن أحمد الفراهيدي حيث قال: «الرجال أربعة: فرجل يدري ويدري أنه يدري، فذلك عالم فاعرفوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري، فذلك غافل فأيقظوه؛

1- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص54.

2- ديوان طرفة بن العبد، شرح وتقديم: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط3، 1423هـ / 2002م، ص26.

3- ينظر: رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص62.

4- ديوان قيس بن الملوّح، دراسة وتعليق: يسري عبد الغني، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ / 1999م، ص122.

5- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص54.

6- ينظر: جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، ج1، ص28.

7- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص79.

8- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (خبر).

9- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص80.

ورجل يدري ولا يدري أنه يدري، فذلك غافل فأيقظوه؛ ورجل لا يدري أنه لا يدري، فذلك جاهل فعلموه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري، فذلك مائق⁽¹⁾ (أحمق) فاجتنبوه⁽²⁾، وهنا أبو عصيدة وظف هذا المثل تواضعا منه بين يدي المشدالي، وليس الأمر على ظاهره، فالرجل نبيه له إمام بالعلوم الدينية والأدبية وغيرها.

6- خطابه الشعري:

لم يشغل أبو عصيدة بالخطاب النثري فقط، بل جمع بين الخطابين النثري والشعري، وهذا ما سجلناه في (رسالة الغريب) فقد حوت جانبا من خطابه الشعري، وهذا يدل على اشتغال أبي عصيدة بالشعر وقرضه. إلا أنه لم يميز بين شعره وشعر غيره إلا نذرا وهذا تواضعا منه، وترك ذلك أيضا للمتلقى ليملاً ذلك الفراغ، وبهذا يحاول أبو عصيدة أن يشرك المتلقى سواء أكان المقصود بذلك هو المشدالي أم غيره من المتلقين الذين يملكون خبرة وذوقا جماليا يؤهلهم لقراءة النص الشعري ونقده⁽³⁾.

ومن خطابه الشعري قصيدة في غرض المدح افتتحها بمقدمة غزلية، تناول فيها مدح السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان فأتى على ذكر مآثره وخصه بالدعاء له ولولده ولجنوده بالنصر والعزة والتأييد، يقول فيها - الطويل -⁽⁴⁾:

فِيَا ذَا الْعُلَا وَالْجُودِ وَالْمَنِّ وَالْعَطَا ❁ سَأَلْنَاكَ بِالْمُخْتَارِ فَضْلاً يَعْْمُنَا
وَنَصْرًا وَفَتْحًا وَاحْتِرَامًا وَرَفْعَةً ❁ لِسُلْطَانِنَا عُثْمَانَ مَالِكِ أَرْضِنَا

ومن شعره الغزلي مقدمة قصيدته المدحية التي يقول فيها: - الطويل -⁽⁵⁾:

سَلُّوْا مَنْ سَلَا ذِكْرَ الْحَبِيبِ وَمَا دَنَا ❁ وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ الْقَلْبَ أَوْلَى لِمَنْ دَنَا

1- المائق: الهالك حمقا. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (موق).

2- ينظر: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، أبو زيد بن محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق: علي محمد البجادي، مطبعة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، د. ت، ص 43.

3- ينظر: رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص 66.

4- المصدر نفسه، ص 67.

5- المصدر نفسه، ص 66.

أَهْلٌ فِي سُؤْلٍ عَنْهُ قُتِمَتْ بِحُجَّةٌ؟ * أَمْ الشَّغْلُ فِي الدُّنْيَا لَهَاكَ أَمْ الْوَنَى⁽¹⁾؟
 أَظُنُّكَ قَدْ أَهْمَلْتَهُ مُتَنَاسِيًا * فَلَسْنَا كَمَا إِيَّاكَ عِنْدِي فَخَلْنَا
 حَرَامٌ عَلَى قَلْبِي سُؤْلُ غَيْرِكُمْ * وَكَيْفَ سُؤْلِي وَهَوْلِي غَايَةُ الْمُنَى
 ظَفَرْنَا بِسَاعَاتِ الْوَصَالِ فَصَادَفْتُ * سَحَائِبُ جُودِ اللَّهِ فَانْهَمْتُ لَنَا

وبعد أن حمد الله وشكره على نعمة وصال الحبيب، قال⁽²⁾:

وَقَفْتُ وَقَدْ أَوْقَفْتُ بِالْبَابِ مُهْجَتِي * وَآلَيْتُ أَنْي لَا أَفَارِقُ ذَا الْفَدَا
 وَأَفْسَمْتُ إِنِّي لَا أَلُودُ بِغَيْرِهِ * وَأَنْ لَا أَرَى إِلَّا عَلَى الْبَابِ هَاهُنَا
 رَضِيتُ بِالْفَقْرِ وَالْإِقَامَةِ عِنْدَهُ * غَزَائِي عِنْدَ الْقَبْرِ فَلِي الْهَذَا

غمرت محبة النبي (ﷺ) قلب أبي عصيدة، فانقطع عن الأهل والأحباب وفارق الأوطان قصد المجاورة بالمدينة المنورة، ليكون قريباً من الروضة الشريفة وقبر النبي (ﷺ)، وظهر صدى هذه المحبة في أشعاره، وكانت رافداً من روافد الشعر الغزليّ لديه، حاول أن يبين عن تجربته الغزليّة وفق النزعة الصوفيّة في مطلع هذه القصيدة، ويظهر ذلك لدى توظيفه لعدد من المصطلحات الصوفيّة في النصّ، مثل (السّلوان)⁽³⁾، المهجة⁽⁴⁾، (الوصال)، والتي ساعدته على توصيف تجربته الوجدانيّة.

1- الونى: الضعف والفتور والكلال والإعياء. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (وني).

2- رسالة الغريب، أبو عصيدة، ص 66.

3- السّلوّ: الهجر والتّسيان، والسّلوان والسّلوانة شيء يسقاه العاشق ليسلو عن المرأة. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (سلا).

4- المهجة تعني في المصطلح الصوفيّ جميع المحبوبات من النّفس والمال والولد. ينظر: موسوعة التّصوف الإسلاميّ، رفيق العجم، ص 950.

4 - أحمد زروق (846 - 899هـ / 1442 - 1493م):

1 - اسمه ونسبه ولقبه وكنيته:

أحمد⁽¹⁾ بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي⁽²⁾ الفاسي⁽³⁾. لقب بزروق نسبة إلى جدّه من أمّه الذي لقب به لزرقه عينيه⁽⁴⁾. ولقد ساق الشيخ زروق نسبه في صدر أرجوزته (عيوب النفس ودواؤها)، فقال⁽⁵⁾:

يَقُولُ رَاجِي رَحْمَةِ الْغَفَّارِ * أَحْمَدُ نَجْلُ أَحْمَدِ الْخَضَّارِ
الْبُرْنُوسِي الْأَصْلُ ثُمَّ الْفَاسِي * الْمَشْهُورُ زُرُوقُ بَيْنَ النَّاسِ

ومنهم من ذكر أنّه: أبو الفضل شهاب الدين أبو العباس سيدي أحمد بن سيدي أحمد بن سيدي محمد الخضار (لقب أبيه وجدته لاشتغالهما بزراعة الخضر) بن سيدي عيسى البرنسي التفرنوثي البوري الورياكلي أصلا وولادة⁽⁶⁾، الفاسي نشأة ودارا وقرارا⁽⁷⁾.

2 - مولده ونشأته:

- 1- سمّاه أبوه محمّدا، ولمّا توفيّ الوالد نودي باسم والده أحمد، ولقد ارتضاه لنفسه لعدّة أسباب ساقها، منها ما يرجع إلى دوافع اجتماعيّة ونفسيّة ودينيّة. ينظر: الكناش، زروق، ص12، 13.
- 2- اختلف في نسبته هل البرنسي أم البرنوسي؟. فمنهم من ذكر أنّه من حيّ البرانس من قبيلة ورياكل شمال مدينة فاس، ومنهم من قال البرنوسي نسبة إلى بيت البرنوسي قبيلة بين فاس وتازة. ينظر: أحمد زروق، فهمي خسيم، ص20.
- 3- أورد هذا النسب كثير ممّن ترجم له، منهم أحمد بابا التنبكتي. ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص130، رقم: 125.
- 4- ينظر: الكناش، زروق، ص12، 13.
- 5- عيوب النفس ودواؤها، أبو العباس أحمد بن أحمد زروق البرنسي الفاسي، تحقيق: محمد طيّب، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص20، 21.
- 6- لم تفصح المصادر عن مكان ولادته بالضبط، ولا ندري على أيّ شيء بنى محقق كتاب (عيوب النفس) هذا التّحديد، على الرّغم من تضارب الأقوال في موضع ولادته. وأبعد النّجعة الطّاهر أحمد الزّواويّ حين جعل مولده بطرابلس، مستندا على ما ورد في مقال لمؤرّخ ليبيّ بمجلة ليبيا المصوّرة. وهذا الرّأي مستبعد لأنّ الشّيخ زروق لم يذكره في كتّابته، ولم يشر فيه إلى رحلة عائلته بعد ولادته من طرابلس إلى فاس، كما أنّه تلقّى تعليمه الأوّل قبل خروجه من فاس على يدي الشّيوخ الفاسيين. ينظر: أعلام ليبيا، الطّاهر الزّواويّ، ص107، 137.
- 7- ينظر: هامش عيوب النفس، زروق، ص19.

ولد أحمد زروق يوم الخميس الثاني والعشرين⁽¹⁾ من محرم سنة ست وأربعين وثمانمائة هجرية (846هـ / 1442م). نشأ يتيم الأبوين إثر وفاتهما في الأسبوع الأول من ولادته، فكفلته جدته الفقيهة أم البنين إلى أن توفيت بعد بلوغه عشرة أعوام⁽²⁾، وعملت على تنشئته تنشئة صالحة، فكان يغدو إلى الكتاب لحفظ القرآن الكريم، ويتعلم مبادئ العلوم الشرعية ثم ينصرف أيام فراغه إلى تعلم صناعة الخرازة⁽³⁾.

3- وفاته:

كانت وفاة الشيخ زروق في شهر صفر عام تسعة وتسعين وثمانمائة (899هـ / 1493م)، بتكرين من أعمال طرابلس⁽⁴⁾.

4- شيوخه:

تلقى الشيخ زروق تعليمه على يدي عدد كبير من العلماء والفقهاء داخل فاس وخارجها من رجال ونساء، كان لهم الأثر الكبير في التكوين العقدي والعلمي والصوفي، فأخذ عنهم مختلف العلوم من فقه وحديث وعلوم القرآن وتصوف وتوحيد ولغة وغيرها. فكان منهم في صغره جدته الفقيهة أم البنين، وخالها أبو العباس الفشتالي، والفقيه أبو عبد الله محمد بن موسى العبدوسي (ت 859هـ / 1455م) وأخته الفقيهة أم هاني (ت 860هـ / 1456م) وغيرهم. ولما بلغ السادسة عشرة من عمره انقطع للدرس بحلقات العلم في مساجد فاس ومدارسها، فتتلمذ على جلة علمائها منهم؛ عبد الرحمن القوري (ت 872هـ / 1467م)، عبد الرحمن المجدولي وغيرهم. أما خارجها فنذكر منهم: عبد الرحمن الثعالبي وإبراهيم التازي والإمام السنوسي والحافظ التنسي، وأبو عبد الله محمد بن القاسم المشدالي (ت 866هـ / 1462م) ومحمد قاسم الرصاص

1- هذا هو الزّالّج الذي أورده الشيخ زروق في كتابه، خلافا لكل من السّخاويّ وعبد الله كنون، والطّاهر الزّواويّ الذين ذكروا أنّ مولده في الثّامن عشر. ينظر: الضّوء الّامع، السّخاويّ، ج1، ص222. ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، عبد الله كنون، تقديم: محمد بن عزّوز، دار ابن حزم للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت لبنان، ط1، 1430هـ / 2010م، ص542. أعلام ليبيا، الزّواويّ، ص107.

2- ينظر: نيل الابتهاج، التّنكيّ، ص130.

3- ينظر: الكّاش، زروق، ص11-15.

4- ينظر: نيل الابتهاج، التّنكيّ، ص132.

(ت894هـ/1489م) وغيرهم، وبالمشرق أخذ عن جماعة منهم: الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي (831 - 902هـ/1427 - 1497م) وأبو العباس أحمد بن عقبة الحضرمي (ت895هـ/1490م) الذي كان له أثر كبير في تكوينه الصوفي وغيرهم كثير⁽¹⁾.

5 - تلاميذه:

أخذ عن الشيخ زروق عدد كبير من أهل العلم والتصوف، فمن المغاربة أبو عبد الله الخروبي، طاهر بن زيان الزواوي القسنطيني (ت بعد 940هـ / 1533م)، محمد بن عبد الرحمن ابن حسين الطرابلسي المعروف بالحطاب الكبير، ومن المشاركة شمس الدين اللقاني (ت857-935هـ / 1453 - 1528م)⁽²⁾.

6 - رحلاته:

سجل للشيخ زروق عدة رحلات تردد فيها على كثير من بلدان المغرب والمشرق، كان أولها رحلته إلى تلمسان لزيارة ضريح أبي مدين شعيب (596هـ / 1198م) وهذا سنة (870هـ/1465م). ويبدو أنه اضطر إلى هذه الرحلة للتخفيف من بعض الضغوط النفسية التي مورست عليه بسبب سوء الأحوال السياسية بفاس إثر خلع السلطان عبد الحق المريني (ت869هـ/1464م) بعد استوزاره لليهوديين هارون وشاويل، وقد أبدى موقفه الرافض للثورة التي قادها شيخه أبو فارس الورياكلي (ت881هـ / 1476م)⁽³⁾. كما اتهمه إثر ذلك بعض حاسديه باليهودية والجاسوسية⁽⁴⁾. وقد دون جانبا من هذه الرحلة في كتابته⁽⁵⁾.

وله أيضا رحلة إلى المشرق لأداء فريضة الحج وطلب العلم قبل سنة (874هـ / 1468م)⁽⁶⁾، وكان سببها على ما ذكر ابن عسكرو خلافة مع شيخه أبي عبد الله محمد الزيتوني بعد أن

1- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص130، 131.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص132.

3- ينظر: الاستقصا، الناصري، ج4، ص100.

4- ينظر: الكناش، زروق، ص28.

5- ينظر: المصدر نفسه، ص28 - 38.

6- هذا التاريخ التقريبي بناء على ما ورد في كتابته من أنه أخذ عن الشيخ نور الدين التتسي بمصر، حيث بلغ الشيخ زروق وهو بالحجاز نبأ وفاة شيخه سنة (875هـ/1471م)، فدل على أنه لقيه قبل هذه السنة مع حساب المدة الزمنية التي قضاها في رحلته من فاس مرورا بحواضر المغرب العربي.

أنهم شيخه بإفشاء أسرارهم، وإنكار الشيخ زروق لبعض أفعال شيخه وممارساته المنافية لظاهر الشريعة مما دفعه إلى اتهامه بالزندقة⁽¹⁾. وله رحلة أخرى سنة (888هـ/1483م) أشار إليها في ختام منظومته (عيوب النفس) التي بدأها بالمدينة المنورة وختمها بها يوم الإثنين الخامس عشر جمادى الآخرة سنة (888هـ/1483م)⁽²⁾، فمرّ بأهم حواضر العلم في طريقه، حيث أفاد من علمائها وانتفع به آخرون، فدخل تلمسان ووهران وبجاية وتونس ومصر والحجاز، ثم انتهى به المقام أخيراً بمصر سنة (886هـ/1481م) إلى أن توفي بها في شهر صفر سنة (899هـ/1493م)⁽³⁾.

7 - آراء العلماء فيه:

أجمع كل من ترجم للشيخ زروق على مدحه والثناء عليه بصنوف القول، وانصب ثناؤهم على الجانب العلمي والروحي والإصلاحي، فمن ذلك قول عبد الله بن محمد العياشي في رحلته عند زيارة ضريحه وزاويته: «... الشيخ المحقق العالم العلامة العارف بالله، الدال على الله، صاحب العلمين ومحقق النظرين، ومحصل المذهبين ومرتضى الفريقين، مقتدى أهل العلم الباطن، ومتبوع أهل الظاهر، وينبوع الأسرار في سائر المظاهر، قطب مغربنا وإمام أئمتنا»⁽⁴⁾. وقال فيه التتبعي: «وهو آخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة له كرامات عديدة»⁽⁵⁾⁽⁶⁾.

8 - مواقفه:

سجل في سيرته مواقف سياسية في شبابه وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وهو موقفه من خلع سلطان له بيعة في أعناقهم مستنداً إلى عدم خلع من بويع إلا بوجه شرعي خشية الفتن، ولا

1- ينظر: دوحة الناشر، ابن عسك، ص 48، 49.

2- ينظر: عيوب النفس، زروق، ص 122.

3- ينظر: التذكار، ابن غلبون، ص 256.

4- الرحلة العياشية، عبد الله بن محمد العياشي، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ط 1، 2006م، ج 1، ص 187.

5- تتبّع عليّ فهمي خشيم الكرامات التي نسبت لأحمد زروق في حياته وبعد مماته وجمعها تحت عنوان (زروق الولي). ينظر: أحمد زروق، فهمي خشيم، ص 68- 75.

6- نيل الابتهاج، التتبعي، ص 132.

يجوز الخروج عن الحاكم قولاً أو فعلاً لأن حفظ النظام واجب، رعيًا للمصلحة العامة⁽¹⁾. وبلغ به الأمر إلى ترك الصلاة خلف شيخه أبي فارس الوريكلي⁽²⁾. وله مواقف أخرى إصلاحية ذات بعد ديني واجتماعي. أخذ على عاتقه الدور الإصلاحي وتخليص المنهج الصوفي من كثير مما علق به من الخرافات والتدجيل والممارسات البعيدة عن النهج القويم، وتصحيح بعض المفاهيم التي غابت عن كثير من المتصوفة الذين اتخذوا من التصوف وسيلة لقضاء مصالحهم النفسية والاجتماعية والسياسية، بداية بموقفه من شيخه الزيتوني، وموقفه من عمرو بن سليمان الشيطمي (890هـ / 1485م) مدعي النبوة وأتباعه الثائرين، حيث يقول: «... فرأيت منهم أناساً، فرأيت كذباً كثيراً، ودعوى عريضة، وجهلاً عظيماً، وحاصل أمرهم الشوشة في الرأس، والسبحة في العنق، والسيف في اليد، والذكر في اللسان، والخروج عن الحق في الأفعال»⁽³⁾. ومن ثم استحق بجهوده الإصلاحية لقب محتسب العلماء والأولياء⁽⁴⁾.

9 - مؤلفاته:

خلف ميراثاً كبيراً ومؤلفات عديدة في مختلف العلوم والفنون منها المنظوم والمنثور، ما ينبئ عن موسوعيته. فألف في الفقه والتصوف وعلم الكلام والتفسير والحديث والسير والتراجم وغيرها، رتب مؤلفاته عن مائة مؤلف أكثرها في التصوف⁽⁵⁾. منها (قواعد التصوف وشواهد التعرف)، وله شروح على الحكم العطائية بلغت ستة عشر شرحاً، وأرجوزة (عيوب النفس ودواؤها)، و(عدة المريد الصادق) وغيرها، وفي الفقه شرح على مختصر خليل بن إسحاق، وله شرحان على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وفي الحديث له تعليق على صحيح البخاري، وفي العقيدة شرح على العقيدة القدسية لأبي حامد لغزالي، وفي التراجم والسير له (مناقب

1- ينظر: قواعد التصوف وشواهد التعرف، أبو العباس أحمد زروق الفاسي، تحقيق: نزار حمادي، المركز العربي للكتاب، الشارقة، د. ط، د. ت، ص 157، 158.

2- ينظر: الاستقصا، الناصري، ج 4، ص 100.

3- ينظر: الكناش، زروق، ص 11 - 37.

4- ينظر: ذكريات مشاهير رجال المغرب، عبد الله كنون، ج 1، ص 549.

5- ينظر: أحمد زروق، فهمي خشيم، ص 93 - 98.

الحضرمي)، و(الكنّاش) تناول فيه جانباً من سيرته الذاتية، ترجم فيه لكثير من الأعلام، وغيرها من المؤلفات⁽¹⁾.

10 - خطابه النثري:

ترك الشيخ زروق خطاباً نثرياً ظهر في مؤلفاته التي كتبها في السير والتراجم وجانب من رحلاته، وهذا في كتابه (الكنّاش) الذي سجّل فيه سيرته بنفسه، وسرد كثيراً من الحوادث والأخبار في مختلف أطوار حياته من طفولة وشباب. وبهذا الشكل يكون زروق من الذين كانت محاولات في فنّ السيرة الذاتية. افتتحه بسرد صور من الذكريات الأولى، يروي فيها بعض الأحداث العالقة في ذهنه داخل البيت الأسري وخارجه، ولم يُغفل ترجمة الأعلام الذين عاصروهم أو من لقيهم واحتكّ بهم؛ بداية بالجدّة الفقيهة التي كان لها الأثر الكبير في التكوين الأولي لزروق، ثم يحكي تفاصيل رحلته بين فاس وتلمسان ذهاباً ورجوعاً، وما لاقاه أثناء سفره وأحوال البلاد من الناحية الاجتماعية والأمنية. ونلاحظ جنوحاً لذكر الكرامات والخوارق التي عرضت له في مراحل الأولى من عمره، أو التي ارتبطت بالشخصيات الصوفية التي ترجم لها⁽²⁾. ثم ينتقل من سيرته الذاتية إلى الحديث عن عدد من أساتذته ومعلميه بمصر، وعن بعض المؤلفات التي قرأها هناك⁽³⁾. وهذا بأسلوب مرسل متخلص من قيود التصنّع اللفظي إلا ما جاء منه عفواً على غير قصد، مع الحرص على اللغة الفصيحة، غير أننا سجّلنا إدراجاً لعدد من العبارات من كلام العامة وألفاظ دارجة نقلها عن أصحابها كما هي، ممّا يعزز أمانة النقل لدى الشيخ زروق⁽⁴⁾.

1- ينظر: شجرة النور، مخلوف، ج1، ص386، 387.

2- ينظر: الكنّاش، زروق، ص28 - 38.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص38، 39.

4- ينظر: من الألفاظ والعبارات الموجودة في ثنايا كُنْاشته على لسان من لقيهم (الطّرايح) وهي تعني الفاسدين من الناس، وعبارة (كأنّه ما اشي) أي ليس هو، (بخلي خيمتك) وهي دعاء بالخيبة على من أخفق). ينظر: المصدر نفسه، ص11، 29، 33.

وله كثير من الوصايا والحكم والمواعظ والمراسلات الإخوانية بينه وبين شيوخه وأصحابه، السمة الغالبة عليها الاختصار⁽¹⁾، أثر أن يجنح لاستعمال السجع البسيط في حكمه ووصاياه ورسائله.

أ - رسائله ومكاتباته:

كانت العلاقة بين الشيخ زروق وشيخه أحمد بن عقبة الحضرمي علاقة المريد بالشيخ، كلاهما حريص على الاطلاع على أخبار الآخر كلما بعدت المسافة بينهما، فكانا يتبادلان الرسائل ويتواصلان بالمكاتبات. وقد تضمنت رسائل الشيخ موضوعات متنوعة، منها: الوصايا والتوجيهات والإشادة بالمردود الذي يقدمه مريده في بلدان المغرب، وقد يبتئ الشيخ شكواه لمريده لما يلقاه بمصر⁽²⁾، وأحيانا تنقل تلك المكاتبات عتابا من الشيخ نحو مريده فيما يبلغه عنه من أفعال منافية لما يراه الشيخ⁽³⁾. أما رسائل الشيخ زروق لشيخه فكانت أشبه بالتقارير الدورية حول حياته بالبلاد التي حل بها، فيوافيه بأحواله الروحية وجهوده العملية، ويسترشده في أموره. من ذلك رسالته التي بعثها إلى شيخه في رجب سنة (886هـ / 1481م) بعد استقراره بمصراتة من نفس السنة، ويبدو أنه توجه إليها ليس برغبة منه، وهذا ما يفهم من هذه الرسالة التي يقول فيها: «من مقام الذلة والانكسار ومحل المسكنة والاضطرار، إلى مقام الروح وشفاء القلب المجروح، سلام دائم عطر تتجدد نفحاته على مر الأيام... ويا أيها السيد الذي حبه في القلب مثبت وودّه في كلّ شيء من العبد مبتوت، لم يبق للعبد تشوّف إلّا إليكم وليس له معول في الوجود إلّا إليكم... وقد علمتم أنّي في مسراته بما كان وقع في قلبي من حركات الوجود به دائما تتّسع. وما لنا إلّا في اتباع رياح القضا، وتلقي ما يصدر بها بمساعدة ذي الرضا، ولكلّ أجل كتاب، ثم لا نبالي حيث كنّا إن كُتبتنا من الأحاب»⁽⁴⁾.

1- ينظر: نيل الابتهاج، التّبكتي، ص132.

2- ينظر: أحمد زروق، فهمي خشم، ص50 - 52.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص50.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص60، 61.

ب - حكمه ومواعظه:

كان الشيخ زروق حريصا على تصفية الفكر الصوفي من كثير من الممارسات المنافية للشريعة، فعمل على الإرشاد إلى ضرورة المزوجة بين الفقه والتصوف، أي بين علمي الظاهر والباطن. وهذا ما أكد عليه في كتابه (قواعد التصوف) الذي يعدّ منهاجا للمتصوفة، لما يحويه من توجيهات ومفاهيم، ونصائح وإرشادات وحكم. فمن ذلك بيانه للوشاجة بين الفقه والتصوف، فأرشد إلى تعلّم الفقه أولا ومن ثمّ تعلّم التصوف، فقال: «... لم يكفِ التصوف عن الفقه بل لا يصحّ دونه، ولا يجوز الرجوع منه إليه إلا به، وإن كان أعلى منه مرتبة، فهو أسلم وأعمّ مصلحة، وفي ذلك قيل (كن فقيها صوفيا ولا تكن صوفيا فقيها)، وصوفي الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأعلم، لأنّ صوفي الفقهاء قد تحقّق بالتصوف حالا وعملا وذوقا، بخلاف فقيه الصوفية فإنّه لم يتمكّن من علمه وحاله، ولا يتمّ له ذلك إلا بعلم صحيح وذوق صريح، ولا يصلح له أحدهما دون الآخر، كالطّبّ الذي لا يكفي علمه عن التجربة، ولا بالعكس فافهم»⁽¹⁾. ومن حكمه (الناس معادن، ففي كلّ بلادٍ سادةٌ، وفي كلّ قطر قادة)⁽²⁾. (تعريف العيوب مع السّتر نصيحة ومع الإشاعة والهنك فضيحة)⁽³⁾.

11 - خطابه الشعري:

يعدّ الشيخ زروق من الذين ولعوا بالخطاب النثري أكثر من الخطاب الشعري، خلا بعض المنظومات العلمية وقصيدة تائيّة له يشيد فيها بنفسه ويفخر بترقيّه في مدارج الولاية، بداية باعتزاله الخلق وانقطاعه لخالقه ممّا أورثه أسرار المكاشفة، وصار إمام زمانه في الولاية، وذلك حين قال⁽⁴⁾ - الطويل -:

أَلَا قَدْ هَجَرْتُ الْخَلْقَ طُرًّا بِأَسْرِهِمْ لَعَلِّي أَرَى مَحْبُوبَ قَلْبِي بِمُقْلَتِي
وَذَلَفْتُ أَصْدَابِي وَأَهْلِي وَجِيرَتِي وَيَتَمَّتْ نَجْدِي وَاعْتَزَلْتُ عَشِيرَتِي

1- قواعد التصوف، زروق، ص 53- 55.

2- المصدر نفسه، ص 234.

3- المصدر نفسه، ص 314.

4- نيل الابتهاج، التّبكتي، ص 132، 133.

وَوَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاءَ * وَأَعْرَضْتُ عَنْ أَفْلَاقِهَا الْمُسْتَنِيرَةِ
وَعَلَّقْتُ قَلْبِي بِالْمَعَالِي تَهَمُّمَا * وَكُوشِفْتُ بِالتَّحْقِيقِ مِنْ غَيْرِ مَرِيَةٍ
وَقُلَّدْتُ سَيْفَ الْعِزِّ فِي مَجْمَعِ الْوَعَى * وَصِرْتُ إِمَامَ الْوَقْتِ صَاحِبَ رِفْعَةٍ

ولمّا بلغ هذه المكانة راح يفخر بنفسه، ويرى أنّه بيده الرّفع والخفض والجبر والقهر والإعزاز والإذلال، فقال⁽¹⁾ - الطّويل -:

فَمَلَكْنِيهَا بَعْضُ مَنْ كَانَ عَارِفًا * وَخَلَّفَنِي فِيهَا بِأَحْسَنِ سِيرَةٍ
فَأَرْفَعُ قَدْرًا ثُمَّ أَخْفِضُ رُتَبَةً * لِأَرْفَعُ مِقْدَارًا بِأَرْفَعِ حِكْمَتِي
وَأَعْزِلُ قَوْمًا ثُمَّ أُودِي سِوَاهُمْ * وَأُعْلِي مَنَارَ الْبُغْضِ فَوْقَ الْمِنْصَةِ
وَأَجْبُرُ مَكْسُورًا وَأُشْهَرُ خَامِلًا * وَأَرْفَعُ مِقْدَارًا بِأَرْفَعِ هِمَّتِي

ولم يقف الأمر عند هذا بل راح يفخر بمقدرته على تفريح كُرب مريديه وإغاثة المستغيثين وعلى نصرتهم كلّما دعوه، فقال⁽²⁾ - الطّويل -:

أَنَا لِمُرِيدِي جَامِعٌ لَشِدَاتِهِ * إِذَا مَا سَطَا جَوْرُ الزَّمَانِ بِنَكْبَةٍ
وَأَنْ كُنْتُ فِي كَرْبٍ وَضِيقٍ وَوَحْشَةٍ * فَذَاذِ أَيَا زَرْوَقُ آتٍ بِسُرْعَةٍ

هذه القصيدة مشحونة بكلام فيه من المغالاة ما لا يخفى، وهذا ينافي أخلاق الشيخ زروق المتواضع، ويباين منهجه الإصلاحيّ القائم على تصحيح الفكر الصّوفيّ وتخليصه ممّا شابه وعلق به من ممارسات شائته. ويرجّح أنّ القصيدة منسوبة إليه، وهذا ما ذهب إليه التّنكبتيّ بعد إيرادها في ترجمة الشيخ زروق قائلاً: «ووجدت منسوباً إليه من نظمه»⁽³⁾، ويظهر من قول التّنكبتيّ توهين نسبتها للشيخ زروق.

1- نيل الابتهاج، التّنكبتيّ، ص132، 133.

2- المصدر نفسه، ن. ص.

3- المصدر نفسه، ص132.

12 - بعض آرائه النقدية:

لا نقصد بآراء زروق النقدية تلك التي تحمل بعدا إصلاحيا فهذا الموضوع قد أشرنا إليه من قبل، وإنما نقصد بآرائه النقدية ممارسته للنقد الأدبي، فقد كانت له مشاركة في هذا الباب، تظهر في موقفه من الشعر، إذ لم يكن يستهويه قول الشعر والاشتغال به، فعزف عنه مع إمكانية الخوض فيه، فهو لديه ما يؤهله لذلك فلا يفتقر للآلة ولا للخيال، والأمر عائد إلى جملة من الأسباب التي تفسر هذا الموقف؛ منها الأسباب الذاتية، ونقصد بذلك وصية جدته التي ربته وتركت فيه أثرا كبيرا، فقد كانت حريصة على انقياد حفيدها للعلم دون أن ينشغل بشيء آخر كالشعر، فقالت له: «من يترك العلم ويشغل بالشعر كمن يبدل القمح بالشعير»⁽¹⁾، ويبدو أن هذه الوصية قد تركت أثرا في توجهه الأدبي. ولكنّه قد أفصح عن السبب وراء ذلك كلّ، وهذا ما يفهم من قوله في القاعدة السابعة والثلاثين بعد المائة (137): «التغزل والتدب والإشارة والتعريض دليل البعد عن وجود المشاهدة، إذ الجمال والجلال مانع من قيام النفس بقوته المانعة من التوسع والاتساع إلا بما يقتضيه الحال، والشعر من محامدها. ومن ظهر نور الحق على قلبه لم يبق فيه نصيب لغيره، فيكون ما جاء به عنه أشهى إليه من الماء البارد، بل لا يجد في نفسه بقية تقبل ما سواه ولا تتسع لرؤية غيره، ورؤية المحبوب توجب العمى عن غيره ذهولا فلا يذكره إلا بذكره. ولهذا قلّ شعر المحققين من الأكابر كالجنيد والشيخ أبي محمد عبد القادر والشاذلي ونحوهم»⁽²⁾.

فموقفه صريح من الشعر هو ليس الرّفض القاطع، وإنما هو موضوعه، فكلّما كان الموضوع شريفا شرفت به النفس وصار الشعر من محامدها ومحاسنها، وإذا كان موضوع الشعر ممّا يعين النفس على غوايتها صار مذموما وعدّ من مثالبها وعيوبها. فمعيار الحسن والقبح في الشعر هو موضوعه، فالشعر يشرف بشرف الموضوع ويذمّ بدناؤه، وميزان موضوع الشعر قائم على مدى حملته النفس للتّرقّي في مدارج الكمالات، فهو يربط بين الشعر وأثره في النفس،

1- ينظر: الكناش، زروق، ص14، 15.

2- ينظر: قواعد التصوّف، زروق، ص219، 220.

ويعتبره قوة نفسية ومعياراً لمدح النفوس وذمها⁽¹⁾. ونلاحظ أنّ الشيخ زروق من الذين يمارسون النقد الأخلاقي للخطاب الشعري.

ومن جهة أخرى موقفه من الشعر نابع من نظريته إلى بعض الأغراض الشعرية، فهو يرى أنّ الشعر بأنواعه الغزليّ والبكائيّ والطلليّ والرمزيّ باعته البعد عن المحبوب والتشوّف إلى مشاهدته، وكثافة الحجب بينه وبين محبوبه، فهو يتوسّل بالشعر ليبين عن شدة التعلّق وفرط الحبّ والشوق للقائه، بيدّ أنّه من كشفت عنه الحجب ودنا من المحبوب وحظي بالمشاهدة لا يحتاج في هذه الحال إلى الوسطة التي يلجأ إليها المحبّ للتعبير عن أحاسيسه وأشواقه فيضطرّ إلى إفراغها في قالب شعريّ.

وفي الأخير يبيّن أنّ أرباب التّصوّف السابقين كالجنيد البغداديّ (ت297هـ / 910م) وعبد القادر الجيلانيّ (471 - 561 هـ / 1078 - 1166م) وأبي الحسن الشاذليّ (591 - 656 هـ / 1195 - 1258م) أدركوا كلّ هذه المعاني لذلك لم يخلفوا تراثاً شعريّاً كبيراً، وما ورد عنهم من الشعر - على رأي الشيخ زروق - اقتضاه الحال والمقام، فالملجئ لهم إلى قول الشعر هو الحاجة لتقوية النفوس وإثارتها فحسب.

1- ينظر: قواعد التّصوّف، زروق، ص293.

5- أبو عبد الله التتسي (حوالي 820 - 899هـ / 1417 - 1494م):

1- اسمه ومولده ووفاته:

هو محمد بن عبد الله بن عبد الجليل، أبو عبد الله التتسي التلمساني الأموي⁽¹⁾ المغراوي⁽²⁾. فهو تتسي المولد، وتلمساني المنزل والإقامة، وأموي الأصل⁽³⁾ مغراوي القبيلة. ولم تفصح المصادر التي ترجمت له عن تاريخ مولده، ولكن يبدو أنه ولد بداية العقد الثاني من القرن التاسع الهجري⁽⁴⁾، استنتاجاً من قول السخاوي: «بلغني في سنة ثلاث وتسعين بأنه حيّ مقيم بتلمسان جاز الستين»⁽⁵⁾. ذكر أبو العباس الونشريسي أن أبا عبد الله التتسي توفي في جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وثمانمائة للهجرة (899هـ / 1494م)⁽⁶⁾.

2- شيوخه:

تلقى مختلف العلوم والفنون عن جلة الأئمة الأعلام بتلمسان منهم: ابن مرزوق الحفيد وقاسم بن سعيد العقباني (768 - 854هـ / 1368 - 1450م)، وإبراهيم التازي وغيرهم⁽⁷⁾.

3- تلامذته:

جلس أبو عبد الله التتسي لتدريس مختلف العلوم الشرعية واللغوية والأدبية والروحية (الفقه، التفسير، الحديث، النحو وأصوله، الأدب وفنونه، والنصوف) بالمدرسة اليعقوبية بتلمسان، وبمسجده المعروف باسمه⁽⁸⁾. فانتفع بعلمه عدد من العلماء منهم: أبو عبد ابن سعد، وأبو عبد الله ابن العباس الصغير الذي لازم التتسي عشرة أعوام وغيرهم⁽⁹⁾، ومن الأندلسيين أبو جعفر

1- ينظر: نفح الطيب، المقرئ، ج2، ص574.

2- انفرد بذكره أبو جعفر البلوي. ينظر: ثبت البلوي، ص318.

3- هذا ما أثبتته محمد آغا بو عياد محقق كتاب (تاريخ بني زيان). ينظر: مقدمة تاريخ ملوك بني زيان، التتسي، ص9، 10.

4- رجّحه محمد آغا بو عياد مستنداً على قول السخاوي وغيره. ينظر: المصدر نفسه، ص11، 12.

5- الضوء اللامع، السخاوي، ج8، ص12.

6- ينظر: وفيات الونشريسي، ص111، 112.

7- ينظر: البستان، ابن مريم، ص429.

8- ينظر: ثبت البلوي، ص319، 320.

9- ينظر: نيل الابتهاج، التتسي، ص573.

أحمد بن عليّ بن داود البلويّ الأندلسيّ الذي سمع منه أبواباً في الفقه والحديث واللغة، وأجازه في قصائد شيخه إبراهيم التازيّ ومروياته⁽¹⁾.

4 - آراء الآخرين فيه:

لقي أبو عبد الله التتسيّ ثناء وتركيباً وذكرنا حسناً من أقرانه ومعاصريه، ومن أصحاب التراجم والسير والتاريخ أيضاً، عكست مكانته العلمية والأدبية والاجتماعية. فوصفه بالحافظ وخاتمة الحفاظ والفقيه والإمام القدوة والمطلع والمحقق⁽²⁾، ونعتوه بالتاريخي الأديب الشاعر⁽³⁾. وقال عنه تلميذه ابن داود البلويّ: «الإمام العلامة الحافظ فخر الأدياء بقية العلماء»⁽⁴⁾. وقال أيضاً: «شيخنا وبركتنا الإمام الحافظ المدرّس العلامة خاتمة الأدياء، بقية الشيوخ...»⁽⁵⁾.

5 - مؤلفاته:

خلف الإمام التتسيّ عدداً من المؤلفات ما بين منثور ومنظوم، منه المفقود والموجود، في الأدب والتاريخ والفرائض وعلوم القرآن. نذكر من المنثور كتباً ألفها في فضائل آل زيّان جمع فيها بين الأدب والتاريخ، منها:

- 1 - (نظم الدرّ والعقبان في بيان شرف بني زيّان)⁽⁶⁾ ألفه للسلطان المتوكّل الزيّانيّ حيث في مقدّمة الكتاب: «فعزمت... على أن أجمع له تصنيفاً يكون ملوكياً أدبياً، يشتمل على التعريف بنسبه وسلفه الكريم، وبيان شرفه في القديم والحديث...»⁽⁷⁾.
- 2 - (راح الأرواح، فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وما قيل فيه من الأمداح، وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح)⁽⁸⁾.

1 - ينظر: ثبت البلويّ، ص 318.

2 - ينظر: البستان، ابن مريم، ص 429.

3 - ينظر: وفيات الونشريسيّ، ص 111، 112.

4 - ثبت البلويّ، ص 359.

5 - المصدر نفسه، ص 369.

6 - حقّه محمود آغا بوعباد، بعنوان - تاريخ بني زيّان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدرّ والعقبان في بيان شرف بني زيّان)، عن المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرّعاية، الجزائر، د. ط، 2011م.

7 - نظم الدرّ والعقبان، التتسيّ، ص 108.

8 - ينظر: نفح الطيب، المقرّي، ج 6، ص 513.

3- كتاب (الطراز في شرح ضبط الخراز)⁽¹⁾ موضوعه الرسم القرآني.

4- فهرسة ذكر فيها شيوخه⁽²⁾.

أما المنظوم من آثاره فله جملة من المنظومات العلمية، منها شروعه في اختصار على الأرجوزة التلمسانية في الفرائض، لكنه لم يخرج⁽³⁾.

5- خطابه النثري:

إنّ الخطاب النثري للنثري هو من قبيل النثر التأليفي، ولم نقف في المصادر التي بين أيدينا على نصوص نثرية كالرسائل أو الخطب وغيرها، خلا بعض الفتاوى ولا سيما ذلك الجواب الطويل حول قضية كنائس اليهود التي أحدثوها بتوات، يجيز فيه هدم الكنائس التي بناها اليهود هنالك ومخالفا غيره من علماء عصره، فقدّم لجوابه بكلام مسجوع بعد الحمدلة والتّصلية وبسط نصّ السؤال ثم قال: «... فاعلموا نور الله بصائرکم، وطهر من اتباع الهوى سرائرکم، أنّ الشريعة المحمدية نسخت كلّ ملّة، وشفّت القلوب السليمة من كلّ علّة، إذ برزت شمسها ساطعة، وبدت براهنها قاطعة، وقام بحفظها العلماء الأعلام، مكلفين بحراستها على مرور الأيام، واعتنوا ببيان حكم مسألة السؤال عصرا فعصرا، من عصر الصحابة إلى هلمّ جزّا، وسنورد عليكم من كلامهم ما لا يبقى معه لبس، ولا تتشوّف إلى غيره نفس...»⁽⁴⁾.

وعند الوقوف على بعض هذه النصوص النثرية للنثري يتبيّن لنا الخصائص الفنيّة لأسلوبه في الكتابة، فنجدّه يميل إلى الأسلوب المسجوع البسيط البعيد عن التكلّف والتّعقيد والتّركيب، وهذا ما يشهد له هذا النصّ المقتطف من كتابه (راح الأرواح) الذي احتفظ به المقرّي في وصف مراسيم الاحتفال بالمولد النبويّ بتلمسان أيام السلطان أبي حمّو موسى الثاني، والذي جاء منه: «أنّه كان يقيم ليلة الميلاد النبويّ (على صاحبه الصلّاة والسلام) بمشوره من تلمسان المحروسة

1- حقّقه أحمد بن أحمد شرشال، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط1، 1420هـ.

2- ينظر: فهرس الفهارس، الكتّاني، ج1، ص268.

3- ينظر: ثبت البلوي، ص372.

4- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أبو العباس أحمد الونشريسي، تحقيق: جماعة من الفقهاء بإشراف محمّد حجّي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب ودار الغرب الإسلامي، بيروت، بدون ط، 1401هـ / 1981م، ج2، ص236.

مدعاة حفيلة، يحشر فيها الناس خاصة وعامة، فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة، وبسط موشاة ووسائد بالذهب مغشاة، وشمع كالأسطوانات وموائد كالهالات، ومباخر منصوبة كالقباب يخالها المبصر تبراً مذاب[مذاباً]⁽¹⁾، ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة كأنها أزهار الربيع المنمنمة، تشتهيها الأنفس وتستلذها التواظر ويخالط حسن ربابها الأرواح ويخامر، رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال وقد علت الجميع أبهة الوقار والإجلال، ويعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى (عليه الصلاة والسلام) ومكفّرات ترغب في الإقلاع عن الآثام، يخرجون فيها من فنّ إلى فنّ ومن أسلوب إلى أسلوب، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب...»⁽²⁾.

وتارة يمزج التنسي بين الأسلوب المرسل والمسجوع ويرأوح بينهما. وهذا ما نجده في كتابه (نظم الدرّ والعقيان) عندما يسترسل في سرد الأحداث التاريخية. كقوله في ثورة المتوكل: «ولما كانت سنة ستّ وستين نهض مولانا المتوكل من مليانة متوجّها إلى المغرب، والنصر أمامه. فاستولى على وطن بني راشد ثمّ على هوارة، ثمّ افتتح مستغانم وتمزغزان، ثمّ عمد إلى وهران فافتتحها، ثمّ توجه إلى تلمسان فأقام عليها يومين ودخلها في الثالث...»⁽³⁾. ونجده يتكئ على السجع لبيان قدرته الفنية عند ترجمته لأمرأ بني زيّان، كقوله في عاشر سلاطين بني زيّان أبي عبد الله محمد بن موسى الثاني المعروف ابن خولة (ت813هـ / 1411م): «ثمّ بويع المولى أبو عبد الله محمد ابن المولى أبو حمّو، وهو المعروف بابن خولة... فورد نهر المجرة علاءً وقلّد نحر الزمان ولاءً، مع همم أنافت عن الكواكب وكرم صاب كالغمام الساكب، ووقار لا تحيل الحركة سكونه وشرف مقدار يتمنى كلّ مخير أن يكونه، وكان مع ذلك رحب الفناء، جزل العطاء، حليماً عن الدماء، فطافت به الآمال، واتسع في الثناء عليه المقال...»⁽⁴⁾.

- 1- هكذا وردت كلمة (مذاب)، والأظهر (مذابا) بالفتح على الوصف لكلمة تبراً، ويبدو أنّ إقامة السجع اضطرّته إلى تجاوز اللغة، أو سهو وقع من الناسخ أو الطبعة.
- 2- نفح الطيب، المقرئ، ج6، ص513.
- 3- نظم الدرّ والعقيان، التنسي، ص254.
- 4- المصدر نفسه، ص230.

6 - خطابه الشعري:

كان للتنسي مشاركة في قول الشعر وقرضه، حيث يذكر تلميذه البلوي أن له قصائد من نظمه قرأها عليه، وحصل له النفع والإفادة⁽¹⁾. وذكر أيضا أنه أضاف إلى كل قطعة شعرية مما تضمنه كتابه (راح الأرواح) قصائد وصفها بالحسان مناسبة للموضوع وفق نفس الروي والوزن⁽²⁾، وهو ما يفهم من الشطر الثالث من عنوان المؤلف (راح الأرواح، فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وما قيل فيه من الأمداح، وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح).

لم يصلنا منه خطابه الشعري سوى قصيدته المدحية الطائفة في المتوكل الزباني إثر واقعة قتله للأمير محمد ابن غالبية الذي قادة ثورة ضد المتوكل، وهذا في الثالث عشر شوال سنة (868هـ / 1464م)⁽³⁾. وهي قصيدة طويلة عدد أبياتها أربع ومائة بيت (104)⁽⁴⁾، راعى فيه صاحبها بناء القصيدة العربية المدحية. فافتتحها بمقدمة طليئة خلصها بعدها إلى مدح المتوكل وأبنائه ثم ختمها بالافتخار بشاعريته وبقصيدته الطائفة. وهي تعد وثيقة أدبية، وسجل تاريخي حوى أحداثا وأخبارا قل أن تجدها في مؤلفات أخرى. يقول في مطلعها⁽⁵⁾ - الطويل -:

أَرِقْتُ لِدَمْعٍ مِنْ جُفُونِي يَنْحَطُّ	✽	كَدَثْرِ نَفِيسِ الدَّرِّ إِنَّ خَانَهُ السَّمَطُ
خَطَا النَّصُّ وَالْإِعْنَاقُ ⁽⁶⁾ فِي أَرْضِ وَجْنَتِي	✽	فَخَدَدَ أَخْدُودًا بِخَدِّي إِذْ يَخْطُو
أَثَارَتُهُ نَارٌ فِي الْجَوَانِحِ سَعَرَتْ	✽	تَعَجَّبَ لِمُزْنٍ حِينِ تَسْطُو لَطَى يَسْطُو
فَطَوْرًا تَرَانِي مِنْ غَزَارَةِ دَمْعَتِي	✽	غَرِيقًا بِبَحْرِ مَا يَبِينُ بِهِ شَطُّ
وَطَوْرًا حَرِيقًا مِنْ سَعِيرِ جَوَانِحِي	✽	فَيَبْدُو بِظَهْرِ الْجِسْمِ مِنْ لَفْحِهِ نَفْطُ

1- ينظر: نظم الدر والعقيان، التنسي، ص 319، 320.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص 372.

3- المصدر نفسه، ص 258.

4- خصها أستاذنا محمد مرتاض بمقاربة تحليلية. ينظر: من أعلام تلمسان، محمد مرتاض، ص 246 - 284.

5- نظم الدر والعقيان، التنسي، ص 258، 259.

6- النَّصُّ وَالْإِعْنَاقُ ضربان من السير السريع. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (نصص - عنق). يجوز في كلمة (النص) الرفع على الفاعلية لفعل خطأ، والخفض على الإضافة لخطأ جمع خطوة.

ثم راح يمدح المتوكل بما هو معهود في شعر المدح؛ من تعداد للخصال الخلقية من جود وكرم وشجاعة وحزم وعدل وغيرها، ولم يفته أن يمدحه بنسبه الشريف. والنص لم يخل من مبالغات غير مستساغة من فقيه، أم أن الشاعرية قد طغت عليه وجرفته لمثل هذا. فمما قال في مدح المتوكل⁽¹⁾:

عَنْيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا	✽	سَلِيلَ اسْمِهِ مَنْ شَأْنُهُ الْبُذْلُ وَالْبَسْطُ
وَمَنْ لَمْ يَزَلْ مُلْكُ الْوَرَى مُتَشَوِّفًا	✽	إِلَيْهِ لِكَيْ يَحْيَا وَيَعْتَادَهُ الْحَوْتُ
وَمَنْ أَشْرَقَتْ مِنْ نُورِهِ الْأَرْضُ كُلُّهَا	✽	وَكُلُّ مَلِكٍ نُورُهُ إِنْ يُلْحَ سَقَطُ
وَمَنْ تَرَهَّبُ الْأَمْلَاكُ صَوْلَةَ بَأْسِهِ	✽	فَتَخْطُبُ مِنْهُ الْوُدَّ خَشْيَةً أَنْ يَسْطُو

وفي الختام دفعته نشوة المدح إلى الافتخار بقصيدته التي يرى أنها من بنات فكره، أتى بها مرتجلة غير محكمة، محكمة النظم، سلسلة اللفظ، غريبة القافية والروي وصعب محاكاتها، ويسأل من المتوكل أن ينظر إليها بعين الرضا والقبول، مما يرجح أن قصيدته من قبيل المدح التكميلي، وهذا في قوله⁽²⁾:

أَمْوَلَايَ قَابِلٍ بِالْقَبُولِ مَدَائِحِي	✽	تَجْنُكَ ارْتِجَالًا نَظْمُهَا وَصَفُهَا الْعَبْتُ
فَهَاكَ مَدِيحًا يَزْدِرِي حُسْنُ نَظْمِهِ	✽	بِحَلِي الْعَذَارَى لَفْظُهُ سَلَسٌ سَبْطُ
حَكَمِي رَوْضَةً غَنَاءً أَيْنَعَ نُورُهَا	✽	مَنَابِتُهَا الْأَزْهَارُ لَا الْأَثْلُ وَالْخَمْطُ
بِقَافِيَةٍ يَزْرِي بِبَابِلَ سِحْرُهَا	✽	وَيَبْدُو إِذَا قِيلَتْ عَلَى غَيْرِهَا الْوَهْطُ

ثم راح يفاخر بها فحول شعر المديح؛ زهير بن أبي سلمى والنابعة الذبياني، ويرى أنها فاقت غيرها من قصائد المدح فقال⁽³⁾:

فَمَا لَزْهَيْرٍ مِثْلُهَا فِي قَرِيضِهِ	✽	وَلَا لِأَخِي ذُبْيَانٍ فِي مِثْلِهَا شَوْطُ
--	---	--

1- نظم الدر والعقيان، التنسي، ص262.

2- المصدر نفسه، ص270.

3- المصدر نفسه، ن. ص.

علق بعض المغاربة على رأي الشاعر الذي يرى قياسا على الفتوى التي تقول (إن الزرع من حقّ الزارع) أنه يجوز له أن يلثم الخدّ الذي رسمت عيناه عليه حمرة بسبب الخجل - بقوله السريع - (1):

سَلَّمْتُ أَنَّ الْحُكْمَ مَا قُلْتُمْ * وَهُوَ الَّذِي نَصَّ عَنِ الشَّارِعِ
فَكَيْفَ تَبْغِي شَفَاةً قَطْفَهُ * وَغَيْرَهَا الْمَدْعُوُّ بِالزَّارِعِ

فهو يرى أنّ الذي أحدث احمرارا على الخدّ هي العين وليس الفم فلا يحقّ للفم أن يجني ما لم يزرعه. فلم يرض التّنسيّ بهذا التّوجيه، وردّ معارضا ومصوّبا هذا الرّأي في بيتين من نفس الرّويّ والبحر قال فيهما - السريع - (2):

فِي ذَا الَّذِي قَدْ قُلْتُمْ مَبْحَثٌ * إِذْ فِيهِ إِيهَامٌ عَلَى السَّامِعِ
سَلَّمْتُمْ الْحُكْمَ لَهُ مُطْلَقًا * وَغَيْرُ ذَا نَصٍّ عَنِ الشَّارِعِ

فبيّن أنّ الأمر ليس على إطلاقه، ولا ينبغي إيهام المتلقّي، فالمنصوص عليه في الشرع الأمر ببغض البصر ولم يبح النّظر مطلقا إلا بضوابط، وهي من فتاوي التّنسيّ المنظومة. كان للتّنسيّ مشاركة في ميدان النّقد الأدبيّ، حيث أورد له المقرّي نصّا نقديّا عكس تمرّسا نقديّا لدى التّنسيّ وذائقة أدبيّة وسعة اطلاع ومعرفة بالنّصّ الشعريّ القديم، وذلك حينما سرد سينيّة ابن الخطيب الطّويلة في مدح السّلطان أبي حمّو موسى الثّاني، والتي مطلعها - الكامل - (3):

أَطْلَعَنَ فِي سَدَفِ الْفُرُوعِ شُمُوسًا * ضَحِكَ الظَّلَامُ لَهَا وَكَانَ عَبُوسًا

حيث وصفها بالحسن والتّفوق على ما سواها من قصائد ابن الخطيب المدحيّة في السّلطان (4)، ولم يكتف بالانطباعيّة في النّقد بل راح يوضّح أن ابن الخطيب تأثّر بقصيدة أبي تمام، ونسج على منوالها وزنا وقافية ورويا، ثمّ خرج بموقف نقديّ رأى فيه أنّ ابن الخطيب

1- نفح الطّيب، المقرّي، ج3، ص112، 113.

2- المصدر نفسه، ج3، ص113.

3- نفح الطّيب، المقرّي، ج6، ص195.

4- المصدر نفسه، ن. ص.

عمل على توظيف كثير من ألفاظ القصيدة واستعمال معانيها فقال: «إن لسان الدين ابن الخطيب هذا في هذه القصيدة السنيّة حذو أبي تمام في قصيدته... واختلس كثيراً من ألفاظها ومعانيها»⁽¹⁾، ومطلع القصيدة - الكامل -⁽²⁾:

أَقْشِيبَ رَبْعِهِمْ أَرَاكَ دَرِيسَا ❁ وَقِرَى ضَيُوفِكَ لَوْعَةً وَرَسِيدَا

وظّف التّسّيّ في هذا النّصّ النّقديّ مصطلح الاختلاس، وهو من مصطلحات النّقديّ العربيّ القديم، والاختلاس يعدّ ضرباً من أضرب السرقات الشعريّة⁽³⁾. فنحن هنا أمام ناقد يحتكم إلى الذّوق لإصدار الحكم ثمّ ينتقل إلى التّعليل والتّحليل للأحكام النّقديّة.

وتارة نجد التّسّيّ يقف عند إصدار الحكم دون تعليل، وشاهد ذلك موقفه من شعر محمّد الشّرّان الغرناطيّ الأندلسيّ (كان حيّاً 837هـ / 1433م)، حيث قال: «والشّرّان هذا ممّن له باع مديد في الشّعْر وتصرّف حسن»⁽⁴⁾، هذا النّصّ يدعم طبيعة الرّؤية النّقديّة عند التّسّيّ التي قوامها الانطباع والتأثّر⁽⁵⁾، وهذا مذهب نقديّ قديم وحديث⁽⁶⁾ عمدته الذّوق الفرديّ، والإفراط في استحسان النّصّ أو استهجانه، والإعجاب بصاحب النّصّ⁽⁷⁾. فالحكم الأوّل للتّسّيّ كان منصّباً على الشّاعر من حيث كثرة تعاطيه للشّعْر، والحكم الثّاني حول حسن التّصرّف في الشّعْر، فحسن تصرّف الشّاعر وتمكّنه من آليات الشّعْر مكّنه من قول الشّعْر الحسن الجميل، وهنا نسجّل غياب التّعليل في بيان معايير الحسن والقبح في شعر الشّرّان. وبين الذّوق الفرديّ والتّعليل نلمس ملكة ذوقيّة لدى التّسّيّ.

- 1- نفح الطّيب، المقرّي، ج6، ص201.
- 2- ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التّبريزيّ، تحقيق: رامي الأسمر، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط2، 1414هـ / 1994م، ج1، ص368.
- 3- ينظر: العمدة، ابن رشيق، ج2، ص282.
- 4- أزهار الرّياض، المقرّي، ج1، ص134.
- 5- هذا ما بدا لنا عند قراءتنا لهذين النّصين النّقديين وهما ما استطعنا جمعهما، وفي الواقع إصدار الحكم يكون بعد تتبّع كلّ النّصوص النّقديّة للتّسّيّ حتّى يمكننا فهم الطّبيعة النّقديّة عنده، ولعلّها تكون موضع بحث خاصّ.
- 6- من رواده في العصر الحديث يحيى حقّي، محمد مندو، إيليا الحاوي. ينظر: مناهج النّقد الأدبيّ، يوسف وغليسي، جسور للنّشر والتّوزيع، المحمّدية، الجزائر، ط3، 1431هـ / 2010م، ص12، 13.
- 7- ينظر: المصدر نفسه، ص14.

6 - ابن يجّيش التّازي (ت920هـ / 1514م):

1 - اسمه ونسبه:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرّحيم بن عبد الرّحمن بن يجّيش التّسوليّ التّازي⁽¹⁾؛ سليل أسرة علم وصلاح وولاية بتازة، يعرف بابن يجّيش⁽²⁾. ولم نظفر بتاريخ مولده في المصادر التي ترجمت لحياته.

2 - شيوخه وتلامذته:

لم تذكر المصادر أوليّة حياته التّعليميّة، وإنّما اقتصرّت على ذكر بعض شيوخه ومن تواصل معهم من علماء المغرب وخارجه، بهذا الاحتكاك تكوّنت شخصيّة العلميّة والروحيّة والأدبيّة، فكان فقيها ملماً بجملّة من علوم اللّغة من نحو وعروض وأديبا ومتصوّفاً. فممن أخذ عنهم عمّه أبو الحسن عليّ ابن يجّيش، وأخذ عن أبي عبد الله محمد بن عبد الله الرّيتونيّ دفين المسيلة من بلاد الجريد، وأبي محمد عبد العزيز القسطينيّ، كما كانت له مراسلات علميّة مع عصره أبي عبد الله السّنوسيّ بتلمسان، وأدرك بليده إبراهيم التّازي⁽³⁾. تخرّج على يدي ابن يجّيش طائفة من العلماء منهم عبد الله بن محمد الهبطي⁽⁴⁾.

3 - أقوال الآخرين فيه:

حظي ابن يجّيش التّازي بثناء حسن من أهل العلم وأصحاب التّراجم عكست مكانته العلميّة والروحيّة والأدبيّة. له جهود كبيرة في تنشيط الحياة العلميّة ببلده تازة، حيث جلس للتّدريس، كما أنّه كان صوفيّ المشرب عمد إلى نشر علم التّصوّف، وإليه تنسب كثير من الكرامات⁽⁵⁾. من ذلك قول ابن عسّكر: «الشيخ المتفّن الأديب البارّع اللّوذعيّ التّحرير المتبحّر الصّوفيّ المتوغّل

1- ينظر: طبقات الحضيكيّ، محمد بن أحمد الحضيكيّ، أحمد بومزكو، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، ط1، 1427هـ / 2006م، ج1، ص249، 264، رقم: 290، 306.

2- هذا المرجّح بدل ابن يجّيش والجيش أو بحبش. ينظر: أضواء على ابن يجّيش التّازي، البوخصييّ، ص29 - 31.

3- ينظر: دوحة النّاشر، ابن عسّكر، ص67.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص7.

5- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

في مشاهدة الجمال أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم ابن يجبش التازي كان - رحمه الله - سيدا فاضلا عالما متقنا شاعرا فصيحاً ماجداً من مشايخ الصوفية، له الشأن الذي لا يدرك»⁽¹⁾.

4 - مؤلفاته:

خلف جملة من المؤلفات منها:

- 1 - (كتاب الجهاد) أو (تنبيه الهمم العالية على الصدقة والانتصار للملة الزاكية، وقمع الشرذمة الطاغية)⁽²⁾ في الحض على الجهاد في سبيل الله لرد هجمات البرتغاليين على السواحل المغربية، كتبه تحقيقاً لرغبة أحد إخوانه بعد كثرة إلحاح، والمؤلف ذو قيمة تاريخية فهو يصور لنا الحالة السياسية والاجتماعية والنفسية بالمغرب، وهو ذو قيمة أدبية حيث جمع فيه بين النثر الجهادي والشعر الجهادي مديلاً كتابه بتائية ضمنها تلك المعاني المنثورة.
- 2 - (إرشاد المسافر للريح الوافر) موضوعه الإرشاد إلى آداب السفر⁽³⁾.

5 - وفاته:

بعد حياة حافلة بالتلقي والتعليم والمواقف المشرفة؛ من تحريك نفوس الناس وحضهم على الجهاد توفي ابن يجبش سنة (920هـ / 1514م) بتازة وبها دفن⁽⁴⁾.

6 - خطابه النثري:

أهم ميراث نثري وصلنا عن ابن يجبش كتابه (تنبيه الهمم العالية) وهو خطاب طويل من ثلاثين صفحة، موضوعه التحريض على الجهاد، جمع فيه صاحبه بين النثر والشعر. وإن القارئ لهذا الكتاب يجد نفسه أمام خطيب من خطباء الحروب يلهب الحماسة ويثير الحمية، وأمام واعظ يدعو إلى التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل. كان ابن يجبش من الشخصيات العلمية التي لها دور بارز على الساحة الاجتماعية والسياسية والأدبية والروحية، يهتم لأمر

1- ينظر: دوحة الناشر، ابن عسكر، ص 66، 67.

2- نص الكتاب كاملاً موجود ضمن كتاب: أضواء على ابن يجبش التازي، البوخصيي، ص 123 - 153.

3- ينظر: فهرس مخطوطات الخزانة العلمية بالمسجد الأعظم بتازة، عبد الحليم العلمي، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، د. ط، د. ت، ج1، ص 656، 657.

4- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص 583.

المسلمين، وهو من المتصوفة الذين أخذوا على عاتقهم همّ الجهاد والتّحريض عليه لردّ هجمات البرتغال.

وله أيضا بعض المراسلات العلميّة التي دارت بينه وبين السنوسي، أثنى فيها نظما ونثرا على السنوسي ومؤلّقاته في العقيدة⁽¹⁾.

وقفه مع بعض السمات الموضوعيّة والفنيّة للنصّ النثريّ من الكتاب:

1- السمات الموضوعيّة:

تقوم بنية هذا الخطاب النثريّ على محاور كبرى، وهذا بعد أن أفصح عن الباعث على الكتابة، وهو باعث شخصيّ يكمن في استجابته لطلب بعض إخوانه، وآخر دينيّ لما يترتب على الحضّ على الجهاد من ثواب جزيل عند الله تعالى، وأيضا بعد افتتاحية طويلة بمقدّمة مسجوعة منمّقة مختارة استهلّها بالحمدلة والشهادتين والتّصلية. أوّل هذه المحاور تصوير الحال التي آلت إليها المدن السّاحليّة في ظلّ الاحتلال البرتغاليّ، ثانيها التّغيب في الجهاد، ثالثها الإنفاق في سبيل الله، ثمّ قبل الختام بالدّعاء أثر أن ينسج قصيدة جامعة لمعاني خطابه حاملة لعنوان (تنبيه الهمم العالية على الصّدقة والانتصار للملّة الزّاكية، وقمع الشّرذمة الطّاغية)، وهذا محاكاة لعصريّه أبي عبد الله الشّريف العقيليّ الأندلسيّ - كاتب أبي عبد الله بن الأحمر آخر ملوك غرناطة - في رسالة اعتذار واستعطاف إلى سلطان فاس عنوانها (الروض العاطر الأنفاس في التّوسّل إلى المولى الإمام سلطان فاس)⁽²⁾ غير أنّه قدّم قصيدته الاعتذاريّة قبل خطابه النثريّ.

2- السمات الفنيّة:

أما عن الخصائص الفنيّة فميله واضح إلى السّجع، ولا أدلّ على ذلك من مقدّمة خطابه اللّزوميّة المصطنعة والمنمّقة، والتي منها قوله (الحمد لله الذي لا يردّ قضاؤه، ولا يمنع عطاؤه، ولا تحصى نعمه وآلاؤه، المرجو فضله وحبّاءه...). غير أنّ سجعه بعد هذه المقدّمة بدأ يميل إلى البساطة والبعد عن التّعقيد والتّركيب، وأكثره من قبيل السّجع المزدوج ثنائيّ الفواصل، وهو

1- ينظر: دوحة النّاشر، ابن عسّكر، ص 67- 70.

2- ينظر: أزهار الرّياض، المقرّي، ج 1، ص 72- 102.

النمط الغالب على هذا الخطاب، وقد يجوز إلى السجع ثلاثي الفواصل أو أكثر. فمن المزدوج (الأثمان، البلدان / دينهم، يقينهم / طعام، المنام / ضرا، جهرا / القلوب، يذوب / أولاه، مولاه / التماسح، المباح)، ومن الثلاثي (المسلمين، المرسلين، المؤمنين / الحديد، الشديد، العبيد / نبيكم، ربيكم، غفلتكم)، وأقل من السجع رباعي الفواصل (أموالهم، أحوالهم، نسائهم، بناتهم).

ولكن ابن جبش لم يسلم من التكلف في بنية خطابه القائم على السجع مما اضطره أحيانا إلى تجاوز بديهيات اللغة وخرق الأنظمة اللغوية لئلا يضطرب تركيبه المسجوع. من ذلك تعديته للفعل (بحث) بحرف الجر (على) وهو يتعدى بحرف الجر (عن) في قوله (أما علمتم أن أعداءكم باحثون عليكم، مشغلون بكل حيلة في نيل الوصول إليكم)⁽¹⁾.

3- التناصات:

لجأ ابن جبش لتحقيق أهدافه المرجوة في هذا الخطاب إلى الاستعانة بثقافته الشخصية؛ فأكثر من التناص المباشر السطحي القائم على التركيب المطابق للنص الأصلي، وأيضا التناص غير المباشر الضمني مع الموروث الثقافي العربي الإسلامي من آيات قرآنية أحاديث النبوية وقصص وحكم ووقائع تاريخية وإشارات صوفية، وبالشعر متى وافق العنصر الذي يخوض فيه، وهذا إذا أحس بأنه يجدي نفعاً ويحرك نفساً ويجد وقعا، وكل هذا خدمة لخطابه التحريضي.

أ - مع القرآن الكريم:

أكثر ابن جبش من التناص بنوعيه مع القرآن الكريم، ويظهر ذلك في انتخابه للآيات التي تحض على القتال والإنفاق في سبيل الله، وقد أحصينا أكثر من عشرين تناصا مباشرا، من ذلك:

- 1- تضمينه قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾. [سورة التوبة: 123].

1- أضواء على ابن جبش النّازي، البوخصيبي، ص125.

2- وفي قوله (ولا يحزنهم الفزع الأكبر يوم ينفخ في الصور) تناصّ مباشرة تامّ مع قول الله تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾. [سورة الأنبياء: 102].

ب - مع الحديث النبوي:

أكثر من التناص مع الأحاديث النبوية وهذا في أكثر من ثلاثين موضعاً منها أحاديث طويلة، وتراه في بعض المواضع من خطابه يرصف نصوص الأحاديث رصفاً دون انقطاع، وإسهابه هذا راجع إلى ما توفره الموسوعة الحديثية من مادة ثرية يحتاجها في محاور خطابه كأحاديث فضل الجهاد والرياء والإنفاق والشهادة، وفيها يجد تفصيل ما أجمله القرآن، من ذلك:

- 1- تضمينه قول النبي (ﷺ): «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»⁽¹⁾.
- 2- وكذا قوله (ﷺ): «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ - كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ، وَتَوَكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ، بَأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»⁽²⁾.

ج - مع أقوال السابقين:

ضمّن ابن جبّش آثار السابقين من الحكم والنصائح والمواعظ والوصايا، من ذلك إيراد نصيحة لقمان الحكيم لابنه (إذا أخطأت خطيئة فأعط صدقة)، وإدراجه قول بعض الصوفية في باب الإخلاص (كلّ كلام يبرز إلّا وعليه كسوة القلب الذي برز منه)⁽³⁾.

ولم يُغفل ابن جبّش الجانب القصصي لما له أثر بالغ في النفوس فساق قصة أم إبراهيم الهاشمية التي استشهد ابنها⁽⁴⁾، وهي قصة طويلة تناولت فضل الشهادة ومنزلة الشهداء.

1- صحيح البخاري، ج4، ص16، رقم: 2790.

2- المصدر نفسه، ج4، ص15، رقم: 2787.

3- أضواء على ابن جبّش التّازي، البوخصبي، ص123.

4- المصدر نفسه، ص132 - 134.

ولتحقيق نفس الغرض سجّلنا تناصًا على مستوى البنى الإفرادية مع بعض العلوم كعلم الكيمياء حين توظيفه لمصطلحي (الإكسير⁽¹⁾، الكيمياء) في قوله (وحصلت على الإكسير الأعظم التي لا تخاف نفاده، وظفرت بما رمته من كيمياء الشّهادة)، وله مع عالم الحيوان تناص عند إدراجه بعض ما توصّل إليه الباحثون في حياة كلّ من الغراب والنّمساح وطائر الرّمح لبيان عناية الله بمخلوقاته في مسألة الرّزق، فكيف تكون عنايته لعباده الطّائعين⁽²⁾.

ولذا جاء معجمه اللّغويّ منوعًا، فهو ذو صبغة دينيّة كإدراج بعض المصطلحات الصّوفية (العشّاق، الجمال، الوصال)، وذو صبغة حماسيّة (الجهاد، القتال، الأعداء، الأغلال، القيود، صهيل الخيل...)، وكذا سياسيّة (الجواسيس، العيون). إضافة إلى المعجم العلميّ الذي تناول علم الكيمياء وعالم الحيوان.

وله من التّناص في خطابه النّثريّ توظيفه لمعاني الشّعريّ العربيّ كقوله: «لقد أسمعت لو ناديت حيّا»⁽³⁾ وهو شطر من البيت الشّعريّ المتداول على الألسن [الوافر]:

لَقَدْ أَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ❀ وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

لبيان حالة اليأس التي بلغت بالنّاس، وحياة الدّلّ التي يعيشونها بسبب تخلفهم عن الجهاد بالنّفوس والمال.

4- طبيعة الأسلوب:

عمد ابن جيّش إلى تلوين خطابه بأساليب مختلفة، فزواج بين الأسلوبين الخبريّ والإنشائيّ، فتارة يميل إلى توظيف الأسلوب الإنشائيّ بأنواعه، من ذلك الأسلوب الاستفهاميّ الذي ابتدأ به خطابه كقوله: «ما هذه الغفلة العظيمة التي أضحت على القلوب مقيمة...؟ أما علمتم أنّ أعداءكم باحثون عليكم مشغولون بكلّ حيلة للوصول إليكم؟»⁽⁴⁾ وفي قوله: «أين أرباب الهمم العالية؟ أين أصحاب النّفوس الرّكيّة؟ أين أرباب العقول؟... أين العشّاق؟ أين الذين لنيران

1- مادة مركّبة يزعم القدماء أنّها تحوّل المعدن الرّخيص إلى ذهب، وشراب يطيل الحياة. ينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللّغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشّروق الدّوليّة، ط4، 1435هـ / 2004م، ص22.

2- أضواء على ابن جيّش النّازي، البوخصيبيّ، ص135، 136.

3- المصدر نفسه، ص127.

4- المصدر نفسه، ص125.

المحبة في قلوبهم احتراق؟...»⁽¹⁾، وهذا لغرض اللوم والعتاب ولفت الانتباه لما يحاك لهم، أو للاستعطاف كقوله: «فما هذه الغفلة عن إخوانكم يا معشر المسلمين؟... فما حال من يبيت بالسلاسل مغلولاً وبالقيود معقولا؟»⁽²⁾، إضافة إلى استعماله لأساليب إنشائية أخرى كالأمر والنهي والنداء وغيرها.

كما كان توظيفه للأسلوب الخبري ظاهراً ساقه لأغراض شتى كتقرير الحقائق وإظهار الأسف والضعف والتوبيخ، كقوله وهو يعدد المصائب التي لحقت بلاد المسلمين: «... كانوا بالأمس أغنياء آمنين، فأصبحوا اليوم فقراء خائفين، انتهبت أموالهم وتغيرت أحوالهم، فرقت عنهم نسائهم وأخذت منهم بناتهم، وصار الكفرة يتنافسون في بيعهم بالأثمان، وجعلوا يفرقونهم في سائر البلدان...»⁽³⁾.

5- الصورة الفنية:

على الرغم من أن لغة الخطاب كانت مباشرة، وهذا ما يقتضيه المقام حتى يسري تأثيره في المتلقي، إلا أن صاحبه لم يغفل الجانب الإبداعي في تكوين خطابه، فكانت الصور البيانية حاضرة، من ذلك:

- المجاز المرسل في قوله: «والمسلمون قد تمكّنوا من رقابهم»⁽⁴⁾، فهو دلالة على التصر المؤرر حيث مكّنهم الله من أعدائهم بحز رقابهم بالسيف أو أسرههم بوضع الأغلال في أعناقهم، فأطلق كلمة الرقاب وهو لفظ الجزء أريد به الكلّ، فالرقاب مجاز مرسل علاقته الجزئية.
- الاستعارة المكنية في قوله: «ولطارت قلوبهم شوقاً إليها»⁽⁵⁾ حيث شبه حركة اضطراب القلب عند وصف نساء أهل الجنة اشتياقاً لهنّ بالطائر الذي يطير بجناحيه لسرعة انتقاله من مكان إلى آخر متى شاء وإلى حيث أراد، وهذا حال من أراد أن يظفر بالحرور العين عليه أن يطير إليهنّ ولن يتأتى له ذلك إلا بالشهادة في سبيل الله، فحذف المشبه به وهو الطير ورمز

1- أضواء على ابن جيبش التازي، البوخصبي، ص 127، 132.

2- المصدر نفسه، ص 126.

3- المصدر نفسه، ن. ص.

4- المصدر نفسه، ص 144.

5- المصدر نفسه، ص 144.

إليه بأحد لوازمه وهم الطيران. ومن الاستعارة المكنية في قوله: «وها هنا أقبض العنان عما طغى به القلم واللسان»⁽¹⁾ حيث شبه قلمه ولسانه بالفرس الذي يؤخذ بالعنان فيكون طوع صاحبه منقادا إليه، وحذف المشبه به (الفرس) ورمز بأحد لوازمه وهو العنان.

- وفي العبارة أيضا استعارة تصريحية في قوله: «طغى به القلم واللسان»⁽²⁾، حيث شبه طول الخطاب بالطغيان بجامع مجاوزة الحد فاستعار الطغيان للتطويل في النص على سبيل الاستعارة التصريحية، واشتق من المصدر الطغيان الفعل طغى بمعنى زاد وكثر على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

- والاستعارة التمثيلية في قوله: «وترنمت بين جوانحي بلابل الأشجان»⁽³⁾ شبه حال ما يتردد في الصدر من آلام وأحزان بحال غناء البلابل بجامع الإضمار والإعلان، فاستعير الكلام الموضوع للمشبه به للمشبه.

من جهة أخرى استعان ابن يجبش بالمحسنات البديعية التي ساعدته على تكوين خطابه القائم على العناية بالفواصل المسجوعة، والتي تشكل إيقاعا ونغما موسيقيا ونلمس منه حرصا كحرص الشاعر على تكوين قافيته. من ذلك الجناس التام (العُد، عدد) وأكثر من الجناس الناقص (الحديد، شديد / عدّة، شدّة / عهده، وعده). كما شغلت التّقابلات بين البنى الإفرادية مساحة من النص تلون بها الخطاب وتتمق، وليس فقط العنصر الجمالي حاضرا بل من وراء ذلك التأثير في المتلقي لتجلية معاني الوحدات الإفرادية أو المركبة ليسهل إدراكها وبيان الفروق في أكثرها بين أمور كثيرة منها: الفرق بين أحوال الناس قبل الاحتلال البرتغالي وبعده، وبين حياة المرء في الدنيا والآخرة، وبين المنفق والمقتّر وغيرها... وهذا كلّه يكفله كلّ من الطّباّق بأنواعه مثل (يمينه ≠ شماله / جيّدكم ≠ رديئكم / حرّ ≠ يعبّده / حسناته ≠ سيئاته / لا تبخلوا ≠ تصدّقوا / حلال ≠ حرام)، والتّضاد بين التّناقضات (المقابلة) مثل (بالأمس أغنياء آمنين ≠ اليوم فقراء خائفين / بعد

1- أضواء على ابن يجبش التّازي، البوخصبي، ص 145.

2- المصدر نفسه، ن. ص.

3- المصدر نفسه، ن. ص.

البُعد قريبا ≠ الهجر حبيبا / العزّ والفرح ≠ ذلاً وحزناً / أطعم الشيطان ≠ عصيتم الرحمن / أحبّ الناس ≠ أبغض الناس / المؤمن البخيل ≠ الفاسق السخي).

هذا وإنّ النصّ جاء مشحوناً بالبنى الإفراديّة المترادفة، ألجأ إليها السجع أحيانا خشية اضطرابه، كما جاءت للتوكيد والتّقرير والإلحاح مثل (السّخاء = الكرم / البكاء = النّحيب / المآثر = المناقب / سرور = ابتهاج / قطعت = صرمت / استيقظوا = أفيقوا).

6- التكرار:

إنّ ظاهرة التكرار في النصوص الأدبيّة هي ذات وظائف متنوّعة منها الوظيفة الإيقاعيّة، والتّنوّيع الأسلوبيّ، وأيضاً تأتي للتوكيد والإلحاح⁽¹⁾. والتكرار يكون بتكرار البنية الإفراديّة، كما يكون على مستوى البنية التركيبيّة. ونسجّل في هذا الخطاب النثريّ حضوراً للتكرار بنوعيه بنفس الصيغ أو بصيغ متقاربة.

1- التكرار على مستوى البنية الإفراديّة:

ومن البنى الإفراديّة المتكرّرة بكثرة وبصيغ مختلفة (أسماء، أفعال)، وفي مواطن مختلفة من الخطاب، أتت ضمن التّناصّ المباشر وغيره في الألفاظ الدّالة على الجهاد بالنفس والمال (بازل، بائع، جاهدوا، الجهاد، تجارة، بيع، الغزو، الغازي، غزوة...). ومنه أيضاً تكرار لفظتي (العجل العجل، البدار البدار) وهذا قصد الحضّ على الجهاد والاستنهاض لنصره إخوانهم. ومن التكرار اللفظيّ الذي حرص ابن جُبّش على الإكثار منه تكرار أدوات الاستفهام التي ساقها للتّقرير والتّوبيخ، وتارة للاستعطاف والتّشويق، وللتّرهيب والتّرهيب، فانت متوالية في الغالب، كتكرار اسم الاستفهام (أين) حوالي سبعة عشرة مرّة (17) أنت متوالية في ثلاثة مواضع⁽²⁾. منها ما سيق للاستعطاف وإثارة الشّفقة، وهذا إثر التّذكير بحال المسلمين في البلاد التي وقعت تحت الاحتلال، وهذا في قوله: «أين من يبرد حرّ هذه المرّة؟ أين رافة أهل الإسلام؟ أين شفقة أمّة محمّد (عليه أفضل الصّلاة والسّلام)؟»⁽³⁾. وتكرّر حرف الاستفهام (هل) لاستمالة النّاس للجهاد

1- ينظر: قراءة جديدة في النثر العربي القديم (من العصر الجاهليّ إلى نهاية العصر الأمويّ)، محمّد مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعيّة، د. ط، 2012م، ص 260.

2- أضواء على ابن جُبّش التّازي، البوخصبيّ، ص 126، 127، 132.

3- المصدر نفسه، ص 126.

بالنفس والمال، وهذا في قوله: «هل من بائع نفسه من الله؟ هل من مستوجب جزيل الثواب من مولاه؟ هل من باذل نفسه في سبيل ربه مهجته؟ هل من مظهر لمولاه بأسه وشدته؟ هل من مخالف نفسه الأمارة؟ هل من ماله في أعظم تجارة؟»⁽¹⁾.

1- التكرار على مستوى البنية التركيبية:

نسجل التكرار على المستوى التركيبي في كثير من المواطن في نص الخطاب، منه تكرار الجمل الدعائية الاعتراضية، وهي تحمل دلالات نفسية كإحساس بالضعف والانهزامية، وتمني الانتقام من الأعداء، فيطلب العون من الله بعد أن سقط في أيديهم، كقوله: لا بلغ الله لهم أملا، بدد الله شملهم، الأعداء دمرهم الله. ومن هذه التراكيب المكرورة ما تحمل معاني الاستعطاف والرحمة مثل (رحمكم الله) التي تكررت كثيرا. وعبرة (عباد الله) التي سيقى للفت الانتباه والتذكير بعظم المسؤولية في وجوب نصره إخوانهم، والقيام بحق الله وهو الجهاد بالنفس والمال. وتأتي الذي العبارة أيضا للانتقال من محور إلى آخر.

7- خطابه الشعري:

إن كان ابن يجيش أظهر اهتماما كبيرا بالخطاب النثري فإنه لم يغفل الخطاب الشعري، حيث سجلت له تجارب شعرية⁽²⁾ ظهرت في تلك القصائد والمقطوعات الرائقة التي خلفها⁽³⁾، يغلب عليها الاتجاه الديني والحماسي. فمن الأول اشتغاله بأشهر قصائد المدح النبوي؛ كتخميسه على قصيدة البردة مطلعها⁽⁴⁾:

يَا مَنْ لَهُ هِمَّةٌ مِنْ أَرْفَعِ الْهِمَمِ * وَجَسْمُهُ قَدْ غَدَا فِي غَايَةِ السَّقَمِ
وَمُقَلَّةُ الْعَيْنِ لَمْ تَفْتَرْ وَلَمْ تَدَمْ * أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بِذِي سَلَمِ
* مَزَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقَلَّةِ بَدَمِ *

1- أضواء على ابن يجيش التازي، البوخصيبي، ص 127.

2- أشار محمد حجي إلى أن له ديوان شعر. ينظر: الحركة الفكرية بالمغرب، محمد حجي، ج 2، ص 434.

3- ينظر: طبقات الحضيكي، الحضيكي، ج 1، ص 268.

4- أضواء على ابن يجيش التازي، البوخصيبي، ص 75.

مكنته قدرته الشعرية من مجارة صاحب البردة - على الأقل في الأبيات التي بين أيدينا - فتارة ينساق وراءه وتارة أخرى نسجل له استقلالية في المعنى والمبنى، كما نسجل حضوراً للنزعة الزهدية (من تذكير بحقيقة الدنيا والموت)، مع حضور لافت للتجربة الصوفية وذلك بالاستعانة بالمعجم الصوفي (الحب، الوجد، الغرام، الشوق، السكر) للتعبير عن الحب الإلهي حتى إنه وُصف بالعاشق، وقد سأله تلميذه الهبطي عن الوصال، فلم يزد على مدّ صوته بهذه الكلمة حتى سقط مغشياً عليه⁽¹⁾، فهو ذو باع مديد في ميدان التصوف وبضاعته نافقة في بابه، وهذا ما نلّفه في أواخر قصيدته التي عارض بها منفرجة ابن النحوي التلمساني (433- 513هـ/1119م)، حيث يقول منها - المتدارك - (2) :

وَبَادِرُ بَرِضَى الْمَحْبُوبِ تَفَرُّ	✽	بِجَمِيعِ الْقَصْدِ وَتَبْتَهِجُ
فِي خِدْمَتِهِ أَفْذِي جَسَدِي	✽	فَعَسَى يُبْرِينِي مِنْ سَمَجِي
وَيُحْدِلْنِي بِحُلَى الْأَحْدَا	✽	بِ وَيَعْصِمْنِي فَأَكُونُ نَجِي
وَيُدْنِينِي لِمَقَامِهِمْ	✽	فَهُوَ الْمَأْمُولُ لِمُبْتَهِجِ
وَهُمُ الْأَكْيَاسُ بِمَا فَعَلُوا	✽	لَمَّا اخْتَارُوا بِذَلِ الْمُهْجِ
وَرَضُوا بِالْأَدْنَى مِنَ الْفَانِي	✽	مَحْبُوبِ الْكُلِّ مِنَ الْهَمَجِ
فَهَمُّوا مَقْصُودَ إِشَارَتِهِ	✽	لَمْ يَشْغَلْهُمْ حُسْنُ الدَّعَجِ

أما عن الشعر الحماسي فقد كان ابن يجّيش من أدباء الأدب الجهادي في هذه الفترة بما أنتجه من قصائد في هذه الباب، من ذلك قصيدة ثائية طويلة عدد أبياتها (169 بيتاً)، جعلها ذيلاً لخطابه النثري التحريضي للجهاد في سبيل الله وردّ غارات البرتغال، جمع فيها معاني ما نثره في كتابه، وذلك لأن الشعر له وقع في نفس المتلقي وتأثير في تحريك الهمم، فقال: «... أراد أن يترجم لساني عما أضمره جناني، بنظم قصيدة جامعة لما تقدّم من تلك المعاني، وقلت لعلّ النظم أوقع في النفوس، وأقرب لأن يصغى إليه وتتحطّ إليه الرؤوس»⁽³⁾.

1- ينظر: دوحة الناشر، ابن عسك، ص66، 67.

2- أضواء على ابن يجّيش التازي، البوخصيني، ص64، 65.

3- المصدر نفسه، ص145.

مهّد ابن يجّيش لقصيدته بمقدمة حزنٍ وشكوى، حيث بكى واشتكى وفرق وأرق، وسالت دموعه محزون وخرجت نفثة مألوم، وأظهر تفجعا، وهي مناسبة لشعر النّكبة ورتاء البلدان ليشعر المتلقّي بعظم الخطب وجسامة الأمر، وهي معاني دأب شعراء النّكبات على تردادها وتعدادها، وصور مكرورة، فقال - الطّويل - (1) :

أَبَى الْقَلْبُ سَلَوَانًا وَمَنْ لِي بِسَلْوَةٍ	✽	وَنَوْمِي جَفَا مِنْ أَجْلِ مَا بِي مَقْلَتِي
وَصِرْتُ حَلِيفَ الْحُزْنِ مِمَّا كَتَمْتُهُ	✽	وَبَيْنَ ظُلُوعِي مِثْلَ كَيِّ بِجَمْرَةٍ
وَالْقَلْبُ مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ زَفْرَةٌ	✽	وَدَمْعِي عَلَى الْخَدَيْنِ يَحْكِي لِمُزْنَتِي
وَلَمْ أَسْتَطِعْ صَبْرًا وَكَيْفَ يَصِحُّ لِي	✽	وَقَدْ هَتَكْتَ مِنْ دِينِنَا كُلِّ حُرْمَةٍ

تلوّنت هذه القصيدة بموضوعات مختلفة وأغراض شتى، ما بين لوم وعتاب وحسرة وأحزان واستنهاض وترغيب واستغاثة ووصايا وحكم وأدعية وتوسلات. فبعد هذه المقدمة ينتقل إلى رسم صورة واقعية يرثي فيها حال البلاد والعباد في ظلّ الاحتلال، ولاستنهاض الهمم وإيقاظ الضمير المغربيّ راح يعدّد حجم الدمار الذي ألمّ بأصيلا المحتلة سنة (876هـ / 1472م) وما آلت إليه، وإن لم ينهضوا لقي غيرها من المدن نفس المصير، وكلّ هذا من أجل استمالة المتلقّين، ولإثارة الغيرة في النفوس والحمية وروح الانتقام ممّن دنس دور العبادة وهتك الأعراض مال إلى استعمال معجما لغويًا يخدم قصده وأساليب متنوّعة يعينه على تحقيق هدفه فقال (2) :

فَقِصَّةُ أَصِيلَا عَرَفْتُمْ جَمِيعَا	✽	وَمَا فَعَلَ الْأَعْدَاءُ مِنْ شَرِّ غَدْوَةٍ
وَأَضَحَّتْ عَلَى الْإِسْلَامِ تَحْكِي رُسُومَهَا	✽	كَذِي سَكَنٍ قَدْ صَارَ فِي أَرْضٍ غُرْبَةٍ
مَسَاجِدُهَا تَبْكِي عَلَى فَقْدِ أَهْلِهَا	✽	كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مُرَدُّ سُورَةٍ

ما نسجّه في هذه التائيّة هو مشاركتها لغيرها من قصائد شعر النّكبة ورتاء المدن شكلا ومضمونا؛ من حيث تصوير الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والنفسية والحضارية وغيرها

1- أضواء على ابن يجّيش التّازي، البوخصبي، ص145، 146.

2- المصدر نفسه، ص146، 147.

للمدن بعد سقوطها⁽¹⁾، وتباينها في قضية الاستنجد، فابن يجّيش يستصرخ القاعدة الشعبيّة وغيره يوجّه النداء لملوك الإسلام شرقا وغربا في نطاق المراسلات الرسميّة، وذلك لضعف حكم بني وطّاس.

وله أيضا قصائد تقرّيبية لمؤلفات الشيخ السنوسي، تضمّنت مدحا لصاحبها ولتأليفه في العقيدة. وله كذلك قصيدة يعتذر فيها لبعض إخوانه عن انقطاعه عنه مبينا السبب، وذلك حينما ظنّ أنّ ابن يجّيش قد هجره، وهذه النصوص أقرب للنظم منها للشعر⁽²⁾. ولم يتمثّل الجانب الشعريّ عند ابن يجّيش في تلك القصائد، بل ذكرت المصادر أنّ له موشحات وأزجال، ولم تورد إلّا بيتين من الزّجل له، جاء فيهما⁽³⁾:

خَرَجْنَا وَحَدَّ الصَّبَاخُ * نَشَاهَدُ رَوْضَةَ بُهْيَّةٍ
وَأَطْيَارُ تَشْهَدُ يَاصْدَاخُ * اللَّهُ بِأَلْوَحْدَانِيَّةٍ

قالهما في بيان صفة الوجدانية لله التي تتجلّى في مرآة المخلوقات، وهذا لحظة تأمل في ساعة بكرة في حديقة غناء حوت طيور ذات ألوان وأصوات مختلفة دلّت على بديع صنع الله (ﷻ).

1- من ذلك قصيدة عصره أبي العباس أحمد الذّقون سماها (الموعظة الغراء بأخذ الحمراء). ينظر: أزهار الرّياض، المقرّي، ج1، ص104 - 108.

2- ينظر: دوحة النّاشر، ابن عسكر، ص67 - 71.

3- المصدر نفسه، ص67.

7- علي بن محمد التمكروتي (941 - 1003هـ / 1534 - 1595م):

1- اسمه ونسبه ومولده:

هو علي بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن يحيى الجزولي قبيلة، البكري نسباً، الدرعي التمكروتي⁽¹⁾ داراً ومنشأ⁽²⁾. ولد بتمكروت سنة (941هـ / 1534م)⁽³⁾.

2- عائلته:

ينحدر أبو الحسن من أسرة علم وصلاح وفضل، فجدّه علي بن محمد (ت حوالي 940هـ / 1524م) من العلماء الذين شاركوا في تنشيط الحركة العلمية والفكرية بالمغرب؛ فبعد انتقاله لها من سوس إلى وادي درعة بداية القرن العاشر الهجري أسس زاوية بتمكروت تعرف بزاوية سيدي علي نسبة لمؤسسها، غدت مركزاً علمياً وروحياً قصدها طلبة العلم⁽⁴⁾. أمّا والده محمد فهو أشهر علماء العائلة (ت حوالي 965هـ / 1558م)، قال عنه ابن عسكرو: «...وله مناقب ومآثر مستفيضة عند أهل بلده وغيرهم، فانتفع الناس بعلمه، وشأنه كبير وقدره جليل»⁽⁵⁾. ولأبي الحسن أخوان فقيهان أشهرهما السفير ومؤدب أبناء الأسرة السعدية محمد بن علي (ت حوالي 988هـ / 1580م)⁽⁶⁾.

3- نشأته ووظائفه:

نشأ أبو الحسن في ظل هذه الأسرة العلمية، فأخذ عن والده مختلف العلوم الدينية والروحية واللسانية والأدبية، وبالزاوية واصل رسالة الأسرة فتولّى التدريس بها، وهي الوظيفة التي شغلها

1- وقد تنطق التمكروتي بالجمع بدل الكاف. ينظر: صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير الإفرائي، تحقيق: عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1425هـ / 2004م، ص197، رقم: 136.

2- أورد هذا النسب صاحب الترجمة في بداية رحلته. ينظر: التّحفة المسكية، التمكروتي، ص22.

3- هذا ما رجّحه عبد اللطيف الشاذلي، خلافاً لمن ذكر أنّ مولده سنة (967هـ / 1560م)، وهذا مستبعد لأنّ والده توفي قبل هذه السنة بعامين أي عام (965هـ / 1558م). ينظر: التّحفة المسكية، التمكروتي، ص5.

4- ينظر: الحركة الفكرية بالمغرب، محمد حجي، ج2، ص545، 546.

5- دوحة الناشر، ابن عسكرو، ص93.

6- ينظر: الحركة الفكرية بالمغرب، محمد حجي، ج2، ص547.

إلى أن توفي⁽¹⁾. إضافة إلى تكليفه من لدن السلطان المنصور السعدي بالسفارة إلى بلاد الترك سنة (997هـ / 1589م).

4- آراء الآخرين فيه:

كل من ترجم لأبي الحسن علي التّمكروتي أثنى عليه من حيث إمامه بمختلف العلوم الدينيّة واللّسانيّة مع المشاركة في الميدان الأدبيّ، قال فيه الحضيكي: «الفقيه العلّامة الأديب»⁽²⁾.
5- وفاته:

انتقل أبو الحسن التّمكروتي في آخر حياته إلى مراكش، ولا يدري السبب الحقيقي وراء ذلك، ويبدو أنّه تلبية لدعوة من المنصور السعدي⁽³⁾، فعاجلته منيته وتوفي بمراكش حوالي سنة (1003هـ / 1595م) ودفن في روضة القاضي عياض⁽⁴⁾.

6- مؤلفاته:

لم يخلف أبو الحسن التّمكروتي من التّأليف سوى كتابه (النّفحة المسكية في السفارة التّركيّة) وبه اشتهر. قام بنشره وترجمته إلى الفرنسيّة المستشرق الفرنسي (هنري دي كاستري) سنة 1920م بباريس⁽⁵⁾.

7- بعض السمات الموضوعيّة والفنيّة للرحلة:

1- أسباب الرّحلة:

كانت رحلة التّمكروتي ذات دوافع سياسيّة، حيث اختاره السلطان المنصور السعدي في سفارة إلى تركيا ضمن وفد ضمّ عددا من العلماء والأدباء، منهم الكاتب الأديب محمّد بن علي الفشتالي (ت 1021هـ / 1633م) مصحوبين بهدايا كبيرة ورسائل إلى السلطان العثماني مراد

1- ينظر: الحركة الفكرية بالمغرب، محمّد حجي، ج2، ص546-548.

2- طبقات الحضيكي، ج2، 488.

3- ينظر: معلمة المغرب، الجمعية المغربيّة للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، د. ط، 1410هـ / 1989م، ج7، ص2191.

4- ينظر: نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمّد بن الطيّب القادري، تحقيق: محمّد حجي وأحمد التّوفيق، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، د. ط، 1397هـ / 1977م، ج1، ص49.

5- ينظر: مؤرّخو الشرفاء، ليفي بروفنصال، ترجمة: عبد القار الخلّادي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، د. ط، 1397هـ / 1977م، ص82.

الثالث⁽¹⁾. ويعود سبب استدعاء المنصور للتمكروتي وتكليفه بهذه المهمة للعلاقة الوثيقة بين الأسرتين بحكم الجوار، فالسعديون ينحدرون من زاوية تاكمدارت القريبة من زاوية تامكروت، وإضافة إلى الصلات الجيدة بين جدّه عليّ وبين مؤسس الدولة السعدية القائم بأمر الله السعدي⁽²⁾. وأخوه محمّد قد كلف من قبل بمهمة دبلوماسية إلى الخليفة العثماني⁽³⁾. والأمر كذلك عائد إلى شهرته العلمية والأدبية يومئذ.

2- أسباب كتابة الرحلة:

أوجز التّمكروتي أسباب كتابته لرحلته بعد المقدّمة، وحصرها في سرد مشاهداته ونقل ما عايشه من عجائب أيام رحلته خصوصا تلك الأهوال التي عاينها أثناء ركوبه البحر، وكذلك ما أفاده في سفره إلى التّرك، والتّعريف بشيوخه الذين أخذ عنهم أو السّابّقين وما يتعلّق بذلك من أحاديث مختلفة⁽⁴⁾. وكانت الفترة مابين رجوعه إلى بلده وادي درعة سنة(999هـ / 1591م) ووفاته بمراكش سنة(1003 / 1594م) هي المدّة التي فرغ فيها لكتابته لرحلته⁽⁵⁾.

3- الإطار المكاني والزّمني للرحلة:

كانت الرّحلة أخذت طريقا بريّا وأكثره بحريّ، انطلقا من بلدته تمكروت يوم السّبت الفاتح من جمادى الأولى سنة سبع وتسعين وتسعمائة هجرية(997هـ / 1589م) وصولا إلى مدينة فاس حيث وافى المنصور بها، وهناك كلفه بالمهمّة، ومنا إلى تطوان حيث انتظر الوفد السّفينة القادمة من الجزائر مدة ثلاثة أشهر⁽⁶⁾. ثمّ كانت الرّحلة بحريّة ذهابا على طول الشّريط السّاحلي الشّماليّ مرورا بعدد من المدن السّاحلية للمغرب العربيّ أهمّها(وهران، الجزائر، بجاية، بنزرت، قابس، جربة...) وصولا إلى طرابلس التي مكث بها شهرا ونصف شهر، ثمّ منها توجّه مباشرة

1- ينظر: التّحفة المسكيّة، التّمكروتي، ص26.

2- ينظر: الحركة الفكرية بالمغرب، محمّد حجي، ج2، ص545.

3- ينظر: التّحفة المسكيّة، التّمكروتي، ص87.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص20.

5- ينظر: المصدر نفسه، ص11.

6- ينظر: المصدر نفسه، ص22، 25، 26.

نحو القسطنطينية التي وصل إليها الثلاثاء السادس عشر من محرم (998هـ/1) ⁽¹⁾. وبعد أن مكث التّمكروتيّ بتركيا حوالي ثمانية أشهر انطلق الوفد يوم السّابع شعبان (998هـ / 1590م) سالكا نفس الطّريق في عودته، حيث وصل الوفد إلى مدينة مراكش يوم العاشر ربيع الآخر (999هـ / 1591م) أين وافى المنصور الذهبيّ في قصره البديع وسلّمه رسالة السّلطان العثمانيّ وهداياه ⁽²⁾. ثمّ ارتحل إلى بلده وادي درعة ووصلها في أوّل جمادى الثّانية سنة (999هـ / 1591م). تكتسي الرّحلة أهميّة تاريخيّة فهي تعكس العلاقات السّياسيّة بين الدّولة العثمانيّة والسّعديّة، وتورّخ لكثير من الأحداث العسكريّة والحربيّة وطبيعة العلاقات بين الدّول الواقعة على ضفتي الحوض المتوسط في هذه الفترة.

خطاب أدب الرّحلة عند التّمكروتيّ كغيره ممّن سبقه إلى هذا الجنس الأدبيّ، فهو يقوم على عنصري السّرد والوصف، حيث بدأ رحلته بالسّرد إلى نهايتها، ثمّ تجده يستعين بالوصف، وهذا محاولة منه لإشراك المتلقّي في مشاهداته التي مزجها بأحاسيسه وانفعالاته، فهو يهيم بالوصف وله ردّة فعل عند المواقف التي تواجهه، والمواطن التي يحلّ بها، والمناظر التي تقع عينه عليها، توحى ببراعة التّمكروتيّ ودقّة وصفه وتصويره وتشخيصه، مستعملا أساليب لغويّة مختارة، مع توظيف عنصر الخيال فأكثر من الصّور البيانيّة (الاستعارات والمجازات والتّشبيهات)، ويتزاح أسلوب الوصف بين البساطة والبعد عن السّجع حين يكون الوصف مباشرا، وهذا ما سجّلناه عند وصفه للمعالم الحضاريّة، وكأنّ جمال تلك المعالم ينسبه ذلك. من ذلك وصفه للقبة الرّئيسة لمسجد آية صوفيا: «وفي وسط المسجد قبة عظيمة واسعة جدّا عالية مفرطة العلوّ في الهواء، حيث يطير الحمام في رأسها من داخل تحت القبو ويظنّه الجالس فيها عصفورا، وهي أوّل ما ظهر لنا من البرّ، عالية مذهبة...» ⁽³⁾؛ وبين التّركيب حينما يحاول التّمكروتيّ إبراز قدراته الفنّيّة قصد إيصال المشاهد كاملا بمكوّناته إلى المتلقّي في خطابه الرّحليّ، فهو يميل إلى الخطاب المنمّق وعنايته بالبنى التّركيبية المسجوعة دون الإغراق في

1- ينظر: التّحفة المسكيّة، التّمكروتيّ، ص 26، 29، 31، 40، 70، 74، 88.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص 104، 141.

3- المصدر نفسه، ص 90.

تنميقها، ولا الاعتماد على ذلك النوع من السجع المركّب المعقّد، ولا عجب في ذلك فالواقف على النصوص التي أدرجها في رحلته لأبي البقاء خالد بن عيسى البلوي (ت بعد 767هـ / 1365م) ليدرك جيّدا أنّ التّمكروتيّ يحاول محاكاته ومجاراته⁽¹⁾. وبخاصّة عن الخوض في الوصف، فمثلا يصف أمواج البحر وأهواله بميناء طرابلس بقوله: «أمواج كأنّها جبال من زمرد سائرة تعطف عطا وتتقصّف قصفا، وتأتي خاضعة إلى البرّ كأنّها تقبّل منه كفّا، وتأتيه أحيانا فتعطف عطا وتنثني على الإمام به عطا»⁽²⁾.

في هذا النصّ يتخيّر التّمكروتيّ معجما لغويّا (الجبال، تتقصّف، قصفا) يكشف هول المشهد وشدّته وعظمة الأمواج وقوّتها وتشكّلها وصوت وفّعها ولونها، ومعجما آخر (تقبّل، كفّا، تعطف) لبيان حال الأمواج أحيانا عند وصولها إلى البرّ حين تخفّ قوّة الموج وتتلاشى. ونلاحظ توظيفا للتشبيهات (أمواج كأنّها جبال من زمرد - كأنّها تقبّل منه كفّا)، واستعارات مكنيّة بتشبيه حركة اضطراب الأمواج وسرعة تغيير مسارها بالخيّل في جريها وانعطافها وبالرّعد في شدّة صوته، فحذف المشبّه به وهو الخيل والرّعد وصرّح ببعض لوازمه (تتعطف عطا - تتقصّف قصفا)، ومن الاستعارة المكنيّة تشبيهه لحركة الأمواج عند ملاقاتها للبرّ حين تخفّ شدّتها بالشّخص الذي يخضع لغيره ويسعى لتقبيل كفّه. ويحفّل هذا النصّ بتوظيف الجناس المساعد على تكوين مقاطع مسجوعة التي تنتج إيقاعا ونغما موسيقيا.

ونسجّل أيضا في الجانب الفنّي لرحلة التّمكروتيّ كثرة التّناسّات المباشرة المنثور منها والمنظوم، حتى ليكاد المتلقّي أحيانا أن يجزم بغياب الشّخصيّة الأدبيّة للتّمكروتيّ، وبخاصّة عند وصفه للمعالم الحضاريّة والأماكن الجغرافيّة من مدن وأضرحة، فتجده يستعين بنصوص الرّحالة السّابقين كالبركيّ (487هـ / 1093م) وابن عبد ربّه (246 - 328هـ / 860 - 940م) وعمدته على الخصوص (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق) لأبي البقاء البلويّ، فيدرج هذه النّصوص كاملة غير منقوصة للتّعريف بالمدن التي حلّ بها وأشهر أعلامها، ممّا يجعل من نصّ الرّحلة مثقلا بهذه النّصوص، ويأخذ منها حيّزا كبيرا، فمثلا عندما يعرف بأعلام مدينة

1- ينظر: التّحفة المسكيّة، التّمكروتيّ، ص10.

2- المصدر نفسه، ص80.

تونس يدرج نصاً لأبي البقاء خالد بن عيسى البلوي يأخذ من صفحات الرحلة حوالي إحدى عشرة صفحة⁽¹⁾. وكذا في وصفه معالم بجاية وسير علمائها⁽²⁾. وقد عيب على التّمكروتيّ هذه الاستطرادات حتى وصف المستشرق الفرنسي (هنري دي كاستري) نصّ الرحلة بأنّه محض سرقة لا غير⁽³⁾، وقام بترك بعض نصوص الرحلة ولم يقدّم بترجمتها⁽⁴⁾. وفي الواقع هذا حكم مجحف في حقّ التّمكروتيّ ونصّه الرّحليّ، فالنّص له قيمته الأدبيّة والتّاريخيّة والجغرافيّة. وفي هذه الرحلة عني صاحبها أشدّ العناية بوصف المعالم الحضاريّة المغربيّة والمشرقيّة الماديّة والمعنويّة، وفيها يتجلّى جانب من جوانب علاقة الأدب بالحضارة من حيث التّأثير والتّأثير، فتأثّر التّمكروتيّ بالجانب الماديّ للحضارة المشرقيّة والمغربيّة دفعه للإبداع الأدبيّ الذي أسفر عن تدوين رحلته، وهذا الإبداع ما هو إلّا مظهر من مظاهر الحضارة في جانبها الأدبيّ. ويتجلّى في اهتمام التّمكروتيّ بوصف الحياة الاجتماعيّة والثّقافيّة والدينيّة والاقتصاديّة والعسكريّة والسياسيّة في بلاد التّرك؛ فوصف نظام الحكم والترتيبات الملكيّة من تشريفات وبروتوكولات، والتنّظيم العسكريّ والمعدات الحربيّة، والتّحصينات والموانئ والسفن، مع وصف الجوانب الجماليّة للمدن، وبالأخصّ مدينة إستنبول التي وصف مساجدها وحدائقها وأسواقها ومبانيها⁽⁵⁾، فأغرق في وصف مساجد تركيا وبخاصّة جامع آية صوفيا. فكانت رحلته من الشّواهد المكتوبة حول الحياة الحضاريّة بتركيا في أواخر القرن العاشر الهجريّ. كما أنّه لم يغفل وصف المعالم الحضاريّة أيّام المنصور السّعديّ فوصف القصر البديع بمراكش⁽⁶⁾ وإقامة المنصور بفاس وما يتعلّق بذلك⁽⁷⁾.

1- ينظر: التّحفة المسكيّة، التّمكروتيّ، ص 111 - 123.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص 33 - 37.

3- ينظر: تاريخ الأدب الجغرافيّ العربيّ، أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكيّ، ترجمة: صلاح الدّين عثمان هاشم، مطبعة لجنة التّأليف والترجمة والنّشر، 1963م، ج 1، ص 460.

4- ينظر: مقدّمة محقّق التّحفة المسكيّة، ص 13.

5- ينظر: التّحفة المسكيّة، التّمكروتيّ، ص 90.

6- ينظر: المصدر نفسه، ص 142، 143.

7- ينظر: المصدر نفسه، ص 25.

فالرحلة بهذا تعدّ وثيقة أدبية تؤرّخ لمرحلة من مراحل النثر الأدبي بالمغرب الإسلامي في أواخر القرن العاشر الهجري، فنلحظ عناية بالغة ومراعاة للجانب الفني وحرصا على استعمال الخيال وانتقاء المفردات والعبارات، ونسجل اهتماما بالشعر، فيورد أبياتا وتارة قصائد شعرية موضوعها شخصي وأخرى تتناول أغراضا عديدة كالمدح والتهنئة⁽¹⁾ وغيرها. وهي أيضا تعدّ مصدرا هاما من مصادر أدب المغرب الإسلامي في هذه الفترة حيث حوت جانبا من الخطاب الشعري للأديب الشاعر محمد بن علي الفشتالي⁽²⁾.

1- ينظر: التحفة المسكية، التّمكروني، ص164.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص165.

تناولنا في هذا الفصل عددا من المسائل المتعلقة بالخطاب النثري في المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين، بداية بعرض تراجم مفصلة لسبع شخصيات أدبية من مختلف بلدان المغرب الإسلامي، من الأندلسيين (ابن عاصم الغرناطي، ابن الحاج المالقي) ومن المغاربة (أبو عصيدة البجائي، أحمد زروق، أبو عبد الله التتسي، ابن يجبش التازي، علي التّمكروتي). فهؤلاء هم من جملة أدباء هذه الفترة الذين أظهروا اهتماما بالخطاب النثري، حيث طرّقوا مختلف الفنون النثرية؛ فحرّروا الرسائل السلطانية والإخوانية والخطب والمقامات، واهتمّوا بأدب الرحلات وفنّ التراجم والسير ودوّنوا فتاواهم وغيرها من الآثار المكتوبة. ومنهم من برّز في جلّ هذه الفنون النثرية، وأبدع أدباء المدرسة الأندلسية على الرّغم من أنّ الأندلس كانت في أيامها الأخيرة، وفيها يقول المقرّي: «إنّ البلاغة لم تزل شمسها بالأندلس باهرة الإيالة⁽¹⁾، ظاهرة الآيات إلى أن استولى عليها العدو»⁽²⁾.

والشيء اللافت هو مشاركة الفقهاء في فنون الأدب، فأغلب من ترجمنا لهم من الذين مارسوا الفقه، ومنهم من عرف بلقب الفقيه كالفقيه عمر المالقي، ولو شئنا لقلنا إنّ هذه الفترة هي فترة أدب الفقهاء بامتياز، وقد أدّى ذلك إلى ظهور أثر العلوم الشرعية في خطاباتهم النثرية. وإلى جانب ذلك مشاركة عدد المتصوّفة في الحياة الأدبية والسياسية، فعالجوا في آثارهم النثرية موضوعات ذات بُعد صوفي وخاصّة عند المغاربة كأحمد زروق وابن يجبش التازي. ولم يكن اهتمام أدباء هذه الفترة منصبا على الخطاب النثري بل جمعوا إلى ذلك المشاركة في نظم الأشعار في مختلف الأغراض الشعرية المعهودة من مدح ورثاء وفخر وتهنئة وغيرها.

أمّا موضوعات نثرهم فمتنوّعة، عالجت واقع الحياة من أحداث سياسية واجتماعية ودينية، كأدب الجهاد وهذا ما رأيناه عند ابن يجبش التازي، وذلك لأنّ حركة الجهاد كانت ضرورية لدفع الإسبان والبرتغال عن سواحل بلدان المغرب العربي، وكانت المقاومة ذات طابع شعبي لضعف الدولة خاصّة أيام بني وطّاس وأواخر أيام الزيّانيين، ممّا استدعى بعث روح الجهاد لدى مختلف أطياف المجتمع وتهيئة النفوس.

1- الإيالة: الآية للشمس كالهالة للقمر، وهي الدّارة حولها. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (أيا).

2- أزهار الرياض، المقرّي، ج1، ص115.

وعالج النثر موضوعات ذات طابع اجتماعي كالظواهر الصحيّة منها موضوع الأوبئة، مثل مرض الطاعون الذي حلّ بغرناطة منتصف القرن الهجريّ التاسع، وهو موضوع مقامة عمر الفقيه. ومن أبرز موضوعات النثر وصف المنشآت الحضاريّة الماديّة والمعنويّة في بلاد المغرب الإسلاميّ وخارجه، فوصفوا المنشآت الحضاريّة من عمارة وحدائق وغيرها، والمناسبات كالأحتفالات بالأعياد الموسميّة وإقامة الموالد والمراسيم الملكيّة. وقد استوعبت رحلة التّمكروتي كلّ هذا. فالأديب شخص يتفاعل مع الأحداث والوقائع، ويحاول أن يسجّل تلك التجارب الذاتيّة في خطابه النثريّ الذي هو ثمرة من ثمرات ذلك التفاعل، وهو مظهر من مظاهر العلاقة بين الأدب والحضارة.

وقد لفت انتباهنا ذلك الانحراف عن النمط البنائيّ لبعض فنون النثر، من ذلك فنّ المقامة النثريّة عند الفقيه عمر، حيث لم تتضبط بضوابط المقامة المشرقيّة التي تقوم على حضور شخصيّة الراوي والبطل، وظهرت في شكل الرّسالة، حيث حقّقت أركانها الثلاثة؛ الاستفتاح والغرض والخاتمة، فقد نحا منحى المقامة الأندلسيّة التي أخذت في الغالب شكل الرّسالة، وهذا ملحوظ في مقامته الوباء. أمّا شخصيّة البطل وحكاية الكدية فقد ظهرت في مقامته المنظومة (تسريح النّصال إلى مقاتل الفصّال). كما سجّلنا خروجاً عن المعهود في كتابة الرّسائل الإخوانيّة عند أبي عصيدة من حيث الافتتاح بالمنظوم من الكلام، إذ عمد إلى رسم الخريطة الابتدائيّة لنصّ الرّسالة نظماً، محقّقاً الخصائص الهامّة لفنّ الرّسائل من بيانٍ للموضوع الأساس للخطاب والإشارة إلى الجهة المرسلّة والمستقبلة للخطاب.

أمّا من النّاحية الفنيّة فإنّنا ألفينا ميلاً إلى التّزيين اللفظيّ وبخاصّة في مقدّمات المؤلّفات والفتاوى وبعض النّصوص النثريّة. ومنهم من تكلف الصّناعة اللفظيّة فأغرق في النّصنّع وتزيين نتاجهم النثريّ إلى درجة التعقيد والرّكون إلى الأساليب المسجوعة المركّبة، وهذا المذهب امتازت به المدرسة الأندلسيّة. وإلى جانب ذلك هناك المدرسة المطبوعة التي مالت عن السّجع المعقّد إلى البسيط وإلى الأسلوب المرسل، وهذا ما سجّلناه عن أحمد زروق والنّسّي.

أمّا التّزيين المعنويّ فقد كان حاضراً إذ تجلّى في العناية بالصّورة الفنيّة التي تشكّلت من عديد الصّور البيانيّة من استعارات وكنائيات وتشبيهات وغيرها، حيث أعانتهم على تبليغ

خطابهم والتأثير في المتلقي، وساعدتهم على عرض بعض تجاربهم الذاتية. كما اهتموا بتوظيف أنواع الانزياح؛ منه التركيبي على الخصوص، كالانزياح بالحذف والاعتراض والتقديم والتأخير، وذلك لمقاصد نفسية تأثيرية كاستمالة المتلقي أو التشويق والاستعطاف أو التأكيد، وقد يساق الانزياح لغرض إيقاعي يقصد منه المحافظة على البنية الإيقاعية داخل النص النثري وذلك بإقامة الفواصل المسجوعة والمقاطع الموزونة، وهذا حاضر بشكل لافت في الخطاب الأندلسي. ونسجل أيضا خطابات نثرية غنية بأنواع التناصات الظاهرة السطحية المباشرة والباطنة العميقة غير المباشرة، وكان أغلبها ذات طابع ديني شهد حضور الثقافة الدينية، وذلك لأن أغلب المشتغلين بالنثر كان من الفقهاء. إلى جانب ذلك هناك التناص الأدبي (أشعار، أمثال، حكم وغيرها) الذي كان جزءا من التشكيل الفني لبنية النص النثري عند هؤلاء الأدباء، حيث ألفيناهم في خطاباتهم النثرية (رسائل ومقامات وخطب وأدب الرحلة وفتاوى وغيرها) يميلون إلى إدراج الخطاب الشعري والاهتمام بالنظم، وهذا إما لإظهار البراعة الفنية في النثر وإبراز المقدرة الشعرية وسعة المعرفة بالموروث الشعري القديم، أو لأن الشعر يساعد على تبليغ الخطاب للمتلقي، وقد مرر بنا في خطبة ابن جبش التازي في التحريض على الجهاد أنه استعان بالشعر للتأثير في نفس المتلقي واستمالته، حيث قال: «... لعل النظم أوقع في النفوس، وأقرب لأن يصغى إليه وتتخط إليه الرؤوس»⁽¹⁾.

كان النقد الأدبي من جملة قضايا الأدب في هذا الفصل، فقد اهتم بعض الأدباء بالنقد الأدبي وموضوعاته، ولكنه جاء ضمن مؤلفاتهم النثرية دون أن تُخصص له مؤلفات تعنى بقضايا نقدية بحتة. واكتشفنا المعايير النقدية عند أحمد زروق والتي تقوم على المعيار الأخلاقي، ورأينا الممارسة النقدية عند التنسي في نصين له، اعتمد فيهما على النقد التأثري مع شيء من التحليل والتعليل.

1- أزهار الزياض، المقرئ، ج1، ص145.

الفصل الثاني



من أعلام الشّعر في المغرب الإسلاميّ في
القرنين التاسع والعاشر الهجريّين

يعالج هذا الفصل قضايا تتعلّق بالشعر وأعلامه في القرنين التاسع والعاشر الهجريين في المغرب الإسلامي. ومن هذه القضايا الاهتمام بشعراء هذه الفترة، فقمنا بترجمة وافية للأعلام الذين كانت لهم مشاركة في الميدان الشعري، وهذا بتتبّع تفاصيل تتعلّق بحياتهم، بداية بمعرفة أسمائهم وأنسابهم وتواريخ الولادة والوفاة، وكشف جوانب من نشأتهم العلمية وتكوينهم العقليّ بإشارة إلى شيوخهم وتلاميذهم وآثارهم ومؤلفاتهم التي خلفوها، وعرض بعض آراء الآخرين فيهم من معاصريهم وأقرانهم أو من جاء بعدهم. وكلّ هذا رغبة في إحاطة أكثر بشخصيّاتهم والاطلاع على أثرهم في مختلف ميادين المعرفة، ونخصّ في هذا الفصل الخطاب الشعريّ.

إضافة إلى التعريف بالشعراء المختارين قمنا بإدراج نماذج من شعرهم في مختلف الفنون الشعريّة من أشعار وموشّحات وأزجال، وكذا في مختلف الأغراض الشعريّة. ولم يفتنا أن نذكر شيئاً من خطابهم النثريّ وفنونه ونصوصاً تتناول عدداً من قضايا النّقد الأدبيّ، فقد جمع عدد من هؤلاء الشعراء بين النثر والشعر والنّقد ومنهم من أبدع في ذلك. إنّ إدراج الآثار الأدبيّة من شعر ونثر في سياق الترجمة لذو أهميّة كبيرة، حيث تدفع تلك النصوص المتلقّي إلى البحث والتّقيب عن تفاصيل أكثر حول حياة الأديب أو الشاعر، وستزيد الباحث والقارئ إحاطة بما يرغب، فهي تعينه على إيضاح الوثائق وفهم النصوص⁽¹⁾.

وقد سعينا للكشف عن أهمّ الملامح البارزة للخطاب الشعريّ وخصائصه عند هؤلاء الشعراء في هذه الفترة، من خلال تلك النّماذج الشعريّة التي اخترناها لهم، وحاولنا مقاربتها مقارنة فنّيّة وأسلوبية وذلك باتّباع نفس الإجراءات التي مرّت بنا في الفصل السّابق، غير أنّنا في الدّراسة الفنّيّة حاولنا الكشف عن تشكّل الصّورة الفنّيّة في الخطاب النثريّ وفي هذا الفصل سنحاول معرفة الصّورة الشعريّة وطريقة تشكّلها. وبدل دراسة السّجع والفواصل في السّمات الإيقاعيّة سندرس الأوزان والقوافي. وهذا سيقودنا إلى معرفة أكثر حول بنية القصيدة الشعريّة في مختلف الأغراض عند الشعراء الذين اخترناهم. وهم يمثّلون مراحل مختلفة من القرنين التاسع والعاشر الهجريين ويمثّلون مدارس متنوّعة، فهناك المدرسة الأندلسيّة إلى جانب المدرسة المغربيّة.

1- ينظر: حركة التّأليف عند العرب، أمجد الطّرابلسي، مطبعة الجامعة السّوريّة، دمشق، ط2، 1376هـ / 1956م، ص158.

والشيء اللافت أنّ من اخترناهم سواء من الذين لاقوا اهتماما من لدن الباحثين قديما أو حديثا أم أولئك الذين لم يلقوا نفس الاهتمام فجّلهم اشتغل بالعلوم الدينية، فكانوا فقهاء شعراء. وممن اخترنا من الشعراء هذه الفترة للترجمة لهم ودراسة شعرهم ثمانية شعراء. وحاولنا أن نعرف أكثر ببعض المغمورين بإثراء سيرهم والبحث عن خطاباتهم النثرية والشعرية وجمعها. وهذا بحسب ما تيسر لنا من المصادر والمراجع، وإن كنّا على علم بأننا تركنا الكثير منهم إما سهوا أو لعدم توصلنا للمظان والوثائق التي تناولت سيرهم وآثارهم. وقد رتبناهم وفق الترتيب الذي راعيناه في الفصل السابق، وهم على التوالي:

- 1- إبراهيم النّازي (حوالي 810 - 866هـ / 1407 - 1462م).
- 2- محمد بن إبراهيم الشّرّان الغرناطي (كان حيّا: 837هـ / 1433م).
- 3- محمد الخير المالقي (831 - بعد 888هـ / 1427 - بعد 1483م).
- 4- ابن الأزرق الغرناطي (831 - 896هـ / 1427 - 1491م).
- 5- ابن الخلف القسنطيني (829 - 899هـ / 1425 - 1494م).
- 6- محمد بن عبد الرحمن الحوضي (ت 910هـ / 1505م).
- 7- سعيد بن عليّ الحامدي (ت 973هـ / 1565م).
- 8- ابن الخطيب الزرويلي (ت 993هـ / 1585م).

ومن الخطابات الشعرية التي تناولها بالدراسة الفنية بشيء من التفصيل، مطلع قصيدة المديح النبوي لإبراهيم النّازي، وقصيدة مدحية لابن الأزرق الغرناطي، وهذا لا يعني أننا أغفلنا دراسة شعر الآخرين بل لنا وقفات فنية. ومن النصوص النقدية التي نحاول تحليلها نصّ نقديّ للشاعر ابن الخلف القسنطيني مقتطف من المقدمة النثرية لديوانه (جنى الجنتين في مدح خير الفرقين) والمعروف ب(ديوان الإسلام)، وسنحاول أن نكشف عن بعض القضايا النقدية التي أثارها ابن الخلف في هذه المقدمة.

1 - إبراهيم التازي (حوالي 810 - 866هـ / 1407 - 1462م):

1 - نسبه ومناقبه:

هو إبراهيم بن محمد بن علي⁽¹⁾ اللّنتي⁽²⁾ ينحدر من أصل بربري خلافا لمن نسبه تكلفا لبيت النبوة⁽³⁾، التّازي⁽⁴⁾ مولدا ونشأة، الوهراني دارا ومستقرا ومدفنا، وهي نسبة اشتهر بها، كنيته أبو إسحاق وأبو سالم⁽⁵⁾. كان مولده سنة عشر وثمانمائة (810هـ / 1427م) أو قريبا منها⁽⁶⁾ بمدينة تازة، وبها تلقى تعليمه الأولي على يد شيخه المقرئ أبي زكرياء يحيى الوازعي الذي توسم فيه الصّلاح والفضل.

ألم إبراهيم التّازي بكثير من العلوم الدّينية واللّسانية، متصوّفا ورعا زاهدا، ذا أخلاق كريمة، مشاركا في ميدان الأدب وفنونه، ما جعله محلّ ثناء العلماء وأصحاب التّراجم والسّير ممّن عاصره أو جاء بعده. فخلعوا عليه الألقاب العلميّة في نصوص الإجازات وكتب التّراجم، فنُعت

1- كلّ من ترجم له أورد له هذا النسب إلا عبد الباسط الظّاهريّ جعل مكان جدّه علي أحمد. ينظر: نيل الأمل في ذيل الدّول، زين الدّين عبد الباسط الظّاهريّ، تحقيق: عمر عبد السّلام تدمري، المكتبة العصريّة للطباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ/2002م، ج6، ص166، رقم التّرجمة: 2571.

2- نسبة إلى قبيلة لنت الزناتية البربرية، وهي من مضافات قبيلة التسول الزناتية من بربر تازة، وقبل بنو لنت فخذ ثالث مع فخذي بني ورتاج وبني فندغيل تتشكّل منها قبيلة التسول، تتكون بنو لنت من ثلاثة بيوت كبرى (الحرشة والخندق وبنو مقورة) سكنت مصادر التّرجمة عن تحديد بيت إبراهيم التّازي. ينظر: زهر الآس في بيوتات أهل فاس، عبد الكبير بن هاشم الكتّاني، تحقيق: عليّ بن المنتصر الكتّاني، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، ط1، 1422هـ / 2002م، ج1، ص243.

3- كلّ من ترجم له لم ينسبه لآل البيت سوى صاحبي كتابي (دليل الحيران) و(طلوع سعد السّعود) ينظر: دليل الحيران وأنيس السّهران في أخبار مدينة وهران، محمد بن يوسف الزّيّاني، تحقيق: البوعبدلي المهدي، عالم المعرفة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط1، 2013م، ص65، طلوع سعد السّعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التّاسع عشر، الآغا بن عودة المزارعي، تحقيق: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، لبنان، ط1، 1990م، ج1، ص76. ينظر: نيل الابتهاج، التّنبيكيّ، ص483، 484.

4- (تازة) بالتاء المربوطة، وتكتب (تازا) بالألف الممدودة والمقصورة (تازي): محرّفة عن الكلمة البربرية تيزي بمعنى الممرّ، مدينة قديمة تصل بين شرق المغرب الأقصى وغربه، بين سلسلة جبال الأطلس والرّيف، صارت في القرن الثّامن الهجريّ مدينة علم بعد تشييد الجامع الأعظم والمدرسة العلميّة أيام المرينيين. ينظر: الحركة الفكرية بالمغرب، محمد حجي، ج2، ص434.

5- ينظر: نيل الابتهاج، التّنبيكيّ، ص59.

6- ينظر: نيل الأمل، عبد الباسط الظّاهريّ، ج6، ص166.

بالفقيه⁽¹⁾ والعالم الصَّالح⁽²⁾. وأشادوا بورعه وزهده وعلمه وصبره وحلمه وكمال عقله، وحسن عشرته، وفي هذا يقول ابن سعد(ت901هـ / 1495م): «كان سيدي إبراهيم - رحمه الله - من أولياء الله الزَّاهدين وعباده المخلصين النَّاصحين، إماما في علوم القرآن، مقدِّما في علم اللسان، حافظا للحديث، مستجديا في حفظ الفقه وأصوله... كان أحد حفاظ مذهب مالك معروفا بجودة النَّظر والفهم النَّاقب. وكان - رحمه الله - جامعا لمحاسن العلماء، ممتعا بآداب الأولياء... لا نظير له في كمال العقل، ومتانة الحلم، والتَّمكن في المعارف، وبلوغ الدَّرجة العليا في محاسن الأخلاق وجميل العشرة والمعرفة بأقدار النَّاس والقيام بحقوقهم... وحسبك من جلالتة وسعاداته أنَّ المثل ضُرب بعقله وحلمه»⁽³⁾.

حبا الله تعالى التَّازيَّ صوتا حسنا خاصَّة عند تلاوة القرآن الكريم، وقراءة الحديث النَّبويِّ، أهله لإمامة النَّاس في صلاة التَّراويح بمكَّة المكرَّمة نزولا عند طلب القائمين على شؤون الحرم المكي⁽⁴⁾.

2 - رحلاته:

للتَّازيَّ عدد من الرِّحلات منها رحلة حجازيَّة قصد أداء فريضة الحجِّ ما بين سنتي(829 - 833هـ / 1426 - 1430م)، نزل بعدة حواضر منها تونس ومصر ومكَّة والمدينة المنورة وتلمسان، ثم انتهى به المقام بمدينة وهران قادما إليها من تلمسان سنة(833هـ / 1430م) لزيارة شيخه محمَّد الهواري(751 - 843هـ / 1350 - 1439م)، عازما على العودة للحجاز، ونزولا عند رغبة الشَّيخ الهواري استقرَّ بوهران. وهي رحلة احتفظ لنا ابن سعد بننف منها، ويبدو أنَّها كانت شفويَّة ولم يدونها صاحبها بل نقلها تلاميذ التَّازيَّ⁽⁵⁾. كان لهذه الرِّحلة أثر بارز في التَّكوين العلميِّ والرُّوحيِّ لإبراهيم التَّازيَّ، إذ مكَّنته من توسيع معارفه وزيادة مداركه العلميَّة

1- ينظر: روضة النَّسرين في التَّعريف بالأشياخ الأربعة المتأخِّرين، محمَّد بن سعد الأنصاري التَّلمساني، تحقيق: يحيى بوعزيز، عالم المعرفة للنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، ط. خاصَّة، 2009م، ص140، 144.

2- ينظر: الضَّوء اللَّامع، السَّخاوي، ج1، ص187.

3- ينظر: روضة النَّسرين، ابن سعد، ص137.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص138.

5- ينظر: المصدر نفسه، ص139، 140.

بلقائه أكابر العلماء الذين أخذ عنهم مختلف العلوم الدينيَّة وحصل على إجازاتهم، وأتاحت له ملاقاته جمعا من المتصوِّفة الذين أخذ عنهم الذِّكر وألبسوه الخرقة وناولوه سند السَّبحة وغيرها⁽¹⁾.

3 - شيوخه:

أكثر شيوخ إبراهيم النَّازي الذين أخذ عنهم لقيهم في رحلته خارج مدينة تازة، ولم تفصح المصادر إلا عن شيخه أبي زكريا يحيى الوازعي الذي أخذ عنه القرآن الكريم بمسقط رأسه⁽²⁾. ومن هؤلاء:

- 1- تقيِّ الدِّين محمَّد بن أحمد الفاسيِّ المكيِّ (775 - 832هـ / 1373 - 1429م) قاضي قضاة المالكيَّة بمكَّة أخذ عنه كثيرا من كتب الحديث والرِّقائق، وكتب له إجازة بذلك وبرواية جميع مروياته، وهذا في الثلاثين من ذي القعدة سنة (830هـ / 1427م) بمكَّة المكرمة⁽³⁾.
- 2- أبو الفتح محمَّد المراغي (775 - 859هـ / 1374 - 1454م) لازمه مدَّة بالمدينة المنورة وقرأ عليه علوما كثيرة، وكتب له أبو الفتح إجازات بخط يده، وهذا سنة (831هـ / 1427م)⁽⁴⁾.
- 3- بتونس أخذ عن أكابر علمائها وأوليائها وكتبوا له إجازات، منها إجازة عامَّة من أبي القاسم عبد العزيز العبدوسيِّ⁽⁵⁾ في رمضان سنة (832هـ / 1429م)⁽⁶⁾.
- 4- أخذ عن ابن مرزوق الحفيد لما حلَّ بتلمسان وكتب له إجازة في ربيع الآخر (832هـ / 1429م)⁽⁷⁾.

-
- 1- ينظر: من نوابغ الشَّباب إبراهيم النَّازي نموذج بارز للتَّبادل الثقافيِّ بين المغرَّبين، محمَّد بن عبد الهادي المنوني، مجلة دعوة الحق، العدد: 3(270)، السَّنة: 29، ص61.
 - 2- ينظر: نيل الابتهاج، التَّنبيكتي، ص59.
 - 3- ينظر: روضة النَّسرين، ابن سعد، ص140، 141.
 - 4- ينظر: المصدر نفسه، ص141.
 - 5- هذا ما رجَّحه التَّنبيكتي بدل عبد الله العبدوسيِّ ابن أخي عبد العزيز العبدوسيِّ نزيل تونس، لأنَّه لم تثبت رحلة لعبد الله العبدوسيِّ إلى تونس. ينظر: نيل الابتهاج، التَّنبيكتي، ص61.
 - 6- ينظر: روضة النَّسرين، ابن سعد، ص143، 144.
 - 7- ينظر: المصدر نفسه، ص143، 144.

5- لازم شيخه محمد بن عمر الهواري بوهراَن وصحبه عشرة أعوام، حصل له النَّفع في النَّهج الصَّوفي، ونال منه ذخائر من الحكم الرِّبانيَّة، وتمكَّن من المقامات العرفانيَّة، بحسب قول الشيخ السَّنوسي⁽¹⁾.

4- تلامذته:

أما تلاميذه فقد ذكر أصحاب التَّراجم مجموعة ممَّن أخذوا عنه، كلَّهم ذوو شهرة وصيت ذائع منهم: الإمام السَّنوسي وأخوه لأُمِّه عليّ بن محمد التَّالوتي (895هـ / 1490م)، الحافظ التَّنسي (ت 899هـ / 1494م)، أحمد زروق (846 - 899هـ / 1442 - 1493م)⁽²⁾، وابن يجَّش التَّازي (ت 920هـ / 1514م)⁽³⁾ وغيرهم. وهناك من يدرج معهم ابن سعد⁽⁴⁾، ولكن ابن سعد يصرِّح بعدم ثبوت اللقاء بالتَّازي بقوله: «وإن فائتي بركة لقائه فلم يفتني صالح دعائه بفضل الله. كان يكتب لوالدي ويسلم عليّ، ويدعو لي...»⁽⁵⁾.

5- إنجازاته الحضاريَّة:

تنوّعت اهتمامات إبراهيم التَّازي وخاصَّة بعد استقراره بوهراَن، فظهرت جهوده في الجانب التَّعليمي والسلوكي والإصلاحي والعمراني والاجتماعي⁽⁶⁾. ففي الجانب التَّعليمي والروحي كان حريصا على تعليم العلوم الشرعيَّة والروحيَّة، والاحتفال بالمواسم الدينيَّة، ونشر الفكر الصَّوفي. فهو من الشَّخصيَّات العلميَّة والصَّوفيَّة التي كان لها دور بارز في تنشيط الحياة الفكريَّة في وهران مدَّة تربو على ثلاثين سنة منذ أن حلَّ بها سنة (833هـ / 1430م). وإلى هذا يشير ابن سعد: «... وأخذ في إظهار ما أقامه الله فيه، وأرشده إليه في دعوة الخلق، وهدايتهم لطريق الملك الحقَّ لا إله إلا هو، فأقام سوق الأذكار بوهراَن، وأبان بها معالم الإسلام والإيمان، ورتَّب

1- ينظر: روضة السَّرين، ابن سعد، ص 145، 146.

2- ينظر: طلوع سعد السَّعود، الآغا بن عودة، ج 1، ص 79، 80.

3- ينظر: دوحة النَّاشر، ابن عسكر، ص 67.

4- ينظر: شجرة النُّور الزكيَّة، مخلوف، ج 1، ص 380، رقم: 996.

5- روضة السَّرين، ابن سعد، ص 183.

6- وهي إنجازات لا تعكس وصف أبي القاسم سعد الله للتَّازي؛ بأنَّه من جملة المتصوِّفة الذين لا يلتفتون إلى مجتمعهم وأمَّتهم، بل شعارهم طلب النِّجاة لأنفسهم. ينظر: تاريخ الجزائر الثَّقافي، أبو القاسم سعد الله، ج 1، ص 100.

المواسم الشرعية، ونبه على الآداب الدينية والدنيوية»⁽¹⁾. كما كانت له عناية بالجانب العمراني لمدينة وهران فأضحت ذات طابع حضاري، فشيّد زاوية جميلة البنيان كثيرة الأبواب، زوّدها بخزانة كتب كبيرة تحوي مختلف الفنون العلمية⁽²⁾، وبنى معاهد علمية، ومرافق ذات نفع جماعي، وعمل على توصيل الماء إلى وهران بعد ما كان يعاني أهلها قلة الماء ويُعده: «...وأعمر مدينة واهران [وهران] المغرب بسكناه بها، وأنشأ بها زاوية ومدرستين، وحمّاماً ومكتباً ومدفناً له، ومساكن أنيقة، وأجرى إليها الماء...»⁽³⁾.

لم يكن إبراهيم التازي بمعزل عن الناس بل كان إنساناً اجتماعياً، يهتمّ لأمر المسلمين ساعياً في قضاء حوائجهم ومادداً يد العون لهم، فكانت زاويته قبلة مختلف أطراف المجتمع والمسافرين، ممّا أكسبه محبة في قلوب الخاصة والعامة⁽⁴⁾.

6 - وفاته:

كانت وفاة إبراهيم التازي يوم الأحد التاسع شعبان سنة (866هـ / 1462م) بوهران ودفن بزاويته، وهذا باتفاق كلّ من ترجم له⁽⁵⁾، سوى الرحالة عبد الباسط بن خليل الظاهري - الذي زار وهران في ربيع الآخر سنة (869هـ / 1464م) وتردّد عليها أكثر من مرّة⁽⁶⁾ - أورد في كتابه نيل الأمل أنّ وفاة إبراهيم التازي كانت في شوال سنة (867هـ / 1463م) دون الجزم بذلك⁽⁷⁾. ولما استولى الإسبان على وهران سنة (915هـ / 1509م) نُقل جثمانه منها إلى قلعة بنى راشد (قلعة هواره) بولاية غليزان حالياً⁽⁸⁾.

1- ينظر: روضة السنين، ابن سعد، ص 146.

2- مقدّمة تحقيق: نيل الأمل، عبد الباسط الظاهري، ج 1، ص 38.

3- المصدر نفسه، ج 6، ص 166.

4- ينظر: روضة السنين، ابن سعد، ص 154، 155.

5- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص 62.

6- ينظر: رحلة عبد الباسط بن خليل، نشرها روبر بارنشفيك (النص العربي)، ص 48، 56، 59.

- Deux récits de voyage inédits en Afrique du nord au xv siècle, Abd Albasit B. Halil et adorne, Robert Brunschving, Paris, V-I la rose éditeur, 1936.

7- ينظر: نيل الأمل، عبد الباسط الظاهري، ج 6، ص 166.

8- ينظر: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، تحقيق: الشيخ المهدي البوعبدي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط 1، 2013م، ص 198.

7 - مؤلفاته:

يعدّ إبراهيم التّازي من الشخصيات التي كان لها أثر بارز في تنشيط الحياة العلمية والأدبية والصّوفيّة في المغرب الإسلامي في القرن التاسع الهجري، من ذلك ما تركه من آثار علميّة- أكثرها في حكم المفقود⁽¹⁾ - منها :

1- تقييد في العلوم الدّينية (فقه وأصول وحديث)، وله دفاتر بخطّ يده جمع فيها كلام شيخه محمّد الهواري، اطلّع على أكثرها ابن سعد⁽²⁾.

2- فهرسة شيوخه⁽³⁾.

8 - خطابه الأدبي:

شارك إبراهيم التّازي في ميداني الشعر والنثر، فقد حفظت المصادر أكثر التّراث الأدبي لإبراهيم التّازي⁽⁴⁾ الذي اشتهر بنظم الأشعار أكثر من الخطاب النثري، حيث خلف أشعارا عكست ثقافته الدّينية، وقصائد فيها حكم ومعان بدیعة⁽⁵⁾؛ منها ذات الصبغة الزهديّة التي يغلب عليها الطّابع التّعليمي والتّربوي، وهي لا ترقى إلى المستوى الفنّي، بل هي أقرب إلى النّظم منها إلى الشعر، وأخرى ذات صبغة صوفيّة نقل فيها تجربته الدّاتية. ولا نجد أغراضا أخرى تناولها شعره كالمدح والفخر والرّثاء، فشعره من قبيل شعر الفقهاء.

التّازي رجل صاحب رسالة إصلاحية تربويّة وأخلاقيّة واجتماعيّة، استعان بالنّظم لتبليغ رسائله إلى مريديه الذين تناقلوا هذه القصائد والتي صارت جزءا من الوظيفة التّازيّة، تقرأ بعد الفروغ من تلاوة الأذكار. لقيت قصائد التّازي قبولا عند الخاصّة والعامة، فمنهم من شرح بعض

1- ينظر: من نوابغ الشّباب إبراهيم التّازي نموذج بارز للتّبادل الثقافي بين المغرّبين، محمّد المنّوني، مجلة دعوة الحق، العدد: 3، السّنة: 29، ص 63.

2- ينظر: روضة السّرين، ابن سعد، ص 146.

3- ينظر: ثبت البلوي، ص 428.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص 427 - 359.

5- ينظر: كفاية المحتاج، التّبكتي، ج 1، ص 168.

هذه القصائد، كشرح ابن مريم على قصيدة (النصح التام للخاص والعام) والقصيدة المرادية⁽¹⁾، ومنهم من أظهر تفاعلا عند إنشادها⁽²⁾.

من شعر إبراهيم التازي خمس عشرة قصيدة نقلها عنه تلميذه الحافظ النّسيّ وعنه أخذها أحمد بن داود البلوي وأثبتها في برنامجه⁽³⁾. من هذه القصائد ما تحمل اسما مستمداً من بعض البنى الإفرادية التي تفتتح بها القصائد كالمراذية والجمالية والحسام والزّيارة⁽⁴⁾.

9- نماذج من خطابه الشعري:

1- الزّهد:

من الأغراض الشعرية التي تناول التّازي في شعره الزّهد، وحقيقة الزّهد في الدّنيا عند إبراهيم التّازي هي دوام احتقار الدّنيا، وترك الرّكون إلى لذاتها، وهو مقام الغنيّ الشّاكر، أمّا تركها ظاهراً وحبّها باطناً فليس هو المفهوم الحقيقيّ للزّهد في الدّنيا، فكان لا يرى بأساً في قبول الهدايا وتناول ما طاب من أنواع الطّعام، وفاخر الثّياب، ممّا جعله محلّ انتقاد من بعض المنكرين لحاله⁽⁵⁾.

تناول شعر الزّهد عند إبراهيم التّازي موضوعات متنوّعة توزّعت بين النّصيحة والوعظ والوصايا والحكم. والتّجربة الشعرية الزّهدية عند إبراهيم التّازي لها دوافعها منها: دعوة نفسه ومريديه ومخالفه إلى إصلاح النّفوس، وتصحيح بعض المفاهيم الشرعية كحقيقة الزّهد والنّظرة إلى الدّنيا، ولا سيما قصيدة (النّصح التام للخاص والعام)؛ وهي القصيدة الرابعة عشرة التي تتلى بعد النّص الوظيفيّ التّازي، حيث يقول⁽⁶⁾ - البسيط -:

إِنْ شِئْتَ عَيْشًا هَنِيئًا وَاتَّبَاعَ هُدًى فاسْمَعْ مَقَالِي وَكُنْ بِاللّهِ مُعْتَصِدًا
شُرُورَ نَفْسِكَ بَاعِدْهَا تُصِيبَ رَشَدًا فَمَنْ يُطِيعَ رَبَّهُ وَالْمُصْطَفَى رَشَدًا

1- ينظر: البستان، ابن مريم، ص148، 149.

2- من ذلك انفعال سعيد بن أحمد المقرئ غاية الانفعال واهتزازه حين أنشد ابن أخيه المقرئ -صاحب نفع الطّيب- تخميساً يحوي القصيدة الجمالية بين يديه. ينظر: أزهار الرّياض، المقرئ، ج3، ص309.

3- ينظر: ثبت البلوي، ص 359، 360.

4- ينظر: البستان، ابن مريم، ص148، 149، 150.

5- ينظر: روضة النّسرين، ابن سعد، ص180 - 182.

6- ثبت البلوي، ص353.

دُنْيَاكَ دَارُ غُرُورٍ حُبُّهَا سَفَهٌ * رَأْسُ الْخَطَايَا فَمَنْ يُغْرَمُ بِهَا بَعْدًا
وَالْعَيْظُ مِسْعَرٌ شَرٌّ مَا اسْتَطَعْتَ فَلَا * تَغْضَبُ بِذَاكَ حَكِيمُ الرُّسُلِ قَدْ عَهْدَا

في هذه الأبيات يوصي فيها مريد العيش السعيد وطالب الهداية بالتمسك بالله، ثم بالعمل على إصلاح النفس بتخليتها عن المذموم من الفعال (كالتعلق بالدنيا، الحسد، الكبر، البغي، والغيبة والغضب...). ثم قال⁽¹⁾:

أَخِي كُنْ لِكِتَابِ اللَّهِ مُتَّبِعًا * وَسُنَّةِ الْمُصْطَفَى وَالْقَادَةِ الرَّشْدَا
وَبِالْجَمَاعَةِ طَوْلَ الْعُمْرِ مُتَّصِلَا * وَأَفْصِلْ أَخَا الزَّيْغِ وَالزَّمْ وَصِلْ مَنْ رَشَدَا
وَلِلْإِمَامِ أَطْعِمْ وَاسْمَعْ رَشَدَتْ وَلَا * تَخْنُهُ وَأَنْصَحْ لَهُ إِنْ غَابَ أَوْ شَهِدَا
وَأَنْصَحْ لِكُلِّ حَنِيفٍ مَا حَبِيتَ كَذَا * أَوْصَى الَّذِي لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ هَدَى

هنا يدعو إلى التحلي بكمكارم الأخلاق؛ كالتمسك بكتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، وصحبة الأخيار، طاعة ولي الأمر، وكذلك لزوم جماعة المسلمين والنصح له في الغيب والشهادة، فهو مطلب ربّاني.

القصائد الزهدية لدى التازي تشترك في المضامين والمقاصد؛ قوامها الدعوة إلى التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، والاستعداد للموت، وترك حب الدنيا، مع الميل على المزاوغة بين الأسلوب الخبري والإنشائي خاصة الأمر والنهي وسيلة للإقناع والتأثير، وهذا بعبارات بسيطة، وألفاظ سهلة، وخطاب مباشر.

2- المديح النبوي:

أولى إبراهيم التازي عناية خاصة بالمولد النبوي، حيث كان يحتفل به في زاويته، ويستقبل الوافدين إليه في هذه المناسبة⁽²⁾، وله في هذا مولديات وأناشيد لا تحصى⁽³⁾ ولكن أكثرها لم تنزل غير معلومة. فمن قصائده الزهدية القصيدة النونية، وهي العاشرة من الوظيفة التازية موضوعها

1- ثبت البلوي، ص 354.

2- ينظر: روضة النّسرين، ابن سعد، ص 163، 164.

3- ينظر: البستان، ابن مريم، ص 152.

مدح النبي، فهو يرى أن ذكر الله (ﷻ) ومدح النبي (ﷺ) من الأعمال التي يجد فيها الراحة والأمان، وهي الواقية من النار ومن كيد الأُنس والجَان، إذ يقول (1) - البسيط - :

رُوحِي وَرَاحَةُ رُوحِي ثُمَّ رِيحَانِي ❁ وَجُنَّتِي مِنْ شُرُورِ الْإِنْسِ وَالْجَانِ
وَمَأْمَنِي وَأَمَانِي مِنْ سَعِيرِ لَظَى ❁ ذِكْرُ الْمُهَيِّمِينَ فِي سِرِّي وَإِعْلَانِي
وَمَدْحُ أَحْمَدُ أَحْمَدُ الْعَالَمِينَ حِمَى ❁ وَذُو الْمَقَامِ الَّذِي مَا قَامَهُ ثَانِ

ثم يثنى بتعداد بعض معجزات النبي (ﷺ) كتكليمه للحيوان، وحنين الجذع وانشقاق القمر وغيرها، والإرهاصات التي صاحبت مولده، وجانباً من شمائله وسيرته، ونسجل تكراراً لهذه المعاني في قصائده المولدية (القصيدة الحادية عشرة والثانية عشرة والثالث عشرة) (2)، وهي من المضامين التي ارتبطت بالمديح النبوي (3)، ثم يختم بالتوسل بالنبي (ﷺ) ليكون ملاذه ممّا يخاف منه ويوجل، فهو كما وصفه (4) - البسيط - :

هُوَ الْمَلَأُ هُوَ الْمُنْجَى لِمُعْتَصِمٍ ❁ هُوَ الْمَعَاذُ وَمَلْجَأُ الْخَائِفِ الْجَانِي

ما يسجل حول بنية القصيدة المديح النبوي عند التآزي، لم تكن على النحو الذي ألفناه لدى الشعراء الذين نظموا في هذا الشأن، خاصة تلك التي كانت تلقى في الاحتفالات الرسمية، حيث نجدهم يتخلّصون إلى مدح السلاطين إثر مدح النبي (ﷺ). كما أنه لم يلتزم بالمقدمة الغزلية أو الطللية في افتتاح قصائده خلافاً لما جرى عليه العمل بالمشرق (5)، بل استعاض عنها بخطاب افتتاحي قصير موضوعه ذكر الله (ﷻ) كما في القصيدة العاشرة (6)، وتارة لا يلوي على مقدمة خاصة في المولديات فيلج مباشرة إلى المدح النبوي كما في القصيدة التاسعة (7)، وهذا لا يعني أنه

1- ثبت البلوي، ص 341.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص 343 - 353.

3- ينظر: المدائح النبوية حتى نهاية العصر الملوكي، محمود سالم محمد، دار الفكر، دمشق، ط1، 1417هـ، ص 533، 534.

4- ثبت البلوي، ص 343.

5- ينظر: قصيدة المديح في العصر المريني، عبد الجواد السقاط، مجلة دعوة الحق، العدد: 5 (277)، السنة: 30 (جمادى الأولى 1410هـ / دجنبر 1989م)، ص 85 - 89.

6- ثبت البلوي، ص 341.

7- المصدر نفسه، ص 338.

ضرب صفحا عن التقديم الغزلي، بل سجلنا حضور المقدمة الغرامية في الحب الإلهي من قصيدته
الرابعة التي مطلعها⁽¹⁾ - الطويل -:

أَبْتُ مُهْجَتِي إِلَّا الْوُلُوعَ بِمَنْ تَهْوَى ❀ فَدَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَالْنُفُوسُ وَمَا تَقْوَى

3 - الحنين:

ومن الأغراض التي تناولها الشعر الديني الحنين إلى البقاع المقدسة. فما إن وصل إبراهيم
التازي إلى الديار المصرية راجعا من الحجاز آله فراق الحضرة النبوية وأحرقه البين عنها،
كتب قصيدة لامية تعرف بالجمالية نسبة إلى كلمة (الجمال) من مطلع القصيدة - وهي من أولى
قصائده - إلى من فارقه من أحبابه بالحرم الشريف، يصف فيها حالته النفسية والجسمية والعقلية
بعد البعد عن البلاد المباركة مظهرا أسفا كبيرا على التناهي بعد التداني، ومفصحا عن مرارة
الهجران بعد الإيناس، وكدر العيش بعد صفوه، حيث يقول⁽²⁾ - السريع -:

مَا حَالُ مَنْ فَارَقَ ذَاكَ الْجَمَالَ ❀ وَذَاقَ طَعْمَ الْهَجْرِ بَعْدَ الْوَصَالِ
وَالْعَقْلُ مِنْهُ ذَاهِبٌ وَالْحَشَا ❀ مُلْتَهَبٌ وَالْجِسْمُ يَحْكِي الْخِيَالِ

ثم يلقي باللائمة على بُعد المسافة التي حالت بينه وبين الحجاز، فهو بمثابة المقتول وهو
حي، والمقدد وهو صحيح، إذ يقول⁽³⁾:

يَا قَبِّحَ اللَّهُ الذَّوَى إِنَّهُ ❀ قَتَلَ بِلَا سَيْفٍ وَدَاءٍ عُضَالَ

ثم يدعوا أحبابه إلى أن يجأروا إلى الله ليجمع شملهم من جديد في قوله⁽⁴⁾:

يَا جِيرَةَ الْحَيِّ وَأَهْلَ الْحِمَى ❀ أَنْتُمْ مُنَى قَلْبِي عَلَى كُلِّ حَالٍ
وَلَيْسَ لِي صَدْرٌ وَلَا سَدْوَةٌ ❀ عَنْكُمْ وَلَوْ شَطَّ الْمَدَى وَاسْتَطَالَ
فَارَعُوا ذِمَامِي واجْهَدُوا فِي الدُّعَا ❀ لِلْمَذْنِبِ الْمُضْنِي عَسَى ذُو الْجَلَالِ
أَنْ يَجْمَعَ الشَّمْلَ بِكُمْ عَاجِلًا ❀ فِي ذَاكُمُ الْمَغْنَى الْعَدِيمِ الْمِثَالِ

1- ثبت البلوي، ص 343.

2- المصدر نفسه، ص 329.

3- المصدر نفسه، ن. ص.

4- المصدر نفسه، ن. ص.

إذا كانت القصيدة الجمالية أنشدها بعد زمن يسير من مفارقتها الحجاز وأودع فيها كل هذه الأحاسيس، فإنه بعد ما تقدّم به العمر يزداد شوقه ويهرّ الحنين إلى تلك المعاهد، فينشد قصيدة - والصبر ينفذ والعمر يمرّ ويُعد المسافة يؤرّقه - فيقول⁽¹⁾ - الطويل - :

أرى العُمَرَ يَفْنَى وَالزَّمَانُ طَوِيلُ ❁ وَلَيْسَ إِلَى قُرْبِ الْحَبِيبِ سَبِيلُ
حَبَاهُ إِلَهُ الْخَلْقِ أَحْسَنَ سِيرَةٍ ❁ فَمَا الصَّبْرُ عَنْ ذَاكَ الْجَمَالِ جَمِيلُ
مَتَى يَشْتَفِي قَلْبِي بِلَثْمِ تَرَابِهِ ❁ وَيَسْمَحُ دَهْرٌ بِالْوَصَالِ بِخَيْلُ

4 - الشعر الصوفي:

خاض إبراهيم التازي ذو النزعة الصوفية غمار الشعر الصوفي في قصائده، عبّر فيها عن تجربته الذاتية، وتناول موضوعات طرقها أقطاب الشعر الصوفي من مثال ابن الفارض (576-632هـ/1181-1235م) وابن عربي الحاتمي (618-656هـ/1221-1258م)، كالحبّ الإلهي والغزل الصوفي وغيرها. وقصائد التازي تزخر بكثير من المصطلحات الصوفية (كالجمال، الحب، الصبابة، الهجر، الوصال، الأنس، التيم)، فتوظيفه للرمز الصوفي يضيء بعدا جماليا (الجمال الفني) على خطابه الشعري، وبعدا ذاتيا وجدانيا. فالرمز مطية للإفصاح عن التجربة الروحية الذاتية ونقلها للمتلقّي الواعي الذي يدرك الشعر الصوفي بوجدانه، وخاصة ذاك الذي عاش التجربة الشعورية الصوفية⁽²⁾. ولذا نجد ابن سعد يضع معايير للمتلقّي بها يتسنى له إدراك حقيقة ما يرمي إليه الرمز الصوفي عند إبراهيم التازي، وهي أربعة: المكنة المعرفية والمدارك العرفانية والإلمام بعلوم اللغة والتدرّج في رتب الولاية مع التجربة الوجدانية، وهذا في قوله: «وكلام سيدي إبراهيم في منظوماته على الطريقة التصوفية والإشارات العرفانية والأمداح النبوية لا يقوم بمعناه إلا من تمكنت معرفته، واتسعت في علوم اللسان مادته، وعلت في درجة الولاية رتبته، وذاق من طعم الحب والشوق...»⁽³⁾.

1- ينظر: الثغر الجمانّي، الراشدي، ص195.

2- ينظر: الشعر الصوفي في ضوء الدراسات النقدية الحديثة (ابن الفارض أنموذجا)، بولعشار مرسلّي، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، كلية الآداب والفنون، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة أحمد بن بلة 1، وهران، 2014-2015م، ص140-142.

3- ينظر: روضة النّسرين، ابن سعد، ص143.

إنَّ القارئ للشعر الصوفي عند التَّأزِّي يسجِّل ارتقاءً فنيًّا لم يلمسه في شعره الزَّهديّ، وربّما ذلك عائد إلى محاولة محاكاته لمن سبق من شعراء الشعر الصوفيّ كابن الفارض⁽¹⁾. ومن شعره الذي تتجلّى فيه المعاني الصوفيّة مقدّمة القصيدة الرّابعة في المديح النبويّ، والتي تغنّى فيها بالحبّ الإلهيّ وفي غيرها من شعره أيضًا. حيث يدعو عاذليه إلى الكفّ عن لومه في ما يهواه ويعشقه، فمعاني العزّة في التّذلّ إليه، وحلاوة النّعيم في ألم العذاب الذي يجده ذو الصّباية، وإن بدت للنّاس في الظّاهر معاناة فهي في الحقيقة راحة. كما أنّ الذي يسعى لتكدير صفو هذا النّعيم (السّلوّ)، ويلجّ ويصرّ على إنكار هذه الحال لهو من المفسدين أو المعتدين. كما أنّه لا بدّ للعاشق من ثمن يجود به وهو التّضحّيّة بحظوظ النّفس في سبيل إرضاء المحبوب، وإلاّ كانت المحبّة ادعاء لا دليل عليه، حيث يقول⁽²⁾ - الطّويل - :

أَبْتُ مُهْجَتِي إِلَّا الْوُلُوعَ بِمَنْ تَهْوَى	✽	فَدَعُ عَنْكَ لَوْمِي فَالْنُفُوسَ وَمَا تَقْوَى
هَوَانُ الْهَوَى عِزٌّ وَعَذَابُ أَجَاذِهِ	✽	وَعَلَقْمُهُ أَحْلَى مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى
وَتَعْذِيبُهُ لِلصَّبِّ عَيْنُ نَعِيمِهِ	✽	وَسَعْيُ اللَّوَاخِي فِي السَّلْوِ مِنَ الْعَدْوَى
وَمَنْ لَمْ يَجِدْ بِالنَّفْسِ فِي حُبِّ حَبِّهِ	✽	فَلَوْعَتُهُ إِفْكٌ وَصَدْبَوْتُهُ دَعْوَى

1 - البناء اللّغويّ:

القصيدة من القصائد الصوفيّة والمعاني التي تحملها معانٍ أولية غير مرادة وأخرى ثانوية مقصودة، فالرجوع للمعاجم الصوفيّة أدعى إلى إدراك هذه البنى الإفراديّة الواردة ضمن نسيج هذا النّص الشعريّ، والتي تنتمي إلى حقل دلاليّ هو الحبّ الإلهيّ والنبويّ منها (المهجة، الصّباية، اللّواحي، الصّبوة...)، وهي من المصطلحات التي جنح المتصوّفة لاستعمالها في خطاباتهم الأدبيّة⁽³⁾.

2 - المعجم الشعريّ:

1- ينظر: الخطاب الشعريّ عند فقهاء المغرب العربيّ، محمّد مرتاض، ج1، ص74.

2- ثبت البلويّ، ص333.

3- ينظر: موسوعة مصطلحات التّصوّف الإسلاميّ، رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ص523، 805، 950.

تميّز المعجم الشعري لدى التّازيّ بخصائص معجميّة تتمثّل في ابتعادها عن غريب اللفظ والميل للألفاظ السهلة البسيطة، فالمتلقّي لا يحتاج إلى كثير تأمل لأدراك معانيها الأوليّة، ولكن لا بدّ له من الاستعانة بالمعجم الصّوفيّ لإدراك المعاني الثّانويّة التي تناولها شعر التّازيّ، والذي حوى معجماً غزليّاً مثل (الولوع، الهوى، الصّب، الحب)، التمس التّازيّ هذه البنى الإفراديّة والتركيبيّة للتعبير عن حبه الإلهي والنبويّ، وهذا ليس بغريب عند الشعراء المتصوّفة.

3- الصّورة الشعريّة:

الصّورة الشعريّة مكوّن أساس في بنية القصيدة، وهي نتاج تفاعل بين الفكرة والعالم الخارجيّ ممزوجة بالأحاسيس والمشاعر مع مقدرة الشّاعر على التعبير المستند للغة ومجازاتها وتشبيهاتها، ممّا يخلق لدى المتلقّي تأثيراً⁽¹⁾. فالصّورة الشعريّة عند التّازيّ نجدها تتكئ في تشكيلها على مكوّن أساس وهو الصّورة البيانيّة التي حضرت داخل نسيج النّص ولكن دون الإغراق فيها. من ذلك توظيف التشبيه البليغ بشكل لافت حيث ارتكز عليه التّازيّ لإبراز الصّورة الجماليّة للثمرة الحقيقيّة للحبّ الإلهي، ومحاولة إيصالها للمتلقّي، حيث ينقل إليه الحالة الشعوريّة التي يحياها والمجاهدات التي يعيشها، وذلك بربطها بالواقع الحسيّ ليسهل على المتلقّي إدراكها، وهنا استعان بالأشياء التي تستهوي حاسة الذّوق التي تميّز بين حلاوة المطعومات والمشروبات ومرارتها، في قوله⁽²⁾:

هَوَانُ الْهَوَى عِزٌّ وَعَذَبٌ أُجَاغُهُ ❁ وَعَلَقْمُهُ أَحْلَى مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى

شبهه معاناة المحبّ بالعزّ، وشدة ملوحته بالماء العذب المستساغ، ومرارته بحلاوة العسل، مع حذف أداة التشبيه وكذا وجه الشّبه وأبقى على المشبه والمشبه به.

ومن الصّور البيانيّة الكناية في قوله (ذي الطّول والغنى)، وهي كناية عن الصّفة، فقد استعاض عن التّصريح باسم محبوبه بذكر بعض أوصافه للوصول إلى الموصوف⁽³⁾.

وقبل أن ينهي مقدمته الغراميّة يوضح أنّ الإنسان الحرّ هو الذي تخلّص من قيود الاستعباد لهوى نفسه وزخرف الدّنيا، فهي حجاب بين المحبّ ومحبوبه، والمرء مخير بين أن يتحرّر أو يبقى

1- ينظر: وظيفة الصّورة الشعريّة ودورها في العمل الأدبيّ، عليّ قاسم محمّد الخرايشة، مجلة الآداب، كلّية الآداب والعلوم والتّربية، جامعة عجلون، الأردن، العدد: 110، السّنة: 1436هـ / 2014م، ص 97، 98.

2- ثبت البلويّ، ص 333.

3- ينظر: الخطاب الشعريّ عند فقهاء المغرب العربيّ، محمّد مرتاض، ج 1، ص 75، 76.

في أغلاله وقيوده. ثم يختم ببيان بعض أوصاف محبوبه (ذي الطول والغنى) وهو الموصوف بالفضل والغنى، قاصرا محبته عليه دون سواه، وما تقتضيه هذه المحبة من حب الأنبياء والملائكة والصالحين تبعا. حيث قال⁽¹⁾ - الطويل - :

وَلَيْسَ بِحُرٍّ مَنْ يُعَبِّدُهُ الْهَوَىٰ ❁ لِلْهُوَ الدُّنَا فَاخْتَرِ لِنَفْسِكَ مَا تَهْوَى

فَمَا الْحُبُّ إِلَّا حُبُّ ذِي الطَّوْلِ وَالْغِنَى ❁ وَأَمْلَاكِهِ وَالْأَنْبِيَا وَأُولِي التَّقْوَى

يستعين النّازي لتجلية كل هذه المعاني وتأكيدها بتتابع البنى التركيبية الاسمية (المسند الخبر/ المسند إليه - المبتدأ) الدالة على الثبات المستغرق لجميع الأزمنة (ماضيها وحاضرها ومستقبلها) والمتواترة لخدمة المقصد الأساس وهو الحب الإلهي وثمراته. وجاءت هذه الوحدات متعاطفة مفصولة بالواو (هوان الهوى عزّ وعذب أجابه...)، لأنها تخدم معنى واحدا وهو ثمرة الهوى، والهوى في المصطلح الصوفي ذو دلالة إيجابية، ويعني استفراغ الإرادة في التعلق بالمحبوب، أو سقوط الحب في القلب، فإذا خلص القلب وصفا ولم يشاركه أمر آخر سمي حبا، فإذا ثبت سمي ودّا، فإذا تمكّن من القلب سمي عشقا، والهوى ما تستلذه الأنفس وما لا تستلذه فليس بهواها⁽²⁾.

ونسجل بالمقابل حضورا قليلا للبنى التركيبية الفعلية (أبت مهجتي/ فدع عنك لومي) التي ظهرت في المطلع القصيدة ثم غابت ولم تظهر في كامل القصيدة. مع غلبة الأسلوب الخبري بمقابل الأسلوب الإنشائي الوحيد وهو الأمر (دع/ اختر) الدال على تحقير المخاطب وإهانته حيث أقامه مقام عدم الاعتداد برأيه وقلة المبالاة به، أي إذا كنت أيها اللائم لغيرك لا تقوى على الوصول لمقام المحبة فخل أصحاب النفوس التي تقوى على ذلك.

4 - السمات الإيقاعية:

1 - الإيقاع الخارجي:

نظم النّازي قصيدته من البحر الطويل، وهي من القصائد الأربع التي نظمها على البحر، من وظيفته (القصيدة: 1، 2، 4، 15)، وهو البحر الذي أكثر من النظم عليه هو والكامل (القصيدة: 6، 7، 9، 11).

1- ثبت البلوي، ص333.

2- ينظر: موسوعة النّصوف الإسلامي، رفيق العجم، ص1013.

أَبَتْ مُهَجَّتِي إِلَّا الْوُلُوعَ بِمَنْ تَهَوَى * فَدَعَ عَنْكَ لَوْمِي فَأَلْفُوسَ وَمَا تَقَوَى
أَبْتَمُهُ/جَتِي/إِلَّالَ/وُلُوعَ/بِمَنْ تَهَوَى * فَدَعَ عَنْ/كَ لَوْمِي/فَنَ/أَلْفُوسَ/وَمَا تَقَوَى
0/0/0// 10// 0/0/0// 0/0// * 0/0/0// 10// 0/0/0// 0/0//
فعولن مفاعيلن فعول(مقبوضة) مفاعيلن * فعولن مفاعيلن فعول(مقبوضة) مفاعيلن

وأما القافية باعتبارها جزءاً مهماً مرتبطاً بالوزن والإيقاع، ولها ارتباط بالحالة النفسية للمبدع والمتلقي، فالمبدع يسعى إلى تحسينها وكذا تخليصها من كل ما يقبح بها، مع محاولة جعلها أكثر تأثيراً في المتلقي، ومن جهة أخرى يظهر تفاعل المتلقي مع النص حينما يسمع أو يقرأ الصياغة الشعرية بما فيها تكوين القافية، مع ما تحدثه من موسيقى تسترعي شعور المتلقي على رأي حازم القرطاجي: «فأما ما يجب في القافية من جهة عناية النفس لما يقع فيها واشتهار ما تتضمنه مما يحسن أو يقبح فإنه يحب ألا يوقع فيها إلا ما يكون له موقع من النفس بحسب الغرض...»⁽¹⁾؛ فإن القافية في هذه القصيدة جاءت مطلقة موصولة بحرف مدّ وهو الألف المقصورة (تَقَوَى)، وحرف المدّ ذو قيمة موسيقية، رويها الواو وهو من الحروف التي نادراً ما تجيء في الشعر العربي⁽²⁾.

2- الإيقاع الداخلي:

أما ما يخص الجانب الموسيقي الداخلي فنسجل تقابلات بين البنى الإفرادية والتي شغلت مساحة من النص الشعري، كالطباق بين (هوان ≠ عزّ / عذب ≠ أجاهه / علقمه ≠ أحلى / تعذيبه ≠ نعيمه، حرّ / يعبده)، وتوظيفه في النصّ لبيان الفرق بين من ذاق طعم المحبة ومدّعياها، وعرض التجربة الشعورية الذاتية على المتلقي، ومحاولة إشراكه فيها. أما الترادف فلم نلف إلا كلمتي (الغنى = الطول) ألجأه الوزن للبحث عن مرادف للكلمة الطول.

وهناك الجناس الناقص في (التقوى / تقوى)، (الهوى / تهوى / هوان)، (العدوى / دعوى)، ومن حسنات الجناس أنه يساعد المبدع على تكوين القافية بالكلمات (تقوى / السلوى / العدوى، تهوى / الدعوى / تقوى) أراحت المبدع من عناء مراعاة حركة حرف الروي التي حافظت عليها الألف

1- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجي، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، فيفري 2008م، ص248.

2- ينظر: موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1952م، ص246.

المقصورة - الحركة لا تظهر للتعذر - من التحوّل رغم تغيّر الموقع الإعرابي للكلمة الأخيرة. والجناس يعين أيضا على التصريح الوارد في مطلع القصيدة والذي هو قافية ثانية.

5- التكرار:

والتكرار على مستوى البنية الإفرادية والحرفية باعتباره سمة أسلوبية أضفى بعدا إيقاعيا ونغما موسيقيا في خطاب التآزي، فموسيقى الشعر ليست ناجمة عن الأوزان فحسب، فقد تخلقها البنية الإفرادية والتركيبية المشكّلة للنص، حيث يعتمد إليها المبدع جاعلا منها لمسة في خطابه الشعري تسترعي ذهن المتلقّي. ومن بين هذا البنى (الهوى/ تهوى)، (التقوى/ تقوى)، (الهوى/ تهوى/ هوان)، (العدوى/ دعوى). مع تسجيل تكرار بعض المقاطع الصوتية في آخر بنية الكلمة وهي (وى) الذي تكرر ستة عشر (16) مرّة، وأكثر ما توجد في القافية.

وأما التكرار الحرفي فنلّف تكرار بعض الحروف بنسب متفاوتة، والذي يلفت انتباه المتلقّي حضور حرف الواو بكثرة وشغله حيزا من نسيج النص، إذ تكرر أربعة وثلاثين (34) مرّة، إما حاضرا في بنية الكلمة متحرّكا (صائتا)، وهذا في ثمانية عشر موضعا (18) منها أربعة مرّات وُظّف حرف مدّ، وإما مستقلا حيث جاء حرف عطف اثنتي عشرة (12) مرّة. ثم يأتي في الدرجة الثانية حرف الهاء المتكرر ستة عشرة (16) مرّة، يليها حرف الباء في خمسة عشر (15) مرّة، العين والميم أربعة عشر (14) مرّة. ونجد أنّ أكثر هذه حروف استعمالا هي الحروف الشفوية (الباء والواو والميم) مع حرف العين الحلقّي.

6- الانزياح:

الانزياح ظاهرة من ظواهر التعبير اللغوي، يقوم على اختيار الوحدات اللغوية وتوظيفها في سياق أدبي بحيث تخرق قواعد اللغة والمألوف منها وذلك تحقيقا للبعد الشعري والجمالي⁽¹⁾. وليس الأمر قاصرا على البعد الجمالي فحسب بل يساعد على شرح بعض الظواهر في النص الأدبي وتفسيرها، وذلك كتجاوز التراتبية على المستوى التركيبي مراعاة للجانب الموسيقي، وهو الذي يعرف بالضرورة الشعرية⁽²⁾.

- 1- ينظر: الانزياح بين أحادية المفهوم وتعدّد المصطلح، نوار بوحلاسة، مجلة مقاليد، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد: 2، السنة: ديسمبر 2012م، ص 18.
- 2- ينظر: علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1419هـ / 1998م، ص 212.

نسجل في هذه المقطوعة انزياحا على المستوى الأفقي في البنية الداخلية للنص، ففي قوله (عذب أجاهه) بتقديم الخبر على المبتدأ وذلك لضرورة إيقاعية لإقامة الوزن، فلو قال (أجاهه عذب) لاختل الوزن ولما استقام الميزان الإيقاعي. ونجد أن التآزي يميل إلى توظيف اسم الموصول (من) الذي يستعمل للعاقل في ثلاثة مواضع (بمن تهوى/ من لم يجد بالنفس/ من يعبده الهوى)، والذي من دلالاته التخصيص، ففي الأولى يقصد به محبوبه وهو الله (ﷻ)، وفي الآخرين يشير إلى الخلق. كما استعمل اسم الموصول (ما) لغير العاقل في موضعين (ما تقوى/ ما تهوى)، وأتى بالجمال الواقعة صلة الموصول فعلية. ولكن ما يهمننا هنا حذف الضمير العائد على اسم الموصول من جملة صلة الموصول. والدافع لذلك ضرورة إيقاعية، فلا يستقيم الوزن إذا أثبت الضمير في كل من (من تهوى/ ما تقوى/ ما تهوى) في آخر كل بيت، بينما أبقى على الضمير فيما بقي من الجمل لأنه يخدمه إيقاعيا. وذلك لأن القصيدة ذات ضوابط إيقاعية، تستوقف المبدع كثيرا، فهو يدقق ويهذب ويحذف ويذكر ليستقيم نسيج النص الشعري، ويتوازن إيقاعه، ويحسن في أسماع المتلقي⁽¹⁾.

7- التناص:

ولم يغب التناص عن هذه المقدمة حيث استعان به التآزي لتبليغ مراده وعرض قضيته، وتأيد منهجه في ميولاته القلبية، وامتزج خطابه الشعري هنا بالثقافة الدينية والأدبية لتشكيل جانبا من البنية الفنية للنص، حيث اعتمد التآزي على التناص المباشر السطحي القائم على التركيب المطابق للنص الأصلي، والذي لا يجد المتلقي عناء كبيرا في إدراكه. من ذلك التناص مع القرآن الكريم في قوله⁽²⁾:

هَوَانُ الْهَوَى عِزٌّ وَعَذْبٌ أَجَاهُهُ ❀ وَعَلَقْمُهُ أَحْلَى مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى

فثنائية (المن والسلوى) ورد ذكرها في قول الله (ﷻ): ﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ

1- ينظر: الإيقاع في الشعر العربي، عبد الرحمن الوجي، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، حزيران 1989م، ص51.

2- ثبت البلوي، ص333.

يَظْلِمُونَ». [سورة البقرة: 57]، وفي قوله (ﷺ): ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. [سورة الأعراف: 160]، وفي قوله (ﷺ): ﴿يَلْبَنِي إِسْرَءِيلَ فَدَ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾. [سورة طه: 80]. والمنّ مادة صبغية تنزل على الشجر حلوة، والسّلوى طائر بريّ لذيذ اللحم وقيل هو العسل⁽¹⁾. والجامع بين ركني الثنائية (المنّ - الشراب/ السّلوى - الطعام) هو حلاوة المطعم والمشرب وهي غذاء الجسم، وكذلك المتيم يجد من حلاوة الحب والعشق مالا يضاهيه مذاق المنّ والسّلوى، وهو غذاء الرّوح. ومن التّناص القرآنيّ أيضا قوله (ذي الطّول والغنى) ورد ذكرها في [سورة غافر: 3] قال الله (ﷻ): ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾. [سورة غافر: 3].

وفي قوله⁽²⁾:

أَبَتْ مُهْجَتِي إِلَّا الْوُلُوعَ بِمَنْ تَهْوَى * فَدَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَالْنُفُوسُ وَمَا تَقْوَى
تتاص مباشر مع بيت أبي نواس⁽³⁾ - البسيط - :
دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ * وَدَاوِنِي بِالتِّي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
وكذلك في قوله⁽⁴⁾:

فَمَا الْحُبُّ إِلَّا حُبُّ ذِي الطُّوْلِ وَالْغِنَى * وَأَمْلَاكِهِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَأُولِي التَّقْوَى
تتاص مع بيت أبي تمام⁽⁵⁾ - الكامل - :

1- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (سلا).

2- ثبت البلوي، ص333.

3- ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ الحكمي، تحقيق: إقالد قاغزر، دار النشر فرانز شتايز قيسباون، بنشتوتغارد، ط1، 1408هـ / 1988م، ج3، ص2.

4- ثبت البلوي، ص333.

5- شرح ديوان أبي تمام، الخطيب التبريزي، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1414هـ / 1994م، ج2، ص290.

نَقْلُ فُؤَادِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَىٰ ❁ مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَدِيثِ الْأَوَّلِ

يتوسّل التّازي لتبليغ تجربته الشعريّة بأساليب متنوعة منها أسلوب القصر في صدر مطلع القصيدة في قوله (أبت مهجتي إلا الولوع بمن تهوى)، وفي آخر المقطوعة في قوله (فما الحبّ إلا حبّ ذي الطّول والغنى). وهو قصر إضافي عن طريق النفي والاستثناء يؤتى به فيما ينكره المخاطب أو يشكّ فيه⁽¹⁾. إذ قصر صفة الولوع - وهو الغرام الملازم لصاحبه - على مهجته والتي من معانيها الإخلاص واللّبن خالص البياض⁽²⁾، لبيان خلوص محبته لمحبيه فلم يشبّ ذلك الحبّ أيّة شائبة مع دوام الوفاء لمحبيه وإن لآلمه اللّثمون. وفي الثّانية قصر صفة الحبّ على محبوبه الذي صرّح بأوصافه بعد أن أحجم عن بيانه وتعيينه في البيت الأوّل وهو من باب تأخير البيان عن وقت الحاجة - كما يقول الفقهاء - وهذا زيادة في التشويق.

2- نماذج من خطابه النثري:

اشتهر عن إبراهيم التّازي عنايته بالخطاب الشعري أكثر من الخطاب النثري، وما وصلنا من نثره قليل مقارنة بشعره. ومن خطابه النثري جانباً من رحلته إلى المشرق، وبعض نصوص الإجازات⁽³⁾، ونصّ وظيفته (وهي مجموعة من الأذكار والأدعية تقرأ على إثرها مجموعة من القصائد)⁽⁴⁾، ونصّ تصليّة على النّبيّ تعرف بالصّلاة التّازيّة⁽⁵⁾، والنّزر القليل من حكمه ووصاياه. ففي أدب الرّحلة أورد ابن سعد نقلاً عن تلامذة التّازي نقلاً من رحلته الحجازيّة، وهي على ما يبدو نقلت مشافهة، ولم يدونها صاحبها. والنّصّ يحكي فيه التّازي حادثة تخلفهم عن ركب الحجاج إلى الحجاز وهم بمصر، حيث اتّجهوا إلى مقبرة القرافة متوسّلين بأوليائها ليسهل الله لهم الرّحلة، وقد لقي هناك شاباً أمرد نحيل الجسم قليل الكلام بدا له أنّه من أهل الكشف والولاية، لم يسمع منه

1- ينظر: دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص323.

2- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (مهج).

3- ينظر: ثبت البلوي، ص387، 396.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص320 - 327.

5- نصّها: اللَّهُمَّ صَلِّ صَلَاةً كَامِلَةً وَسَلِّمْ سَلَامًا تَامًا عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّ تَحَلَّى بِهِ الْعَقْدَ، وَتَفَرَّجَ بِهِ الْكَرْبَ، وَتَقْضَى بِهِ الْحَوَائِجَ، وَتَقَالَ بِهِ الرِّغَائِبُ وَحَسَنُ الْخَوَاتِمِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ. التّبُوغُ الْمَغْرِبِيُّ، عَبْدُ اللَّهِ كَثُونٌ، ج3، ص341.

إلا ردّ السّلام وبعض الآيات حول علم الغيب، وقوله: تسافرون في البحر، وكان لهم ذلك بعد أيّام، إذ وصلوا إلى جُدّة ببركة ذلك الشّاب⁽¹⁾.

أمّا عن الرّسائل فإنّ إبراهيم التّازي كان قليل المكاتبة لا يكتب إلا لبعض النّاس فقط، حتّى الأمراء كان لا يرّد لهم جوابا. وهذا ما يفسّر قلّة رسائله⁽²⁾. وقد أورد ابن سعد رسالة له إلى بعض أكابر مدينة تازة يبشّره فيها بما وقع له من خير وفتح بوهران، وهذا ببركة شيخه الهواريّ، إذ تصدرّ مجلس الفقه شارحا مختصر خليل دون الرّجوع إلى شروحه، حيث يقول: «واعلم أنّ مُحبّكم إبراهيم يقرئ مختصر خليل من غير مطالعة شرح، وليس هذا ببعيد في الأنوار الهواريّة»⁽³⁾.

ومن الحكم التي جرت على لسان التّازي وتلقّاها عنه القلصاديّ مشافهة قوله: «العالم لا تُعاده، والجاهل لا تُصافه، والأحمق لا تُواخه»⁽⁴⁾، وهي حكمة في بيان جانب من العلاقات الاجتماعيّة مع بعض طبقات المجتمع.

1- ينظر: روضة النّسرين، ابن سعد، ص139، 140.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص155، 156.

3- المصدر نفسه، ص137.

4- رحلة القلصاديّ، ص111.

2- محمد بن إبراهيم الشّرّان الغرناطي (كان حيّا 837هـ / 1433م):

1- اسمه ونسبه وكنيته:

هو محمد ابن أبي إسحاق الشّرّان الغرناطي، كنيته أبو عبد الله، والده أبو إسحاق الذي يبدو أنّه كان من أهل الوجاهة والعلم والرياسة بغرناطة بحسب ما أورده التّنبكتي، حيث قال عنه: «... ابن الشّيخ الفاضل الماجد الأرفع الأعزّ الأوجه أبي إسحاق»⁽¹⁾. رغم شهرة الشّرّان فإنّه لا يعلم له تاريخ ولادة ولا تاريخ وفاة بالتّحديد، إلّا أنّ المصادر التي ترجمت له تتناقل أنّه كان حيّا سنة (837هـ / 1433م)⁽²⁾. اشتغل كاتباً في ديوان الإنشاء لدى الحضرة النّصريّة مكان الفقيه الفضل ابن جماعة الذي عين قاضي الجماعة بغرناطة⁽³⁾.

2- مؤلّقاته:

من مؤلّقات الشّرّان التي ذكرتها المصادر أرجوزة مشهورة في علم المواريث اعتنى بها العلماء في زمانه وبعده، فقام بشرحها القلصادي⁽⁴⁾، وممن شرحها حديثاً محمد بن محمد بن إبراهيم العلمي الفاسي (1292 - 1373هـ / 1875 - 1954م) وكان يدرّس شرحه لطلبة السّنة الرّابعة من الطّور الثّانوي بالقرويين⁽⁵⁾.

3- آراء الآخرين فيه:

وصف الشّرّان بكثير من الأوصاف وخُلت عليه عدد من النّعوت عكست تفوّقه العلمي وتألّقه في ميدان الأدب والشعر، منها تزكية القلصادي له بقوله: «الفقيه الوجيه اللّبيب اليقظ الأدرى، الأديب الأحظي، الرّئيس النّبيل الأرقى؛ وحيد عصره وأوانه، وفريد دهره وأقرانه»⁽⁶⁾، وقال صاحب شجرة النور الزكيّة فيه: «العلامة واحد الزّمان وفريد العصر والأوان، الرّئيس

1- نيل الابتهاج، التّنبكتي، ص533.

2- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

3- وتذكر هاهنا حكاية في هذا الاستخلاف؛ وذلك أنّ جماعة من رؤساء الدّولة قالوا للفضل ابن جماعة: إنّ السرّ الذي عهدناه في الحضرة غاب عنها بغيبك. فقال لهم مورياً: وكيف لا، وقد تركتم الفضل المجموع وأخذتم الشّرّ المكزّر. ينظر:

أزهار الرّياض، المقرّي، ج1، ص134.

4- ينظر: نيل الابتهاج، التّنبكتي، ص340.

5- ينظر: مقدّمة رحلة القلصادي، ص43.

6- أزهار الرّياض، المقرّي، ج1، ص133.

الصدر البحر الذي لا يجارى في الإنشاء والاختراع ولا يمارى»⁽¹⁾. وقال عنه ابن عسريه وبلديه ابن فركون بالكاتب الأبرع والبارع⁽²⁾، وفي ميدان الشعر قال فيه التنسي: «والشّران هذا ممّن له باع مديد في الشعر وتصرف حسن»⁽³⁾. وقال المقري في معرضه تدليله على تألق أدباء الأندلس وشعرائها في مختلف فنون النثر والشعر في القرن التاسع الهجري، ومثّل بالشّران قائلا: «... الفقيه الكاتب أبي عبد الله الشّران، المبرز في أدواته على الأنداد والأقران»⁽⁴⁾.

4- نماذج من خطابه الشعري:

رغم أنّ الشّران كان من الكتاب العاملين في ديوان الإنشاء النصري، وقد وصف بالإجادة في الكتابة والبراعة في الإنشاء إلّا أنّنا لم نلف له آثارا من خطابه الثّري من ظهائر ورسائل ديوانية وغيرها، أمّا خطابه الشعري فقد نُقل عنه العديد من القصائد والمقطوعات والمنظومات، توزّعت على عدد من الأغراض الشعرية كالمدح والتّهنة والغزل وغيرها⁽⁵⁾.

أ - المدح والتّهنة:

الشّران من الذين اصطفاهم الملك يوسف الثالث في بلاطه، فلم يبخل الشّران بمدح سلطانه، وله فيه أشعار سار فيها سير شعراء المدح قديما كالتّويه بجود ملكه وكرمه وشجاعته وغيرها من الأوصاف الخُلقية. وقد تأخذه نشوة المديح إلى المبالغة أحيانا. ويرى الشّران أنّ الشعر لا يحلو ولا يطيب إلّا بمدح ملكه، فصوّره كنسيم هبّ على حدائق ورياض اكتست بألوان الورد فيحتذي النّسيم بروائح الأزهار فيغدو زكيّا طيّبا، وهي صورة بديعة، حيث يقول⁽⁶⁾ - الطويل -:

وما الشّعُرُ إلّا كالنّسيم سرى على رياضٍ معاليكم فطابَ تَضَوُّعا

يمتزج المديح عند الشّران بأغراض أخرى، فنجدته يغتنم المناسبات السّارة لتسخير شعره في تعداد مناقب السلطان يوسف الثالث وخلالها. وقد أحصى له ابن فركون في ديوانه⁽⁷⁾ ثلاث

1- شجرة النور الزكية، مخلوف، ج1، ص357.

2- مظهر النور الباصر، ابن فركون، ص29، 44، 89.

3- أزهار الرياض، المقري، ج1، ص134.

4- المصدر نفسه، ج1، ص115.

5- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص357.

6- مظهر النور الباصر، ابن فركون، ص46.

7- ينظر: المصدر نفسه، ص29، 44، 89.

قصائد تهنئة بميلاد ابن للملك، افتتحها بالتهنئة ثم شرع في مدح ملكه. ويزداد المديح كلما زاد العطاء وهذا في قوله⁽¹⁾ - الطويل - :

فَدُونَكُهَا خُودًا تَهَادَتْ كَأَنَّمَا ❁ سَقَيْتُ قَوَافِيهَا الرَّحِيقَ الْمُشَغَّشَا

أَفَاضَ عَلَيْهَا جُودُكَ كَفَّكَ جُودَهُ ❁ فَوَشَّى بِهَا رَوْضَ الْبَيَانِ وَوَشَّعَا

يُسَجَّلُ عَلَى الشَّرَّانِ النَّزْعَةُ الْإِسْتِشْرَافِيَّةُ لِعَطَاءِ الْمَلِكِ يُوسُفَ الثَّالِثِ، فَهُوَ يَسْتَجِدِي الْمُنْحَ وَالْعَطَايَا السَّلْطَانِيَّةَ بِشَعْرِهِ، وَيَنْتَظِرُ حَظَّهُ وَيَرْقُبُ نَصِيبَهُ وَهَذَا فِي قَوْلِهِ⁽²⁾ - السَّريع - :

مَوْلَايَ يَا ذَا الْكَرَمِ الشَّامِلِ ❁ وَمُسْعِفَ الْأَمَالِ لِلْأَمَلِ

وَمَنْ بِحُلِيِّ الدَّرِّ بِجُودِهِ ❁ حُلِّيَّ جُودِ الزَّمَنِ الْعَاطِلِ

عَبْدُكَ يَرْجُو أَنْ يَرَى نَائِلًا ❁ بَعْضَ الَّذِي تَمْنَحُ مِنْ نَائِلِ

يَسْأَلُ مِنْكُمْ سَيِّلَ إِنْعَامِكُمْ ❁ فَاقَابِلُوا السَّائِلَ بِالسَّائِلِ

ب - الغزل:

نسجل للشَّارَنَ حُضُورَ الْغَزْلِ فِي شَعْرِهِ، وَهُوَ ضَمَنَ بَنِيَّةَ الْقَصِيدَةِ الْمَدْحِيَّةِ، إِذْ افْتَتَحَ قَصِيدَتَهُ بِبَيَانِ عِلَاقَتِهِ بِمَحْبُوبِهِ الَّذِي سَبَبَ لَهُ الْأَلَمَ وَالْمَرَضَ مِنْ شِدَّةِ حُبِّهِ وَتَعَلُّقِهِ بِهِ، وَلَشِدَّةِ حَسَنِهِ وَجَمَالِهِ أَلْهَاهُ وَأَنْسَاهُ أَهْلَهُ، فَقَالَ⁽³⁾ - الطَّويل - :

قَضَى مُذْنِفِي أَنْ لَا أَرَى عَنْهُ سَالِيَا ❁ وَإِنْ كَانَ فِي حُكْمِ الْهَوَى قَدْ أَسَالِيَا

مُطَاعُ هَوَى لَبِيتُ دَاعِي حُسْنِهِ ❁ فَمَا زَالَ قَلْبِي مُذْ دَعَانِي عَانِيَا

هَلَالَ دُجَى آنَسْتُ نَوْرَ جَمَالِهِ ❁ فَرَحْتُ لِأَوْطَانِي وَنَاسِي نَاسِيَا

قَضِيبُ نَفَى أَسْفِيهِ دَمْعِي وَأَعْتَدِي ❁ بِهِ لِغَرَامٍ قَدْ شَجَانِي جَانِيَا

تَفَاعَلْتُ مِنْ أَعْطَافِهِ بِأَنْعَافِهِ ❁ عَلَيَّ وَلَكِنْ مَا وَفَا لِي فَالِيَا

1- مظهر النور الباصر، ابن فركون، ص46.

2- المصدر نفسه، ص91، 92.

3- المصدر نفسه، ص89.

ويشكو إجحاف محبوبة وعدم إنصافه، فإنّه كلّما مدّ حبل الوداد قطعه محبوبة، ومما أضناه وزاده ألما - وإن كان الألم في عرف العاشقين لذة والفساد صلاح - تدانيه كلّما قرب منه وتجافيه عنه، حيث يقول⁽¹⁾ - الطويل -:

وَهَلْ هُوَ إِلَّا الظَّبْيُ طَوَّعَ نِفَارِهِ * فَكَيْفَ أَرَى مِنْهُ التَّدَانِي دَانِيَا
إِلَّا إِنَّ شَأْنِي دُبُّهُ شَطٌّ أَوْ دَنَا * وَإِنْ أَصْبَحَ اللَّاحِي لِشَأْنِي شَانِيَا
فَسَادِي صِلَاحٌ فِي هَوَاهُ وَقَلَمًا * تَرَانِي مُطِيعًا فِي صِلَاحِي لَاحِيَا

ولكنّه يرجو أن يكون بعد البعاد التّصافي والرّضا، ويأمل لقيه فيشتقي بها القلب العليل. حيث يقول⁽²⁾ - الطويل -:

أَلَا عَطْفَةٌ تُرْجَى مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي * وَرَدْتُ بِهِ مِنْكَ التَّصَافِي صَافِيَا

وبعدها هذا لا يتورّع عن الخوض في الغزل الفاحش. ونسجّل حرصا وتكلّفا في اختيار الألفاظ المتجانسة (الجناس الملقق) آخر كلّ البيت من القصيدة إظهارا للمقدرة اللّغويّة والفنيّة لديه. ج - أغراض أخرى:

قال في صاحب له ثقيل على نفسه قد سئم من تصرّفاته وضجر من سلوكه وأقواله واعتداده بنفسه، فنفذ صبره وأوضح له أنّه يحتاج إلى شيء من التّأديب، فقال⁽³⁾ - السّريع -:

وَصَادِحٍ لِي مُبْرِمٍ مَنْ رَأَى * صَبْرِي عَلَى صُدْحَتِهِ اسْتَعْرَبَا
قَالَ: أَنَا كَالْعُودِ إِنْ شِدَّتْهُ * أَوْ رَقَ وَانْشَقَّ أَوْ أَطْرَبَا
فَقُلْتُ: بَلْ كَالْعُودِ مُحْتَاجٌ أَنْ * يُقْشَرَ أَوْ يُحْرَقَ أَوْ يُضْرَبَا

ولا يخفى أثر العلوم الدّينيّة في تكوين الصّورة الشعريّة لديه، ويتجلّى ذلك في اعتماده على التّناس مع علوم الحديث، حيث وظّف مصطلحات حديثيّة كالإسناد والأحاديث والمرسل والمسلسل. وهذا في قوله⁽⁴⁾ - الطويل -:

فَلَا تَمْنَعِ الْعَيْنُ أَنْهَمَالًا فَإِنَّهُ * غَرَامُ شَجٍّ إِسْنَادُهُ غَيْرُ مُهْمَلٍ

1- مظهر النّور الباصر، ابن فركون، ص 89.

2- المصدر نفسه، ص 47.

3- جنّة الرّضا، ابن عاصم، ج 3، ص 70.

4- أزهار الرّياض، المقرّي، ج 1، ص 133.

أَحَادِيثُ تَرْوِيهَا الْجُفُونُ عَنِ الْحَشَا ❁ وَيَثْبُتُ مِنْهَا مُرْسَلٌ بِمُسَدَّسٍ

فاستعان بالتناص الحديثي لبيان صورة المغرم الشجي وما يحدث له، حيث تتدفق الدموع من العين نتيجة ما يلم بالقلب من شجي، وقد أتى بالاستعارة التمثيلية لتوضيح العلاقة المتلازمة بين مصدر الغرام وآثاره البادية على الجفون، ومثل لتلك العملية بمن يروي الحديث عن شيخه بطرق مختلفة إما بالإرسال أو التسلسل، فالدّمع مرسل لم تبخل به عين المغرم والحال مسلسل غير منقطع الدّمع بل مستمرّ.

3- محمد الخير المالقي (831 - بعد 888هـ / 1427 - بعد 1483م):

نحن أمام شاعر من شعراء المغرب الإسلامي في القرن التاسع الهجري وأديب من أدبائه، لا يعرف عن أولية حياته وشخصيته وآثاره إلا النزر اليسير، ولا نملك من المعلومات عنه إلا ما أورده الرحالة عبد الباسط الظاهري (844 - 920هـ / 1440 - 1514م) في رحلته إلى بلدان المغرب الإسلامي، حيث لقيه بتونس سنة (867هـ / 1463م)⁽¹⁾، وأعجب به كثيرا. ومحمد الخير هو من الشخصيات الأدبية التي لم تحظ باهتمام مؤرخي آداب المغرب الإسلامي، فلا نكاد نظفر بمعلومات عنه في المؤلفات المغربية والأندلسية التي بين أيدينا، بينما ألفينا ترجمة موجزة له في مؤلف مشرق في رحلة عبد الباسط الظاهري. على الرغم من أنه لم يكن شخصية مغمورة بل كان من ذوي الخطوة في بلده مالقة بالأندلس ومن أعيانها وفي تونس كذلك، فهو ذو مكانة اجتماعية وسياسية وأدبية⁽²⁾، فكيف لم توثق حياته ولم تنقل آثاره، أم أن آثاره وأخباره هي ضمن الموروث القديم الذي هو في حكم المفقود.

1- اسمه و نشأته:

محمد الخير (بتشديد الياء وكسرهما) المالقي نسبة إلى مدينة مالقة بالأندلس مسقط رأسه، ولد سنة (831هـ / 1427م)، وبها نشأ وترعرع، حيث تلقى تعليمه الأولي؛ فحفظ القرآن الكريم، وأخذ جانبا من العلوم الشرعية واللسانية. أظهر المالقي اهتماما كبيرا بالأدب فبرع في الشعر والنثر، حتى إن عبد الباسط الظاهري نعتة بشاعر العصر الفريد الفصيح والكاتب المجيد والذكي النير⁽³⁾.

2- هجرته:

كانت مدينة مالقة من مواطن التماس بين المسلمين والنصارى، أظهر أهلها صمودا ضد الهجمات الإسبانية التي اشتدت عام (860هـ / 1456م) مما أدى إلى سقوط عدة حصون وتضييق الخناق على المدينة، كما شهدت عدة ثورات على السلطة بغرناطة⁽⁴⁾. وفي ظل هذه

1- ينظر: نيل الأمل، عبد الباسط الظاهري، ج1، ص44.

2- ينظر: رحلة عبد الباسط، ص22.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص21، 22.

4- ينظر: غرناطة في ظل بني الأحمر، يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ط1، 1413هـ / 1993م، ص46.

الظروف السيئة آثر محمد الخير الهجرة إلى تونس سنة (864هـ / 1459م) وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة، طلبا للأمن والاستقرار، وخوفا من أن يلقي نفس المصير الذي لقيه بعض الأدباء الذين انخرطوا في الحياة السياسية في الأندلس مثل أبي يحيى ابن عاصم⁽¹⁾.

3 - وظائفه:

جمع محمد الخير من المؤهلات العلمية والأدبية والعقلية ما أهله ليتبوأ مكانة مرموقة لدى الحكّام. فهو صاحب ثقافة علمية وأدبية، له براعة في فنّي الشعر والنثر، مع جودة الخطّ وجماله والذكاء والفطنة، كلّ هذه السمات مكّنته من أن يشغل عدّة مناصب إدارية في بلده مالقة حيث عيّن كاتباً لبعض أمرائها. ولما انتقل إلى تونس اتّصل بوليّ العهد الحفصيّ المسعود بالله محمد بن عثمان أين سخر ملكته الشعرية في مدحه، فقربه منه وعيّنه كاتباً له، كما قرب معاصره الشاعر ابن الخلف القسنطيني حين قدم عليه أيضاً⁽²⁾.

4 - وفاته:

حينما بلغ محمد الخير المالقي سنّ السابعة والخمسين، وبعد أربع وعشرين سنة في خدمة المسعود الحفصيّ، أصيب باضطرابات نفسية وعقلية سنة (888هـ / 1483م)، حيث أصيب بخلل في عقله، أفقده التمييز، حتّى بلغ به الأمر إلى القيام بخلع ملابسه. ونجد عبد الباسط الظاهريّ يحمل ابن الخلف مسؤولية ما آلت إليه حال محمد الخير، بدليل أنّ وليّ العهد المسعود غضب عليه وعزله عقاباً له، واستكتب شخصاً آخر مكانه مدّة من الزمن قبل أن يعيد إلى منصبه. ولم يصرّح عبد الباسط في رحلته بتاريخ وفاته لأنّه كان بالقاهرة، وإنّما اقتصر على ذكر ما بلغه عن الحالة النفسية والعقلية للشاعر سنة (888هـ / 1483م)، وعلى هذا تكون وفاته بعد هذا التاريخ⁽³⁾.

5 - خطابه الأدبي:

كان محمد الخير من المساهمين في تنشيط الحياة الثقافية بالمغرب الإسلامي في القرن التاسع الهجريّ، حيث كان شاعراً مجيداً وكاتباً ناثراً، غير أنّ آثاره الشعرية والنثرية لم تحفظ،

1 - ينظر: نيل الابتهاج، التّبكيّ، ص 537.

2 - ينظر: رحلة عبد الباسط، ص 21، 22.

3 - ينظر: المصدر نفسه، ص 22.

ولا شك أنّ له مكاتبات ورسائل بحكم وظيفته الإدارية بديوان وليّ العهد المسعود، وقبل ذلك ببلده مالقة.

كان المالقيّ وابن الخلوف في خدمة الأسرة الحاكمة بتونس كفرسي رهان، وأظهرا تنافسا شديدا كان له أثره الإيجابي في الساحة الأدبية حيث انتعشت سوق المعارضات الشعرية بينهما. ثم استحالت الخصومات الأدبية بين محمد الخير وابن الخلوف إلى عداوة، حيث اشتدّ الخصام بينهما والتباغض، ولم تخب جذوة المنافسة حتّى بعد خروج ابن الخلوف في رحلته المشرقية سنة (877هـ / 1473م)، إذ استأنفا المنافسة بينهما واشتدّت بعد عودة ابن الخلوف من المشرق⁽¹⁾.

ليس بين أيدينا من شعر هذه المعارضات إلّا تلك الإشارات التي في ديوان ابن الخلوف. أمّا شعر المالقيّ فلم يصل إلينا منه إلا بيتين سنذكرهما. ويبدو أنّ تلك المعارضات كان يدرجها الشاعران ضمن القصائد المدحية، فعند قراءتنا لديوان ابن الخلوف نجده كلّما مدح وليّ العهد المسعود يعرّض بأحدهم، ويبدو أنّه يقصد محمد الخير فهو لا يذكر له اسما، إنّما يخلع عليه وسمّا، فيصفه بالحسود والكذوب والخائن، وأنّه ليس أهلا لمعارضته. ويفهم من شعر ابن الخلوف أنّ المالقيّ طرق عددا من الأغراض الشعرية كالمدح، والفخر حيث راح يعتدّ بنفسه، ومفاخره خصومه بالتفوق في ميداني الشعر والنثر، ويرى نفسه أنّه من الأدباء والشعراء المطبوعين في زمانه، فهو من معدن الأدب، ويبدو أنّه كان يقرن بين الفخر وهجاء ابن الخلوف بالطعن في إخلاصه لوليّ العهد. وكلّ هذا يفهم من قول ابن الخلوف⁽²⁾ - الكامل -:

قُلْ لِلَّذِي قَدْ رَاحَ يُذَكِّرُ أَنَّنِي	✽	فِي النَّظْمِ غَيْرُ مُصَدِّقِ الْأَقْوَالِ
قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى افْتِرَاهُ وَقَدْ مَحَا	✽	فَلَقُ الْبَيَانِ غِيَاهِبَ الْإِشْكَالِ
فَدَعَ اسْتِمَاعَ مَقَالِ حَاسِدٍ نِعْمَةٍ	✽	يَسْعَى لَعَمْرُ أَبِيكَ سَعْيَ ضَلَالِ
مِنْ جَهْلِهِ أَضْحَى يُعَارِضُ مَنْ غَدَتْ	✽	أَغْزَالُهُ تُرَوِّى عَنِ الْغَزَالِ
وَيَقُولُ مُفْتَخِرًا: نَعَمْ أَنَا مَعْدِنٌ	✽	أَقْلِلْ بِهِ مِنْ مَعْدِنِ الْإِفْلَالِ

1- ينظر: رحلة عبد الباسط، ص21، 22.

2- ديوان ابن الخلوف، ص220.

لَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَعَارَضَ بِأَقْبَالٍ ❁ فِي عَيِّ أَقْوَالٍ وَفَرَطٍ خَبَالٍ

وفي موضع آخر يخاطب قصيدته التي وصفها بالخريدة في مدح السلطان أبي عمرو عثمان وولي عهده المسعود، مظهرًا انتقاصًا بشاعر آخر وتهكمًا وسخرية منه، يبدو أنه يعرض بمنافسه المالقي، فينسبه إلى الجهل وقلة المعرفة بالشعر وأوزانه وعلومه، إضافة إلى عيوب الكلام من عيٍّ وعيوب اللسان من لُكنة⁽¹⁾ ولثغة⁽²⁾، أذهبت عنه حسن البيان، وأثرت في خطابه الشعري، فهو مشين معيب لا يرقى إلى الحسن، وهذا في قوله⁽³⁾ - البسيط - :

خَلَّ الْعَنَاءَ لِقَوْمٍ كَالْجَمَادِ غُنُوا ❁ عَنِ الْعُرُوضِ بِنَظْمٍ غَيْرِ مَوْزُونٍ

يُغْزَوْنَ لِلشَّعْرِ لَكِنْ مِنْ جَهَالَتِهِمْ ❁ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ مَخْبُولٍ وَمَجْنُونٍ

مِنْ كُلِّ الْأَكْنَ عِنْدَ الْبَحْثِ مَنقُطِعُ ❁ كَأَنَّهُ أَلْثَغُ الْأَبْدَانِ كَالسَّيْنِ

وزيادة على ذلك يصفه بالجنون والخبل في قوله⁽⁴⁾ :

لَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَعَارَضَ بِأَقْبَالٍ ❁ فِي عَيِّ أَقْوَالٍ وَفَرَطٍ خَبَالٍ

إن كان ابن الخلوف يقصد محمد الخير، فهل كان فعلا عيٍّ المنطق جاهلا بالشعر وفنونه؟ أم أن شدة التنافس دفعت ابن الخلوف إلى قول هذا؟. ولو كان المالقي به عيوب بلسانه أو جهلا بالشعر وفنونه لأشار إليها عبد الباسط في التعريف به (إلا مسألة الخبل والجنون فإنه ذكرها)، ولما كان مقدما عند ولي العهد المسعود وكتابه.

والمالقي من النخب الأدبية والعلمية التي كانت تحيي مجالس العلم والأدب. ومن هذه المجالس مجلس أبي القاسم أحمد البُنيولي⁽⁵⁾ الأندلسي - ناظر الأندلس ونزيل تونس وكبير التجار - الذي جمع أعيان البلد من علماء وأدباء وتجار وغيرهم، واستضافهم بمتنزه (رأس

1- الأكن: الذي لا يقيم العربية من عجمة في لسانه. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (لكن).

2- الـثغ: ثقل اللسان بالكلام. ينظر: المصدر نفسه، مادة (لثغ).

3- ديوان ابن الخلوف، ص 135.

4- المصدر نفسه، ص 220.

5- نسبة إلى قرية البُنيول التي تقع على ضفاف نهر صغير، وتبعد عن مدينة بلنسية باثنتين وأربعين (42) كيلومترا. ينظر: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، شكيب أرسلان، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط1، 1355هـ / 1936م، ج3، ص 226.

الطَّابِية⁽¹⁾، فأخذ الحضور في مذكرات علمية وتاريخية وأدبية وغيرها. ومن جملة الحاضرين في هذا المجلس محمد الخير الشاعر، ولعلّ تقريب البنيولي للمالقي يعود لكونهما أندلسيان مهاجران أو لأنه من أرباب القلم في الدولة الحفصية يومئذ. أظهر المالقي في هذا المجلس تفاعلا مع الطبيعة، وذلك حين أنشد بيتين من الشعر على البديهة - ولعله بطلب من الحضور - في النسيم الذي هبّ على المجلس، قال فيهما⁽²⁾ - الطويل -:

وَقَالُوا: شِفَاءٌ فِي النَّسِيمِ الَّذِي سَرَى * عَلَى مَسْنَقِ الْأَنْوَاءِ وَهُوَ بَلِيلُ
وَلَمْ يَشْفِنِي ذَاكَ النَّسِيمُ لِأَنَّهُ * طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهُوَ عَلِيلُ

نسجل في هذين البيتين تناسبا سطحيا ظاهرا غير خافٍ، إن لم نقل إنه من باب السرقات الأدبية مع بيتي ابن نباتة المصري (686 - 768 هـ / 1287 - 1366 م) الذي قال فيهما⁽³⁾ - الطويل -:

يُدَاوِي أَسَى الْعُشَّاقِ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ * نَسِيمٌ صَدًّا أَضْدَى عَلَيْهِ قَبُولُ
بُرُوحِي مِنْ ذَاكَ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى * طَبِيبًا [طَبِيبٌ] يُدَاوِي النَّاسَ وَهُوَ عَلِيلُ

يصف المالقي في البيتين ذلك النسيم الذي جرى بنفسٍ ضعيفٍ إثر سقوط غيث، فصار بليلًا أي باردا وله صوت كصوت الأنين⁽⁴⁾، هبّ على المجلس فأنعس هبؤه بعض الجالسين، وحرك في نفوس المحبين الشوق إلى محبوبهم، ولكن النسيم هيّج الأشواق والشجن دون أن يطفئ لهيبها، فمثله كمثل الطبيب المريض الذي يعالج الناس، فتوظيفه للتورية في كلمة (بليل) التي معناها الريح الباردة التي بها ندى، والتي من معانيها أيضا صوت الأنين، ولا يصدر هذا الصوت إلا عن الذي اشتدّ به الألم، فكيف يكون شفاءً للعليل. وإعماله للتشبيه التمثيلي في

1- من أهم المنشآت الحضارية الحداثيّة العجيبة للحفصيين بتونس، وصفها عبد الباسط في رحلته. ينظر: رحلة عبد الباسط، ص21- 22.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص21.

3- ديوان ابن نباتة المصري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت، ص422.

4- النسيم: ريح جرت بنفس ضعيف، فإذا كان مع بردها ندى فهي بليل. ينظر: فقه اللغة وسرّ العربية، أبو منصور الثعالبي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط1، 1427 هـ / 2006 م، ص210.

تشبيه حال الرّيح البليل الباردة التي تحاول عبثاً إثارة شجن المحبّ بحال من يقوم على علاج مريض وبه مرض، فالأولى له أن يشفي نفسه، فالعليل في النهاية لا يشفي عليلاً. ولم يصلنا من الخطاب الشعريّ للمالقيّ سوى هذين البيتين، وهما ممّا حُفِظَ من آثاره الأدبيّة.

4- ابن الأزرق الغرناطي (831 - 896هـ / 1427 - 1491م):

1- اسمه وكنيته ولقبه ومولده:

هو محمد بن علي بن محمد بن علي بن القاسم بن الأزرق الأصبحي⁽¹⁾، وأورد صاحب (الضوء اللامع) نسبه قائلاً: «محمد بن علي بن محمد بن علي بن قاسم بن مسعود أبو عبد الله الأصبحي الغرناطي الأصل المالقي المالكي، يعرف ابن الأزرق»⁽²⁾، كنيته أبو عبد الله ويلقب بشمس الدين⁽³⁾، ولد بمدينة مالقة وبها نشأ، لم تفصح كتب التراجم عن تاريخ مولده، ولكن رجح مولده سنة (831هـ / 1427م)⁽⁴⁾.

2- شيوخه:

أخذ مختلف العلوم النقلية والعقلية والأدبية عن الجلة من علماء الأندلس وأدبائها، فأخذ في بداية عمره بعد حفظه للقرآن الكريم بمالقة مبادئ العربية والفقه والفرائض وبعض القراءات عن أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد البدوي قاضي مالقة، وأبي عمرو محمد بن محمد بن أبي بكر بن منظور، والخطيب أبي عبد الله محمد بن أبي الطاهر بن محمد الفهروي⁽⁵⁾. ثم ارتحل إلى غرناطة لاستكمال تعليمه فلزم مفتيها إبراهيم بن أحمد بن فتوح العقيلي (ت 867هـ / 1463م) فأخذ الفقه والتحو والأصليين والمنطق وغيرها⁽⁶⁾، كما انتفع بأبي يحيى ابن عاصم وجالسه كثيراً، كما تتلمذ على غيرهم⁽⁷⁾.

1- هذا النسب ذكره ابن الأزرق نفسه. ينظر: روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام، أبو عبد الله ابن الأزرق الغرناطي، تحقيق: سعيدة العلمي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1429هـ / 1999م، ج2، ص1018.

2- أورد هذا النسب السخاوي. ينظر: الضوء اللامع، السخاوي، ج9، ص20.

3- نص على هذا اللقب صاحب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العلمي الحنبلي، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان، د. ط، د. ت، ج2، ص255.

4- بناء على ما ذكره صاحب الأنس الجليل أن يوم وفاته سنة (896هـ / 1491م) كان عمره خمسا وستين سنة. ينظر: الأنس الجليل، العلمي، ج2، ص256.

5- ينظر: الضوء اللامع، السخاوي، ج9، ص20.

6- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص58.

7- ينظر: الضوء اللامع، السخاوي، ج9، ص21.

أما في ميدان الأدب فقد أخذ عن الشاعر الأديب أبي عبد الله محمد بن الجبير اليعصبّي، والذي قال فيه ابن الأزرقي: «شيخ الأدباء وحجة البلغاء الكاتب المجيد الأبرع»⁽¹⁾. وكان لشيخه الأثر الكبير في تحصيله العلمي وتكوينه الفكري⁽²⁾ والأدبي⁽³⁾.

3 - تلامذته:

من تلامذة ابن الأزرقي أبو عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي⁽⁴⁾، وأبو جعفر أحمد بن عليّ ابن داود البلويّ الغرناطيّ⁽⁵⁾.

4 - وظائفه:

تولّى ابن الأزرقي عددا من الوظائف، منها منصب القضاء بمالقة وغربها أيام سعد بن عليّ ابن يوسف بن نصر المستعين بالله (869هـ / 1464م) وابنه أبي عبد الله محمد المعروف بالزغل (899هـ / 1494م)، ثم عيّن بوادي آش أيام أبي الحسن عليّ بن سعد (890هـ / 1485م) الابن الثاني للمستعين بالله، ثم أعاده إلى مالقة وبعدها عيّن بغرناطة، واستمر بها قاضيا للزغل بعد وفاة أبي الحسن إلى أن خرج سفيرا عن سلطانه طلبا للنجدة والعون من ملوك المغرب والمشرق لردّ عدوان النصارى وحفظ ما بقي من أرض الأندلس. وبالمشرق عيّنه سلطان مصر الأشرف قايتباي (815 - 901 هـ / 1412 - 1496م) قاضيا للمالكية بالقدس الشريف سنة (896هـ / 1491م) فباشر عمله نحو الشهر ثم توفي⁽⁶⁾. وإلى جانب القضاء تولّى منصب الإفتاء⁽⁷⁾ والتدريس بالجامع الأعظم⁽⁸⁾.

1- ينظر: أزهار الرياض، المقرئ، ج3، ص304.

2- ويظهر جليا في كتابه روضة الأعلام، حيث يشيد بطريقة شيخه في التدريس، وهي تقوم على المحاورّة والمناقشة بين الأستاذ والمتعلّم بالدليل والحجة، وهذا بطلب من الشيخ والحاحه، حتّى ولو أفضى الحوار إلى مخالفة التلميذ رأي شيخه، مع التزام الأدب مع الشيخ. ينظر: روضة الأعلام، ابن الأزرقي، ج2، ص719.

3- ويظهر ذلك في حفظه شعر شيخه ابن الجبير، وكثرة ترداد بعض نظمه، كالمقطوعة التي انتصر فيها لأهل السنة، وردّ فيها علي بيتي الزمخشريّ الذي ذمّ أهل السنة. ينظر: أزهار الرياض، المقرئ، ج3، ص302 - 304.

4- ينظر: المصدر نفسه، ج3، ص303، 304.

5- ينظر: نفح الطيب، المقرئ، ج2، ص703، 704.

6- ينظر: الأنس الجليل، العليمي، ج2، ص255، 256.

7- ينظر: مقدّمة روضة الأعلام، ابن الأزرقي، ج1، ص31.

8- ينظر: أزهار الرياض، المقرئ، ج3، ص305.

5- رحلته:

لما تأزمت الأمور بالأندلس نتيجة الزحف الإسباني على غرناطة والصراع الأسريّ النصريّ، خرج ابن الأزرق سفيراً بعد (892هـ / 1487م) مستجداً بملوك المغرب قاصداً أبا عمرو عثمان الحفصيّ فوجده قد مات، ثم اتجه إلى الأشرف قايتباي بمصر، ولكنّه لم يتحقّق له مقصده أينما توجه، وذلك بسبب النزاعات الداخليّة والخارجيّة في البلاد الإسلاميّة ممّا أضعف شوكتهم. فتوجّه إلى الحجاز للحجّ والزّيارة ليعود إلى مصر ثمّ شدّ الرّحال إلى القدس الشّريف حيث أقام بها، وهناك عين قاضياً بمرسوم ملكيّ⁽¹⁾.

6- آراء الآخرين فيه:

كلّ من التقى ابن الأزرق من شيوخ وتلاميذ وأقران وغيرهم داخل الأندلس وخارجه من معاصرين له أو من أتى بعدهم إلّا وأثنى على علمه، وأدبه وفصاحته وبلاغته، يقول عنه تلميذه ابن الحداد الواديّ أشي: «شيخنا وبركتنا العالم الجليل الخطيب المصقع البليغ المفيد إمام وقته في العلوم والتّحصيل والفهوم...»⁽²⁾. وأشاد صاحب (الأنس الجليل) بحسن هيئته وسمته ووقاره، وورعه خاصّة في وظيفة القضاء التي تزلّ في الأقدام، بقوله: «كان من أهل العلم والصّلاح حسن الشّكل منور الشّيبة عليه الأبّهة والوقار... يتعاطى الأحكام بعفّة ونزاهة من غير تناول شيء من النّاس... وقد كان من قضاة العدل»⁽³⁾. وفيه يقول المقرّي: «الإمام العلّامة الخطيب الحجّة، الأعرف المؤرّخ، النّاطم النّاثر الرّواية...»⁽⁴⁾.

7- مؤلفاته:

ترك ابن الأزرق في الفقه كتاباً من عدّة أجزاء سمّاه (شفاء الغليل في شرح مختصر خليل) دلّ على غزارة علم وتمكّن من الفروع والأصول، وله مؤلّفات فكريّة منها كتاب (بدائع السّلك في طبائع الملك) في الفكر السّياسيّ الاجتماعيّ، تناول فيه كثيراً من آراء ابن خلدون وغيره من

1- ينظر: مقدّمة روضة الأعلام، ابن الأزرق، ج1، ص23-36.

2- أزهار الرّياض، المقرّي، ج3، ص303، 304.

3- الأنس الجليل، العلميّ، ج2، ص256.

4- أزهار الرّياض، المقرّي، ج3، ص317.

الفلاسفة والمفكرين تعليقا عليها، وأتى بزيادات جديدة⁽¹⁾. وله كتاب (روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام) أنهاه بمالقة في السادس والعشرين من شعبان (875هـ/1470م)⁽²⁾، موضوعه التعريف بمكانة اللغة العربية من بين سائر العلوم، والحث على تعلم النحو باعتباره آلة لفهم العربية⁽³⁾.

8 - وفاته:

توفي ابن الأزرق يوم الجمعة السابع عشر ذي الحجة سنة (896هـ/1491م) بعد الصلاة، عن خمس وستين سنة، وصلي عليه بعد صلاة العصر بالمسجد الأقصى، فكانت مدة إقامته بالقدس شهرين⁽⁴⁾.

9 - خطابه الأدبي:

لم يكن ابن الأزرق فقيها مشغلا بالفقه والفتيا والتعليم، أو مفكرا يكتب في السياسة وعلم الاجتماع فحسب، بل جمع إلى هذا تمكنه من النثر والشعر بشهادة المترجمين له والناقلين، وبما خلفه من نصوص نثرية وشعرية فهو شاعر مجيد وناثر بليغ.

1- نماذج من خطابه الشعري:

احتفظت لنا المصادر بجانب من الخطاب الشعري لابن الأزرق (قصائد ومقطوعات) تميز بركة الأسلوب ودقة المعنى وبداعة اللفظ وتتوع الأغراض⁽⁵⁾. وما وصلنا من شعره أكثره مقطوعات، ولم نلف من المطولات إلا قصيدتين؛ إحداها مدحية. أسهم المقرئ في حفظ هذا الشعر في التفح وأزهار الرياض، ومن الأغراض التي تناولها شعر ابن الأزرق الغزل المدح والوصف والخمريات.

أ - غرض المدح:

- 1- ينظر: أزهار الرياض، المقرئ، ج3، ص317، 318.
- 2- ينظر: مقدمة روضة الأعلام، ابن الأزرق، ج2، ص1018.
- 3- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص31.
- 4- ينظر: الأنس الجليل، العليمي، ج2، ص256.
- 5- ينظر: مقدمة روضة الأعلام، ابن الأزرق، ج1، ص36.

تأثر ابن الأزرق بأساتذته الذين أخذ عنهم، فظهر ذلك في التتويه بهم في مؤلفاته وبخاصة في كتابه (روضة الأعلام)، كما أن الشعر أعطى لابن الأزرق مساحة للإشادة بشيخه أبي يحيى ابن عاصم الفقيه الأديب، فمدحه في قصيدة سينية بلغت واحدا وأربعين بيتا، أوردها المقرئ في كتابيه (نفح الطيب)⁽¹⁾ و (أزهار الرياض)⁽²⁾، وقال فيها: «وهي من غرر النظام وحرّ الكلام وأثبتها لغرابتها»⁽³⁾. نثبتها كاملة بعد محاولة تحليلها فنياً.

وله في مدح المدن بيتان نوّه فيهما بسكنى مدينة بسطة وأشاد بأبوابها وبخاصة (باب الفرج)، فوظفه ابن الأزرق للتورية، فدعا إلى من رغب في الهجرة عن وطنه فلتكن بسطة مقصده، فإنها محلّ فرج لمن به كرب، كيف لا وفيها باب معروف بباب الفرج. فقال⁽⁴⁾ - الرّمل -:

قُلْ لِمَنْ رَامَ النَّوَى عَنْ وَطَنِ ❁ قَوْلَةٌ لَيْسَ بِهَا مِنْ حَرَجٍ
فَرَجُ الْهَمِّ بِسُكْنَى بَسْطَةٍ ❁ إِنَّ فِي بَسْطَةِ بَابِ الْفَرَجِ

ب - الوصف:

وله مقطوعات أظهر فيها براعة في وصف الطبيعة وجمالها في فصل الربيع، بعد أن اكتست حلة جديدة شارك في رسم أشكالها وبديع ألوانها أنواع الأزهار والورد، وزان وجه الرياض أصناف الثّبات كما زان وجه المرأة انسياب شعرها على جانبي وجهها. فقال في قالب حواريّ بعد أن طُلب من ابن الأزرق وصف مشهد من مشاهد الطبيعة التي تجملت وأخذت زخرفها أيام الربيع - الطّويل -⁽⁵⁾:

وَقَائِلَةٌ: صِفْ لِلرَّبْرِيعِ مَحَاسِنَا ❁ فَقُلْتُ: وَعِنْدِي لِلْكَلامِ بَدَارُ
هَمَى بِبَطَاحِ الْأَرْضِ صَوْبَ مِنَ الْحَيَا ❁ فَلِلذَّبْتِ فِي وَجْهِ الزَّمَانِ عِدَارُ

كما يصف انسجام الصّوائت (الطيور) مع الصّوامت (النبات) في تكوين سنفونية، اتخذت الطيور من أغصان الشجر منصات تنشد ألوانا من المقطوعات الموسيقية، وتلقي خطبها

1- ينظر: نفح الطيب، المقرئ، ج6، ص151.

2- ينظر: أزهار الرياض، المقرئ، ج3، ص320.

3- المصدر نفسه، ج3، ص320.

4- نفح الطيب، المقرئ، ج6، ص447.

5- المصدر نفسه، ج2، ص702.

بفصاحة وطلاقة حاكت فيها قس بن ساعدة، لجمهور يرمقها في صمت وعي كعي باقل قد عجز عن مجاراتها، ومع ذلك أظهر تفاعلا ظهر في اهتزازها من جهة إلى أخرى، وهذا الوصف بعد تأمل وتفكر أثمر بيتين قال فيهما⁽¹⁾ - الطويل -:

تَأَمَّلْتُ مِنْ حُسْنِ الرَّبِّيعِ نَضَارَةً ❁ وَقَدْ غَرَّدَتْ فَوْقَ الْغُصُونِ الْبَلَابِلُ

حَكَتْ فِي غُصُونِ الدَّوْحِ قُسًا فَصَاحَةً ❁ لَتُعْلِمَنَّ أَنَّ النَّبْتَ فِي الرُّوضِ بِأَقْلُ

كان ابن الأزرقي من الشاهدين على سقوط مدن الأندلس قبيل غرناطة، ومن الحاضرين للوقائع الحربية بين المسلمين والإسبان، ومن بين هذه الوقائع نزول النصارى بمرج غرناطة، فراح يدعو النفوس إلى الصبر والتجلد والثقة بالله. افتتحها بمطلع طللي أتى على ذكر تلك المواطن (نجد - لعل) التي تذكره أحبته، ثم تتلوها أبيات في الغزل، يحكي فيها شدة الاشتياق وألم الفراق، امتلأ صدره زفرات ولم يستطع بكاء، فقال⁽²⁾ - الطويل -:

مَشُوقٌ بِخَيَمَاتِ الْأَحِبَّةِ مَوْلَعٌ ❁ تَذَكَّرُهُ نَجْدٌ وَتَغْرِيبُهُ لَعْلَعٌ

مَوَاضِعُكُمْ يَا لَائِمِينَ عَلَى الْهَوَى ❁ فَلَمْ يَبْقَ لِلْسُلُوفِ فِي الْقَلْبِ مَوْضِعٌ

وَمَنْ لِي بِقَلْبٍ تَلْتَضِي فِيهِ زَفْرَةٌ ❁ وَمَنْ لِي بِجَفْنٍ تَنْهَمِي مِنْهُ أَدْمَعٌ

رُوَيْدَكَ فَارْقُبْ لِلطَّائِفِ مَوْضِعًا ❁ وَخَلَّ الَّذِي مِنْ شَرِّهِ يُتَوَقَّعُ

ثم راح يعلل النفس بالصبر والرضا بمقدور الله، والثقة بالله، فهو مدعاة للتفريج عن الهموم. فقال⁽³⁾:

وَصَبْرًا فَإِنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ غَنِيمَةٍ ❁ وَيَا فَوْزَ مَنْ قَدْ كَانَ لِلصَّبْرِ يَرْجِعُ

وَبِتْ وَاثِقًا بِاللُّطْفِ مِنْ خَيْرِ رَاحِمٍ ❁ فَأَلْطَافُهُ مِنْ لَمَحَةِ الْعَيْنِ أَسْرَعُ

1- نفح الطيب، المقرئ، ج2، ص704.

2- المصدر نفسه، ن. ص.

3- المصدر نفسه، ن. ص.

- مقارنة تحليلية للقصيدتين السينيتين:

أتى في هذه القصيدة على مدح شيخه ابن عاصم قائلا⁽¹⁾ - الكامل -:

- | | | | |
|----|---|---|---|
| 1 | خَضَعْتُ لِمَغْطِفِهِ الْغُصُونُ الْمَيْسُ | ✽ | وَرَنَا فَهَامَ بِمُقْلَتَيْهِ النَّرْجِسُ |
| 2 | ذُو مَبْسَمٍ زَهْرُ الرُّبَا فِي كَسْبِهِ | ✽ | مُتَنَافِسٌ عَنْ طَيْبِهِ مُتَنَفِّسٌ |
| 3 | وَمُورِدٍ مِنْ وَرْدِهِ أَوْ نَارِهِ | ✽ | يَتَنَعَّمُ الْقَلْبُ الْعَمِيدُ وَيَيَاسُ |
| 4 | فَالْوَرْدُ فِيهِ مِنْ دُمُوعِي يَزْتَوِي | ✽ | وَالنَّارُ فِيهِ مِنْ ضُلُوعِي تَقْبَسُ |
| 5 | كَمُلْتُ مَحَاسِنَهُ فَقَدْ نَاصِرُ | ✽ | وَلَوَاحِظُ نُجْلٍ وَتَغَرُّ أَلْعَسُ |
| 6 | صَغْبُ التَّعْطُفِ بِالْغَرَامِ حَبِيبُهُ | ✽ | فَالْحُبُّ يَحْبِي وَالْعَطْفُ يَحْبِسُ |
| 7 | غَرَسَ التَّشَوُّقُ ثُمَّ أَغْرَى الْوَجْدَ بِي | ✽ | فَالْوَجْدُ يُغْرِى وَالتَّشَوُّقُ يَغْرِسُ |
| 8 | مَا كُنْتُ أَشْقَى لَوْ حَلَلْتُ بِجَنَّةٍ | ✽ | مِنْ وَصْلِهِ تَحْيَا لَدَيْهَا الْأَنْفُسُ |
| 9 | أَلْحَاطُهُ وَرُضَابُهُ وَعِذَارُهُ | ✽ | حَوَّرَ بِهَا أَوْ كَوَثَّرَ أَوْ سُنْدُسُ |
| 10 | وَلِيَالِي أَنْسٍ قَدْ أَمِنْتُ بِهِنَّ مِنْ | ✽ | وَاشٍ وَمِنْ رَقِيبٍ يَحْرُسُ |
| 11 | أَطْلَعْتُ شَمْسَ الرَّاحِ فِيهَا فَاهْتَدَى | ✽ | عَاشَ إِلَيْنَا فِي الدُّجَى وَمُغْلَسُ |
| 12 | صَفَرَاءُ كَالْعَفْيَانِ فِي الْأَلْوَانِ لِلَّ | ✽ | دَمَانٍ كَالشَّهْبَانِ مِنْهَا أَكْوَسُ |
| 13 | صَبَبْتُ شَقِيقًا فَاسْتَحَالَتْ نَرْجِسًا | ✽ | فِي مَرْجِهَا فَمُورِدٌ وَمُورَسُ |
| 14 | وَحَبَابُهَا يُقْنَى بِأَسْنَى جَوْهَرٍ | ✽ | أَنْفَى لَغَمِّ الْمَعْدَمِينَ وَأَنْفَسُ |
| 15 | يَجْلِي بِهَا لِلْغَمِّ مِنْهَا حِنْدَسًا | ✽ | قَمَرٌ عَلَيْهِ مِنَ الدُّوَابَةِ حِنْدَسُ |
| 16 | حَتَّى إِذَا عَمِشَتْ مِرَاةُ الْبَدْرِ مِنْ | ✽ | صُبْحٍ بَدَا تِلْقَاءُهُ يَتَنَفَّسُ |
| 17 | نَادَيْتُهُ وَسَنَى الصَّبَاحِ مُحْصَنَصُ | ✽ | يُنْجَابُ عَنْهُ مِنَ الظَّلَامِ مُعْسَعِسُ |
| 18 | يَا مَطْلَعَ الْأَنْوَارِ زَهْرًا يُجْتَنَى | ✽ | وَمُشْعَشِعَ الصَّهْبَاءِ نَارًا تُلْمَسُ |
| 19 | بِكَ مَجْلِسُ الْأَنْسِ اطمأنَّ وَبَابِنَ عَا | ✽ | صِمِ اطمأنَّ مِنَ الرِّيَاسَةِ مَجْلِسُ |
| 20 | بَدَرٌ بِأَنْوَارِ الْهُدَى مُتَطَلِّعُ | ✽ | غَيْثُ بِأَشْتَاتِ النَّدى مُتَبَجِّسُ |

1- أزهار الرياض، المقرئ، ج3، ص320 - 322.

- 21 حَامِي فَلَمْ نَزْعَ لِحْطَبٍ يَغْتَرِي * وَوَفَى فَلَمْ نَحْفَلْ بِدَهْرٍ يَنْحُسُ
- 22 شَدِيمٌ مُهَذَّبَةٌ وَعِلْمٌ رَاسِخٌ * وَمَكَارِمٌ هُتَنٌ وَمَجْدٌ أَفْعَسُ
- 23 لَوْ كَانَ شَخْصًا ذِكْرُهُ لَبَدَا عَلَى * أَعْطَافِهِ مِنْ كُلِّ حَمْدٍ مَلْبَسُ
- 24 ذَاكُمُ أَبُو يَحْيَى بِهِ تُحْمَى الْغَلَا * وَبِهِ خِلَالُ الْفَخْرِ طُرًّا تُحْرَسُ
- 25 بَيْتٌ عَلَى عَمَدِ الْفَخَارِ مُطَنَّبٌ * مَجْدٌ عَلَى مِثْنِ السَّمَاءِ مُؤَسَّسُ
- 26 خَيْمٌ وَعَرْسٌ فِي حِمَاهُ فَكَمْ حَوَى * فِيهِ الْمُرَادُ مُحْيِمٌ وَمُعَرَّسُ
- 27 إِنَّا لَنَدْعُو هَيْمًا فَيُنْدِلُنَا * رِيًّا وَيُوحِشُنَا النَّوَى فَيُؤْنِسُ
- 28 حَتَّى أَقْمَنَا وَالْأَمَانِي مُنْهَضَا * تَ وَابْتَسَمْنَا وَالزَّمَانُ مُعْبَسُ
- 29 لَمْ نَدْرِ قَبْلَ يِرَاعِهِ وَبَدَانِهِ * أَنَّ الدَّوَابِلَ بِالْعَمَائِمِ تُحْبَسُ
- 30 هُنَّ الْيِرَاعُ بِهَا يُؤْمَنُ خَائِفٌ * وَيَحَاطُ مَذْعُورٌ وَيَغْنَى مُفْلِسُ
- 31 مَهْمَا انْبَرَتْ فَهِيَ السَّهَامُ يَرَى لَهَا * وَقَعٌ لِأَغْرَاضِ الْبَيَانِ مُقَرِّطُسُ
- 32 تَشْفَى بِمَأْمَلِهِ التَّشْكِي الْمُعْتَرِي * تُحْيِي بِمَأْمَنِهِ الْحِمَامُ الْمُؤَيَّسُ
- 33 فَتَقْصُ حِينَ تُشَقُّ مِنْهَا أَلْسُنٌ * وَتَسِيرُ حِينَ تُقَطُّ مِنْهَا أَرْؤُسُ
- 34 مِنْ كُلِّ وَشَاءٍ بِأَسْرَارِ النُّهَى * دَرَبٌ، بِإِظْهَارِ السَّرَائِرِ يَهْجَسُ
- 35 قَدْ جَمَعَ الْأَضْدَادَ فِي حَرَكَاتِهِ * فَلِذَا اِطْرَادَ فَخَارِهِ لَا يُعْكَسُ
- 36 عَطْشَانُ ذُو رِيٍّ يَبِيسُ مُثْمَرٌ * غَضْبَانُ ذُو صَفْحٍ فَصِيحٌ أَخْرَسُ
- 37 اللَّهُ مِنْ تِلْكَ الْيِرَاعِ جَوَادِبُ * لِلْسَّحْرِ مِنْكَ كَأَنَّهَا الْمَغْنِيطُسُ
- 38 رُضْنَا شِمَاسَ الْقَوْلِ فِي أَوْصَافِهَا * فَهِيَ الَّتِي رَاضَتْ لَنَا مَا يَشْمُسُ
- 39 وَإِلَيْكَهَا حُلًّا تَنَاسَبَ نَسْجُهَا * مِثْلِي يُفَصِّلُهَا وَمِثْلُكَ يَلْبَسُ
- 40 وَاهْدَأْ بِعِيدٍ بِأَسْمٍ مُتَهَلِّلٍ * وَافَاكَ يَجْهَرُ بِالسُّرُورِ وَيَهْمُسُ
- 41 وَاحْبِسْ لَوَاءَ الْفَخْرِ مَوْقُوفًا فَإِنَّ * الْحَمْدَ مَوْقُوفٌ عَلَيْكَ مُحَبَّسُ

نسب المقرئ هذه القصيدة لابن الأزرق وأدرجها كاملة في سياق ترجمته له مع بعض أشعاره، ولكنّه شكّك في نسبتها لابن الأزرق، والحامل له على ذلك هو التشابه في الأسماء بين الأديبين المتعاصرين القاضي أبي عبد الله محمد ابن الأزرق الغرناطي وآخر، ذكر المقرئ أنّ ابن الأزرق ذكره في كتابه (روضة الأعلام)⁽¹⁾، ولكن بالعود للكتاب نجد أنّ الثاني هو الأديب البارع أبو عبد الله محمد الأزرق الوادي آشي (دون كلمة ابن) وعند المقرئ (أبو عبد الله محمد بن الأزرق الوادي آشي)⁽²⁾، وهذا ما يدفعنا إلى البحث أكثر في المصادر التي استند عليها المقرئ في إدراج شعر القاضي ابن الأزرق. كما أنّه لا يتوفّر لدينا من شعر الأزرق الوادي آشي إلا بيتين أوردهما ابن الأزرق في (روضة الأعلام)⁽³⁾، وهذا لا يمكننا من معرفة أسلوبه الشعري. وليست هذه القصيدة الوحيدة التي شكّك في نسبتها لابن الأزرق، بل هناك قصيدة أخرى طويلة صنّفها المقرئ ضمن شعر المجون أدرجها كاملة⁽⁴⁾.

2- هيكل القصيدة:

يقوم هيكل القصيدة على أربعة محاور؛ مقدّمتين الأولى في غرض الغزل والثانية في الخمریات والثالث في المدح والآخر في التهنئة. وربما هذا ما حمل المقرئ على نسبتها للغرابة هذا الخرق لنظام هيكل القصيدة التقليدية الجاهليّة، إذ المعتاد أنّها - في الغالب - ذات مقدمة طلبية يذكر فيها الشاعر الطلل ووصفه ثمّ أخرى غزليّة يذكر فيها الحبيبة ووصفها إلا ما شدّ عن هذا النسق، ولذا ترى النقاد القدامى يعيبون على من خرق هذا النظام⁽⁵⁾.

1- الغزل [1- 9]: افتتح ابن الأزرق القصيدة بأبيات ضمّنها محاسن الحبيب؛ من حيث وصف جسد (الوجه، العيون، الخد، الشّفاء، الشعر، القد...) بشيء من التفصيل، وبجماله تسامى على الرّياض (أغصان، نرجس، ورد...). وأفصح ولم ويكتم لهيب أشواقه، وشدة التعلّق به لجماله

1- ينظر: روضة الأعلام، ابن الأزرق، ج1، ص460.

2- ينظر: أزهار الرّياض، المقرئ، ج3، ص320.

3- ينظر: روضة الأعلام، ابن الأزرق، ج1، ص460.

4- ينظر: نفع الطّيب، المقرئ، ج3، ص298 - 303.

5- ينظر: بناء القصيدة في النّقد العربي القديم (في ضوء النّقد الحديث)، يوسف حسين بكار، دار الأندلس للطباعة والنّشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1982م، ص212، 213.

الآسر وحسنه الباهر، مع صدود من الحبيب وهجران. وهو يتمنى أن يصله الحبيب، فالقطيعة شقاوة والوصل سعادة كالسعادة أهل الجنة، وحياة للنفوس.

2- وصف الخمر [10- 18]: نجم ابن الأزرق في سماء وصف الخمر في القرن التاسع الهجري. ولم تخرج معاني وصف الخمر عنده عن النمط المعروف عند السابقين، كوصف لونها الأحمر كلون شقائق النعمان وهي في زجاجتها للدلالة على النقاوة، واستحالتها أصفر كلون الذهب عند مزجها حين صبها في الكؤوس، والزمان الأمثل لعقد مجالس الخمر التي تجذب إليها الندماء عند رؤيتها كشمس بزغت إيذانا ببداية تلك المجالس التي ينهيها بزوغ ضوء النهار، وكذلك ما تحدثه الخمرة في صاحبها من تجلية الهموم والإحساس بالأمن.

3- التهنئة [40]: قبل الختم يخصص بيتا ليهنئ ممدوحه بالعيد، ويدعو له بأن يهنأ بفرحة العيد، في أيام صعبة كانت تعيشها الأندلس بسبب توالي النكبات الداخلية والانتكاسات الخارجية.

4- المدح [19- 39، 41]: تناول مدح ابن عاصم وأسرته، ثم انتقل إلى مدح ابن عاصم أديبا بليغا وكاتبا مجيدا، وذلك بالانتقال إلى مدح قلمه المدرار وصف شكله، وما لنثره من أثر في واقع الناس، فكم كان سببا في قضاء حوائجهم؛ من مظلوم وفقير ومشتكي، وقطع الطريق أمام الوشاة والظالمين.

3- ألفاظ القصيدة ومعانيها:

- 1- الميس: التبخر والميلان⁽¹⁾.
- 2- التشوق: هو انجذاب قلب المحب إلى المحبوب طلبا للذة أو زيادتها أو دوامها⁽²⁾.
- 3- أغرى به: أولع به ولازمه، وقد أغرى الكلب بالصيد إذا لزمه ولزق به⁽³⁾.
- 4- الوجد: ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع⁽⁴⁾.

1- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (ميس).

2- ينظر: التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ / 1983م، ص27.

3- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (غرا).

4- ينظر: التعريفات، الجرجاني، ص27.

5- القلب العميد: المريض⁽¹⁾.

6- اللّس: لون الشّفة إذا كانت تضرب إلى السّواد قليلاً⁽²⁾.

7- العذار: ما سال من الشّعر على جانبي الوجه⁽³⁾.

8- بيت مطّنب: مشدود بالأطناب أي بالحبال، وهو كناية عن البيت كثير العدد لا يكاد ينقطع، ويتبع بعضهم بعضاً⁽⁴⁾.

9- القطّ: قطع الشّيء الصّلب عرضاً، المقطّعة عظيم يكون مع الوراقين يقطّون عليه أطراف الأقاليم⁽⁵⁾.

10- يهجس: ما يخطر في النّفس بها ويدور فيها من الأحاديث والأفكار⁽⁶⁾.

11- المغنيطس: حجر يجذب الحديد⁽⁷⁾.

12- شماس: شمس الدّابة شردت وجمحت ومنعت ظهرها⁽⁸⁾.

4- المعجم الشعري:

هو ذلك المخزون اللفظي الذي يوظفه المبدع في خطابه الشعريّ تعبيرا عن أفكاره وأحاسيسه، وهذا المخزون ذو صبغة تمييزية به يمتاز المبدع عن غيره كما ونوعا، وهو يعكس حجم ثقافته والمنابع التي استقى منها وسائل الإبانة، ويعكس وعيه الشعريّ القائم على الاختيار من المذخور اللفظي الذي بين يديه⁽⁹⁾. وقد تعدّدت المعاجم في هذه القصيدة، حيث نسجل في مطلع القصيدة ميلا من ابن الأزرق أكثر إلى استعمال المعجم الطّبيعيّ (الترجس، الغصون، الميس، زهر، ربا، الورد...)، ولا غرو في ذلك فطبيعة الأندلس الباهرة ورياضها السّاحرة

1- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (عمد).

2- ينظر: المصدر نفسه، مادة (لّس).

3- ينظر: المصدر نفسه، مادة (عذر).

4- ينظر: المصدر نفسه، مادة (طنب).

5- ينظر: المصدر نفسه، مادة (قطط).

6- ينظر: المصدر نفسه، مادة (هجس).

7- ينظر: المصدر نفسه، مادة (غطس).

8- ينظر: المصدر نفسه، مادة (شمس).

9- ينظر: الخصائص الفنّية لشعر ابن نباتة، حامد صدقي، مجلة إضاءات نقدية في الأدبين العربيّ والفارسيّ، جامعة آزاد الإسلامية، إيران، العدد: 01، السّنة: 01 (ربيع الأوّل 1390هـ / آذار 2011م)، ص59.

فرضت عليه الانسجام مع جمالها، وكانت مصدر إلهام له في رسم هذه لوحاته الفنيّة، حيث ساعدته على تكوين مقدّمته الغزليّة المبنية على وصف المحاسن الجسديّة للمحبوب (المبسم، المقلتين، اللّحاظ، الرّضاب، العذار، الحور)، مع بيان العلاقة العاطفيّة التي تجمعها بها (الغرام، التّشوق، الوجد). كما يسّرت الطّبيعة أثناء اللّيل (الدّجى، مغّلس، حندس، الشّهبان، القمر، البدر) للشّاعر بعد ذلك نسج مقطعه الخمرىّ القائم على وصف الخمرة في مختلف أحوالها؛ في الرّجاجة وهي خالصة وفي الكؤوس وهي ممزوجة. وفي المقطع المدحىّ استعمل معجماً منقبيّاً يقوم على شدّة الإعجاب بابن عاصم الإنسان والكاتب وأسرته، وتعداد مناقبه وأخلاقه (شيم، علم، مكارم، الفخار، مجد، يراعه، بنانه...)، حمّله هذا الإعجاب على توظيف المعجم الحربىّ (الدّوابل، السّهام، الحمام، خائف، يؤمّن...) لبيان دوره في نصرّة المظلوم، والضّرب على يد الظّالم، وكذا استعان بالمعجم المنطقيّ (أطراد، يعكس) للتّدليل على أنّ تلك الأخلاق وذلك الإبداع الأدبىّ شيء متأصل فيه وليس طارئاً، وهو لازم غير مسلوب.

5- الصّورة الشعريّة:

استعان ابن الأزرق لتشكل الصّورة الشعريّة لديه بأدوات بلاغيّة من تشبيهات ومجازات وكنائيات وغيرها، وهي قصيدة غنيّة بالصّور البيانيّة، فلا يكاد يخلو بيت منها، وكثير من هذه الصّور مطروقة، وهي تعكس ثقافة الشّاعر العميقة، وتمكّنه من التّصرّف في تشكيل جمال الصّورة الفنيّة.

ومن التّشبيهات الواردة في نصّ القصيدة التّشبيه البليغ في قوله (ذو مبسم زهر الربا [2]/ بدر متطلّع، غيث متبجّس [19، 20]/ هي السّهام [31]). وفي قوله (صفراء كالعقيان في الألوان [12]) تشبيه مرسل مفصّل (ذكرت أداة التّشبيه ووجه الشّبه). ومن التّشبيه التّمثيليّ قوله (1):

37 لله من تلك اليراع جَوادِبُ ❁ لِسَحَرٍ مِنْكَ كَأَنَّهَا الْمَغْنِيطُ

حيث شبّه صورة انجذاب النّاس لأدب ابن عاصم، وما يثمره قلمه من نصوص ساحرة أسرة بصورة المغنيطس الذي لا يملك الحديد عند اقترابه منه إلا أن ينجذب نحوه.

1- أزهار الرّياض، المقرئ، ج3، ص321.

ونسجل حضور الاستعارات المكنية بكثرة في القصيدة مقارنة بالاستعارات التصريحية، وكان تجسيد المعاني بصبغتها التجريدية إلى الحالة المحسوسة وتشخيص مظاهر الطبيعة عنصرا هاما في بنية الاستعارة المكنية وغيرها، من ذلك تشخيص العيد في صورة إنسان تعلقو محياه النضرة والسرور وهو مقبل على ممدوحه باسم الثغر، كوافد يحمل إليه بشائر الخير فتارة يجهر بالفرح وتارة يهمس به، وهذا على سبيل الاستعارة المكنية، حيث حذف المشبه به وهو الإنسان ورمز إليه بأحد لوازمه وهو الابتسام والتهلل والجهر والهمس، فقال (1):

40 وَاهْنًا بِعِيدٍ بِاسِمٍ مُتَهَلِّلٍ ❀ وَافَاكَ يَجْهَرُ بِالسُّرُورِ وَيَهْمِسُ

وقوله في مطلع القصيدة (خضعت لمعطفه الغصون الميس)، حيث شبه الغصون بالإنسان الخاضع لسلطان الجمال فينحني إعجابا، وحذف المشبه به وهو الإنسان ورمز إليه أحد لوازمه وهو الخضوع، وهذا للمبالغة في بيان جمال محبوبه.

ومنها قوله والاستعارة التصريحية في قوله (أطلعت شمس الزاح) من البيت [11] شبه الخمر بالشمس حين طلوعها بجامع الصفاء والصفرة، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به وهو الشمس للمشبه وهو الخمر.

كما ساعدت الاستعارات المكنية الشاعر على تشكيل صورة بديعة دلّت على قوة الإبداع عنده، حيث نسجل حضور العجائبية في تصوير أقلام ابن عاصم التي يكتب بها، حيث قلّمه جمع بين الأضداد والمتقابلات، وهذا في قوله (2):

33 فَتَقْصُ حِينَ تُشَقُّ مِنْهَا أَلْسُنُ ❀ وَتَسِيرُ حِينَ تَقْطُ مِنْهَا أَرْؤُسُ

35 قَدْ جَمَعَ الْأَضْدَادَ فِي حَرَكَاتِهِ ❀ فَلَذَا اطْرَادُ فَخَارِهِ لَا يُعَكِّسُ

36 عَطْشَانُ ذُو رِيٍّ يَبِيسُ مُثْمِرٌ ❀ غَضْبَانُ ذُو صَفْحٍ فَصِيحٌ أَخْرَسُ

فهو يصوّر أقلام ابن عاصم بذلك الحكواتي الذي يجلس إليه الناس ليقصّ عليهم القصص والحكايات، ولا بدّ له من لسان فصيح، غير أنّ الشاعر صوّر القلم بالرجل الذي شقّ لسانه ومن كان هذا حاله لا يستطيع التبيين والإفصاح، ولكن رغم ذلك فهو لا يسترسل في قصصه

1- أزهار الزياض، المقرّي، ج3، ص321.

2- المصدر نفسه، ن. ص.

وحكاياته إلا إذا شقّ منه لسانه، هذا أمر يحمل على العجب. والأعجب من ذلك هو تصويره مقطوع الرأس الذي لا يكفّ عن السير ولا يعرف السير إلا إذا قطع رأسه. ويزيد إغرابا في تصوير القلم في صفة من يجمع بين المتضادات (العطش والزّي واليبس والإثمار والغضب والصّفح والفصاحة والخرس)، فقلمه لا يخطّ على الورق إلا إذا كان يابسا مشقوق اللسان ليحمل المداد، عطشان فيرتوي من الدّواة، ومقطوع الرأس لتحسين الخطّ، أخرس لكونه من قصب، وهذا كلّه وصف ظاهريّ للقلم، أمّا موضوع الخطاب فهو المشار إليه بقوله (عَضْبَانُ دُو صَفْحٍ فَصِيحٌ أَخْرَسُ) فتارة يدبّج خطابا فصيحاً يحمل فيه على غيره غضبا، أو يحمل صفحا وعفوا.

6- الإيقاع:

1- الإيقاع الخارجي:

أ- البحر:

نسج الشاعر قصيدته المدحية على البحر الكامل التّام مسدّس التّفعيلات (مُتَفَاعِلُنْ - 0//0//0//0//0//0//)، الذي يعدّ من أكثر البحور استعمالا في الشعر العربيّ بعد الطّويل والبسيط⁽¹⁾.

خَضَعَتْ لِمَغْطِفِهِ الْغُصُونُ الْمَيْسُ	✽	وَرَنَا فَهَامَ بِمَقْلَتَيْهِ الذَّرَجُسُ
خَضَعَتْ لِمَعٍ / طِفْهِلْغُصُو / نَلْمُيَسُو	✽	وَرَنَا فَهَامَ / مَبْمَقْلَتَي / هِنْدَرْجَسُو
0//0/0/ 0//0/// 0//0///	✽	0//0/0/ 0//0/// 0//0///
مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ (الإضمار)	✽	مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ (الإضمار)

ومن الرّحافات التي تدخله الإضمار والذي هو تسكين التّاني المتحرّك (مُتَفَاعِلُنْ - 0//0/0/)، وهنا وقع في عروض البيت وضربه. وهذا الانحراف الصّوتيّ الذي لجأ إليه المبدع ما هو إلا مظهر من مظاهر خدمة النّظام الموسيقيّ لقصيدته.

ب - القافية:

القافية مقطع صوتيّ خارجيّ منتظم، يكون آخر متحرّك بين ساكنين قبلهما متحرّك، يتشكّل إيذانا بانتهاء وحدة البيت الشعريّ، وهي ذات طاقة إيقاعيّة إضافية، تعين الشّاعر على التّتابع

1- ينظر: موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصريّة، ط2، 1952م، ص189.

وتجديد نشاطه وإفراغ انفعالاته⁽¹⁾. فهي ذات أبعاد جمالية ونفسية وقيمة صوتية، فالشاعر يسعى إلى تحسينها وتخليصها من كل ما يقبح بها، ما تُوجب تأثيرا في أذن المتلقي وتفاعلا منه.

جاءت القافية مطلقة باعتبار حركة الروي ولحوق حرف الوصل به (حرف المدّ الواو المضموم ما قبله)، ومجردة من حرفي التأسيس (ألف لازمة بينه وبين الروي حرف واحد متحرك) والردف (حرف مدّ قبل الروي)⁽²⁾. وبالنظر إلى عدد الحروف المحصورة بين آخر ساكنين جاءت القافية من المتدراك؛ وهو ما كان بين ساكنيها حرفان متحركان وهما (العين واللام من فاعلن) مثل (الجيم والسين ومن نرجس). وقد التزم الشاعر القافية المطلقة المجردة واعتمد المتدراك من أنواعها من أول بيت إلى آخر القصيدة.

وقد استعان الشاعر بالوحدات الإفرادية (اسم، فعل) لرصفها وتركيبها خدمة للنظام الإيقاعي على مستوى القافية. إذ شغلت الأسماء أكثر من ثلثي قوافي القصيدة، وما بقي شغلته الأفعال (3، 4، 6، 7، 10، 16، 18، 20، 24، 27، 29، 34، 38، 39، 40). وهنا تأتي الوظائف النحوية والصرفية لتكوين القافية بصور مختلفة، وفق المحورين التركيبي أو الاستبدالي؛ من تقديم وتأخير وحذف وذكر وإضمار وغيرها، أو إبدال صيغ بأخرى (الفعل، الاسم)، مما توفر للمبدع مجالا به يستطيع أن يحدث تغييرا في البنية التركيبية وانزياحا عن الناظم المألوف على سبيل الاختيار أو الاضطرار⁽³⁾ عناية بالمقطع الصوتي للقافية. ففي قوله⁽⁴⁾:

11 أَطْلَعْتُ شَمْسَ الرَّاحِ فِيهَا فَاهْتَدَى ❁ عَاشَ إِلَيْنَا فِي الدُّجَى وَمَغْلَسُ

استعاض الشاعر عن صيغة الاسم وهو الغلس (ظلمة آخر الليل) بصيغة اسم الفاعل (مغلس) المعطوفة بالرفع على الفاعل (عاش)، وذلك لأن استعمال صيغة الاسم (الغلس) المجرور

- 1- ينظر: الإيقاع في الشعر العربي، عبد الرحمن الوحي، ص 70 - 72.
- 2- ينظر: الكافي في علمي العروض والقوافي، شهاب الدين أحمد بن عباد القنائي المعروف بالخواص، تحقيق: عبد المقصود محمد عبد المقصود، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1428هـ / 2006م، ص 128 - 130.
- 3- ينظر: الأصول، تمام حسان، ص 130.
- 4- أزهار الرياض، المقرئ، ج3، ص 320.

بالخفض للعطف على الدّجى تُوقع الشّاعر في عيب من عيوب القافية وهو الإقواء⁽¹⁾ (اختلاف حركة الرّويّ كاجتماع الرّفْع والجرّ).

ونسجّل أيضا على المحور الاستبدالّي في البيت [21] استبدال صيغة الفعل المضارع (يُنحُسُ) باسم الفاعل (ناحس)، لأنّها استعمال صيغة (ناحس) مع توفيرها لنفس القافية (فَأَعْلُنْ) إلّا أنّها توقع في الإقواء.

ومن التّغيير الجاري على المحور الأفقيّ حفاظا على وزن البيت والقافية وحرف الرّويّ؛ الفصل بين الفعل وفاعله (خضعت - الغصون / هام - التّرجس) بتقديم الجار والمجرور والمضاف إليه (لمعطفه / بمقلتيه) في البيت الأوّل.

ج - الرّويّ:

الرّويّ هو الصّوت الذي تبنى عليه القصيدة وإليه تنسب، وهو جزء من كيان القافية. اختار ابن الأزرق صوت السّين فالقصيدة سينيّة، وروي السّين من الأصوات المتوسّطة الشّيوخ في الشعر العربيّ، ونسبة الشّيوخ عائدة بالدرجة الأولى إلى ما توفّره اللّغة من أصوات أواخر الوحدات الإفراديّة⁽²⁾. وهذا ملاحظ في القصيدة إذ نلمس اضطرارا من الشّاعر إلى تكرار بعض الوحدات الإفراديّة التي تنتهي بحرف السّين بصيغ مختلفة (يحرص، تُحرس / متنفّس، يتنفّس / يحبس، تحبس، محبّس / ملبس، يلبس / يئأس، المؤيس / أنفس، الأنفس) وهذا التّكرار والاختيار لأجل توظيفها موسيقيا للمحافظة على صوت الرّويّ. وهي وحدات مأنوسة المعانيّ تحمل صوت الرّويّ الصّفيريّ المهموس.

2- الإيقاع الدّاخليّ:

استعان الشّاعر بالمحسنات البديعيّة لتشكل الإيقاع الدّاخليّ للقصيدة، وراح يصطفي منها ما يضمن لأبياتها الرّنين العذب؛ ومن ذلك الجناس الذي هو مكوّن أساس في الموسيقى الدّاخلية للقصيدة، فالتمّائل الصّوتيّ وتقاربه يحدث جرسا موسيقيا وإيقاعا يسترعي انتباه المتلقّي، وحضوره في القصيدة ظاهر، وهو كائن ما بين الوحدات الإفراديّة الفعلية أو ما بين الاسميّة، أو بينهما معا. مثل (متنافس = متنفّس / مورّد = ورده / مأمّله = مأمنه / يقبس = يحبس / غرس = يغرس،

1- ينظر: العمدة، ابن رشيق، ج1، ص164، 165.

2- ينظر: موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، ص246.

يهمس= يهجس). كما استعان الشاعر بالتقابل بين الوحدات الإفرادية، لتلوين خطابه الشعري، وليبيان بعض الفروق بين أحوال مختلفة، لتحقيق غايات ذات دلالات نفسية كقوله⁽¹⁾:

3 وَمُورِدٍ مِنْ وَرْدِهِ أَوْ نَارِهِ * يَتَنَعَّمُ الْقَلْبُ الْعَمِيدُ وَيَيْأَسُ

حيث يظهر الحالة النفسية التي يحياها العاشق الذي أضنى قلبه جمالُ المعشوق وشدة الوله به، فهو يتنعم بجماله متى دنا ويصيبه اليأس حين يغيب عنه. وكذا عند وصفه قلم ابن عاصم بمتقابلات متوالية في صورة ثنائيات ذات وحدات متضادة (عطشان ≠ ري)، (يبيس ≠ مثمر)، (غضبان ≠ صفح)، (فصيح ≠ أخرس) سعيًا لتوضيح إجادة ابن عاصم في الكتابة، وإظهارًا لإعجابه بتلك النصوص الأدبية التي أنتجها في قوله⁽²⁾:

35 قَدْ جَمَعَ الْأَضْدَادَ فِي حَرَكَاتِهِ * فَلِذَا اطرَادُ فَخَارِهِ لَا يُعَكِّسُ

36 عَطْشَانُ ذُو رِيٍّ يَبِيسٌ مُثْمَرٌ * غَضْبَانُ ذُو صَفْحٍ فَصِيحٌ أَخْرَسُ

ابن عاصم صاحب قلم اتّخذ من قصب يابس، أخرس لا ينطق عطشان، ولكنّ صاحبه يملك زمامه يحركه ويخطّ به ويرويه من مداد بدواة فيثمر خطابات أدبية ذات بيان وفصاحة، عالجت كثيرًا من القضايا ذات طابع اجتماعي وديني وسياسي، فهذا اليراع جمع المتضادات في شكله وحركته وحالته. إضافة إلى ما تحدثه في حالة تركيبها من تناغم إيقاعي ناجم عن بديع التوزيع لهذه الوحدات المتقابلة بين شطري البيت. ونسجل الالتزام بنفس التركيب بين صدر البيت وعجزه من القصيدة، في الأبيات (20، 22، 25، 32، 33، 36) وهذا كلّه مراعاة للتوافق الإيقاعي في البيت.

ومن ألوان البديع التي تخدم الجانب الموسيقيّ التّصريح؛ والذي هو متابعة عروض البيت لضربه تزيد بزيادته وتنقص بنقصانه⁽³⁾. وقد جاء البيت الأول مصرعًا بين لفظتي (ذُلْمُيْسُو / هُنْدَرْجِسُو) على وزن متفاعلن، والتي هي عروض البحر الكامل وضربه، وقد دخل زحاف الإضمار على عروضه وضربه، وهو تسكين الثاني المتحرك. وقد أحدث تجانسًا صوتيًا يساعد على تهيئة المتلقي لمتابعة الخطاب.

1- أزهار الرياض، المقرئ، ج3، ص320.

2- المصدر نفسه، ج3، ص321.

3- العمدة، ابن رشيق، ج1، ص173.

ومن المحسنات البديعية اللَّف والنَّشْر المرتَّب في قوله⁽¹⁾:

9 أَلْحَاطُهُ وَرُضَابُهُ وَعِدَارُهُ ❀ حَوْرٌ بِهَا أَوْ كَوْنٌ أَوْ سُنْدُسٌ

هنا تناسب وتناسق بين ملامح الوجه في الشطر الأول (شكل العين، طعم الرِّيق، نعمة الشعر) وأوصافها (الحَوْر، الكوثر، السُّندس) جمع بينها على سبيل اللَّف والنَّشْر المرتَّب. والتَّوزيع لها أحدث جرساً موسيقياً على مستوى المقاطع الصوتية خاصة في الشطر الأول.

7- التكرار:

إنَّ تكرار البنى الإفرادية والتركيبية داخل الخطاب الشعري متوالية أو متباعدة وبدلالات متنوعة يعمل على تعميق المعنى وتجليته وبيانه أكثر، ولا بد من ارتباطه بالمعنى العام مع خضوعه للقواعد الدوقية والجمالية للشعر، وإلا كان أمراً غير مستساغ في الصناعة الشعرية. فالتكرار بهذا ذو بعدٍ جماليٍّ وقيمة فنية. وأيضاً للتكرار دلالات نفسية، فقصده الشاعر إلى التكرار لدافع نفسيٍّ لتأكيد معنى أو تقرير حقيقة. وقد تعين المتلقي على مقارنة النص، ويستعين به الناقد الأدبي على الإيغال في نفسية المبدع وشخصيته، ومحاولة إيجاد الفكرة المهيمنة على المبدع⁽²⁾.

من ذلك التكرار الكلمي، وهو تكرار البنى التركيبية كاملة في بيت واحد، أو داخل نسيج النص، أو مع تغيير في البنية المكررة، فمن الصنف الثاني قوله⁽³⁾:

7 غَرَسَ النَّشْوَوقَ ثُمَّ أَغْرَى الْوُجْدَ بِي ❀ فَالْوُجْدَ يُغْرِى وَالنَّشْوَوقَ يَغْرِسُ

تكررت كلتا البنيتين التركيبيتين (غرس النشوق) و(إغراء الوجد) مرتين في بيت واحد، مع تسجيل تغييرا في بنيتهما، فرارا من الرتابة ولفت انتباه المتلقي واسترعاء لذهنه، مع الاحتفاظ بقوة التعبير وجماله، وكذا الارتباط بما حوله⁽⁴⁾. ومن التغيرات المسجلة على مستوى التكرار؛ التقديم والتأخير، ولا يخفى على دارس الأدب ما تؤدیه خاصية التقديم والتأخير من دلالات ومعاني نفسية وجمالية على مستوى ثلوث العملية التواصلية (المبدع، المتلقي، الخطاب)،

1- أزهار الرياض، المقرئ، ج3، ص320.

2- ينظر: قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، منشورات مكتبة النهضة، ط3، 1967م، ص231، 242.

3- أزهار الرياض، المقرئ، ج3، ص321.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص251، 252.

فالمبدع يقدم ويؤخر بدافع الاهتمام والعناية وبحسب وقوع المعاني في النفس سعيًا وخدمة لخطابه وهذا للتأثير في المتلقي⁽¹⁾.

فنتقديم المفعولين (الوجد، التشوق) على فعلهما وفاعلها في الشطر الثاني، وتأخيرهما في الشطر الأول، والتنويع في موضع الجملتين، فالتى قدمها في الشطر الأول (غرس التشوق) أخرها آخر الشطر، والتي اختتم بها الشطر الأول (إغراء الوجد) افتتح بها الشطر الآخر، كل هذا لاعتبار إيقاعي، ولولا هذا الخرق للمألوف في بنية الجملة لما استقام النظام الموسيقي، بما في ذلك مراعاة للقافية وروي القصيدة. وأيضاً للفت انتباه المتلقي واسترعاء ذهنه، ولتقرير حقيقة هي فعل المحبوب بمحبته، ولأجل ذلك أيضاً عمد إلى الجمل الفعلية التي من دلالتها تجدد المعاني المثبتة وحدثها⁽²⁾، ونوع في صيغة الفعلين بين الماضي (غرس، أغري) والمضارع (يغري، يغرس)، فالمحبيب غرس الاشتياق في قلب محبه ابتداءً، كمن غرس فسيلة، وهذا ما يفيد الفعل الماضي (غرس)، ولم يكتف بذلك بل هو حريص على دوام الرعاية لفسيلة الاشتياق وهذا ما تفيد صيغة المضارع (يغرس) الدالة على الحال والاستقبال. ولم يكتف المحبوب بعملية غرس الاشتياق في قلب المحب ورعايته، بل أغرى سلطان الوجد به فصار مولعاً به حتى لا يكاد يصبر عليه، كصنيع الصائد الذي أرسل مكّله على صيوده فتلزمها ولا تفارقها حتى تتال منها بدون فتور ولا ملل، ولو بتكرّر الأمر مرة بعد أخرى، وهذا ما أفادته صيغة المضارع (يغري) التي تفيد فعل الأمر في الحال واستمراره في الاستقبال.

ومن أنواع التكرار التكرار اللفظي، وهو تكرار البنى الإفرادية في بيت واحد، أو تكرارها داخل النسيج النصي. كتكرار كلمة (حندس) في قوله⁽³⁾:

15 يَجْلِي بِهَا لِلْغَمِّ مِنْهَا حِنْدَساً ❀ قَمَرٌ عَلَيْهِ مِنَ الدُّوَابَةِ حِنْدَسٌ

حيث يصف فعل حباب الخمر - وهي الفقايع - بشاربها الذي ألمّت به الغموم فانجلت عنه كلما شرب منها، كحال من يمشي في ليل شديد الظلام فانجلي ليله وانحسر ظلامه، ثم يؤكد هذا

1- ينظر: دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص52، 106، 107.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص174.

3- أزهار الرياض، المقرئ، ج3، ص320.

المعنى بوصف صورة حباب الخمر الذي يعلو الزجاجاة وبقية الشراب بقمر خالطه شيء من الظلمة الشديدة وهو الحندس.

وأما التكرار اللفظي أيضا يسهم في البنية الإيقاعية الداخلية لينجم عنه نغم موسيقي مؤثر في المتلقي. نسجل تكرارا لفظيا على مستوى القافية من ذلك كلمة (يحبس) [6]، تحبس [29] و (يحرص) [10]، تحرس [24]، يلجأ الشاعر إلى إعادتها ليستعين بها على تكوين القافية وكذا البحث عن حرف رويها.

8 - الانزياح:

الانزياح باعتباره خاصية أسلوبية يقوم على خرق أنظمة اللغة والخروج عن المؤلف منها قصد تحقيق أهداف نفسية وفنية جمالية. فإن القصيدة حفلت بهذه الخاصية، فنجد الانزياح على المستوى التركيبي من حذف وتقديم وتأخير (وقد تقدم معنا شيء منه)، واعتراض وغيرها.

أ - الحذف:

الحذف ظاهرة لغوية وأسلوبية يقوم على إسقاط بعض الوحدات من البنى التركيبية للنص، مما يكسب النص قيمة تعبيرية وجمالية ودلالات جديدة، تلفت انتباه المتلقي فيتفاعل مع النص، ويشارك في إعادة بنائه باحثا عن المفقود من البنى، ويفسح له للتأويل ويمنحه مساحة للتقدير، والحذف سمة وسمات الإبداع لدى الشاعر، وهذا ما توحيه عبارة الجرجاني في بيان مزايا الحذف: «... فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تتطق، وأنت ما تكون بيانا إذا لم تبين... وذاك أن من حلق الشاعر أن يوقع المعنى في نفس السامع إيقاعا يمنعه به من أن يتوهم في بدء الأمر شيئا غير المراد، ثم ينصرف إلى المراد»⁽¹⁾.

ومن أنواع الانزياح بالحذف المسند إليه (الفاعل ونائبه، المبتدأ)، حذف المسند (الخبر)، حذف المكملات (المفعول به، الجار والمجرور، الحروف...). فمن حذف المسند إليه في الجملة الفعلية حذف الفاعل وقد وقع في حوالي ثلاثين موضعا من القصيدة، من ذلك في قوله⁽²⁾:

1 خَضَعَتْ لِمَغْطِفِهِ الْغُصُونُ الْمَيْسُ ❁ وَرَدْنَا فَهَامَ بِمَقْلَتَيْهِ النَّرْجِسُ

1- أزهار الرياض، المقري، ص 146، 172.

2- المصدر نفسه، ج 3، ص 321.

- 3 وَمُورِدٍ مِنْ وَرْدِهِ أَوْ نَارِهِ * يَتَنَعَّمُ الْقَلْبُ الْعَمِيدُ وَيَبْأَسُ
4 فَالْوَرْدُ فِيهِ مِنْ دُمُوعِي يَرْتَوِي * وَالنَّارُ فِيهِ مِنْ ضُلُوعِي تَقْبَسُ
16 حَتَّى إِذَا عَمِشَتْ مِرَاةُ الْبَدْرِ مِنْ * صُبْحٍ بَدَا تِلْقَاءَهُ يَتَنَفَّسُ

فتم حذف فواعل الأفعال (رنا، يباس، يرتوي، تقبس، بدا، يتنفس، يعتري، ينحس) وهي (المحبيب، القلب، الورد، النار، الصبح، ابن عاصم، الدهر)، وهذا تقاديا للتكرار فالفواعل معلومة في كل منها لا يحتاج لذكرها وتكرارها، وحذفه لهذه الفواعل أيضا لدواعٍ إيقاعية، رعيا للنظام الموسيقي القصيدة حتى لا يخرق بزيادة وحدات إيقاعية. ومن حذف المسند إليه في الجملة الاسمية حذف المبتدأ، وهذا تكرر كثيرا في القصيدة، كالحذف في قوله⁽¹⁾:

- 2 ذُو مَبْسَمٍ زَهْرُ الرُّبَا فِي كَسْبِهِ * مُتَنَافِسٌ عَنْ طِيبِهِ مُتَنَفَّسٌ
12 صَفَرَاءُ كَالْعَفْيَانِ فِي الْأَلْوَانِ لِلَّ * دَمَانٍ كَالشَّهْبَانِ مِنْهَا أَكْوَسُ
13 صُبَّتْ شَفِيقًا فَاسْتَحَالَتْ نَرْجَسًا * فِي مَرْجِهَا فَمُورِدٌ وَمُورَسُ
14 وَحَبَابُهَا يُقْنَى بِأَسْنَى جَوْهَرٍ * أَنْفَى لَعَمَّ الْمَعْدَمِينَ وَأَنْفَسُ
20 بَدْرٌ بِأَنْوَارِ الْهُدَى مُتَطَلِّعٌ * غَيْثٌ بِأَشْتَاتِ النَّدى مُتَبَجِّسُ
21 حَامِي فَلَمْ نَرْتَعْ لِحَطْبٍ يَعْتَرِي * وَوَفَى فَلَمْ نَحْفَلْ بِدَهْرِ يَنْحُسُ
35 مِنْ كُلِّ وَشَاءٍ بِأَسْرَارِ النُّهَى * دَرِبٌ، بِإِظْهَارِ السَّرَائِرِ يَهْجُسُ
36 عَظْشَانُ ذُو رِيٍّ يَبِيسُ مُنْمَرٌ * غَضِيَانُ ذُو صَفْحٍ فَصِيحٌ أَخْرَسُ

فالمسند إليه المحذوف في القصيدة هو (المحبيب، الخمرة، حباب الخمرة، ابن عاصم، القلم). وحذف المسانيد واقع في مواطن الوصف، وذلك إما تعظيما للمحذوف وهو المحبوب بأوصافه التي نعتها بها، أو تشويقا للمحذوف وهو الخمرة، أو توقيرا وإضفاء للمهابة على الممدوح وإعجابا به أي بابن عاصم وقلمه (أدبه). وأيضا يأتي الحذف لتقادي تكرار المبتدأ لحضوره في ذهن المخاطب، ولغرض إيقاعي.

1- أزهار الرياض، المقرئ، ج3، ص320، 321.

ومن صور الانزياح بالحذف في الجملة الاسمية إسقاط المسند وهو الخبر، والمسجل أن المحذوف هو شبه الجملة الجار والمجرور (له) الواقع خبرا في قوله (1):

22 شِيمٌ مُهَذَّبَةٌ وَعِلْمٌ رَاسِخٌ * وَمَكَارِمٌ هُتَنٌ وَمَجْدٌ أَفْعَسُ

25 بَيْتٌ عَلَى عَمَدِ الْفَخَارِ مُطَنَّبٌ * مَجْدٌ عَلَى مَنَنِ السَّمَاءِ مُؤَسَّسُ

26 خَيْمٌ وَعُرْسٌ فِي حِمَاهُ فَكَمْ حَوَى * فِيهِ الْمُرَادَ مُخَيَّمٌ وَمُعَرَّسُ

والتقدير (له شيم، له علم، له مكارم، له مجد، له بيت، له خيم، له عرس) ووقع حذف الخبر في مدح بان عاصم وتعداد مفاخره، وهذا تعظيما له وإعجابا به.

أما من الانزياح بحذف المكملات في الجملة الفعلية، فنسجل حذف المفعول به الذي وقع إسقاطه وفاعله على مستوى القافية في موضعين (2):

10 وَلِيَالِي أُنْسٍ قَدْ أَمِنْتُ بِهِنَّ مِنْ * وَاشٍ وَمِنْ رَقِيبٍ يَحْرُسُ

27 إِنَّا لَنَغْدُو هَيْمًا فَيُنْذِلُنَا * رِيًّا وَيُوحِشُنَا النُّوَى فَيُؤْنِسُ

والتقدير (يحرصنا، يؤنسنا) حتى لا يؤدي ذكره لوحده أو مع الفاعل لاختلال الميزان الموسيقي. ومن أنواع الحذف في القصيدة إسقاط للحرفين (رب، لا) في قوله (3):

3 وَمُورِدٍ مِنْ وَرْدِهِ أَوْ نَارِهِ * يَتَنَعَّمُ الْقَلْبُ الْعَمِيدُ وَيَبْأَسُ

أسقط الشاعر حرف الجرَّ رُبَّ الذي نابت منابه الواو المعروفة عند النحويين بواو رُبِّ. وفي قوله (ومورِدٍ) أي (ورُبِّ مورِدٍ)، وأيضا حذف حرف النفي (لا) من قوله (يبأس) أي ولا يبأس. والمعنى لنفي اليأس عن القلب وليس لإثباته، إذ لا يجتمع نعيم في قلب المحب ويأسه عند رؤية المحبوب وجمال خدّه الذي أشبه لون الورد أو النار لشدة الحمرة. وتوارد حذف الحروف (رُبِّ، ولا النافية) على المستوى التركيبي في هذا البيت جاء كذلك لمطلب إيقاعي (إقامة الوزن) ساعدت على توفيره القواعد النحوية، بعد تلك الدلالات النفسية التي أداها، ونقصد مشاعر السرور بالمحبوب.

1- أزهار الرياض، المقرئ، ج3، ص321.

2- المصدر نفسه، ن. ص.

3- المصدر نفسه، ج3، ص320.

ب - الاعتراض:

نسجل في هذا الخطاب نوعا من أنواع الانزياح على المستوى التركيبي وهو الاعتراض بين الوحدات المتلازمة (المسند والمسند إليه) أو بين المكملات المتلازمة في بنية الجملة الفعلية والاسمية. وقد ورد الاعتراض بأشكال متنوعة؛ منها الاعتراض بشبه الجملة (الجار والمجرور، الظرف). من ذلك الفصل بالجار والمجرور بين عناصر الجملة الفعلية (الفعل والفاعل سواء أكان مفردا أو جملة ونائب الفاعل) في الأبيات (1، 10، 17، 19، 23، 31، 32، 33)، وبالظرف في موضعين (8، 29)، وبين (الفاعل والمفعول به، والفعل والمفعول به) في الأبيات (26، 32، 38). وغالب الانزياح بالاعتراض بين عناصر الجملة الفعلية بشبه الجملة يؤدي مقصدا دلالياً هو التخصيص أو الاستعانة أو العناية بالاسم المجرور، وكذلك يعين على تكوين البنية الإيقاعية للقصيدة. من ذلك قوله في بداية القصيدة⁽¹⁾:

1 خَضَعْتُ لِمَعْطَفِهِ الْغُصُونُ الْمَيْسُ ❀ وَرَنَا فَهَامَ بِمُقْلَتَيْهِ النَّرْجِسُ

يمكن تمثيل ذلك بما يلي:

الفعل + الجار والمجرور + الفاعل + المفعول به ❀ الفعل + الجار والمجرور + الفاعل

فالجار والمجرور (لمعطفه - بمقْلتيه) اعترض بين الفعل والفاعل، وذلك لأبراز العناية والاهتمام بالمحبيب، وخُصص منه شيان هما المشية والعيون (المعطف والمقلتان)، اللذان سحر جمالهما أغضان الشجر فتمايلت بتمايل المحبوب في مشيته، وأسرت زهور النرجس فحارت في تلك العيون الساحرة. وهذه المقاصد حاضرة أيضا في الاعتراض بالظرف بين الفعل والفاعل في قوله⁽²⁾:

8 مَا كُنْتُ أَشْقَى لَوْ حَلَّتْ بِجَنَّةٍ ❀ مِنْ وَصَلِهِ تَحِيًّا لِدَيْهَا الْأَنْفُسُ

فظرف المكان (لدى) والضمير المجرور (ها) واقع بين الفعل (تحيا) وفاعله (الأنفس) وغرضه التخصيص والتحديد؛ تخصيص حياة النفوس وسعادتها، وتحديد بعدها الظرفي وهو عند حلول جنة وصال المحبوب، فالوصال جنة تُحيي نفوس العاشقين وتُسعدُها، والقطيعة والهجران جحيم

1- أزهار الرياض، المقري، ج3، ص320.

2- المصدر نفسه، ن. ص.

يصطلي بناره المهجور ويشقيه. وغير خاف على المتلقي سعي الشاعر وراء إقامة الوزن بتأخير الفاعل (الأنفس) - الذي يحمل روي السنين - حيث فصل بينه وبين فعله بالظرف.

أما الاعتراض في الجملة الاسمية فقليل مقارنة بالاعتراض في الجمل الفعلية، منه ما هو واقع بين المبتدأ والخبر بتقديم أحدهما أو تأخيرها، بظهوره أو ضموره، من ذلك قوله (1):

37 **لله من تلك اليراع جواذب** ❁ **للسحر منك كأنها المغنيطس**

فالتركيب بهذا الشكل: (لله) جار ومجرور متعلق بخبر مقدم محذوف + الجار والمجرور + المعطوف + مبتدأ مؤخر (جواذب). وهذا زيادة في مدح أدب ابن عاصم الأسر للنفوس والساحر للأسماع والسائب للألباب، وأطلق أقلام الكتابة (اليراع) وأراد بها الشيء المكتوب فازداد تعجبا منها، ولإنشاء التعجب استعان بإحدى صيغ التعجب، فاعتراض بين الخبر المقدم والمبتدأ المؤخر الجار والمجرور والاسم المعطوف (اليراع) عطف بيان بعد اسم الإشارة زيادة في العناية به وتخصيصا له دون غيره ، وأيضا تسهيلا لإقامة الميزان الموسيقي للبيت.

ومن الاعتراض بين العناصر المكملّة في التراكيب الاعتراض بالجار وبشبه الجملة بين الصفة والموصوف من ذلك قوله (2):

25 **بيت على عمد الفخار مطنب** ❁ **مجد على متن السماك مؤسس**

فالتركيب بهذا الشكل:

الموصوف + الجار والمجرور + المضاف إليه + الصفة ❁ الموصوف + الجار والمجرور + المضاف إليه + الصفة

جاء الجار والمجرور (على عمد، على متن) معترضا بين لفظتي (مطنب، مؤسس) الواقعتين على الترتيب صفتين لكل من (بيت، مجد) الواقعتين مبتدءا لخبرين (شبه جملة) محذوفين تقديرهما (له). جاء للدلالة على الاستغراق في وصف ابن عاصم باعتباره سليل بيت مجد وفخر، فلا غرو أن يكون وارث هذه الأمجاد، فضلا عن تلك الفضائل والأخلاق التي راح يعدّها ويحصيها لابن عاصم. وتكرار الاعتراض في شطري البيت نجم عنه إيقاعا موسيقيا يقوم على تماثل التركيب بين صدر البيت وعجزه.

1- أزهار الرياض، المقري، ج3، ص321.

2- المصدر نفسه، ن. ص.

9- التناص:

التناص تقنية نصية قوامها ربط علاقات مع نصوص أخرى بأشكال مختلفة، تتولد عنها نصوصاً أخرى⁽¹⁾. فإن البنية الفنية للقصيدة جاءت ممتزجة بألوان من التناصات، حيث نسجل التناص الديني الذي يعكس عمق الثقافة الدينية لدى ابن الأزرقي، وهذا في قوله⁽²⁾:

16 حَتَّى إِذَا عَمِشَتْ مِرَاةُ الْبُذْرِ مِنْ * صُبْحٍ بَدَا تِلْقَاءَهُ يَتَنَفَّسُ

هنا تناص مباشر سطحي مطابق للنص الأصلي للآية القرآنية: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: 18]. أراد بهذا التناص أن يؤذن بنهاية مجلس الخمر مع بُدُو ضوء الصُّبْح. وبتشبيه حال المكروب المغموم الذي اجتمع الحزن في قلبه بالليل المظلم، وأشبه ظهور أنوار الصُّبْح بإخراج المحزون النفس حيث يجد فيه راحته.

تنوّعت مصادر شعر ابن الأزرقي في قصيدته، فهي مستمدة من التراث القديم من معان وألفاظ وصور، ولذا تجده يتناص مع كثير من القصائد القديمة، ففي قوله⁽³⁾:

12 صَفَرَاءُ كَالْعَقِيَانِ فِي الْأَلْوَانِ لِلَّ * دُمَانٍ كَالشَّهْبَانِ مِنْهَا أَكْوَسُ

14 وَحَبَابُهَا يُقْنَى بِأَسْنَى جَوْهَرٍ * أَنْفَى لَغَمِّ الْمُعْدِمِينَ وَأَنْفَسُ

تناص مع قول أبي نواس - الكامل -⁽⁴⁾:

صَفَرَاءُ تَسْلُبُكَ الْهُمُومُ إِذَا بَدَتْ * وَتُعِيرُ قَلْبَكَ حُلَّةُ السَّرَّاءِ

وفي قوله - البسيط -⁽⁵⁾:

صَهْبَاءُ تَبْنِي حَبَاباً كُلَّمَا مُزِجَتْ * كَأَنَّهُ لَوْلَوْ يَتَلَوُّهُ عَقِيَانُ

1- ينظر: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، مفتاح محمد، دار النشر للنشر، بيروت، لبنان، د. ط، 1985م، ص121.

2- أزهار الرياض، المقرئ، ج3، ص320.

3- المصدر نفسه، ن. ص.

4- ديوان أبي نواس، ج3، ص7.

5- المصدر نفسه، ج3، ص324.

فوصفُ ابن الأزرق للون الخمر في الرّجاجة وحال امتزاجها بالماء وعند صبّها في الكؤوس، وما تفعله بشاربيها، وما تفعله بشاربيها من إذهاب الهموم وجلب للسّرور، هو نفسه وصف أبي نواس للخمر، وهنا يظهر لنا مدى تأثير شعر أبي نواس في الخطاب الشعريّ لابن الأزرق.

5- ابن الخلف القسطنطيني (829 - 899هـ / 1425 - 1494م):

1- اسمه وكنيته ولقبه ونسبه:

أحمد بن محمد بن عبد الرَّحْمَنِ بن مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَنِ بن مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَنِ بن
 مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَنِ بن مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَنِ بن مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَنِ بن عبد
 الرَّحْمَنِ بن مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَنِ، الشَّهَاب⁽¹⁾ أَبُو الْعَبَّاسِ بن أَبِي الْقَاسِمِ الْحَمِيرِيِّ الْفَاسِيِّ
 الْأَصْلُ الْقُسْنَطِينِيُّ الْمَوْلَدُ التُّونِسِيُّ الدَّارُ الْمَغْرِبِيُّ الْمَالِكِيُّ⁽²⁾.

وقع الخلاف في اسمه بين (ابن الخلوف بالألف واللّام⁽³⁾)، وابن خلوف مع ترك الألف واللّام، والخلوف بدون ذكر ابن⁽⁴⁾)، وكذا اختلف في ضبط حركات حروفه (الخلوف)، فمنهم من يذكره بلفظ (الخُلُوف بفتح الخاء وضَمّ اللّام)، وآخرون بلفظ (الخُوف بفتح الخاء مع تشديد اللّام)، وبعضهم بلفظها (الخُوف بضَمّ الخاء واللّام). والذي يميل إليه بعض الدّارسين (ابن الخُوف بفتح الخاء وضَمّ اللّام)⁽⁵⁾.

2- مولده ونشأته:

كان مولده في ثالث من شهر محرّم سنة (829هـ / 1425م)⁽⁶⁾ بقسنطينة. ثم ارتحل به والده إلى المشرق فعاش في مكّة فمكث بها أربعة أعوام، ثم استقر في القدس وهناك تلقى تعليمه على يد ثلّة من العلماء، كان لهم أثر في تكوينه العلمي والأدبي⁽⁷⁾. ثم عاد إلى تونس بعد

1- ويعرف أيضا بكنية(شهاب الدين)، ينظر: تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي، ج2، 68.

2- ينظر: الضوء اللامع، السخاوي، ج2، ص122.

3- ينظر: المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس، ابن أبي دينار، ص149.

4- ينظر: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، روبر برنشفيك، ص430.

5- ينظر: مقمّة ديوان شهاب الدّين ابن الخلوف، تحقيق: هشام بوقمرة، الدّار العربيّة للكتاب، د. ط، 1988م، ص13، 14.

6- ورد على غلاف كتاب (ابن الخلف القسطنطيني، وديوانه جنى الجنّتين في مدح خير الفرقتين) للعربي دحو، دار الأممية، ط3، 2013م، تاريخ مولده ووفاته على هذا النحو(827هـ / 1454م - 899هـ / 1526م) وهذا خطأ في تاريخ الولادة، وتاريخ الوفاة بالتأريخ الميلادي غير موافق للهجري، والظاهر أنّ الخطأ مطبعي، لأنّ ما هو منصوص عليه داخل الكتاب أنّ تاريخ مولده ووفاته هكذا(829 - 899هـ / 1425 - 1494م).

7- ينظر: الضَّوءُ اللَّامِعُ، السَّخَاوِيُّ، ج2، ص122.

سنة (864هـ/1459م) وانقطع لخدمة الأسرة الحفصية حيث عينه ولي العهد المسعود بالله (ت875هـ/1470م) كاتباً لديه رفقة محمد الخير الملقب⁽¹⁾.

3 - شيوخه:

من شيوخ ابن الخلف بالقدس الشريف أبو القاسم التويري (812 - 875هـ/1400 - 1471م) الذي لازمه وأخذ عنه الفقه والأصول واللغة، والعز المقدسي (771 أو 772هـ - 850هـ/1369 أو 1370 - 1446م)، وبمصر أخذ النحو والصرف والمنطق عن العز عبد السلام البغدادي (ت859هـ/1455م)، وبتونس اتصل بأحمد السلاوي (873هـ/1468م)⁽²⁾.

4 - أوصافه:

وصف السخاوي - الذي التقى ابن خلف حين كان يتردد على مصر -⁽³⁾ حيث أعجب به، وباعتنائه بجمال مظهره وحرصه على حسن هيئته، ونقل لنا اجتهاده في إظهار أثر النعم عليه، مع ميله إلى الظرافة والحدق وانتخاب أحسن العبارات عند المحادثة⁽⁴⁾ لتمكّنه من فنون القول، وهي أوصاف يراعيها من له اتصال كثير بالحكام.

5 - مؤلفاته:

خلف ابن الخلف آثاراً في مختلف العلوم والفنون؛ فألف في الفقه واللغة والعروض أكثرها منظوم، منها: نظم (مغني اللبيب عن كتب الأعراب) لابن هشام في النحو، ونظم (تلخيص المفتاح) للقزويني في البلاغة، وله في الصرف (جامع الأقوال في صيغ الأفعال)، وفي علم العروض (تحرير الميزان لتصحيح الأوزان)، وفي علم الفرائض له (عمدة الفارض في الفرائض)، وله شرح على ميميته (مواهب البديع في علم البديع)⁽⁵⁾، وهي كلّها في حكم المفقود، إلا ما

1- ينظر: رحلة عبد الباسط، ص22.

2- ينظر: الضوء اللامع، السخاوي، ج2، ص122.

3- تكررت رحلات ابن الخلف إلى المشرق (مصر والحجاز)، منها رحلته سنة (877هـ/1472م) أين حجّ تلك السنة. ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص123.

4- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

5- ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص122.

وصل من آثاره الشعرية، كبديعيته (مواهب البديع)⁽¹⁾، وديوانه الشعريّ المكوّن من جزأين، الأول منهما حقّقه هشام بوقمرة وهو ديوان جامع لخطابه الشعريّ في مختلف الأغراض الشعرية، والآخر يعرف بديوان الإسلام، وهو يحوي قصائد في المديح النبويّ، جمعها الشاعر بنفسه، وعنونه ب (جنى الجنّتين في مدح خير الفرقتين) حقّقه العربي دحو⁽²⁾.

6 - آراء الآخرين فيه:

كان ثناء أهل التّراجم والمؤرّخين على ابن الخلف أكثره منصبًا على الجانب الأدبيّ على الخصوص، قال فيه ابن أبي دينار (بعد 1092هـ / 1681م): «الكاتب البارع خاتمة كتّاب الدولة الحفصية»⁽³⁾. ولتمكّنه من الخطاب الشعريّ والنثريّ وبراعته فيهما: «عرف بين أدباء عصره بذي الصّناعتين، فهو حقّا من أمراء الشعر المتفتّنين وفحول الأدب البارعين طويل النّفس ضليع في فنّ القريض»⁽⁴⁾، وهو من أشهر الأدباء بتونس في القرن التّاسع بل هو: «خاتمة فحول العلماء بها والأدباء والشّعراء»⁽⁵⁾.

7 - وفاته:

كانت وفاة ابن الخلف على الأصحّ⁽⁶⁾ سنة (899هـ / 1494م) بتونس، ودفن بضريح سيدي محرز بن خلف⁽⁷⁾.

8 - نماذج من خطابه الشعريّ:

طرق ابن الخلف مختلف الأغراض المعروفة في الشعر العربيّ، من قصائد ومقطوعات وموشّحات وأزجال، أبان فيها على علو كعبه في هذا الميدان، فهو من المشاهير المجدين في

1- منها نسخة مخطوطة بدار الكتب الوطنية بالخزانة الأحمدية تحت رقم: 1429، في الصّفحات 19 - 26. ينظر: مقدّمة محقّق ديوان ابن الخلف، ص31.

2- ينظر: ابن الخلف القسنطينيّ، وديوانه جنى الجنّتين في مدح خير الفرقتين، العربي دحو، ص59.

3- ينظر: مقدّمة محقّق ديوان ابن الخلف، ص20.

4- تاريخ الجزائر العام، عبد الرّحمن الجيلالي، ج2، ص69.

5- شجرة النور الزكية، مخلوف، ج1، ص394.

6- هذا ما رجّحه هشام بوقمرة، خلافا لمن ذكر أنّ وفاته كانت سنة (910هـ / 1504م). ينظر: مقدّمة محقّق ديوان ابن الخلف، ص28، 29.

7- ينظر: تاريخ إفريقية في العهد الحفصيّ، رويار برنشفيك، ص430.

القرن التاسع الهجري في المغرب الإسلامي. تناول مختلف أغراض الشعر التقليدي مثل المدح، المديح النبوي، الرثاء، الغزل، الخمریات، الوصف، وأغراض أخرى مختلفة.

أ - المدح:

سخر ابن الخلوف ملكته الشعرية في مدح الأسرة الحفصية، فأكثر من مدح السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان⁽¹⁾ وولي عهده المسعود⁽²⁾ - الذي قرّبه منه وأدناه - حيث خلد مآثره بقصائد في ديوانه، وهو أكثر الممدوحين حظوة بشعر ابن الخلوف، فكانت أشعاره وموشحاته مثل: «... الحل التي طرّزها بمدحه في حياته، وهي باقية تنتشر بعد موته»⁽³⁾. ومن بعدهما الحفيد أبو زكريا يحيى بن المسعود⁽⁴⁾.

وفي مصر مدح زين الدين بن مزهر (ت 893هـ/1488هـ) كاتب السر⁽⁵⁾، ولم يقصر مدحه على رجال السياسة فحسب، بل توجه إلى مدح رجال العلم، فهذا السخاوي يذكر أن ابن الخلوف مدحه بشعر كثير، وأثنى عليه في كلام منثور⁽⁶⁾. ومقابل هذا المدح والثناء شمله إحسانهم وكرمهم وأغدقوا عليه ألوان العطايا، وظهرت عليه آثار تلك العناية، وقد صرح في شعره أن من بواعث السفر إلى تونس من المشرق في شبابه هو كرم السلطان أبو عمرو عثمان، وهذا في قوله⁽⁷⁾ - الطويل -:

دَعَانِي عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ ذَوَالُهُ ❀ فَحَقَّقَ آمَالِي وَأَوْهَى شَكَايَتِي

ابن الخلوف ممن اتخذ شعره وسيلة تكسب واستعطاء واسترضاء، فينشد القصائد وينتظر النوال لقاء ذلك، يقول مخاطبا أبا عمرو عثمان⁽⁸⁾ - الطويل -:

إِلَيْكَ رَعَاكَ اللَّهُ مِدْحَةً مُقْتَرِ ❀ يُحَاشِيكَ أَنْ تَلْقَى الْمَدِيحَ بِلَا بَرٍّ

1- ينظر: ديوان ابن الخلوف، ص 70-151.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص 152-224.

3- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ابن أبي دينار، ص 149.

4- ينظر: ديوان ابن الخلوف، ص 233-244.

5- ينظر: المصدر نفسه، ص 233.

6- ينظر: الضوء اللامع، السخاوي، ج 2، ص 123.

7- ديوان ابن الخلوف، ص 90.

8- المصدر نفسه، ص 92.

شَكَوْتُ بِهَا جَوْرَ الزَّمَانِ وَإِنَّمَا * شَكَوْتُ أَخَا رِقٍّ إِلَى الْمَلِكِ الْبَرِّ

فيصرح حيناً ويعرض أحياناً، من ذلك استجداؤه أبا عمرو عثمان بقوله⁽¹⁾ - الطويل - :

فَجُدْ بِالرِّضَا لِابْنِ الْخُلُوفِ فَإِنَّمَا * أَيَادِي رَجَاهُ نَحْوَ جُودِكَ مُدَّتِ

وَلَا تَنْسَنِي مِنْ جُودِكَ الظَّمُّ بَعْدَمَا * أَمَرْتَ بِأَنْعَامٍ لِعَبْدِكَ بُدَّتِ

ويتجدد نفس الطلب وهو ترجي الرضا - حتى كأنك تحس أنه يخاف حيف ممدوحه عليه وقطيعتهم⁽²⁾ - مع الاستعطاء من فضل ولي العهد المسعود، وهذا في قوله⁽³⁾ - الطويل - :

أَمْوَلَايَ إِنَّ الْقَصْدَ آلَ مَالِهِ * إِلَيْكَ وَأَيْدِي الْحَالِ نَحْوَكَ مُدَّتِ

فَجُدْ لِلْخُلُوفِ النَّازِحِ الدَّارَ بِالرِّضَا * عَلَى مُهْجَةٍ لِلْهَلِكِ فِيكَ اسْتَعَدَّتِ

ومما يسجل على خطابه المدحي من حيث الشكل ميله إلى القصائد المطولة، وهي من جنس القصيدة المركبة التي تتكون من عدة أغراض تبني هيكل القصيدة، وجاءت مستجيبة للبناء الفني للقصيدة العربية⁽⁴⁾. ولم يخرج عن النظام الذي سار عليه القدامى في القصيدة المدحية، فهو يفتتحها بالغزل ويطيل في مقدمته الغزلية حتى إنه ليسحب المتلقي معه إلى الاعتقاد أنها من قبيل القصيدة البسيطة ذات الغرض الواحد لإسهابه، فهو صاحب نفس طويل - كما وُصف -، ومن ثم يخلص إلى تعداد محاسن ممدوحه. ففي القصيدة الأولى من ديوانه مدح بها ولي العهد المسعود تجاوزت أبيات الغزل فيها اثنين وثلاثين بيتاً وهذا قبل التخلّص لمدح المسعود⁽⁵⁾. إلى جانب هذا حوى ديوانه قصائد بسيطة ومقطوعات خصّصها لغرض المدح فقط، لكن لا يعلم فيمن قيلت، جعلها محقق الديوان تحت عنوان (مدائح لم يذكر فيها اسم الممدوح)⁽⁶⁾.

1- ديوان ابن الخلوف، ص 92.

2- هذه العلاقة تخلّلتها بعض الفتور والقطيعة، فقد تخلّى عنه المسعود سنة (888هـ/1483م). ينظر: رحلة عبد الباسط، ص 22.

3- ديوان ابن الخلوف، ص 176.

4- قسّم القرطاجني القصيدة إلى بسيطة ومركبة، فالأولى كالقصيدة المدحية أو الرثائية الصرفة، والأخرى ما اشتملت على غرضين مثل النسيب والمدح. ينظر: منهاج البلغاء، القرطاجني، ص 273.

5- ديوان ابن الخلوف، ص 152 - 155.

6- المصدر نفسه، ن. ص.

هذا وإن موضوعات المديح لدى شاعرنا هي نفس تلك التي طرقها الشعراء من قبله، كالتنويه بالجدود والكرم والشجاعة والبسالة والعدل والإنصاف وعلم إلى غيرها من الأوصاف الخلقيّة، وقد يجنح للمبالغة في وصف ممدوحيه. وتجد تلك الصور التي وردت في الشعر القديم تتكرر لدى شاعرنا وصداها موجود في مدائحه. من ذلك قوله⁽¹⁾ في أبي عمرو عثمان واصفا إياه بالجدود والعلم، حتى إنّه يراه أجود من حاتم الطائي (ت46 ق. هـ / 578م) وأعلم من مالك بن أنس (93 - 179 هـ / 712 - 795م) - الكامل - :

عَلِمَ إِذَا مَا قُلْتُ: أَقْرَانَا الْغِنَى * فَلَقَدْ تَقُولُ: بِعِلْمِهِ أَقْرَانَا
لَوْ عَايَنَ الطَّائِي وَمَالِكُ شَخْصَهُ * قَالَا: نَعَمْ هَذَا الَّذِي أَغْنَانَا
فَهُوَ الْفَرِيدُ نَدَى وَعِلْمًا قَدْ رَوَى * غَرَرَ الذَّوَالِ وَقَرَّرَ التَّبْيَانَا

وفي شجاعته ورباطة جأشه وهيبته وبطشه بأعدائه قال⁽²⁾ - الكامل - :

لَا يَسْتَكِنُ الرُّعْبُ بَيْنَ ضُلُوعِهِ * وَاللَّيْثُ لَا يَتَخَوَّفُ السَّرْحَانَا
لَمْ تَكْتَسِ أَعْدَاكَ إِذْ حَارِبَتْهُمْ * ضَافِي الدُّرُوعِ بَلِ اكْتَسَوْا أَكْفَانَا
غَادَرْتَ أَوْجُهُهُمْ بِحَيْثُ لَقَيْتَهُم * أَقْنَاهُمْ وَعَيُونُهُمْ أَذْقَانَا

ب - الشعر الديني:

1 - المديح النبوي:

لابن الخلوف في الشعر الديني ديوان شعر في مدح النبي (ﷺ) قدّم له بكلام منثور أبان فيه عن الدوافع التي قادته لتخصيص الجزء الثاني من ديوانه للمديح النبوي، والذي عقد له عنوانا، وبين فيه محاوره الكبرى، فقال: « فعندما احتويت تلك السّهام (يريد سَهْمِي النثر والشعر) أدخرتها للرّماية في سبيل القدّوس السّلام، ولم أجد لهما غرضا أو هدفا يرتضي إلا تحسين وصف سيّد الأكوان، ونظم بعض معجزاته التي لا يحصرها حسابان، ولا يحويها ديوان... وأتّي لناثر أو ناظم وصفا ما حواه من المحاسن والمفاخر... وهذا أوان الوفاء بما وعدت، وإبراز ما إليه أشرت من مدائحه التي مدحتها بصفاته، وحبرتها بدرر معجزاته وآياته، وما امتدحت

1 - ديوان ابن الخلوف، ص139، 140.

2 - المصدر نفسه، ص139، 140.

بأبياتي محاسنه، لكنني مدحت بها حسن أبياتي. وحين تمّ ما أردت من المدح نظماً ونثراً، وسبكت لجينها فأظهرته جودة السبك بقواه، سمّيت الديوان المشتمل على جوهره (جنة الجنّتين في مدح خير الفرقتين) ومن الله أرغب أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه»⁽¹⁾.

هذا النصّ يبرز شدة اهتمام ابن الخلوف بالمديح النبويّ، حيث خصّص لهذا الشأن ديواناً خاصاً سمّاه (جنى الجنّتين). كما أشار إلى الدوافع التي قادته إلى هذا العمل، منها طلب القربى من الله (ﷻ)، فقد عمل على تسخير موهبته الشعرية خدمة للنبي (ﷺ)، ويشير في قوله (وما امتدحت بأبياتي محاسنه، لكنني مدحت بها حسن أبياتي) لاسترعاء ذهن المتلقّي لشعره الدينيّ، وذلك لعلمه بتعلّق الناس بالأمجاد النبوية خاصة في المناسبات الدينية كمواسم المولد. كما اتخذها وسيلة للتكفير عمّا اقترفه من المعاصي وجناه على نفسه من الآثام، وقد صرّح بذلك في قوله⁽²⁾ - مجزوء الكامل -:

قَالُوا: بِمَا تَلَقَى الْإِلَ * وَأَنْتَ عَاصٍ مُّعْتَدٍ
فَقُلْتُ: بِالْوَجْهِ الَّذِي * لِغَيْرِهِ لَمْ يَسْجُدِ
وَبِأَمْتِدَاحِ حَبِيبِهِ * خَيْرِ الْأَنَامِ مُحَمَّدٍ

تناول ابن الخلوف في خطابه الدينيّ أهم قضايا المديح النبويّ (ذكر شمائله وأخلاقه وأوصافه ومعجزاته وسيرته...) ⁽³⁾. وله أيضاً قصائد أخرى في الجزء الأول من ديوانه، في غالبها يستفتحها بمطالع غزلية قبل التخلّص إلى المدح، منها قوله⁽⁴⁾ في أول قصيدة من الديوان - الكامل -:

طَهَ الَّذِي أَبْدَى الْهُدَى لَمَّا مَحَا * لَيْلُ الضَّلَالَةِ بِالْيَدِ الْبَيْضَاءِ
وَهُوَ الَّذِي مَلَأَ الْقُلُوبَ بِحُكْمِهِ أَلْ * مَحْمُودٍ مِنْ خَوْفٍ لَهُ وَرَجَاءِ
وَهُوَ الَّذِي قَسَمَ النَّدَى بِيَمِينِهِ * وَشِدَائِهِ فِي شِدَّةٍ وَرَخَاءِ

1- ينظر: ابن الخلوف القسنطيني، العربي دحو، ص102.

2- ديوان ابن الخلوف، ص139، 140.

3- قام محقق هذا الجزء من الديوان (العربي دحو) بدراسة الخصائص الفنية لشعر ابن الخلوف الوارد في هذا الديوان. ينظر:

ابن الخلوف القسنطيني، العربي دحو، ص147 - 195.

4- ديوان ابن الخلوف، ص49، 50.

فَبَدَا وَحُكْمُ الْفَضْلِ فِي أَصْحَابِهِ وَمَضَى وَحُكْمُ السَّيْفِ فِي الْأَعْدَاءِ
تَلَقَّاهُ فِي جُودٍ وَبَأْسٍ رَافِلًا كَمُهَنْدٍ فِي حَدَّةٍ وَصَفَاءِ
وَتَرَاهُ مِنْ بَيْنِ الْأَسِنَّةِ سَافِرًا كَالْبَدْرِ بَيْنَ كَوَاكِبِ الْجَوَازِ

كما أُلِّفَ في فنِّ البديعيات - القائم على المزوجة بين ألوان علم البديع والمديح النبوي -
بديعيتها (مواهب البديع في علم البديع) تقع في ستٍّ وعشرين ومأتي بيتٍ (226 بيتاً)، منها
ثمانون بيتاً في المديح النبوي⁽¹⁾.

مطلعها⁽²⁾ - البسيط - :

أَمِنْ هَوَى مَنْ ثَوَى بِالْبَانَ وَالْعَلَمِ هَلَّتْ بِرَاعَةِ مُزْنِ الدَّمْعِ كَالْعَنَمِ
أَمْ مِنْ بُرُوقِ بُرُوقِ الْحَيِّ إِذْ لَمَعَتْ تَمَّتْ مُمَاتِلَةُ الْأَحْشَاءِ لِلضَّرَمِ

2 - الزَّهْدُ :

كان تقدّم العمر وظهور علامات الكبر من شيب ومرض من الأسباب التي دفعت ابن
الخلوف إلى الإقلاع عن غيِّ الشَّباب وطيشه، كمعاقرة الخمر وحضور مجالسها، ولكنّه أقْلَع
عن ذلك كلّهُ، وهذا يفهم من قصيدته التي ردّ فيها على ذلك الذي أرسل إليه خطاباً شعريّاً
يدعوه إلى العودة إلى مجالس الخمر، ويذكره الخمر وأوصافها، ولكنّه أبى عليه وامتنع من
إجابته، فقال⁽³⁾ - الوافر - :

سَلَامُ اللَّهِ مَا وَضَحَ الْمُحْدِيَا وَمَا أَبَدَتْ تَحْدِيَّتَهَا الثُّرَيَّا
عَلَى مَنْ جَاعَنِي مِنْهُ نِظَامٌ حَكَى الدُّرَّ النَّفِيسَ الْجَوْهَرِيَّا
يَذْكُرُنِي بِلَيْلَتِنَا الَّتِي قَدْ غَدَا كُلُّ بِرْهَا مِذَا عَصِيَّا
وَيَسْأَلُنِي سُؤَالَ أَخٍ اعْتِذَارٍ وَقَدْ أَقْلَعْتُ عَنْ شَرْبِ الْحُمِيَّا
وَيُوصِفُهَا لَذِي صَمَمٍ وَمَنْ ذَا رَأَى صَمَمًا يُجِيبُ نِدَاً خَفِيَّا

1- ابن الخلوف القسنطيني، العربي دحو، ص 63.

2- ينظر: مقدّمة ديوان ابن الخلوف، ص 32.

3- ديوان ابن الخلوف، ص 393، 394.

ثم راح يظهر موقفه الرافض للرجوع إلى شرب الخمر، كيف وقد أقسم أن لا يعود إليها وأظهر التوبة وسأل الله أن يعفو عنه وأن يسقيه يوم القيامة شراب أهل الجنة فقال (1) - الوافر - :

وَقَدْ آلَيْتُ إِذْ أَفْلَعْتُ عَنْهَا ❁ بِأَنْنِي لَا أَعُودُ بِهَا حَفِيًّا
لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمُنِي وَيَعْفُو ❁ وَيَغْفِرَ مَا جَنَنْتُهُ يَدِي عَلَيَّا
وَيَسْقِينِي بِهَا يَوْمَ التَّقَاضِي ❁ شَرَابًا سَدَسَدًا سُدْرِيًّا

وهذه الإفاقة من سكر الصبا وجنونه دفعته إلى التوجه إلى الزهديات، ويتجلى في تضرعاته وابتهالاته وتوسلاته واعترافاته التي حملها شعره الزهدي، كقوله (2) - الكامل - :

يَا رَبِّ قَدْ سَاءَتْ ظُنُونِي إِذْ سَجَا ❁ دَاجِي ضَلَالِي وَاخْتَفَى صُبْحُ الْهُدَى
وَابْيَضَّ أَسْوَدُ مَفْرِقِي لَمَّا رَأَى ❁ مُبْيَضَّ قَلْبِي بِالذُّنُوبِ تَسْوَدَا
لَكِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَدْعُونِي لِأَنْ ❁ أَدْعُوكَ يَا مَنْ بِالْجَمِيلِ تَفَرَّدَا
فَبَجَاهِ يَسِ الْمُشَفِّعِ نَجِّنِي ❁ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَالْهَوَى وَمَنْ اغْتَدَى
وَأَجِبْ دُعَائِي وَاعْفُ عَن ذَنْبِي وَجُدْ ❁ فَجَمِيلُ ظَنِّي فِيكَ قَدْ بَسَطَ الْيَدَا

3 - الغزل:

ليس لدينا تفسير لميل ابن الخلوف إلى كثرة الشعر الغزلي في ديوانه (3) الذي حوى قصائد غزلية وموشحات ومقطوعات، التَّغَزَّلَ فيها محور أساس في بنيتها، سوى أمرين اثنين، أولها مرحلة شبابه والتي يرى هشام بوقمرة أن ابن الخلوف عاش هذه الفترة ميالا لحياة الترف في ظل الأسرة الحفصية، ويظهر ذلك في اهتمامه بمظهره، وهذا يلائم حياة اللهو والمجون والخمر ومنادمة ولي العهد المسعود، ولعل خير دليل على ذلك أشعاره الغزلية والخمرية (4). والتفسير الآخر جريا منه ومحاكاة للقصيدة العربية. وغزل ابن الخلوف من قبيل الغزل المصطنع إذ لم تُسَجَّلَ في حياة ابن الخلوف تجربة عاطفية. وما يسجل أيضا على شعره الغزلي امتزاجه بالخمريات ووصف الطبيعة وهذا كثير في شعره. أما موضوع خطابه الغزلي يقوم على وصف

1- ديوان ابن الخلوف، ص394.

2- المصدر نفسه، ص313.

3- القصائد الغزلية المحضة شغلت عشرين ومئة (120) صفحة من الديوان. ينظر: ديوان ابن الخلوف، ص256 - 376.

4- ينظر: مقدمة ديوان ابن الخلوف، ص21.

محاسن المرأة ومفاتها، ويصور اشتياقه وعشقه وشدة الغرام والهيام. ونجده يبدأ قصيدته الغزلية تارة بالاستفهام المتواتر شدا لانتباه المتلقي، من ذلك قوله⁽¹⁾ - الكامل -:

هِيَ زَهْرَةٌ لِلْمُجْتَنِّي الْمُتَدَشِّقِ ❀ أَوْ زَهْرَةٌ لِلْمُجْتَلِي الْمُتَعَشِّقِ؟
أَمْ جَنَّةُ الْمَأْوَى وَفِرْدَوْسُ الْمُنَى ❀ أَوْ دَارَةُ الْعَلْيَا وَشَمْسُ الْمَشْرِقِ؟
أَمْ ظَبْيَةُ الْوَادِي الْمُقَدَّسِ تَرْتَعِي ❀ رِيحَانَةُ الرَّوْضِ الْأَرِيضِ الْمُونِقِ؟
لَا شَيْءَ يُشْبِهُهَا وَكَيْفَ وَذَاتُهَا ❀ قَامَتْ بِأَوْصَافِ الْجَمَالِ الْمُطْلَقِ
أَمْ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تُشَبَّهَ مَنْ غَدَتْ ❀ شَرَكَ الْعُقُولِ وَحَيْرَةَ الْمُتَأَنِّقِ؟

ومن غزله تخميسه بيتين⁽²⁾ لأحد سلاطين بني الأحمر بالأندلس، نقله عنه السخاوي عند لقائهما بمصر سنة (881هـ / 1476م)، قال فيه⁽³⁾ - الطويل -:

أَمَاطُ الْهَوَى عَنْ وَاضِحِي بُرْقَعِ النَّسْكِ ❀ فَوَجَدْتُ⁽⁴⁾ مَنْ أَهْوَاهُ عَنْ هَوَا الشَّرَكِ
فَقُلْتُ وَقَدْ أَفْتَتُ لِحَاطُكَ بِالْفَتَكِ ❀ (أَفَاتَكَةَ اللَّحْظِ الَّتِي سَلَبَتْ نُسْكَي)
❀ (عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ لَا بُدَّ لِي مِنْكَ) ❀

يَمِينَا بِنَجْمِ الْقُرْطِ مِنْكَ إِذَا هَوَى ❀ وَخَالَ عَلَى عَرْشٍ بِوَجْنَتِكَ اسْتَوَى
لَنْ لَمْ تَفِي⁽⁵⁾ لَا بُدَّ لِلْقَلْبِ مَا نَوَى ❀ (فَإِمَّا بِذُلٍّ وَهُوَ أَلْيَقُ بِالْهَوَى)
(وَإِمَّا بِعِزٍّ وَهُوَ أَلْيَقُ بِالْمَلِكِ)

نسجل في هذا التخميس الغزلي حضورا للثقافة الدينية، حيث وظف ابن الخلف المصطلحات الشرعية مثل (النسك، الشراك، أفتت، نجم، العرش، استوى، ما نوى).

4- الخمریات:

كانت الخمریات من الأغراض التي شغف بها ابن الخلف، فخصها بقصائد ومقطوعات، كما كانت ضمن بناء قصائده، وتأتي ممزوجة بشعر الطبيعة والغزل، وقد برع في وصف

1- ديوان ابن الخلف، ص329.

2- وهما على التوالي ما بين قوسين في التخميس.

3- الضوء اللامع، السخاوي، ج2، ص123.

4- وفي ديوان ابن الخلف بدلها (فوجدت) من التوحيد. ينظر: ديوان ابن الخلف، ص341.

5- وفي الديوان بدلها (تف) على أساس أن المخاطب مذكر. ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

الخمير وأوانيتها وأشكالها وأحوالها ومجالسها وأصلها ويتغزل بساقيها، فكان نواصي المشرب في هذا المضمار. من ذلك قوله⁽¹⁾ - الطويل -:

مُدَامَ لَهَا فِي الدَّنِّ صُبْحُ مَسَرَّةٍ	✽	يَصُولُ عَلَى لَيْلِ الْهُمُومِ وَيَشْتَنُ
مُعْتَقَّةً فِي الْكَاسِ كَالنَّارِ فِي الصَّفَا	✽	إِذَا قَدَحَتْ لَمْ يَخْبُ مِنْ زَنْدِهَا سَفْطُ
شَمُولٌ طَلًّا صَفَرَاءُ حَمْرَاءُ قَهْوَةٌ	✽	سُلَافٌ حَيًّا صَهْبَاءُ حَمِيَاءُ إِسْفِنُطُ
يَطُوفُ بِهَا بِدَرٍّ كَأَنَّ قَوَامَهُ	✽	وَطَلَعَتْهُ شَمْسٌ عَلَى فَنَنِ تَخْطُو
لَدَى فِتْنَةٍ قَدْ أَحْكَمُوا عَقْدَ أَنْسِهِمْ	✽	عَلَيْهِمْ يَكُونُ الْحَلُّ فِي الْأَنْسِ وَالرَّيْطُ
يَقَرُّ بَعِينِي فِيهِمْ الْقُرْبُ وَالرَّضَى	✽	وَيُحْزِنُ قَلْبِي مِنْهُمْ الْبُعْدُ وَالشَّطُّ
يُعَاطِيهِمْ ظَبْيِي رَعَى الْقَلْبَ وَالْحَشَا	✽	وَلَمْ يَكْ مَرْعَاهُ الْأَثِيلُ وَلَا الْخَمْطُ
أَوَيْتُ هَوَاهُ فِي جُفُونِي وَمُهْجَتِي	✽	وَلَمْ يَأُوهِ مِنْ قَبْلِ جِدْعٍ وَلَا سَفْطُ

5 - الوصف:

برع ابن الخلوف في الوصف وأكثر منه، فطرق مختلف الموضوعات الوصفية، وامتزجت بشعر الغزل والخمريات، وكان منها وصف الطبيعة، وهو من أهم الموضوعات التي شغف بها شاعرنا، وقد أغرق في وصف مظاهرها، إذ استقر قريحته جمال الطبيعة وسحرها من رياض وأزهار وحدائق وأنهار، ونجوم وكواكب وغيوم وأمطار... وصار يستعين بها في تكوين لوحاته الفنية. ومن ذلك وصفه لشجرة السرو (العرعر) الخضراء ذات الجذع الأسود وعليها ثمارها حين يهب النسيم، شبها بالمرأة ذات الحلة الخضراء التي زادها جمالا تلك الفصوص⁽²⁾ ذات اللون الترابي، أما جذعها فهو كساق زنجية أسود، اضطررها لكشفه وتشمير ثوبها فزع أصابها، وذلك حين هبوب النسيم، وقد وصف في تلك الحال تمايل قضبانها التي تحمل أوراقا مسمارية كثيفة، شبها بشعر المرأة المتدلي، يهتز رأسها اهتزازا دائما كالسكران الذي لا يفيق من سكره ولا يمل من شراب. فقال⁽³⁾ - الطويل -:

1- ديوان ابن الخلوف، ص202.

2- الفصوص جمع فص وهي المفاصل من العظام. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (فصوص).

3- ديوان ابن الخلوف، ص401.

وَسَرَوْلَةٍ شَقَّ النَّسِيمُ رِدَاءَهَا * فَأَبْدَتْ فُصُوصَ الثَّبْرِ فِي الْحُلِّ الْخَضِرِ
كَزَنْجِيَّةٍ وَشَتَّ بِجَزَعٍ وَشَمَمَرَتْ * عَنِ السَّاقِ ذَيْلًا وَاکْتَسَتْ حُلَّةَ الشَّعْرِ
إِذَا سُقِيَتْ كَأْسَ الْبَهَا قُضِبُ سَوْقِهَا * أَمَالَتْ رُؤُوسًا لَا تَمَلُّ مِنَ السُّكْرِ

هذا وقد استطاع ابن الخلوف أن يخلق صورا جديدة مبتكرة غير مطروقة من قبل، وهذا في وصفه للقرنفل الأخضر في الرياض، حيث يرى صاحب (خلاصة الأثر) أن ابن الخلوف تمكن من ابتكار تشبيه تناقله المشارقة ونسجوا على منواله، وهذا في قوله (1) - البسيط - :

وَلِلدَّقَرَنُفْلِ رَاحَاتٌ مَخْضَبَةٌ * عَلَى مَعَاصِمِ خُضْرِ فِتْنَةِ الرَّائِي
كَأَنَّجُمٍ مِنْ عَقِيقٍ فِي ذُرَى فَلَكٍ * مِنَ الزُّجَاجِ أَرَتْ أَشْطَانَ لِأَلَاءِ

6 - أغراض أخرى:

كانت للمنافسة الشديدة بين ابن الخلوف وبين غيره من الشعراء في البلاط الحفصي وخاصة محمد الخير المالقي أثر في شعره، ويظهر من خلال المعارضات التي دارت بينه وبين الشعراء، وهو لا يدع مناسبة إلا وتجده يعتد بنفسه، فيفتخر بشاعريته وتألقه في فنون الأدب، من ذلك ما أورده في موشحه الغزلي (قَابَلَ الصُّبْحُ الدُّجَى فَاَنْهَزَمَا) الذي لا يغادره حتى يفتخر بشاعريته، ويباهي بتألقه في ميدان الأدب وفنونه كالبديعيات، وبالمقابل ينتقص من خصومه وينسبهم إلى قلة المعرفة بالشعر وأوزانه، ويعيبرهم بقصورهم الأدبي ويطعن في شاعريتهم، ويسخر منهم ويعرض بحالاتهم النفسية المرضية، إذ يقول (2):

مَرَّقَ الْقَلْبَ وَلِلطَّرْفِ عَمَى * * * وَبِهِ بُرْءُ الْأَسَى وَالطَّمَسِ
وَبِدَمْعِي أَغْرَقَ الْجَفْنَ كَمَا * * * أَحْرَقَ الْقَلْبَ بِذَارِ الْهَجَسِ
بِ (الْخُلُوفِ) النَّظْمُ فِي الْأَفْقِ الرَّفِيعِ * * * وَبِهِ قَدْ صَارَ فِي أَعْلَى الرُّتَبِ
شَاعِرُ الدُّنْيَا إِمَامُ أَهْلِ الْبَدِيعِ * * * قِيمُ النُّظَامِ شَيْخُ أَهْلِ الْأَدَبِ
قَدْ حَبَا اللَّهَ بِأَزْهَارِ الرَّبِيعِ * * * شِعْرُهُ فَأَعْتَزَّ عَنْ شِعْرِ الْعَرَبِ

1- ينظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمد أمين بن فضل الله المحبّي، المطبعة الوهبيّة، القاهرة، 1284هـ، ج2، 395.

2- ديوان ابن الخلوف، ص307.

قُلْ لِمَنْ عَارَضَهُ كُنْ فَهَمَّا * * * لَا تَرِ الدُّخَانَ مِثْلَ الْقَبَسِ
إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نِعَمًا * * * لَمْ يَنْدُلْهَا أَحَدٌ بِأَلْهَوَسِ

فابن الخلوف هجاء سليط اللسان، شديد الخصومة، ماهر بخصومه، منتقم من حاسديه، قولا وفعلا، وقد مر بنا شيء من شعره في هجاء المالقي، وقد حملته عبد الباسط في رحلته مسؤولية جنون خصمه المالقي.

7 - الرثاء:

كان للأحداث الأليمة التي ألمت بابن الخلوف أثر في تحريك قريحته والتفاعل معها، فقد ترك فقد الولد فيه أثرا بالغا، وأظهر الشاعر انفعالا وتأثرا حين غيب الموت عنه ولده محمد، فرثاه بقصيدتين، جاء في إحداها⁽¹⁾ - البسيط -:

أَصَبْتَ عَيْنَ الْمَهَا يَا مَوْتَ بِالرَّمْدِ * * * وَقَدْ أَهَضْتَ جَنَاحَ الْمَجْدِ فَاتَّئِدِ
جَدَعْتَ مَارِنِي الْأَفْنَى وَعَنْ غَرَضٍ * * * رَمَيْتَ جَفْنِي بَعْدَ الْمَوْتِ بِالسَّهْدِ

وبعد أن عدد ما يصنعه الموت من تغييب للأحباب وتفريق للأصحاب وخراب للعمران، وبعد بذل النصيحة بلسان حكيم مجرب إلى عدم الركون إلى حياة آخرها فناء، أنشأ يظهر شدة الألم والحزن والتفجع على فراق ابنه مع شيء من التهويل قصد إبراز فاجعته، فهو يرى ابنه قمرا خُسف ضوءه لا يستطيع الصبر عن فراقه، فالعين باكية والقلب في كمد، وهذا في قوله⁽²⁾:

لَهْفِي وَهَلْ نَافِعِي لَهْفِي عَلَى وَلَدٍ * * * إِذَا لَجَأْتُ لِصَدْرِ فِيهِ لَمْ أَجِدِ
لَهْفِي وَهَلْ نَافِعِي لَهْفِي عَلَى قَمَرٍ * * * رَمَاهُ بِالْخَسْفِ نَحْسُ الطَّالِعِ النَّكَدِ
لَهْفِي وَلَهْفَ بَنِي الْأَيَّامِ قَاطِبَةً * * * عَلَى مُحَمَّدٍ إِذْ وَلَّى وَلَمْ يَعُدِ
وَكُلُّ عَيْنٍ بِمَاءِ الدَّمْعِ فِي غَرَقٍ * * * وَكُلُّ قَلْبٍ بِنَارِ الشَّوْقِ مُتَّقَدِ

2 - خطابه النثري:

إن براعة ابن الخلوف النثرية لم تكن أقل من براعته الشعرية، فقد اشتغل كاتباً لدى الأسرة الحفصية. غير أنه لم يصلنا من خطابه النثري إلا التأليفي منه، وحتى هذا الضرب من التأليف

1- ديوان ابن الخلوف، ص250.

2- المصدر نفسه، ص253.

وصلتنا منه مقدّمة لديوان (جنى الجنّتين). عمل ابن الخلف على تطوير مهاراته الأدبيّة، وحرص على الإبداع الفنّي، وهناك نصّ أوردّه بيّن فيه الخطوات التي خطاها حتى أصبح شاعرا مجيدا وكاتبا ناثرا، وكيف تسنّم سنام الأدب. يقول: «كنت ممّن وُلِع بعصفوريّ النّظم والنّثر في الصّبّا، مستوها من دوحيهما نستمي القبول والصّبّا، مقتظا لزهريّتها من رياض الآداب، لا أسلك واديا لم تترنّم فيه حمامها، ولا أعكف على حديقة لم تمطر فيها غمامها، ولا أقرب سماء لم تلح فيها زواهرها، ولا أخوض بحرا لم تتكوّن فيه جواهرها، إلى أن ظفرتُ بالمطلوب بأوفى نصيب، واحتويْتُ على كنانتيهما على كلّ سهم مصيب»⁽¹⁾.

هذا النصّ ذو أهميّة كبيرة، من حيث أنّه نصّ أدبيّ يفصح عن أسلوب ابن الخلف النثريّ، وأيضا هو وثيقة تاريخيّة تُعين مؤرّخي الآداب على معرفة الخصائص الفنيّة لأدب هذه الفترة وجانبا من الحياة الأدبيّة لابن الخلف، كما أنّه ذو قيمة نقدية. نحاول الوقوف على بعض الرّؤى النقديّة عند ابن الخلف في هذا الخطاب النثريّ، فهو ليس شاعرا وناثرا فحسب بل نلمس في روح النّقد.

هذا الخطاب النقديّ مقتطع من مقدّمة ديوانه (جنى الجنّتين)، وهي مقدّمة كما يقول محقّق الكتاب: «مقدمة شيّقة في أسلوبها، رائقة في تعبيرها»⁽²⁾، النصّ النقديّ يعالج قضية من قضايا النّقد، وهي كيفية اكتساب الملكة الفنيّة، والمهارات الإبداعية وسبل التّرقّي في سلم الإبداع الأدبيّ. وهي قضية أثارها النّقاد قديما وحديثا، فابن الخلف لم يأت بجديد بل هو مشارك في قضية من قضايا النّقد، إلّا أنّه نقد مصدره التجربة الدّائية، وهذا شيء مهمّ حيث يجتمع الجانب التّنظيريّ والتّطبيقيّ.

والملكة في أيّ مجال ما هي إلّا حالة نفسانيّة راسخة، تتكوّن بشكل مستمرّ بطيء بفعل التّكرار حتى تستحيل عادة وخلقا وصناعة⁽³⁾. وهنا حديث ابن الخلف عن الملكات الاكتسابيّة دون الملكات الفطريّة أو ما يعرف بالطّبع - رغم أنّ تلك الاستعدادات الفطريّة الغريزية تمكّن

1- ينظر: مقدّمة ديوان ابن الخلف، ص17.

2- ينظر: ابن الخلف القسنطيني، العربي دحو، ص101.

3- ينظر: معجم التّعريفات، علي بن محمّد الشّريف الجرجاني، تحقيق: محمّد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنّشر والتّوزيع والنّصدير، القاهرة، د. ط، د. ت، ص193.

صاحبها من الإبداع وتغنيه عن الاستعداد المعرفي أحيانا، خلافا لمن قصرت ملكته الطَّبعية، وهذا ما رآه النقاد العرب القدامى من مثال ابن رشيق القيرواني الذي يقول: «والمطبوع مستغن بطبعه عن الأوزان وأسمائها وعللها، لِنُبُو ذوقه عن المزاحف والمستكره، والضعيف الطبع محتاج إلى معرفة شيء من ذلك يعينه على ما يحاوله من هذا الشأن»⁽¹⁾. ويكشف النص عن أهم الوسائل والأدوات والسبل التي سلكها لتنمية قدراته الأدبية. لابن الخلوف رؤية نقدية نابعة من تجربته الشخصية - لم يقتصر على الجانب التثقيري فحسب، بل مزج بين ما هو نظري وتطبيقي - يرى أن الأديب لا بد أن تنتهي له أمور ويحقق أشياء. منها مراعاة العامل العمرى، فالمرحلة الأولى للأديب (هنا لفظ الأديب باعتبار ما سيكون لا بما هو كائن) غاية في الأهمية، خاصة في مرحلة الطفولة التي تكفل له القدرة على اكتساب الحصيلة اللغوية من مفردات لغوية وتنامي الذوق الأدبي لديه، لقدرة الصغير على سرعة الاستيعاب والحفظ للنصوص الشعرية والنثرية، وهذا ما يراه النقاد المحدثون أيضا⁽²⁾. وأمر آخر مهم وهو الاستعداد النفسي، ويقصد به التعلق بفنون القول من المنظوم منها والمنثور. وهو ما أوضحه ابن الخلوف في استعمال كلمة (ولع) وهي شدة التعلق والمحبة لفنون الشعر والنثر.

وأمر آخر يجب أن يراعيه الأديب، وهو الزاد المعرفي، فعلى الشاعر أن يسعى إلى الإلمام بفنون الأدب، مع كثرة الحفظ للموروث الأدبي والتفاعل معه، وإلى هذا يشير بقوله (مقتظفا لزهريتها من رياض الآداب)، وعليه أن يتخير من عيون الأدب العربي شعرا ونثرا ويقبل عليه، وأن يعرض عن الرديء منها ويتجنبه، لما في ذلك من تأثير في الملكة والمنتوج الأدبي جودة ورداءة كثرة وقلة، وهذا ما يستفاد من قوله (لا أسلك واديا لم تترنم فيه حمامها، ولا أعكف على حديقة لم تمطر فيها غمامها، ولا أرقب سماء لم تلح فيها زواهرهما، ولا أخوض بحرا لم تتكون فيه جواهرهما). وعلى هذا المذهب والرأي سار ابن خلدون وغيره من النقاد، إذ بين بعض شروط تحصيل الملكة الشعرية: «اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صنعته شروطا، أولها: الحفظ من جنسه أي من جنس شعر العرب، حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها، ويتخير

1- العمد، ابن رشيق، ج1، ص134.

2- ينظر: سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب، يوسف مخائيل أسعد، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، 1986م، ص218 - 226.

المحفوظ من الحرّ النقيّ الكثير الأساليب... ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه قاصر رديء... وعلى قدر جودة الحفظ وطبقته في جنسه وكثرته وقلّته، تكون جودة الملكة الحاصلة... فالملكة الشعريّة تتشأ بحظ الشعر، وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والترسيل⁽¹⁾. ثمّ الحرص على امتلاك ناصية اللّغة والتمكّن من علومها (نحو وصرف وبلاغة وعروض)، إلى جانب هذا كلّه لابدّ من الاطّلاع على المعارف الإنسانيّة. فالأديب ذو كفاية ذاتيّة، ولا حاجة له إذا لم يمتلك كلّ هذه المعارف، وذلك لأن فنون القول وخاصّة الشعر منها؛ ذو صبغة واسعة⁽²⁾؛ يمسّ كلّ شيء، ولا يتمتع منه شيء.

ثمّ إذا توفّرت كلّ هذه الأدوات فعلى الأديب أن يسعى إلى الجانب العمليّ، وهو الممارسة والدربة والتّمرن على قول الشعر والخوض في مختلف الأجناس الأدبيّة، ولا بد من التّفاعل مع النّصوص المخزّنة في ذاكرته، فعليه أن ينسى صور المحفوظ من فنون القول التي انطبعت في النّفس، ومن ثمّ يحدث التّفاعل بطرق شتى منها محاكاة أسلوب السّابقين والنّسج على منوالهم. ولا بدّ أن تثمر تلك المحاولات الشعريّة والنّثريّة، فهو يُوجد لنفسه أسلوبا خاصّا به⁽³⁾. يمكن تسمية هذه المرحلة بمرحلة المشقّة، وهذا ما تفيد به عبارة السّخاويّ في ترجمته لابن الخلف: وتعانى الأدب فبرع نظما ونثرا⁽⁴⁾، وهي تشي بمعاونة ومجاهدة.

ومن التّوجيهات التي يمكننا استخلاصها من هذا النّص النّقديّ أنّ هناك جملة من العوامل المعينة على الإبداع الشعريّ، وهي: الخلوة واغتنام الأوقات السّانحة والأماكن المساعدة، وأفضل مكان يجد فيه الأديب راحته هو الطّبيعة، منها يستمدّ صوره ويغذيّ مخياله، وتوفّر صفاء الدّهن وتمدّه بمادّته الأدبيّة. حتى إنّ هذا النّص طافح بصور الطّبيعة بأرضها وسماؤها وحدائقها ووديانها وبرّها وبحرها وطيورها بمياهها وأشجارها. وفي وقوله (إلى أن ظفرتُ بالمطلوب بأوفى نصيب، واحتويت على كنانتيهما على كلّ سهم مصيب)، يشير إلى أنّ

1- مقدّمة ابن خلدون، عبد الرّحمن ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للنشر، مصر، ط6، مارس 2014م، ج3، 1163، 1169.

2- العمدّة، ابن رشيق، ج1، ص196.

3- ينظر: مقدّمة ابن خلدون، ج3، ص1164.

4- ينظر: الضّوء اللّامع، السّخاويّ، ج2، ص122.

الأديب الذي تمكن من تطوير ملكته الفنية وصقلها، يخوض في ما برع فيه وما نشطت فيه ملكته من شعر أو نثر، ومن ثمّ يستطيع أن يؤثر في المتلقي، فالعمل الأدبي لا يسري فيه ماء الحياة إلا إذا كان هناك تفاعل بين طرفي العملية الفنية المبدع والمتلقي.

6- محمد بن عبد الرحمن الحوضي (ت 910هـ/1505م):

1- اسمه وكنيته ولقبه:

هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن أحمد بن علي التلمساني، كنيته أبو عبد الله، ويعرف بالحوضي⁽¹⁾ أو الحوض بدون ياء⁽²⁾. ولد بتلمسان ولكن لا يعرف تاريخ مولده، نشأ في مسقط رأسه أين تلقى مختلف العلوم عن شيوخها، وأظهر اهتماما بالأدب وفنونه وبالعلوم اللسانية⁽³⁾. كان يقوم على تعليم الصغار القرآن الكريم، وبعض مبادئ العلوم الدينية كالعقيدة والنحو. وفي فترة من فترات عمره كفّ بصره، فكان يستعين بابنه محمد ليكتب عنه رسائله ومنظوماته وإجازاته، ويفهم من رسالته التي كتبها إلى أبي جعفر أحمد بن علي البلوي والمؤرخة في الثاني عشر ذي الحجة من عام ستّة وتسعين وثمان مائة (896هـ/1491م) والتي كانت بخطّ ولده محمد أنّه فقد بصره قبل هذا التاريخ⁽⁴⁾.

2- شيوخه:

أخذ الحوضي مختلف العلوم الدينية واللغوية عن أكابر العلماء والجلّة من الأعلام في تلمسان، نذكر منهم أبو عبد الله بن العباس شيخ الشيوخ (ت 871هـ/1466م)، وأخذ علم العروض عن الأستاذ الأديب أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن محمد بن مسعود البرشاني الغرناطي⁽⁵⁾.

3- وفاته:

توفي محمد بن عبد الرحمن الحوضي في شهر ذي القعدة سنة (910هـ/ أبريل 1505م)⁽⁶⁾، وذكر ابن القاضي المكناسي أنّ وفاته كانت في التاسع عشر شوال سنة (909هـ/ 1503م)⁽⁷⁾.

1- هذا النسب أورده كاملا أبو جعفر البلوي الوادي آشي في ثبته. ينظر: ثبت البلوي، ص 433.

2- ينظر: المعيار المغربي، المنشريسي، ج 6، ص 88.

3- ينظر: أدباء وشعراء من تلمسان، بوزيانى الدراجي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، د. ط، 2011م، ج 4، ص 533.

4- ينظر: ثبت البلوي، ص 433.

5- ينظر: المصدر نفسه، ص 183، 425، 434.

6- ينظر: وفيات المنشريسي، ص 114.

7- درة الحجال، ابن القاضي، ج 2، ص 145.

4- آراء الآخرين فيه:

حظي الحوضي بمكانة علمية وأدبية في تلمسان جعلته محلّ ثناء من العلماء وأصحاب التراجم، فوصفه أبو جعفر البلوي في ثبته بشاعر تلمسان المجيد في وقته والأديب⁽¹⁾. وبالعالم الأصولي والفقيه والشاعر المكثّر حلاه كلّ من ابن مريم⁽²⁾ والتنبكتي⁽³⁾ والونشريسي⁽⁴⁾ في وفياته، وبصاحبنا الفقيه العدل في المعيار المعرب⁽⁵⁾.

5- مؤلفاته:

ترك الحوضي منظومات في العقائد واللغة منها:

1- أرجوزة نظم فيها مبادئ الاعتقاد موجّهة للمتعلّمين الصغار في الكتاب لتيسير حفظها، وتعرف بالحوضيّة⁽⁶⁾، منها قوله⁽⁷⁾ - الرّجز - :

إِجَادُنَا ثُمَّ افْتِقَارُنَا إِلَيْهِ	✽	الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ
وَهُوَ أَسَاسُهَا الَّذِي بِهِ تَقُومُ	✽	وَبَعْدُ فَالتَّوْحِيدُ أَشْرَفُ الْعُلُومِ
أَرْجُوزَةٌ مَفْهُومَةٌ التَّعْبِيرِ	✽	وَقَدْ سَأَلْتُ اللَّهَ فِي تَيْسِيرِ
يَقْرُوهَا الصَّبِيَّانُ فِي الْمَكَاتِبِ	✽	قَرِيبَةِ الْمَأْخَذِ وَالْمَطَالِبِ
ضَرُورَةٌ بِنَظَرٍ سَدِيدٍ	✽	يَخْرُجُ قَارِيهَا مِنَ التَّقْلِيدِ

واشتهرت بالحوضيّة نسبة إلى صاحبها الحوضي⁽⁸⁾ الذي سماها (واسطة السلوك في بيان كيفية السلوك) فقال⁽⁹⁾:

سَمَّيْتُهَا (وَاسِطَةُ السُّلُوكِ) ✽ إِذْ بَيَّنَّتْ كَيْفِيَّةَ السُّلُوكِ

1- ينظر: ثبت البلوي، ص 433، 441.

2- ينظر: البستان، ابن مريم، ص 436.

3- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص 579.

4- ينظر: وفيات الونشريسي، ص 114.

5- ينظر: المعيار المعرب، الونشريسي، ج 6، ص 88.

6- ينظر: درة الحجال، ابن القاضي، ج 2، ص 145.

7- تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، ج 1، ص 99.

8- ينظر: درة الحجال، ابن القاضي، ج 2، ص 145.

9- تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، ج 1، ص 99.

لقيت الحوضيّة قبولاً عند النّاس فتناقلها العلماء بسندها إلى صاحبها، فسمعها أبو جعفر البلويّ بقراءة أبي العباس ابن مرزوق⁽¹⁾، وتولّى شرحها السنوسيّ في نحو خمسة كرّاريس⁽²⁾، ومحمّد بن قاسم دحمان الغسّانيّ (1244هـ / 1828م)⁽³⁾.

2- أرجوزة نظم فيها منشور ابن آجروم (672 - 723هـ / 1273 - 1323م) في النّحو، سمّاها (مفتاح باب النّحو)⁽⁴⁾.

3- (الوسائل العظمى للمقصد الأسمى) موضوعه الصّلاة على النّبيّ (ﷺ) وفضلها وآدابها، ابتدأه بمقدمة، وقسم كتابه إلى مجموعات مرتّبة وفق حروف المعجم، سمّى كلّ مجموعة وسيلة، تحمل عنواناً يوافقها ويوافق الحرف، مثل (وسيلة نافعة في الحال والاستقبال، منوعة على حرف الدّال)⁽⁵⁾.

4- وله رسالة تحوي نصّ إجازة لأبي جعفر البلويّ الذي كتب إليه يستجيزه. ونصّ الإجازة كان بخطّ ولد الحوضيّ، يحوي أبياتاً شعريّة يثني فيها على البلويّ، ثمّ يجيزه بمؤلّفاته المنشور منها والمنظوم، وبكلّ ما أخذه عن مشايخه⁽⁶⁾.

والحوضي من الذين اعتنوا ببردة البوصيريّ، فقد ذكرت المصادر أنّ له عليها تخميساً مبتدعاً لم يسبق إليه، ولم يؤت بمثله، بحيث عمد إلى إدراج ثلاثة أشطر من نظمه بين شطري البيت الشعريّ من البردة. وله أيضاً تصدير للبردة وتعجيز⁽⁷⁾. وله أيضاً تخميس على قصيدة أبي مدين شعيب مطلعها⁽⁸⁾:

يَا مَنْ يُغِيثُ الْوَرَى مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ❁ اَرْحَمَ عَبِيداً أَكْفُ الْفَقْرِ قَدْ بَسَطُوا

1- ينظر: ثبت البلويّ، ص433.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص441.

3- ينظر: الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، خير الدّين الزّركليّ، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1980م، للزّركليّ، ج7، ص8.

4- ينظر: ثبت البلويّ، ص434.

5- ينظر: تاريخ الجزائر النّقافيّ، أبو القاسم سعد الله، ج1، ص101، 102.

6- ينظر: ثبت البلويّ، ص430 - 433.

7- ينظر: المصدر نفسه، ص434، 435.

8- أدباء وشعراء من تلمسان، بوزياني الدّراجيّ، ج4، ص533.

5- نماذج من خطابه الشعري:

يعدّ الحوضي من شعراء تلمسان البارزين في القرن التاسع الهجري وبداية القرن العاشر الهجري الذين تعاطوا الأدب، فهو شاعر ذائع الصيت، طرق جملة من أغراض الشعر التقليدي كالمَدح والرثاء والغزل الصوفي والشعر الديني، احتفظت المصادر بمجموعة من أشعاره، من هذه الأغراض:

1- المدح:

يعدّ الحوضي من الأدباء الذين كانت لهم علاقة حسنة بالبلاط الزياني، ومن الذين انخرطوا في مدح سلاطينهم، حيث نجد له مقطوعة في مدح أبي عبد الله المتوكل الزياني (ت890هـ/1485م)، يصف فيها جوده وكرمه وعطاءه، بمعانٍ وخصالٍ تناولها الشعراء قبله، كما نسجل مبالغة في المدح؛ حينما يجعل المال الذي يجود به ممدوحه أفضل من ماء الذي ينزله السحاب، ومغالاة في جعل وضاءة وجه السلطان ورفعة مقامه لا يضاهيهما ارتفاع الغمام وعلوه ولا ضياء برقه. ونلفي فيها تعرضاً بيئاً لعطاء السلطان ونواله، وهذا في قوله⁽¹⁾ - الخفيف -:

أَصْبَحَ الْمُزْنُ مِنْ عَطَائِكَ يَحْكِي	✽	يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ لِلْأَنَامِ عَطَاءَ
كَيْفَ يُدْعَى لَكَ الْغَمَامُ شَبِيهَا	✽	وَلَقَدْ فُقِّتَهُ سَدًا وَسَدَاءَ
أَنْتَ تُعْطِي إِذَا تَقَصَّرُ مَالًا	✽	وَهُوَ يُعْطِي إِذَا تَطَوَّلَ مَاءَ

2- الرثاء:

للحوضي في غرض الرثاء تجربة، وله في ذلك قصيدة طويلة لزومية من اثنين وأربعين (42) بيتاً، رثى فيها الشيخ السنوسي الذي غيبه الموت، وكان لوفاته وقع في النفوس، وأورثت أحزاناً في قلوب محبيه، وأحدث فراغاً في الساحة العلمية والروحية في المغرب الإسلامي، ممّا دفع الحوضي إلى رثائه وإظهار حجم الفاجعة التي ألمّت بالبلاد، واستعظام المصاب وجلّ الرزية

1- نفح الطيب، المقرئ، ج4، ص241.

حيث حلّ النقص بأطراف الأرض بموت عالمها وفتيقها وزاهدها السنوسي، فافتتح قصيدته بالتهويل موطناً لها بأسلوب التشويق⁽¹⁾ -الكامل -:

مَا لِلْمَنَازِلِ أَظْلَمَتْ أَرْجَاؤُهَا * وَالْأَرْضُ رُجَّتْ حِينَ خَابَ رَجَاؤُهَا
وَأَتَى عَلَيْهَا النَّقْصُ مِنْ أَطْرَافِهَا * وَتَرَكَمَتْ وَتَعَاظَفَتْ أَرْزَاؤُهَا

ثم يشرع في تعداد مناقبه وفضائله وبيان أخلاقه من جود وكرم وورع وتقوى مع زهده في الدنيا، ورسوخ القدم في العلم وكثرة التأليف. فقال واصفا سعة علمه⁽²⁾ -الكامل -:

قَدْ كَانَ بَحْرًا لِلْمَعَارِفِ زَاخِرًا * فَأَنْزَحَ عَنْهَا حِينَ بَثَّ غَطَاؤُهَا
وَمَنْ تَمَّ يَخْلُصَ إِلَى تَصْوِيرِ حَزْنِ الْجَمِيعِ مَعَ إِظْهَارِ الْحَسْرَةِ وَالْأَسْفِ، مَعْلًا النَّفْسَ
بِقِضَاءِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَرُدُّ، فَقَالَ⁽³⁾:

لَهْفًا وَلَهْفًا دَائِمًا لَوْ أَنَّهَا * تُجْدِي وَمَا تُغْنِي وَكَيْفَ غَنَاؤُهَا
إِنْ تَبْكِيهِ عَيْنٌ فَمَا أَدَّتْ لَهُ * وَلَوْ مَزَجَ الدُّمُوعَ دِمَاؤُهَا
أَوْ تَبْكِيهِ أَبَدًا تَلِمَسَانُ وَمَنْ * فِي حَوْزِهَا وَرَجَالُهَا وَنِسَاؤُهَا
لَمْ يَقْدِرُوا مِقْدَارَهُ أَنْى لَهُمْ * وَلَقَدْ بَكَتْهُ أَرْضُهَا وَسَمَاؤُهَا
فَلِمِثْلِهِ يَبْكِي الْوُجُودُ، مُصِيبَةً * عَظُمَتْ فَأَحْزَنْتِ الْوَرَى إِغْمَاؤُهَا

ثم يدعو إلى وجوب تعزية المسلمين عامة وأهله خاصة بفقده⁽⁴⁾:

وَجَبَ الْعَزَاءُ بِهِ لِكُلِّ مُوَحِّدٍ * وَلِبِلْدَةٍ بِحُلَاهُ طَابَ ثَنَاؤُهَا
ويختتم بالدعاء له، من ذلك قوله⁽⁵⁾:

يَا رَبِّ قَدِّسْ رُوحَهُ وَضَرِيحَهُ * وَمِنَ الْجِنَانِ تَحْقُفُهُ نَعْمَاؤُهَا
وَعَلَيْهِ مِنْ رَبِّ الْأَنَامِ تَحِيَّةٌ * مَوْصُولَةٌ لَا تَنْقُضِي آثَاؤُهَا

1- تعريف الخلف، الحفاوي، ج2، ص396.

2- المصدر نفسه، ج2، ص397.

3- المصدر نفسه، ج2، ص398.

4- المصدر نفسه، ن. ص.

5- المصدر نفسه، ج2، ص399.

3- الشعر الصوفي:

كان للحوضي تجربته الشعرية الصوفية، وفي شعره تتجلى المحبة الإلهية، له مقطوعة أبان فيها عن شدة الغرام والوجد الذي هو علامة المحبين، والذي إن حضر تلاشت معه كل الموجودات وغابت، ثم يصرح بجنونه وفساد عقله وذهابه بسبب من يهواه، حيث اجتمعت فيه كل أشكال المحبة ومستوياتها من صباية وتيم وهيام، فالمقطوعة مثقلة بهذه المصطلحات الغرامية، وحضورا للمعجم الصوفي. فقال فيها⁽¹⁾ - الخفيف - :

لَا تَسَلْ عَنْ غَرَامِ قَيْسٍ وَلَيْلَى	✽	وَاسْتَمِعْ سُورَةَ الْهَوَى كَيْفَ تُتْلَى
آيَةُ الدُّخْبِ فِي الْمُحِبِّينَ وَجَدُ	✽	مَعَهُ لَا تَرَى الْحَيَاةَ بِأَوَّلَى
أَنَا صَبٌّ مُتَيِّمٌ مُسْتَهَامٌ	✽	لَمْ يَدَعْ لِي مَنْ أَحْبَبُهُ عَقْلًا
قَدْ سَرَى دُخْبُهُ بِكُلِّي وَبَعْضِي	✽	كَيْفَ أَسْدُو وَكَيْفَ لِي أَسْدَلِي

هو حب سقى ماؤه جسده واختلط بدمه ودب بعظمه، واستبد بقله وعقله، كفعل الخمرة بشاربها، فكيف ينعم بطيب العيش، وأتى له لذة الحياة ولهيب العشق يذيبه، وحرارة الصباية تحرقه، فهو لا يستطيع أن يسلو عن محبوبه، ولا يطيق حمل نفسه على الصبر مهما حملها على التصبر. وهذا كله بعد أن دعا إلى الضرب صفحا عن الغرام البشري والذي منه قصة العشق العذري بين قيس وليلاه، فالأولى أن ننصت لمن يتلو سورة الهوى، فهو يشبه الحب الإلهي بالسورة من القرآن التي أمرنا بالإنصات لها عند التلاوة، فالحب الإلهي ذو هالة قدسية.

4- الغزل:

وله في الغزل قصيدة طويلة أوردت المصادر منها ثمانية أبيات، يقول فيها⁽²⁾ - الرمل - :

أَرَدَاذُ الْمُزْنِ مِنْ عَيْنِي نَزَلْ	✽	أَمْ دُمُوعُ الشَّوْقِ إِذْ رَقَّ الْغَزْلُ؟
أَبْعَيْدِي دِيْمَةً وَكَأْفَةً	✽	أَمْ شَعِيبٌ ⁽³⁾ لِلنَّوَى مِنْهَا أَنْبَزَلُ ⁽⁴⁾ ؟
لَا بَكَتْ عَيْنِي وَلَا أَبْقَى الدُّكَا	✽	ضَوْعَهَا عَنْ فِعْلِهَا إِنْ لَمْ تَزَلْ

1- تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، ج1، ص101، 102.

2- تعريف الخلف، الحفاوي، ج2، ص396، 397.

3- الشَّعِيبُ: المَزَادَةُ الْبَالِيَّةُ وَالزَّائِيَةُ. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (شعب).

4- انبزل: انشَقَّ. ينظر: المصدر نفسه، مادة (بزل).

دَعْ عَذُولِي اللَّوْمَ إِنِّي شَائِقٌ رَقَّ طَبْعِي دُونَ صُنْعِي فِي الْأَزَلِ ❀
 أَوْ يُنَسِّى الْعَهْدَ قَلْبٌ دَنِفٌ وَالْهَوَى قَبْلَ النَّوَى عَذُهُ نَزَلُ ❀
 لَا تَلُمْنِي دُونَ عِلْمٍ عَاذِلِي فَبِسَمْعِي صَدَمٌ عَمَّنْ عَذَلُ ❀
 إِنَّ فِي نَارِ هَوَاكُمُ جَذَّتِي لَوْ عَلِمْتُ الْحَبْلَ مِنْكُمْ يَتَّصِلُ ❀
 أَمَدُوا رَوْعَةَ قَلْبِي بِاللِّقَا فَانْتَظَارُ الْوَعْدِ قُرْبٌ إِنْ حَصَلَ ❀

وهي قصيدة لزومية أفصح الحوضي فيها عن شاعرية قوية، افتتحها بالاستفهام في البيت الأول والثاني عن هذا الانفعال العاطفي الذي كان بسبب فراق المحبوب والشوق، فاستدعى كل هذه الدموع المنهمرة كأنهمار المطر من السحاب وسيلان الماء من المزادة التي انشقت. ويستطيب هذه الحال ويستعذبه كونه لأجل محبوبة، ويستديمه فالعين التي لا تبكي محبوبها وتنعم بالنظر إليه لا تستحق النظر، ويدعو لائميهِ وعاذليهِ إلى الكف عن اللوم والعذل فالمحب لا يلتفت إلى ذلك كون عذابه بسببهم هو عين الراحة، وفي الأخير يمني النفس ويعللها بلقاء المحبوب وانتظار موعد التلاقي، إذ كل آت قريب.

7 - سعيد بن عليّ الحامديّ (ت 973هـ / 1565م):

1 - اسمه وكنيته:

هو سعيد بن عليّ بن محمد بن عبد العزيز التليكاتي الحامديّ⁽¹⁾، وزاد الرّسموكي في وفياته: الإيسيّ⁽²⁾ دون ذكر: التليكاتي⁽³⁾، فأهل التّراجم قلّمَا يجمعون بين هذه النّسب الثلاثة عند التّرجمة لآل عبد العزيز. ونسبه ابن القاضي المكناسيّ إلى جذام فقال: الجذاميّ⁽⁴⁾. وكنيته عند كلّ من ترجم له أبو عثمان إلّا ابن سودة فإنّ كنيته أبو عبد الله⁽⁵⁾. لا نجد تاريخاً لمولده في المصادر التي ترجمت له. نشأ في بيئة تنبت الأدب والعلم والصّلاح كما تنبت جبالها من مختلف الأشجار⁽⁶⁾، أخذ العلوم عن والده الذي أخذ عن جلة الأعلام بفاس ومراكش⁽⁷⁾. اتّصل بالسلطان أحمد الأعرج السّعديّ (891 - 965هـ / 1486 - 1557م) فعينه كاتباً لديه مدّة من الزّمن في بداية الدّولة⁽⁸⁾.

2 - أسرته:

ينحدر سعيد من بيوتات المغرب الأقصى المشهود لها بالصّلاح والعلم والأدب، كان لأبناء هذا البيت دور في تنشيط الحياة النّقافيّة بقرية تيكات وما حولها. فأبوه عليّ كاتب مجيد وأديب كبير، أبو النّجباء والأدباء والعلماء، له ولدان أحدهما سعيد والآخر عبد الرّحمن (ت 984هـ /

1- نسبة إلى قرية تقع في واد منبسط بجبل آيت حامد بسوس. ينظر: الحركة الفكرية، محمد حجي، ج2، ص591.

2- نسبة إلى وادي أيسي من سوس الأقصى، ينظر: خلال جزولة، محمد المختار السّوسي، المطبعة المهدية، تطوان، المغرب، د.ط، د.ت، ج2، ص127.

3- وفيات الرّسموكي، تحقيق: محمد المختار السّوسي، مطبعة السّاحل، الرباط، ط1، 1408هـ / 1988م، ص19.

4- وفي الهامش أورد المحقّق كلمة (الحامديّ) بدل (الجذاميّ). ينظر: درة الحجال، ابن القاضي، ج3، ص301.

5- ينظر: دليل المؤرّخ، ابن سودة، ص267.

6- ينظر: خلال جزولة، السّوسي، ج2، ص120.

7- ينظر: طبقات الحضيكيّ، الحضيكيّ، ج2، ص577.

8- ينظر: رجالات العلم العربيّ في سوس من القرن الخامس الهجريّ إلى منتصف القرن الرابع عشر، محمد المختار السّوسي، ط1، 1409هـ / 1989م، ص20.

1577م) القاضي المحدث المسند المتصوّف⁽¹⁾، ذكر محمد المختار السّوسي أنّ له قبة في قريته تيلكات⁽²⁾.

خلف سعيد أبناء ثلاثة وهم: أحمد وهو لا يقلّ علماً وأدباً وشاعريّة عن والده (ت997هـ / 1589م)، والثاني محمد، والثالث الحسن عالم فقيه (1033هـ / 1624م) تولّى رئاسة قبيلته ومن ثمّ رئاسة جزولة، ولسعيد أحفاد أظهرُوا عناية بالعلم وصلاحاً في الدين⁽³⁾.

3 - أقوال الآخرين فيه:

كلّ من ترجم لسعيد بن عليّ الحامديّ خلع عليه نعوتاً تشهد له بالفقه والتّفوق في ميدان الأدب. فوصفه الرّسموكيّ بشاعر عصره وبالأديب البارِع المفلق⁽⁴⁾. وأفاض في مدحه والتّثويه بمقدرته الأدبيّة أبو زيد عبد الرّحمن النّمّارتيّ (ت1060هـ / 1650م) قائلاً: «الفقيه الأديب الشّاعر المفلق البليغ أبو عثمان سعيد بن عليّ بن محمد، سهم القريض المُعرب، وإمام الأدب العريض بالمغرب، مرتسم في زمام أئمة البلاغة متّسم بتمام الإبداع وحسن الصّيّغة، شعره نافح أقصى المغرب أدناه، وبسحر بيانه كافح جيش المحاورة فعاد ملك يمناه. والأدب له عبْدٌ يجيب متى دعاه، وسهم يصيب الغرض متى رماه، ودوحة اللّسان بقطره بتلقيحه أثمرت، وروضة البيان بتلقيحه أُمّرت⁽⁵⁾ وأعطرت. وقصائد شعره التي سحرت الألباب، وفاضت فيضان العُباب، تشهد له⁽⁶⁾». وفيه قال ابن القاضي المكناسيّ: «الفقيه الأديب النّاظم النّائر، نابغة زمانه»⁽⁷⁾.

1- ينظر: رجالات العلم، المختار السّوسي، ص20.

2- ينظر: خلال جزولة، السّوسي، ج2، ص118.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص137 - 147.

4- ينظر: وفيات الرّسموكيّ، ص19.

5- أخصبت: ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادّة (خصب).

6- الفوائد الجمّة بإسناد علوم الأئمة، أبو زيد عبد الرّحمن النّمّارتيّ، تحقيق: اليزيد الرّاضي، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط2، 1428هـ / 2007م، ص122.

7- درة الحجال، ابن القاضي، ج3، ص301.

4 - وفاته:

توفي سعيد الحامدي بمراكش وبها دفن، حيث كلف بمهمة إليها، ولكن الأجل حال دون ذلك فتوفي هناك⁽¹⁾، يوم الأحد ربيع الأول من عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة هجرية (973هـ / 1565م)⁽²⁾.

5 - آثاره الأدبية:

لأبي عثمان مجموعة من الأشعار في أغراض مختلفة مبنوثة في كتب التراجم والتاريخ والأدب، ولا يعلم له ديوان خلافا لابن سودة⁽³⁾ الذي ذكر أنّ له ديوانا محيلا على كتاب (سوس العالمية)، وصاحب الكتاب محمد المختار السوسي هو الذي جمع من شعر أبي عثمان إحدى عشرة قصيدة ذكر مطالعها مصرّحا بأنّه لا يعلم له ديوانا جامعا لشعره⁽⁴⁾. وذكر له مقطوعة من ثلاثة أبيات - وهي آخر ما أثر عنه من الشعر - مقطوعة أنشأها في المدرسة التي شيدها أبو الحسن المريني بمراكش، وقام بتجديد بناءها الغالب بالله السعدي (933 - 981هـ / 1527 - 1574م)، أنشأها بمرضه الذي قبض فيه أواخر صفر من عام (973هـ / 1565م) حيث يقول - البسيط -⁽⁵⁾:

إِنَّ الْخَلِيفَةَ عَبْدَ اللَّهِ بِوَأَنِي * أَنْ كُنْتُ مَأْوَى لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ
نَجْلُ الْإِمَامِ الرَّضَى الْمَشْهُورِ مُحْتَدُهُ⁽⁶⁾ * خَلِيفَةُ اللَّهِ وَابْنُ خَيْرَةِ الْعَرَبِ
وَفِي الثَّلَاثَةِ وَالسَّبْعِينَ زَائِدَةً * وَبَعْدَ تَسْعِ مَدِينٍ عَدُّ مِنْ حَقَبِ
وله شرح على قصيدته الميمية في مدح محمد الشيخ السعدي⁽⁷⁾.

1- ينظر: وفيات الرّسموكيّ، ص19.

2- ينظر: درة الحجال، ابن القاضي، ج3، ص302.

3- ينظر: دليل المؤرخ، ابن سودة، ص267.

4- ينظر: خلال جزولة، السوسي، ج2، ص132، 133.

5- ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص131.

6- محتده: أصله وطبعه. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة(حتد).

7- ينظر: سوس العالمية، السوسي، ص180.

نماذج من خطابه الشعري:

1- المدح:

الحامدي من الشعراء الذين تسنّموا شعر المدح، فأكبّ على مدح سلاطين الدولة السعدية الذين عاش كنفهم، وله فيهم أشعار مدحية، منها قصائد في مدح محمد الشيخ السعدي، يجتمع فيها المدح والحماسة، وصف فيها ممدوحه بالشجاعة والبطولة والإقدام، وسجل تلك الوقائع الحربية والملاحم التي دارت بينه وبين البرتغاليين والأتراك، تذكّرنا بمدح أبي تمام للمعتصم العباسي، حيث يقول منها⁽¹⁾ - البسيط -:

لِلْمُسْلِمِينَ بِأَرْضِ الشَّرْكِ مَنْ وَطِرَ	✽	لِلَّهِ مَا غَضِبَتْ هَاجَتْ فَمَا تَرَكَتْ
فِي اللَّهِ مُعْتَصِمٌ بِاللَّهِ مُقْتَدِرٌ	✽	فَعَالٌ مُنْتَقِمٌ لِلَّهِ مُلْتَزِمٌ
رَحَى الْمَكَارِمِ بَيْنَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ	✽	رُوحَ الْخِلَافَةِ قُطْرٌ تَسْتَدِيرُ بِهِ
بِأَنَّ أَيْامَهُ فِي الدَّهْرِ كَالْغُرْرِ	✽	زَانَ الزَّمَانَ بِأَخْلَاقٍ لَهُ شَهَدَتْ

وله فيه أيضا له قصيدة ميمية، وهي من القصائد التي اعتنى بها صاحبها فقام بشرحها، كما لاقت رواجاً عند السوسيين شرحاً ودراسة. سار فيها سير الأقدمين في بناء قصيدته المدحية حيث افتتحها بمقدمة غزلية مطلعا⁽²⁾ - الطويل -:

إِذَا مَا عَرَضْنَ الْمُغْرَضِينَ بِفَاغِمِ	✽	كَدَلْنَ عُيُونَ النَّاطِرِينَ بِفَادِمِ
---	---	--

ثم تخلص بعدها إلى تعداد محامد سلطانه وشجاعته وبطولاته. وفيها يحاول الشاعر رسم مشاهد ساخرة للحالة النفسية للعدو، وذلك برسم لوحات فنية ممتعة مستعينا، بمعجم لغويّ تحمل بناءه الإفرادية تلك الدلالات، من جهة تتكشف عن صورة البطولة لدى ممدوحه، ومن جهة أخرى تعكس صورة العدو المنهزم مثل: (الطعن، القفا، حز، الغلاصم، الأحشاء، الحيازم...). منها قوله⁽³⁾ - الطويل -:

أَمَامَ إِمَامٍ عَوْدَ الطَّعْنِ بِالْقَنَا	✽	وَعَلَّمَ حَدَّ السِّيفِ حَزَّ الْغَلَاصِمِ
---	---	---

1- الوافي، ابن تاووت، ج3، ص656.

2- خلال جزولة، السوسي، ج2، ص132.

3- سوس العالمية، السوسي، ص69، 70.

إِذَا مَا الْكُمَاةُ مَلَّتِ الطَّغْنَ فِي الْقَفَا * أَمَلْ عَلَيْهِمْ ضَرْبَهَا بِالصَّوَارِمِ
بِكُلِّ فَتًى يُعْطِي الشَّجَاعَةَ حَقَّهَا * إِذَا اصْطَخَبَتِ الْأَحْشَاءُ تَحْتَ الْحَيَازِمِ

ويختتم الحامدي القصيدة - التي جمع فيها بين المدح والحماسة - مفتخرا بشعره الفاخر الرائق الذي صاغه في مدح محمد الشيخ، فهو لا يقل شأنًا عن أبي تمام، ومما يزين الرجل ذا المجد قرضه للشعر، فالشعر بمثابة الفص الذي يزيد الخاتم جمالا، وذلك في قوله⁽¹⁾ - الطويل -:

سَأَنْصِفُ حُرَّ الشَّعْرِ مِنِّي بِمَجْلِسٍ * حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ فِيهِ وَالِي الْمَظَالِمِ
ثَنَاءً كَمَا هَبَّتْ مِنَ الْمِسْكِ نَفْحَةً * يُغَادِي بِهَا الْأَرْوَاحَ رَوْحُ النَّوَاسِمِ
وَأَنَّ مَكَانَ الشَّعْرِ مِنْ كُلِّ مَا جِدَ * مَكَانُ الْفُصُوصِ مِنْ حُلِيِّ الْخَوَاتِمِ

2- الرثاء:

للحامدي مرثية رثى فيها محمد الحران نجل محمد الشيخ السعدي الذي قضى في حصار تلمسان ما بين سنة (956 - 957 هـ / 1549 - 1550م) لتخليصها من الأتراك⁽²⁾. افتتح قصيدته بمقدمة حكمية يدعو فيها إلى الاعتبار وعدم الاغترار والركون إلى الأماني، فالزمان ذو تقلب، أيام يُسرّ فيه المرء وأخرى فيها يُساء، وسواد الليالي كالأفاعي التي تحمل الهموم والسّموم، ثم شرع في تعداد مآثر الحران من شجاعة ورجاحة رأي وكرم وغيرها، مع إظهار الحزن والبكاء على موته، وشاركه في ذلك غيره من الشعراء، ثم يميل إلى المبالغة والتّهويل في مرثيته، وذلك حينما ينضم إلى هذا المشهد الحزين الضواري والجوارح التي يعرف عنها الافتراس فقال⁽³⁾ - الطويل -:

أَتُرَوِّي الْأَمَانِي وَالْأَمَانِي سَرَابٌ * وَتَغْنِي الْمَغَانِي وَالْمَغَانِي خَرَابٌ
إِلَامَ التَّعَامِي وَالتَّعَلُّلُ بِالْمُنَى * وَقَدْ قُرِبَتْ لِلظَّاعِنِينَ رِكَابٌ
خَلِيلِي مِنْ سُودِ اللَّيَالِي أَسَاوِدُ * تَعَضُّ بِصَرْفِ الْمَدَايَا لُعَابُ
فَمَنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ يَوْمًا سَرَرْنَاهُ * فَإِنِّي بِأَيَّامِ الزَّمَانِ مُصَابُ

1- سوس العالمية، السوسي، ص71.

2- الاستقصا، السلاوي، ج5، ص24، 25.

3- الوافي، ابن تاووت، ج3، ص656.

نَعْيٌ أَتَانِي وَالنَّعْيُ مُحَمَّدٌ * رَدَدْتُ عَلَيْهِ وَالْدُّمُوعُ جَوَابُ
بُكَاءَ لِمَنْ شَدَّتْ عُرَى الْمُلْكِ كَفُّهُ * وَمَنْ رَأَيْهُ فِي الْمُعْضَلَاتِ صَوَابُ
مَهِيْبًا تَلَاقِيهِ الْقَنَابِلُ وَالْقَنَا * فَتَغْضَى وَأَعْمَارُ الْكُمَاةِ نِهَابُ
كَرِيمٌ غَذَّتْهُ الْمَكْرُمَاتُ وَسَيِّدُ * نَمَتْهُ كِرَامُ النَّاسِ طَابَ وَطَابُوا
نَعْتُهُ الْقَوَافِي لِلْعَوَافِي فَأَعُولَتْ * بَنَاتُ الْفَيَافِي أُنْسُرُ وَذَنَابُ

ثم ينتقل إلى تعزية والده السلطان محمد الشيخ، والتخفيف عنه من وقع المصيبة، فلعلّ الرزية تكون سببا في مجاوزة الصعاب، وتكون حافزا على الغلبة على الأعداء، وأنّ العزاء فيه فهو الملك الذي يأوي إليه الناس ويلتفون حوله فقال (1):

سَلَامٌ عَلَيْكَ أَبَا الْحَرَّانِ فَدُقْ بِهِ * دَوَاءً لِأَدْوَاءِ الزَّمَانِ يُشَابُ
رُزِئْتَ جَابِلًا فَاخْتَسَبْهُ فَإِنَّهُ * وَإِنْ جَلَّ خَطْبُ فَالْعَزَاءُ عِصَابُ
لَعَلَّ مَسَاسَ الرُّزْءِ يَفْدَحُ مَا بِهِ * تُهْدُ صِلَادٌ (2) وَتُفْتُ صِلَابُ
فَكُنْ هَضْبَةً نَأْوِي إِلَيْهَا فَإِنَّمَا الْ * خُطُوبُ سَيُولُ وَالْمُلُوكُ هِضَابُ

القصيدة كما يظهر تغرق في ألوان البديع، وترسف في أغلال الصنعة، خاصة اعتماده على الجناس. وهذا مما جرى عليه كثير من الشعراء، وعلى الرغم من هذه الحواجز فإننا نلمس جريان ماء الشعر في عود القصيدة (3).

3- الغزل:

يعدّ الغزل من الأغراض الشعرية التي تناولها أبو عثمان سعيد الحامدي في خطابه الشعري، وكان ضمن بنية القصيدة المدحية. من ذلك ما جاء في مقدمة القصيدة الميمية (4) - الطويل -:

إِذَا طَيْفُهَا بِالْوَجْدِ ضَافَكَ لَمْ تَكُنْ * لِتَقْرَى إِلَّا بِالْدُّمُوعِ السَّوَاكِمْ
تَبَدَّتْ كَلَمَحِ الْبَرْقِ ثُمَّ تَبَرَّقَعَتْ * وَأَغْرَتْ دُمُوعِي بِالشُّؤُونِ الشَّوَاكِمْ

1- الوافي، ابن تاوويت، ج3، ص658.

2- عود صِلَاد لا ينفدح منه النَّار. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة(صلد).

3- ينظر: الوافي، ابن تاوويت، ج3، ص658.

4- سوس العالمية، السوسي، ص69.

فَكَمْ لَوْعَةً تَنْتَابُنِي وَكَأَنَّمَا * يُسَامِرُنِي مِنْهَا سَكِيرُ الْأَرَاقِمِ
أَلَامٌ عَلَى حُبِّي سَعَادٌ وَلَيْتَنِي * حَشَوْتُ غَضًا صَدْرِي صُدُورَ اللُّوَائِمِ

الحامدي يوظف طيف الخيال في منامه لوصال محبوبته، فهو ينتظر النوم زيارة طيفها، وغيره يتكلف النوم ويحتال عليه لاستجلابه فقط ترقباً لزيارة خيال محبوبته، كقول ابن الفارض (576 - 632هـ / 1181 - 1235م) ⁽¹⁾ - الطويل - :

نَصَبْتُ عَلَى عَيْنِي بَتَغْمِيزِ جَفْنِهَا * لِرُؤُورَةِ زُورِ الطَّيْفِ حِيلَةً مُحْتَالِ
فَمَا أَسْعَفَتْ بِالْغَمُضِ لَكِنْ تَعَسَّفَتْ * عَلَيَّ بِدَمْعٍ دَائِمٍ الصَّوْبِ هَطَّالِ

ولا يجد المحب ما يقري محبوبته إلا إرسال الدمع لعلمه بارتحالها سريعاً، وهذا بعد أسفرت عن وجهها فعرّفها ثم ما لبثت أن غطّته وانصرفت، وتركت حبيبها يغشاه الهم والحزن، فمجئها لذّة وانصراف طيفها شؤم. قد عاش لحظة سعيدة ثم أعبقتها لوعة الفراق وألم الرحيل، وهذا في كلّ مرّة تزوره. ولذا لأمه من حوله على هذا الإفراط في محبة وعشق محبوبته التي أفصح عن اسمها وهو (سعاد)، وهو اسم تكرر في الشعر العربي القديم، وصار تقليداً عند الشعراء القدامى، والحامدي قلّدهم في ذلك فلم نقف في ترجمته على تجربة عاطفية في حياته. ولعلّ توظيف اسم (سعاد) دلالة تكمن في المعاني اللغوية التي تحملها هذه الكلمة والتي تعني (السعادة واليمن) ⁽²⁾، فهو رمز للمحبة التي يرجى السعادة بوصالها. ويتمنى لو أنّ عاذليه يذوقون من كأس العشق وتملاً قلوبهم ألماً من شدة الغرام الذي هو أشبه بجمر الغضا ⁽³⁾ في شدة إيلامه.

1- ديوان ابن الفارض، دار صادر، بيروت، د. ط، د. ت، ص 141.

2- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (سعد).

3- كقول الشاعر: فَدَمَعِي مِنْ ذِكْرِهَا مُسْبَلٌ... وَفِي الصَّدْرِ لَدَغٌ كَجَمْرِ الْغُضَا. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (لذع).

8 - ابن الخطيب الزرويلي (ت993هـ / 1585م):

1 - اسمه ونسبه ووفاته:

ابن الخطيب الزرويلي من شعراء النصف الثاني من القرن العاشر الهجري، ومن الذين لم ينالوا حظاً من الاهتمام، ولم يشفع لهم شعرهم عند مؤرخي آداب المغرب الإسلامي، فضاعت أشعاره ولم يصلنا إلا نتفا منها، كان لأهل التراجم الفضل في حفظها للأجيال، فترجم له معاصره ابن القاضي المكناسي في كتابيه (درة الحجال) و (جذوة الاقتباس) ترجمة قصيرة أتى فيها على ذكر اسمه ونسبه ولقبه، فقال: «عبد الرحمن بن أبي القاسم بن علي الشفشاوني الزرويلي، المعروف بابن الخطيب»⁽¹⁾، أما كنيته فهو أبو زيد⁽²⁾. الزرويلي نسبته إلى قبيلته بني زرويل، وإلى مدينته شفشاون بشمال المغرب الأقصى. لا يعرف له تاريخ ميلاد⁽³⁾ ولم نجد له تفاصيل حول حياته التي يمكن أن تفيدنا في تجلية شخصيته الأدبية. أما وفاته فكانت سنة (993هـ / 1585م)⁽⁴⁾.

2 - خطابه الشعري:

ابن الخطيب الشاعر الذي اختار أحد الفنون الشعرية وهو الهجاء ليعبر عن احتقاره لما حوله من الأشياء وسخريته من الأشخاص. لم يعثر له على شعر في أي غرض إلا في الهجاء، فهو لم يمدح أحدا أبداً على ما صرح بذلك ابن القاضي المكناسي⁽⁵⁾، رغم أنه عايش فترة حكم المنصور السعدي الذي كان يعجّ بلاطه بالشعراء المادحين، ويرحل إليه الأدباء والعلماء فيقربهم ويجزل لهم العطاء. يعدّ ابن الخطيب الزرويلي من هجائي هذه الفترة، لم تنطلق قريحته ولم تنشط إلا فيه ولم تنبجس شفتاه إلا به.

1- جذوة الاقتباس، ابن القاضي، ج2، ص413.

2- ينظر: درة الحجال، ابن القاضي، ج3، ص98، 99.

3- ذكر السملالي أنه ولد قرب (960هـ) ونسبه إلى ابن القاضي في درة الحجال، وهو غير موجود هناك، وبعد البحث تبين لنا أنه وقع له خلط بينه وأبي القاسم الوزير الغساني فهو ولد بهذا التاريخ وعبارة (ولد قرب السنتين وتسعمائة) عائدة على الوزير الغساني وليس على ابن الخطيب. ينظر: الإعلام بمن حل مراکش وأغامت من الأعلام، العباس بن إبراهيم السملالي، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1413هـ / 1993م، ج8، ص112، ج10، ص23.

4- ينظر: جذوة الاقتباس، ابن القاضي، ج2، ص413.

5- ينظر: درة الحجال، ابن القاضي، ج3، ص98، 99.

لم تذكر المصادر من هجائه إلا ثلاث مقطوعات في هجاء المدن والأشخاص. من النوع الأول هجاؤه لمدينة مراكش عاصمة الدولة السعدية يومئذ، حين انتقل إليها وأقام بها مدة من الزمن، إلا إنه لم يجد فيها إلا حياة البأس والشقاء، فراح يشكو ما يلقاه بها من كدّ ومعاناة، فهو يدفع عن نفسه الذباب بالنهار لكثرتة، ويذب عنه التاموس بالليل، مع شدة الخوف الدائم غير المنقطع من لسعات العقارب السوداء، وكلها أسباب دفعته للرحيل عن مراكش، ويصور كل هذا بأسلوب ساخر قائلاً⁽¹⁾ - البسيط - :

مَا كَانَ ظَنِّي وَحَقَّ اللَّهِ فُرْقَتُكُمْ	✽	لَوْ أَنَّ مُرَاكُشًا كَانَتْ تُوَاتِينِي
أَظَلُّ فِي نَصَبٍ مِمَّا أَكَايِدُ مِنْ	✽	نَفْضِ الْغُبَارِ وَمِنْ طَرْدِ الذَّبَابِينَ
وَطُولَ لَيْلِي فِي كَدٍّ وَفِي تَعَبٍ	✽	مَا بَيْنَ بَقٍّ وَنَامُوسٍ يُنَاغِينِي ⁽²⁾
أَبَيْتُ أَحْرُسُ فَرَشِي مِنْ عَقَارِبِهَا	✽	وَالْقَلْبُ فِي فِكْرِ مِنْهَا وَتَخْمِينِ
إِذَا رَأَيْتُ سَوَادًا مَرَّ بِي وَآتَى	✽	ظَنَنْتُهَا عَقْرَبًا دَبَّتْ لِتُوْذِينِي

ثم راح يشكو ما يلقاه من شظف العيش مما اضطره إلى تتبّع ما تخلفه الرّحي من طحين يسدّ به جوعته، إلا إنه كثيرا ما كان يصادفه مختلطا بالحصى فيتأذى حين يمضغه فأدى ذلك إلى إتلاف أضراره وسقوطها. إضافة إلى كثرة العجاج بها وانتشار الغبار الذي أوشك أن يسبّب له العمى، وبمراكش صار مفلسا ولم يبق له دينار ولا درهم كلّ ما يملكه صرفه على غسل ثيابه وتنظيفها، وفي كلّ هذا قال⁽³⁾ :

لَمْ يَبْقَ فِي الْفَمِ ضَرْسٌ أَسْتَعِدُّ بِهِ	✽	أَفْنَاهُ مَضْنُ الْخَصَى مِنْ ذِي الطَّوَادِينِ
مُنْذُوا عَلَيَّ بِإِطْلَاقِي بِفَضْلِكُمْ	✽	هَذَا الْعَجَاجُ بِهَا قَدْ كَادَ يَغْمِينِي
لَمْ يَبْقَ فِي الْكَيْسِ فِلْسٌ أَسْتَعِينُ بِهِ	✽	أَفْنَيْتُ مَالِي فِي غَسَلٍ وَتَصْنَبِينَ

1- جذوة الاقتباس، ابن القاضي، ج2، ص413.

2- المناغة: المحادثة، لسان العرب، ابن منظور، مادة(نغي).

3- جذوة الاقتباس، ابن القاضي، ج2، ص413.

وفي المقطوعة الثانية راح يهجو مدينة القصر الكبير بكتامة، وهي دعوة إلى الرحيل عن هذا البلد بسبب مناخه الحار صيفا والبارد شتاء فقال⁽¹⁾ - البسيط - :

ارْحَلْ مِنَ الْقَصْرِ وَاسْمَعْ قَوْلَ ذِي ثِقَةٍ ❁ إِنَّ الْمَقَامَ بِهِ ضَرْبٌ مِنَ الْحُمَقِ
إِنْ لَمْ تَمُتْ فِي أَوَانِ الْحَرِّ مُحْتَرِقًا ❁ لَمْ تَنْجُ فِيهِ أَوَانِ الْبُرْدِ مِنْ غَرَقِ

ومن النوع الثاني بيتان يهجو فيهما رجلا بشعر مقذع فاحش وكلام بذيء، واسم هذا الرجل ابن عسكر، وهذا بعد تمادي ابن عسكر في الهجاء، فكان ردّ ابن الخطيب قاسيا إذ راح يذمه ويعدّد معائبه، فوصفه بالدياثة ورماء بالفاحشة، وذلك في بيتين نثب الأول منهما ونضرب صحفا عن الثاني للفحش الذي جاء فيه، حيث قال⁽²⁾ - البسيط - :

لَجَّ ابْنُ عَسْكَرٍ يَهْجُو فِي الْأَنَامِ ❁ وَقَدْ أَضْحَى لَهُمْ عِلْمًا فِي كُلِّ مَذْمُومِ

هذه النصوص الشعرية الهجائية تعكس الحالة النفسية للشاعر، فهو ذو مزاج قلق لا يجد راحة، وذو نفسية ناقمة بسبب ما يلقاه من فقر وبأس أو حينما لا يواتيه جو مدينة، أو حين يُستفّر من أحد فائته لا يدّخر جهدا في الهجاء. ويكشف هذا الخطاب الهجائي عن واقع الحياة الاجتماعية التي يحياها الشاعر وأمثاله من الناس، فإذا كانت مراکش يومئذ عاصمة السعديين وما تشهده من عمران وازدهار فلا يمنع أن يكون إلى جانب الطبقة المترفة طبقة كادحة تحيي حياة البأس والشقاء. وهو يعكس واقع الحياة الأدبية حيث يفهم من النص أن ابن الخطيب عارض شاعرا آخر اسم ابن عسكر، وصارا يتبادلان الأهاجي.

ويمكننا القول إن ابن الخطيب الزرويلي شاعر يمتلك موهبة شعرية ومملكة لا تنشط إلا حين يستفّر العالم الخارجي. ولو حفظت أشعاره لأمكننا معرفة شخصيته ودراسة شعره وخصائصه.

1- درة الحجال، ابن القاضي، ج3، ص99.

2- المصدر نفسه، ج3، ص98، 99.

تناولنا في هذا الفصل قضايا تتعلّق بالشعر وأعلامه، فترجمنا لثمانٍ من الشعراء من مختلف بلدان المغرب الإسلامي في هذه الفترة الزمنية، وقد كانت حياتهم حافلة بالعباء المعرفي والشعري، وأغلبهم كانوا من شعراء سلاطين دول المغرب الإسلامي، فاتّصل الشاعران محمّد الشّرّان وابن الأزرق بملوك بني الأحمر بالأندلس، واختصّ ابن الخلف والمالقي بالحفصيين بتونس، والحامدي بالسعديين بالمغرب الأقصى. ومنهم من أثر الابتعاد عن هذا الجوّ، وهذا شأن المتصوّفة كالحوضي وإبراهيم التّازي. وهؤلاء الشعراء كانت نشأتهم العلميّة ببلدانهم فقد تلقوا العلوم الدينيّة واللّغويّة والأدبيّة، ومنهم من هاجر خارج بلده بسبب الأوضاع السياسيّة وغيرها، ممّا أدّى إلى إثراء الحركة الشعريّة في البلاد التي استوطنوها، وهذا حال محمّد الخير المالقي، وهم يمثّلون نماذج للتّبادل الثقافيّ بين ضفّتي حوض المتوسط. ومن هؤلاء الشعراء من كانت له ملكة شعريّة ولكن لم يتوقّر له من الأسباب ما توقّر لغيره كالاتّصال بالملوك، فعاش منعزلاً لأسباب اجتماعيّة، ممّا أثر عليه نفسيّاً واجتماعيّاً، ومن ثمّ لم يحظ بالاهتمام اللازم، حتى إنّّه لم يحفظ له من شعره إلّا النّثر القليل، وهذا حال ابن الخطيب الرّرويلي.

ما ذكرناه في الفصل الأوّل حول أعلام النّثر يتكرّر معنا هنا من حيث اشتغال بعض هؤلاء الشعراء بالعلوم الدينيّة كالفقه والحديث، وكانت بعض أشعارهم أقرب إلى النّظم منه إلى الشعر. ولم يغلب الفكر الصّوفيّ عن الخطاب الشعريّ عند بعضهم فأبانوا فيه عن أحاسيسهم الرّوحية وتجاربهم الوجدانيّة وهذا ظاهر عند إبراهيم التّازي ومحمّد الحوضي. وأيضاً لم يكتف هؤلاء الشعراء بقرض الشعر فقط بل إنّهم اهتموا بالخطاب النّثريّ فكان منهم الكتاب بالدواوين السلطانيّة، كابن الخلف الذي سمّي بذي الصّناعتين لبراعته في الشعر والنّثر، ومحمّد الشّرّان الذي وصف بالكاتب البارع والأبرع.

وما سجّلناه أيضاً هو وفرة النّاتج الشعريّ وتنوعه حيث طرق الشعراء مختلف فنون الشعر، منه الشعر التقليديّ والموشّحات والأزجال، ومنهم من حرص على جمع أشعاره في دواوين كصنيع ابن الخلف. عالج الشعر العديد من الموضوعات ولامس الشعراء مختلف مناحي الحياة وعبروا عن انشغالاتهم الشّخصيّة والعامة، وتناولوا مختلف الأغراض الشعريّة من مدح وحماسة وفخر ووصف، (فمدحوا الملوك والأمراء، ووصفوا المعارك والحروب فهي فترة صراعات داخلية وخارجية). واهتمّوا بالغزل الذي لم يكن مقصوداً لذاته أو عن تجربة شخصيّة بل هو

تقليد جرى عليه أكثر الشعراء إذ جعلوه من بنية القصيدة المدحية، أو ساقه أصحاب النزعة الصوفية للتعبير عن مشاعرهم الروحية وتجاربهم الوجدانية كالتعبير عن الحب الإلهي عند إبراهيم النازي. ووجد غرض الرثاء بأنواعه، فرثوا الأشخاص (الأبناء والشيوخ)، كمرثية سعيد الحامدي محمد الحران السعدي، وأيضا رثى الشعراء المدن التي وقعت في أيدي الإسبان والبرتغال منها مدن الأندلس أو المدن الساحلية جنوب المتوسط، من ذلك رثاء ابن جبش النازي لمدينة أصيلا التي سقطت بأيدي البرتغاليين. كما اهتم هؤلاء الشعراء بالشعر الديني وأظهروا عناية بالمديح النبوي، كابن الخلف الذي خصص ديوانا جمع فيه شعره في مدح النبي (ﷺ) سمّاه (جنى الجنّتين)، ولهم في الزهد قصائد ومقطوعات موضوعها الدعوة إلى التخلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، والاستعداد للموت، وترك حب الدنيا، وممن اهتم بذلك إبراهيم النازي. ومن الأغراض التي طرقت الوصف وقد انصب على وصف الطبيعة ومظاهرها من رياض وأزهار وحدائق وأنهار وغيرها، وأبدع ابن الخلف في هذا الباب، وشاركه ابن الأزرق. إلى جانب هذه الأغراض سجّلنا حضورا للهجاء، وكان من هجائي هذه الفترة ابن الخطيب الزرويلي الذي لم يصل من أغراض شعره إلا الهجاء. وكلّ هذه الموضوعات والأغراض الشعرية تؤكد تفاعل الشاعر مع ما يجري حوله، فالشاعر ابن بيئته وزمانه، ويحاول أن يسجل ذلك في خطابه الشعري الذي هو نتاج للتجربة الذاتية. ومن الألوان الشعرية التي كانت حاضرة في هذه الفترة المعارضات الشعرية وهذا ما كشفنا عنه في شعر ابن الخلف القسنطيني، وتلك المساجلات الشعرية التي جرت بينه وبين منافسه محمد الخير المالقي، والأهاجي المتبادلة بين الشاعرين ابن الخطيب الزرويلي وابن عسكر.

أما من الناحية الفنية فنسجل النزعة التقليدية للشعر القديم، فالأفكار التي ساقها الشعراء هي ذات صلة بالمعاني المطروقة من قبل وخاصة في شعر المدح والحماسة والفخر عند الشعراء المرتبطين بالقصور الملكية (كابن الخلف، والشّرّان، الحامدي) فتحسّ عند قراءة شعر المدح والحماسة حضور المتنبي وأبي تمام، وفي الخمریات أبي نواس. كما حاول الشعراء الاهتمام بلغتهم الشعرية جمعا بين اللفظ والمعنى بما يناسب الغرض، فسجّلنا جزالة في اللفظ وقوة في شعر الحماسة والمدح، وهذا ناجم عن محاولة محاكاة الشعراء القدامى، وأيضا نجد بساطة في الألفاظ وسهولة خاصة في الخطاب الزهدي والهجائي.

وأما تشكيل الصورة الشعرية التي هي ثمرة امتزاج الأحاسيس بالأفكار والعالم الخارجي أظهرها الشاعر للوجود مستعينا بالتعبير اللغوي والصور البيانية، فقد حاول الشعراء الارتقاء بتشكيل صورهم الشعرية، فمالوا إلى توظيف المجازات والتشبيهات والاستعارات التي تعطي بعدا جماليا وتأثيريا. كما وظفوا الانزياح بالحذف أو الاعتراض أو التقديم والتأخير وغيره من الأنواع، وهذا إما اختيارا أو اضطرارا كالضرورة الشعرية، وذلك لغرض نفسي كلفت الانتباه وإثارة الأذهان، والتشويق أو التأكيد، أو لغرض إيقاعي أي مراعاة للبنية الموسيقية في شعرهم. واستخدموا التناص بأنواعه منه الديني والأدبي، فكان التناص مع القرآن الكريم والحديث الشريف والموروث الأدبي القديم. وذلك لأن عدد من هؤلاء الشعراء هم من الفقهاء والمتصوفة، وقد أدى ذلك إلى امتزاج الخطاب الشعري لديهم بالثقافة الدينية التي كانت جزءا من التشكيل الفني لبنية النص الشعري. وأظهر هؤلاء الشعراء اهتماما بالجوانب الإيقاعية في أشعارهم على المستويين الداخلي والخارجي، فحرصوا على استعمال المحسنات البديعية من طباق وجناس وتضاد ومقابلة وغيرها. واختاروا الوزن والقافية والروي لإقامة البنية الإيقاعية للنص الشعري، وحاولوا تحسينها وجعلها أكثر تأثيرا في المتلقي، وأكثر ما استخدموا من البحور البحر الطويل والبسيط والكامل.

ومن القضايا التي عولجت في هذا الفصل بعض قضايا النقد الأدبي وموضوعاته، فوقفنا عند مقدمة ديوان ابن الخلوف الذي أشار فيها إلى مسألة نقدية تتعلق بمفهوم الملكة الشعرية الاكتسابية وكيفية تحصيلها، وبين أن ذلك لا يتأتى إلا بتهيئة الوسائل والأدوات والسبل اللازمة لتنمية القدرات الأدبية، والتي من أهمها الاستعداد النفسي، وعامل السن والاطلاع الواسع وحفظ الموروث الأدبي القديم، والتدريب على قرض الشعر.

الفصل الثالث



من أعلام الحضارة في المغرب الإسلامي في
القرنين التاسع والعاشر الهجريين

خصّصنا هذا الفصل لدراسة بعض القضايا المتعلقة بالحضارة وأعلامها. ونحاول أن نكشف عن بعض المنجزات الحضارية في مختلف المجالات العلمية والفكرية والسياسية والعمرانية في أقطار المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين. وهذا انطلاقاً من ترجمتنا لعدد من الأعلام الفاعلين في تلك المجالات، والذين تركوا بصماتهم وخلفوا آثاراً مادية ومعنوية شهدت على إنجازاتهم الحضارية التي برزت في إبداعاتهم المعرفية وجهودهم العملية وإضافاتهم العلمية، والتي أسهموا بها في بناء الحضارة الإنسانية ومدّ جسور التواصل الحضاري. ونسعى إلى استقصاء تلك الجهود بتتبع سيرهم وتراجمهم ومعرفة أسمائهم وأنسابهم وتاريخ الولادة والوفاة إن وجدت، ونشأتهم العلمية الشيوخ الذين أخذوا عنهم وتلاميذهم وبيان إنجازاتهم العلمية، وعرض بعض النماذج الثريّة من خطابهم العلمي والأدبي. فذلك يساعدنا أكثر على الإحاطة بشخصياتهم والاطلاع على آثارهم في مختلف ميادين المعرفة، واستخلاص أهم القيم الحضارية التي كانت في حياتهم ومجتمعاتهم، وإبراز جانب من تجليات العلاقة بين الأدب والحضارة في بعض النماذج الثريّة لبعض الأعلام.

وقد اخترنا إحدى عشرة (11) شخصيّة من مختلف أقطار المغرب الإسلامي ممّن برزوا في عدد من العلوم النقليّة والعقليّة كالفقه والتاريخ والرياضيات والطب والفلك والجغرافية، وشاركوا في الحياة السياسيّة. ومن بين هذه الشخصيات ترجمنا لعالمين من أهل الدّمة من اليهود الذين شاركوا في الحياة العلميّة والفكرية خاصّة.

وقد ربّنا هؤلاء الأعلام داخل هذا الفصل وفق الترتيب الذي راعيناه في الفصلين السابقين، وهم على التّوالي:

- 1- عبد الله التّرجمان (756 - 832هـ / 1355 - 1430م).
- 2- ابن سراج الغرناطي (ت 848هـ / 1444م).
- 3- الحباك التلمساني (ت 867هـ / 1463م).
- 4- القلصادي (815 - 891هـ / 1412 - 1486م).
- 5- أبو عمرو عثمان الحفصي (821 - 893هـ / 1418 - 1488م).
- 6- ابن الأشقر المالقي (قبل 820هـ - بعد 908هـ / 1417 - 1502م).

- 7- البدر الشماخي (ت928هـ / 1521م).
 - 8- الحسن الوزان (ليون الإفريقي) (894 - 957هـ / 1489 - 1550م).
 - 9- عبد الرحمن التاجوري الطرابلسي (ت960هـ / 1552م).
 - 10- يوسف بن موسى الأشقر (القرن العاشر الهجري).
 - 11- ابن حمزة الجزائري (القرن العاشر الهجري).
- واختارنا من الخطابات الأدبية النثرية نصًا من رحلة القلصادي، ورسالة البدر الشماخي إلى صولة بن إبراهيم الغدامسي، وهي خطاب نثري جمع بين فني الترسّل والمناظرة. وقمنا بتحليل هذه الخطابات تحليلًا موجزًا بما يتناسب مع طبيعة الخطاب للكشف بعض السمات الموضوعية والفنية. فتناولنا الصورة الفنية وتشكلها، وكشفنا عن بعض الصور البيانية من استعارات وكنایات وتشبيهات، وذلك لأهميتها في بناء الصورة الفنية وأثرها في نقل المبدع تجاربه الشخصية ومشاعره وأحاسيسه وتبليغها إلى المتلقي. ونحاول الوقوف على بعض الظواهر الأسلوبية كأنواع التناص التي تمّ توظيفها، والظواهر الإيقاعية كالتزيين اللفظي والمعنوي من سجع وفواصل وجناس وطباق وغيرها.

1 - عبد الله التّرجمان (756 - 832هـ / 1355 - 1430م):

1 - اسمه وكنيته ولقبه:

هو عبد الله بن عبد الله التّرجمان الميورقي⁽¹⁾، واسمه الأصلي قبل إسلامه هو (أنسيلم ترميدا) (Anselmo Di Turmeda)⁽²⁾. وكنيته أبو محمد كني على اسم ولده الذي ولد له بتونس من ابنة رجل اسمه الحاج محمد الصّفّار⁽³⁾. لقّب بالتّرجمان وذلك لاشتغاله بالترجمة، حيث كلّفه السّلطان أبو العباس أحمد الحفصيّ (ت 796هـ / 1394م) بترجمة الخطابات الواردة باللّغات الأجنبية⁽⁴⁾. ويعرف عند العامّة بسيدي تحفة نسبة إلى كتابه (تحفة الأريب)⁽⁵⁾.

2 - مولده ونشأته العلميّة ووفاته:

لم تذكر المصادر سنة ميلاد التّرجمان، ولكن بناء على بعض المعطيات التّاريخيّة يرجّح أنّ مولده كان حوالي سنة (756هـ / 1355م)⁽⁶⁾. ولد بمدينة ميورقة الأندلسيّة وبها نشأ، أتى على ذكر المراحل التي مرّ بها في تكوينه العلميّ في كتابه (تحفة الأريب)، حيث أسلمه والده إلى أحد القساوسة ببلده وهو ابن ست سنين، فحفظ أكثر من نصف الإنجيل وأخذ علم المنطق في مدة ثمان سنين. ثمّ سافر بعدها إلى مدينة لاندرة الإسبانيّة لإتمام تعليمه، وانتهى به الأمر إلى كبير القساوسة (نقلا مرتيل) بمدينة تيونية أين لازمه عشر سنوات وانقطع لخدمته حتى جعله من خاصّته، فأخذ عنه علم أصول الدّين النّصرانيّ وأحكامه⁽⁷⁾. توفيّ التّرجمان بتونس سنة (832هـ / 1430م)، ودفن بمقبرة السّراجين⁽⁸⁾.

3 - إسلامه:

1- ينظر: تحفة الأريب، التّرجمان، ص 53، 61.

2- ينظر: تراجم المؤلّفين التّونسيّين، محمّد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 2، 1994م، ج 1، ص 167.

3- ينظر: تحفة الأريب، التّرجمان، ص 75، 76.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص 77.

5- ينظر: تراجم المؤلّفين التّونسيّين، محمّد محفوظ، ج 1، ص 172.

6- هذا ما رجّحه عمر الدّاعوق محقّق (تحفة الأريب). ينظر: مقدّمة محقّق تحفة الأريب، ص 25.

7- ينظر: المصدر نفسه، ص 62.

8- ينظر: تراجم المؤلّفين التّونسيّين، محمّد محفوظ، ج 1، ص 167، 172.

كان للقسيس الإسباني (نقلو مرتيل) أثر كبير في التوجيه الديني والسلوكي والفكري للترجمان، حيث أعجب الترجمان بزهد أستاذه وورعه وصدقه وإخلاصه. وقد نصحه باعتناق الإسلام باعتباره الرسالة الخاتمة، وهذا بعد أن نقل إليه الترجمان ما دار بينه وبين طلبة العلم من نقاش حول تفسير كلمة (البارقليط) الواردة في نص من الإنجيل (إله يأتي من بعدي نبي اسمه (البارقليط)، فأعلمه أنها تعني محمداً ﷺ). فعزم على الرحيل إلى تونس أين أعلن إسلامه بين يدي السلطان أبي العباس أحمد الحفصي وهو ابن خمسة وثلاثين سنة⁽¹⁾. ولقد حاول بعض القساوسة أن يغريه بالرجوع عن الإسلام إلى النصرانية مقابل امتيازات يلقاها بصقليّة، ولكنّه رفض لكونه دخل الإسلام عن قناعة ودراية⁽²⁾.

4- وظائفه:

شغل الترجمان عدّة مناصب دينيّة ودنيويّة، فقبل إسلامه كان قسيساً ينوب عن القسيس الأكبر (نقلو مرتيل) في الاجتماعات العلميّة لرجال الكنيسة. وبعد إسلامه لقي حظوة عند السلطان أبي العباس أحمد الحفصي ومن بعده ابنه أبي فارس، حيث تولّى عدداً من المناصب السلطانيّة الماليّة والإداريّة، منها القيام على الديوان المختص بشؤون البحر، وعيّن أيضاً بالديوان السلطانيّ مترجماً ليكون قيماً على ترجمة الرسائل الواردة من الخارج والردّ عليها، فأتقن اللّغة العربيّة في سنة واحدة⁽³⁾.

5- مؤلفاته:

للترجمان مؤلفات كتبها باللّغة الكتالونيّة (لغة أهل جزيرة ميورقة)⁽⁴⁾. ولكنّ الكتاب الذي اشتهر به هو كتاب (تحفة الأريب في الردّ على أهل الصليب)، أنهاه سنة (823هـ / 1420م)⁽⁵⁾. وهو مؤلف في التاريخ والعقائد والأدب، حيث يعدّ من المصادر المهمّة في تاريخ الدّولة الحفصيّة في عصر السلطان أبي العباس أحمد، وابنه أبي فارس عبد العزيز. وقد أفاد منه مؤرّخو هذه

1- ينظر: تحفة الأريب، الترجمان، ص 66- 73.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص 78- 80.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص 65، 77، 78.

4- ينظر: مقدّمة محقّق تحفة الأريب، ص 27.

5- ينظر: كشف الظّنون، حاجي خليفة، ج 1، ص 362.

الدولة بعده كابن الشّماع والزّركشيّ ابن أبي دينار، كما أبان فيه عن طبيعة العلاقات السّياسيّة والتّجارية والعسكريّة والثّقافيّة بين أوروبا والمغرب الأدنى. لقي الكتاب وصاحبه اهتماما من دارسي علوم العقيدة وبعض المستشرقين، فالمؤلف من جملة الكتب المختصّة في مقارنة الأديان، حيث أوضح فيه زيف عقائد النّصارى وفسادها بالنقل والعقل، فالمؤلف لم يكن نصرانيّا فحسب بل كان قسّيسا⁽¹⁾. والكتاب أيضا ذو قيمة أدبيّة، فصاحبه عالج فنّا من فنون الأدب، وهو السّيرة الذاتيّة، حيث أتى في كتابه على ذكر جانب من سيرته الشخصيّة، إذ نقل لنا صورا من حياته في أوروبا وتونس، وجوانب من التّحولات النّفسيّة والعقدية التي عاشها.

6- نماذج من خطابه النّثريّ:

أتى التّرجمان في كتابه (تحفة الأريب) على بيان سيرته الذاتيّة، فتحدّث عن الحياة العلميّة ورحلاته، ورحلة إسلامه، واتّصّاله بالبلاط الحفصيّ. وسرد أحداثا ووقائع مرّ بها في حياته بأوروبا وتونس، فتناول ذكريات من حياة الطّالب في صغره وتقلّباته بين كنائس بلاد الأندلس لتلقّي مختلف العلوم، ورحلته إلى تونس وإسلامه وحياته هناك، فقال: «وقد بدأت فيه بذكر بلدي ونشأتي، ثمّ رحلتي عن ذلك المقام ودخولي في دين الإسلام...»⁽²⁾.

ومن خطابه النّثريّ ذلك الحوار الطّويل الذي دار بينه وبين أستاذه القسيس الأكبر (نقلوا مرتيل) بخصوص معنى كلمة (البارقليط) الواردة في الإنجيل، فقال القسيس: «... هذا الاسم الشّريف لا يعلمه إلّا العلماء الرّاسخون في العلم، وأنتم لم يحصل لكم من العلم إلّا القليل»⁽³⁾. فسارع إلى تقبيل قدميه، واستعطفه وسأله بالإخلاص الذي لمسه منه وبالتّفاني في خدمته مدّة عشر سنين بعد رحلته البعيدة عن وطنه أن يعلمه مدلول الاسم، فبكى القسيس وأشفق على التّرجمان خوفا من علم النّصارى بإسلامه فيقتلوه، ولكنّ التّلميذ أصرّ على معرفة الحقيقة، فأقسم القسيس له بالإنجيل والمسيح عيسى ابن مريم (عليه السّلام) أن يكتّم الأمر⁽⁴⁾. ثمّ قال له: «... فاعلم يا ولدي أنّ (البارقليط) هو اسم من أسماء نبيّهم محمّد (ﷺ) ... وإنّ دينه دين

1- ينظر: مقدّمة محقّق تحفة الأريب، ص 30، 31.

2- ينظر: تحفة الأريب، التّرجمان، ص 58.

3- المصدر نفسه، ص 67.

4- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

الحق، وملّته هي الملة البيضاء والمذكورة في الإنجيل... فقلت: وكيف الخلاص؟ فقال: بالدخول في دين الإسلام، فقلت: وهل ينجو الدّاخل فيه؟ قال لي: نعم ينجو في الدنيا والآخرة. فقلت له: يا سيدي إن العاقل يختار لنفسه أفضل ما يعلم، فإذا علمت فضل دين الإسلام فما منعك من الدّخول فيه؟ فقال لي: يا ولدي إنّ الله لم يطلّني على فضل دين الإسلام وشرف نبي الإسلام إلى بعد كبر سنّي وضعف جسمي، ولا عذر لنا فيه بل حجة الله علينا قائمة، ولو هداني الله لذلك وأنا في سنّك لتركت كلّ شيء ودخلت في دين الحق... فقلت له: يا سيدي أفندّلني أن أمشي إلى بلاد المسلمين أو أدخل في دينهم؟ فقال لي: إن كنت عاقلاً طالباً للنّجاة فبادر إلى ذلك تحصل لك الدّنيا والآخرة...»⁽¹⁾.

ومن أهمّ ما يلفت النّظر في حياة التّرجمان هو اشتغاله بالترجمة (Traduction)⁽²⁾، والتي هي فنّ تطبيقيّ ونشاط بشريّ يقوم على نقل كلام من لغة إلى أخرى بشكل صحيح، يُراعى فيه إيصال المعنى الأصليّ للمتلقّي⁽³⁾. وتظهر أهميّة الترجمة والمترجم في أنّهما عاملان هامان في ربط العلاقات بين شعوب العالم، بما فيها بلدان الحوض المتوسّط، وهما مظهران من مظاهر التّواصل الحضاريّ والتّبادل الثقافيّ والتّلاقح الفكريّ بين شعوب المنطقة، فالترجمة سبيل لنقل المعارف والعلوم والآداب والثّقافات، وهي ضروريّة في مختلف مناحي الحياة العامّة (السّياسيّة والتّجاريّة والدينيّة والعلميّة وغيرها)⁽⁴⁾. وقد ظهر كلّ ذلك جليّاً في أعمال التّرجمان الذي مارس أنواع الترجمة (الدينيّة - الأدبيّة - العلميّة)⁽⁵⁾، فهو اشتغل بالترجمة التّجاريّة حين عيّن قائداً في

1- تحفة الأريب، التّرجمان، ص 67- 71.

2- يجب التّمييز بين الترجمة (Traduction) التي هي فنّ ومهارة، وبين علم الترجمة (Traductologie) الذي هو دراسة كلّ ما يتعلّق بالممارسة التّرجميّة. ينظر: الترجمة ونظريّاتها (مدخل إلى علم الترجمة)، أمبارو أورتابو ألبير، ترجمة: علي إبراهيم المنوفي، المركز القوميّ للترجمة، القاهرة، ط1، 2007م، ص 31.

3- ينظر: الترجمة بين النّظرية والتّطبيق (مبادئ ونصوص وقاموس للمصطلحات الإسلاميّة)، محمّد أحمد منصور، دار الكمال للطباعة والنّشر، القاهرة، ط2، 1427هـ / 2006م، ص 19.

4- ينظر: الترجمة بين النّظرية والتّطبيق، محمّد أحمد منصور، ص 27.

5- تنقسم الترجمة إلى أنواع: النّوع الأوّل (الترجمة التّحريريّة والثّقويّة) وهذا بناء على طبيعة أدائها. أمّا النّوع الآخر بناء على طبيعة النّصّ ومضمونه وسماته التّركيبية والدّلالية تنفّرج إلى ترجمة دينيّة وأدبيّة وعلميّة (العلوم الطّبيعيّة، القانون، الاقتصاد، السّياسة...). ينظر: المصدر نفسه، ص 31، 32.

ديوان البحر وقيّما على المبادلات التجاريّة التي تتمّ بين المسلمين والنصارى على مستوى الموانئ⁽¹⁾. كما أنّه قام بالترجمة الدينيّة حين نقل لنا عددا من نصوص الإنجيل إلى اللّغة العربيّة. ففي نصّ النقاش الذي حصل بين القسيسين في المجلس الذي جمعهم، والحوار الذي حصل بينه وبين القسيس الأكبر (نقلوا مرتيل) حول كلمة (البارقليط)، نجد التّرجمان ينقل لنا نصّا من الإنجيل وردت فيه هذه الكلمة إلى اللّغة العربيّة، فجاءت الترجمة هكذا: «إنّه يأت من بعده نبيّ اسمه البارقليط»⁽²⁾.

وفي ذلك الحوار قام بالترجمة الأدبيّة، حيث استطاع أن ينقل ذلك الحوار الشّفويّ من لغتهم الكتابيّة إلى اللّغة العربيّة دون أن يُغفل الجانب الشّعوريّ، فقد جاء النصّ المترجم مُشبعاً بالأحاسيس والمشاعر والمواقف. وإلى جانب هذا عمل التّرجمان على ترجمة الرّسائل التي تصدر عن السّلطان الحفصيّ أو الواردة على الديوان الملكيّ، ومنها تلك الرّسالة التي وجّهها له قسيس صقلّي يدعوه فيها إلى الرّجوع إلى النّصرانيّة⁽³⁾.

إنّ عمليّة الترجمة تحتاج إلى عدّة عناصر ضروريّة، وأهمّها المترجم وهو النّاقل للنصوص من اللّغة الأصليّة إلى لغة أخرى، يتحرّى الدّقّة في النّقل ويسعى إلى مماثلة النصّ الأصليّ، ليوصل مضمونه إلى القارئ وفق الأصل. فوظيفة المترجم هو السّعي إلى إعادة إنتاج للنّصّ الأصليّ بوعي دون عفويّة واختيار دون اعتباطيّة⁽⁴⁾.

وينبغي توفرّ عدّة شروط في المترجم باعتباره العنصر الأساس في عمليّة الترجمة، منها الإلمام بفنون اللّغة الأصليّة للنّصّ وباللّغة المراد ترجمة النّصّ إليها. وكذلك المقدرة على الصّياعة اللّغويّة بتوظيف البنى الإفراديّة والتّركيبية بشكل صحيح لتحمل معاني الخطاب الأصليّ. وينبغي للمترجم أن يسعى إلى معرفة ثقافة الشّعوب وأعرافهم وحضاراتهم ليتمكّن من

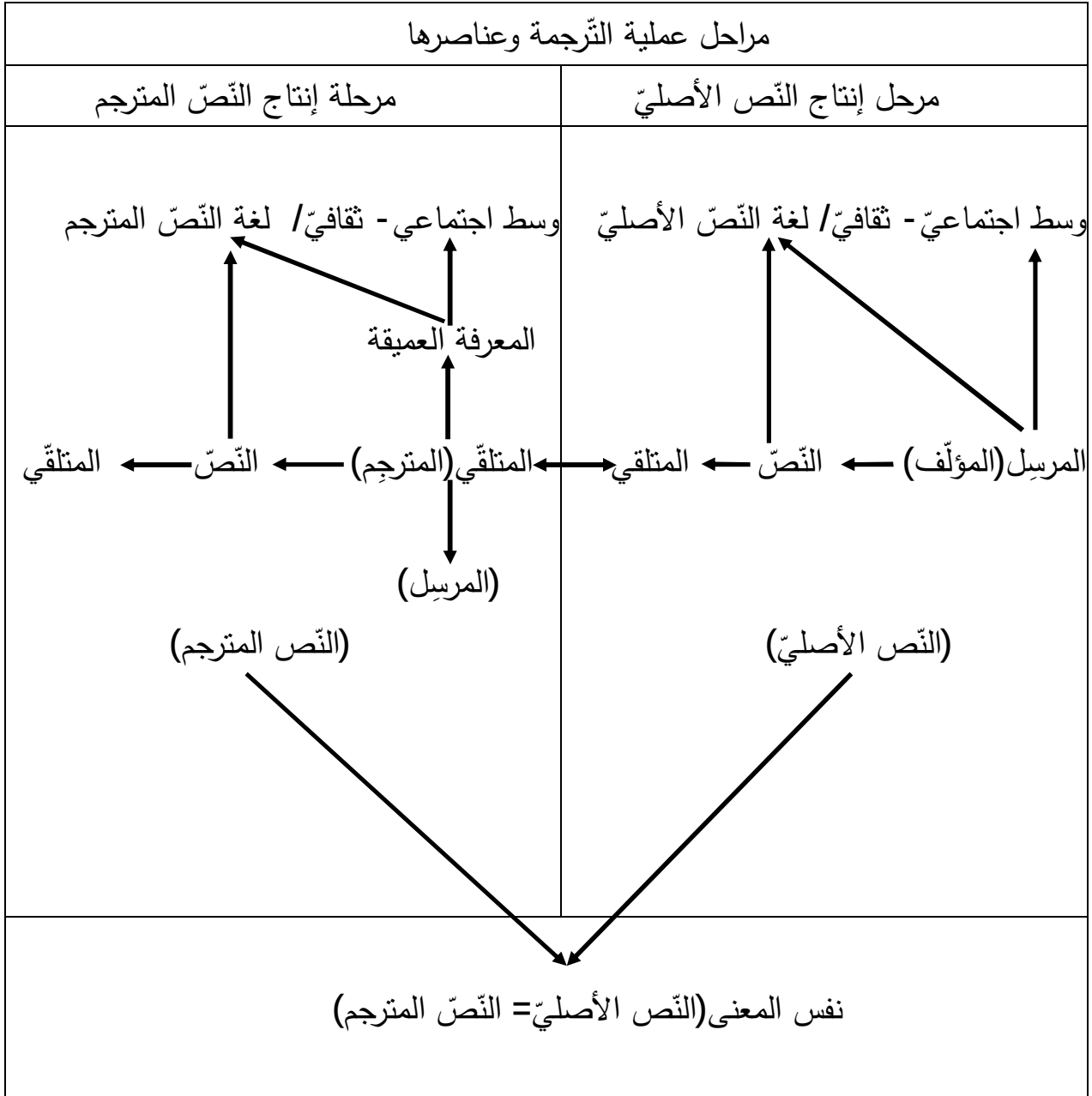
1- تحفة الأريب، التّرجمان، ص77.

2- المصدر نفسه، ص66.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص77، 81.

4- ينظر: الترجمة بين النّظرية والتّطبيق، محمّد أحمد منصور، ص33.

نقل الخطاب الأصلي إلى لغات أخرى مع محاولة المحافظة قدر الإمكان على أصالة النص، ويحتاج المترجم إلى الممارسة والدربة لاكتساب المهارة والإتقان لفن الترجمة⁽¹⁾. ويمكننا تصوير مراحل عملية الترجمة وعناصرها بهذا الشكل⁽²⁾:



- 1- ينظر: فن الترجمة، محمد عناني، الشركة المصرية العاملية للنشر، لوجمان، ط5، 2000م، ص7.
- 2- رسم تخطيطي قريب لما ذهبت إليه (أمارو هورتادو ألبير). ينظر: الترجمة ونظرياتها، ألبير، ص672.

وعند الرجوع إلى (تحفة الأريب) نجد أنّ عبد الله التّرجمان قد جمع كلّ هذه الشّروط والمعايير، فقد ألّم باللّغة العربيّة وأتقنها في مدّة قصيرة لم تزد على العام الواحد، وأعانه على ذلك تكليفه من لدن السّultan أبي فارس الحفصيّ للعمل في وسط ترجميّ، وهو (ديوان البحر) أين تسهل عليه الممارسة التّرجميّة بحكم الاحتكاك التّجاريّ بين شعوب شمال المتوسط وجنوبه، إضافة إلى إحاطته بأهمّ اللّغات الأوروبيّة والمعرفة بثقافة شعوبها والاطّلاع على حضارتهم⁽¹⁾.

ومن شروط المترجم الأمانة في النّقل وهي من المعايير المهمّة التي وجب توفّرها في المترجم. وهي تعني نقل النّصّ روحاً ومعنى وصدقاً وتعبيراً دون زيادة أو نقصان⁽²⁾. وهذا ما تميّز به التّرجمان، فقد تحرّى الدّقة في التّرجمة والصّدق في النّقل، وقد وقع في اختبار عمليّ كشف عن امتيازاته بالأمانة في التّرجمة، وذلك حين وصل كتاب إلى السّultan الحفصيّ أبي فارس قام بترجمته دون علم التّرجمان. فيه أنّ قسيساً أرسل إلى التّرجمان يدعوه إلى العودة إلى دين النّصارى والسّفر إلى صقلية، وعرض عليه جملة من الإغراءات الماليّة. فدعاه السّultan وسأله أن يترجم تلك الرّسالة ففعل، وحينما اطّلع السّultan على التّرجمة وقارنها بالنّسخة الأخرى قال: «والله ما ترك منها حرف»⁽³⁾، أي تأكيد على كفاءته وثناء على أمانته، وهي من القيم الحضاريّة التي تجلّت في ممارسة عبد الله التّرجمان للتّرجمة.

1- ينظر: تحفة الأريب، التّرجمان، ص77.

2- ينظر: التّرجمة بين النّظرية والتّطبيق، محمّد أحمد منصور، ص34.

3- تحفة الأريب، التّرجمان، ص80.

2- ابن سراج الغرناطي (ت848هـ / 1444م):

1- اسمه وكنيته ولقبه:

هو محمد بن محمد بن سراج الغرناطي⁽¹⁾، وكنيته أبو القاسم، ويعرف بابن سراج الغرناطي، ويلقب قاضي الجماعة ومفتيها⁽²⁾. ينتمي إلى أسرة غرناطية ذات أصول عربية من قبيلة مذحج وطية نزحت إلى الأندلس منذ الفتح، كانوا أعيان قرطبة ومرسية⁽³⁾. كان لبعض أفراد هذه العائلة دور متميز في الساحة السياسية والعسكرية في القرن التاسع الهجري. نذكر منهم أبا القاسم محمد بن يوسف بن سراج وزير السلطان الأيسر النصري وقائد جيوشه الذي قتل سنة (835هـ / 1432م)⁽⁴⁾ في معركة غرناطة لرد جيش يوسف بن المول (يوسف الرابع) المدعوم من خوان الثاني ملك قشتالة⁽⁵⁾. لا يعرف لابن سراج تاريخ مولد ولم نجد تفاصيل كثيرة حول نشأته، ذلك لأن المصادر المغربية والمشرقية التي بين أيدينا لم تُعن بعرض ترجمة مفصلة عن حياته، واكتفت بعرض ترجمة يسيرة له⁽⁶⁾.

2- شيوخه:

أخذ ابن سراج مختلف العلوم النقليّة والعقليّة عن الجلة من علماء الأندلس منهم: ابن لب فرج بن قاسم (701-782هـ / 1302-1381م)، ومحمد بن علي الحفّار (ت811هـ / 1408م) ومحمد بن علي بن علاّق (ت806هـ / 1404م)⁽⁷⁾.

- 1- جاء في الضوء اللامع نسبه بهذا الشكل: محمد بن سراج بن محمد بن سراج أبو القسم بن سراج. وهذا النسب مخالف لكل من ترجم لابن سراج. ينظر: الضوء اللامع، السخاوي، ج7، ص248.
- 2- ينظر: شجرة النور الزكية، مخلوف، ج1، ص175.
- 3- ينظر: نفح الطيب، المقرئ، ج1، ص295.
- 4- قد يقع خلط بين قاضي الجماعة محمد بن سراج وبين الوزير محمد بن يوسف بن سراج، على نحو ما وقع لمحقّق كتاب (جنة الرضا) لابن عاصم في مقدّمة تحقيق الكتاب. ينظر: مقدّمة جنة الرضا، ابن عاصم، ج1، ص44، 45.
- 5- ينظر: دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ج5، ص154-156.
- 6- من المصادر التي ترجمت لابن سراج: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص526- الضوء اللامع، السخاوي، ج7، ص248- شجرة النور الزكية، مخلوف، ج1، ص175.
- 7- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص526.

3- تلاميذه:

جلس ابن سراج للتدريس والتعليم بغرناطة فأخذ عنه كثير من العلماء منهم أبو يحيى بن عاصم ومحمد السرقسطي (865هـ/1461م) وإبراهيم بن فتوح العقيلي وأبو عمرو ابن منظور (كان حياً 887هـ/1482) وأبو عبد الله المواق. ويذكر التنبكتي أن من تلامذة ابن سراج محمد بن محمد بن علي الزواوي البجائي المشهور بالفراوسني (ت882هـ/1477م) صاحب المرائي الصوفيّة، ويبدو أنه أخذ عن ابن سراج أثناء مروره ببجاية في رحلته إلى تونس⁽¹⁾.

4- المناصب التي شغلها:

تولّى ابن سراج منصب قاضي الجماعة وهو من أرفع المناصب السلطانية والدينية، ولا يعين في هذا المنصب إلا من كان من أكابر العلماء والفقهاء، ويكون التعيين بمرسوم ملكي. ولا نملك من المعلومات حول زمن توليه منصب القضاء بيد أننا نعلم أنه كان قاضياً للسلطان الأيسر الذي تولّى الحكم سنة (820هـ/1471م)⁽²⁾. وقد قرّر يوسف بن المول عزله عن القضاء بعد ثورته على الأيسر سنة (835هـ/1432م)، وشقّ ذلك على ابن سراج فطلب من تلميذه الكاتب أبا يحيى ابن عاصم الوساطة له حتّى لا يعزل خوفاً من انتقام الثائرين، فبقي في منصبه إلى أن توفي ابن المول وعودة السلطان الأيسر بعده⁽³⁾. ويبدو أن السبب وراء عزم يوسف بن المول عزل ابن سراج كونه كان قاضياً لغريمه الأيسر، ولكون قائد جيوشه محمد بن يوسف المقتول في معركة غرناطة من أسرة بني سراج.

5- أقوال الآخرين فيه:

حظي ابن سراج بثناء أهل التّراجم، ووصفوا بنعوت تعكس مكانته العلمية والاجتماعية، فقال عنه التنبكتي: «الإمام العالم العلامة الحافظ الجليل، حامل راية الفقه والتّحصيل علامة بارعاً جليلاً جامعاً للفنون محصلاً قدوة»⁽⁴⁾. وقال فيه صاحب شجرة النور الزكية: «قاضي الجماعة

1- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص526، 556.

2- ينظر: دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ج5، ص154، 444.

3- ينظر: جنة الرضا، ابن عاصم، ج1، ص171، 172.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص526.

بها الإمام العلامة الفقيه الحافظ العمدة الفهامة العالم الجليل الحامل لواء المذهب مع التّحصيل»⁽¹⁾.

6 - رحلاته:

أشارت المصادر إلى قيام ابن سراج برحلة إلى عدد من مدن المغرب العربيّ، منها تلمسان وتونس، ومن ثمّ عاد إلى الأندلس⁽²⁾. وتلمسان وتونس هما يومئذ من الحواضر العلميّة التي كانتا مقصد علماء الأندلس والرحالة، وقد وصف القلصاديّ - وهو أحد الرّحالة الأندلسيين - الحياة العلميّة وأبدى إعجابه بالحركة الفكرية فيهما، فأعجب بكثرة العلماء والمؤسسات التّعليميّة والنّشاط العلميّ والجّد في تدريس مختلف العلوم وتحصيلها. فقال - حين دخل تلمسان وأقام بها مدّة - :«... وأدركت فيها كثيرا من العلماء... وسوق العلم حينئذ نافقة، وتجارة المعلّمين والمتعلّمين رابحة، والهمم إلى تحصيله مشرفة، وإلى الجّد والاجتهاد مرتقية»⁽³⁾، وفي تونس قال:«... وسوق العلم يومئذ نافقة، وينابيع العلوم على اختلافها مغدقة، فلا عليك أن ترى مدرسة أو مسجدا إلّا والعلم فيه يبيّث وينشر»⁽⁴⁾.

لم تفصح المصادر عن نوع الرّحلة التي قام بها ابن سراج ولا عن أسبابها ولا عن زمنها أيضا. وهل كانت الرّحلة ذات طابع سياسيّ أو علميّ؟. ويبدو أنّها كانت ذات صبغة علميّة، لكونه التقى بعدد من العلماء وحدثت بينهم مناقشات علميّة ومحاورات⁽⁵⁾.

7 - وفاته:

توفي قاضي الجماعة ابن سراج الغرناطيّ بغرناطة، واختلف في تحديد تاريخ وفاته بين سنتي (847 و 848هـ/1443 و 1444م)، فذكر الونشريسيّ في وفياته أنّ تاريخ وفاته كان

1- ينظر: شجرة النور الزكية، مخلوف، ج1، ص175.

2- ينظر: نيل الابتهاج، التّنبكتي، ص526.

3- رحلة القلصاديّ، ص95.

4- المصدر نفسه، ص115.

5- ينظر: نيل الابتهاج، التّنبكتي، ص526.

سنة (847هـ/1443م)⁽¹⁾، وهو أحد قولي ابن القاضي المكناسي⁽²⁾. بينما ثبت في شجرة النور⁽³⁾ ونيل الابتهاج⁽⁴⁾ وغيرهما أنه توفي سنة (848هـ/1444م)⁽⁵⁾. وشذ السخاوي عن هذين القولين حينما ذكر أن وفاته كانت سنة (842هـ/1438م)⁽⁶⁾، فكتب التراجم المغربية أقرب للصواب من المشرقية، كونه مات بغرناطة، ولم تثبت لابن سراج رحلة مشرقية حتى يتسنى له ملاقة السخاوي.

8 - جهوده العلمية والفكرية:

كان ابن سراج من العلماء الذين كانت لهم جهود كبيرة في تنشيط الحياة الثقافية بالمغرب الإسلامي في القرن التاسع الهجري، ويظهر ذلك في جهوده العلمية المشهودة؛ من ذلك جلوسه للتدريس بغرناطة، حيث أخذ عنه العلوم عدد من طلبة العلم الذين صاروا علماء المغرب الإسلامي من الأندلسيين والمغاربة.

ومن آثار ابن سراج العلمية عنايته بالفقه المالكي، فقام بشرح مختصر خليل، اعتمد عليه كثيرا تلميذه أبو عبد الله المواق في كتابه (التاج والإكليل لمختصر خليل)⁽⁷⁾، حيث نجده يورد آراء شيخه ويستشهد بأقواله مصدرا ذلك بعبارات تحمل معاني التقدير، منها: «قال سيدي ابن سراج... ورحم الله سيدي ابن سراج... وكان سيدي ابن سراج - رحمه الله - يقول... وحدّثني شيخي ابن سراج - رحمه الله تعالى -»⁽⁸⁾.

1- ينظر: وفيات الوشريسي، ص101.

2- ينظر: درة الحجال، ابن القاضي، ج3، ص282.

3- ينظر: شجرة النور الزكية، مخلوف، ج1، ص175.

4- ينظر: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص526.

5- ينظر: شجرة النور الزكية، مخلوف، ج1، ص357.

6- ينظر: الضوء اللامع، السخاوي، ج7، ص248.

7- أحصينا للمواق في التاج سبعة وستين (67) موضعا ذكر فيه أقوال شيخه ابن سراج وفتاواه وآراءه.

8- التاج والإكليل لمختصر خليل، أبو عبد الله المواق المالكي، بهامش (مواهب الجليل في شرح مختصر خليل للحطّاب)، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1416هـ/1994م، ج1، ص17، 541، ج2، ص43، 76، 364، ج8، ص166.

ومن مظاهر اهتمام ابن سراج بالفقه المالكي تلك الوصايا التوجيهية التي يخص بها طلبته، حيث دعاهم إلى الحرص على تعلم الفقه، وإلى الاهتمام بمؤلفات الفقه المالكي والاشتغال بها، وهذا ما نقله عنه تلميذه المواق، حيث قال: «كان شيخي ابن سراج - رحمه الله - يقول في مثل هذا، الفقه أن تقرأ أم خليل، اكتفي [اكتف] بالفقه تنتفع»⁽¹⁾. وما نفهمه من وصية ابن سراج أنه يدعو بصريح العبارة طلبة العلم إلى التوجه نحو التخصص العميق في فرع من فروع العلم والمعرفة وهذا بعد التزود من مختلف العلوم، إذ لا بد من التكامل والجمع بين مختلف التخصصات المعرفية ابتداء، فإنه لا غنى عن ذلك. فالتخصص يساعد على البحث المنظم ويفيد في إتقان ذلك العلم والإلمام بكل جزئياته والإحاطة بها، وأيضا يساعد على تطور العلوم. وهذا الأمر مطلب منهجي تعليمي يدعو إليه ابن سراج، وأيضا هو ضرورة حضارية تستجيب لتطور حياة البشر ولتغير نمط عيشهم⁽²⁾.

ومن أهم آثار ابن سراج الفتاوى الكثيرة المبنوثة في مؤلفات الفقه والنوازل⁽³⁾، وقد حظيت هذه الفتاوى باهتمام الفقهاء والقضاة وغيرهم. فقد جمع قاضي المرية ابن طركاظ العكي فتاوى فقهاء غرناطة في كتاب ضمّنه فتاوى ابن سراج. وممن اهتم بهذه الفتاوى تلميذه أبو يحيى ابن عاصم اعتمد عليه في شرح منظومة والده أبي بكر (تحفة الحكّام في نكت العقود والأحكام)، وتلميذه المواق في كتابيه (التاج والإكليل) و(سنن المهتدين في مقامات الدين). وأظهر النوازليون عناية بفتاوى ابن سراج، حيث نجد أبا العباس الونشريسي ضمّن عددا منها كتابه (المعيار المعرب)، وكذلك المهديّ الوزاني (1266 - 1342 هـ / 1850 - 1923 م) في كتابه (المعيار الجديد الجامع المعرب عن فتاوى المتأخرين من علماء المغرب)⁽⁴⁾.

1- التاج والإكليل، المواق، ج1، ص15 - 17.

2- ينظر: تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي، محمد همام، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط1، 2017م، ص36 - 38.

3- قام بجمعها محمد أبو الأجفان في كتاب أسماه (فتاوى قاضي الجماعة أبي القاسم بن سراج الأندلسي).

4- ينظر: فتاوى قاضي الجماعة أبي القاسم بن سراج الأندلسي، جمع ودراسة وتحقيق: محمد أبو الأجفان، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، د. ط، 1420 هـ / 200م، ص73 - 75.

إنَّ الناظر في فتاوى ابن سراج التي تناولت مختلف القضايا الفقهيّة يلفيها ذات بعد مقاصديّ، وهو مراعاة المصلحة العامّة قصد حفظ الأمن الاجتماعيّ وابتغاء الاستقرار النفسيّ الذي يختلّ بسبب الاختلافات الفقهيّة المفروضة على النّاس والزامهم بها، وهذا ما يفهم من أقواله التي نقلها عنه تلميذه المواق، منها قوله: «وكان سيدي ابن سراج - رحمه الله - يشرح هذا ويقول، إذا ظهر للإنسان خلاف ما يظهر لغيره فيمتنع في ذاته، ولا يحمل النّاس على مذهبه فيدخل عليهم شغبا في أنفسهم وحيرة في دينهم»⁽¹⁾، وقوله: «إذا جرى النّاس على شيء له مستند صحيح وكان للإنسان مختارٌ غيره، لا ينبغي له أن يحمل النّاس على مختاره، فيدخل عليهم شغبا في أنفسهم وحيرة في دينهم، إذ من شرط التّغيير أن يكون متفقا عليه»⁽²⁾. ومن مراعاة المصلحة رفع الحرج عن النّاس في معاملاتهم، فإذا خافوا الظّلم وكانوا محقّين غير مقصّرين جاز لهم إعطاء الرّشوة للظّالم دفعا للضرر الماديّ والمعنويّ، فقال: «فهي على هذا جائزة للدّافع، حرام للآخذ، إنّ واجب تخليص المظلوم على كلّ من قدر عليه»⁽³⁾.

ولابن سراج جهود فكريّة تتجلّى في تلك المناظرات والمراجعات التي جمعتها بعدد من العلماء الذين لقيهم في رحلته إلى حواضر المغرب العربيّ، فنزل بتلمسان ولقي ابن مرزوق الحفيد وقامت بينهما مناقشات علميّة، ويبدو أنّ موضوع المناقشة كان يدور حول مسائل تتعلّق بالنّحو والمنطق، وبعد هذا اللقاء ألف ابن مرزوق الحفيد كتابا أسماه (المعراج في استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج)، ولما نزل بتونس ناظر عددا من العلماء هناك⁽⁴⁾ غير أنّنا لا نعلم موضوع تلك المناظرات ولا المسائل العلميّة التي نوقشت ولا من ناظرهم هناك.

1- التّاج والإكليل، المواق، ج2، ص43.

2- المصدر نفسه، ج2، ص456.

3- المصدر نفسه، ج6، ص530.

4- ينظر: نيل الابتهاج، التّنبكتي، ص507.

3 - الحَبَّاءُ التَّلْمَسَانِيّ (ت 867هـ / 1463م):

1 - اسمه وكنيته ولقبه:

هو مُحَمَّد بن أحمد بن أبي يحيى⁽¹⁾ التَّلْمَسَانِيّ. وقد اختلف في اسم والده، فبعض المصادر أدرجت اسم أحمد⁽²⁾ في سلسلة النسب، وبعضها ذكر أنّ اسم والده هو مُحَمَّد⁽³⁾، ومنهم من أورد اسم (يحمد)⁽⁴⁾. وكنيته أبو عبد الله، ولُقّب بالحَبَّاءُ وبهذا اللقب اشتهر وعرف⁽⁵⁾. لا يعرف للحَبَّاءُ تاريخ ولادة، ولم تفصح المصادر على تفاصيل أكثر عن نشأته وتعليمه وشيوخه، سوى ما ذكره صاحب (أعلام الجزائر) أنّه ولد ونشأ بتلمسان⁽⁶⁾.

2 - تلامذته:

من الذين أخذوا عن الحَبَّاءُ تلميذه السنوسيّ الذي قرأ عليه كلّ ما يتعلّق بعلم الأسطرلاب، وانتفع به، ونقل عنه فوائد كثيرة في هذا الباب⁽⁷⁾.

3 - أقوال الآخرين فيه:

إنّ اشتغال الحَبَّاءُ بالفقه وعلم الفلك والحساب والفرائض جعله محلّ ثناء أصحاب التراجم، حيث قال فيه التَّنْبُكْتِيّ: «الشيخ الفقيه العالم العلامة الأجلّ الصّالح العدل الفرضيّ العدديّ»⁽⁸⁾. وبمثلها أثنى عليه الونشريسيّ⁽⁹⁾.

4 - وفاته:

ذكر الونشريسيّ في وفاته أنّ أبا عبد الله الحَبَّاءُ توفّي سنة (897هـ / 1463م)⁽¹⁰⁾.

1- ورد في بعض المصادر أنّ اسم جدّه يحيى وليس (أبو يحيى). ينظر: درّة الحجال، ابن القاضي، ج2، ص293.

2- ينظر: البستان، ابن مريم، ص387، درّة الحجال، ابن القاضي، ج2، ص293.

3- ينظر: نيل الابتهاج، التَّنْبُكْتِيّ، ص543.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص543.

5- ينظر: وفيات الونشريسيّ، ص101.

6- ينظر: أعلام الجزائر، نويهض، ص119.

7- نيل الابتهاج، التَّنْبُكْتِيّ، ص543.

8- المصدر نفسه، ن. ص.

9- ينظر: وفيات الونشريسيّ، ص101.

10- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

5- جهوده العلمية:

يعدّ الحباك من العلماء الذين اشتهروا باشتغالهم بعلم الفلك والحساب في المغرب الإسلامي في القرن التاسع الهجري، ويتجلى ذلك في كتبه التي ألفها والمنظومات العلمية التي نظمها، وشروحه لعدد من الأراجيز في علوم الأسطرلاب والفرائض والحساب. أظهر الحباك اهتماما كبيرا بعلم الفلك أو الهيئة، وذلك بالتصنيف في علم الأسطرلاب⁽¹⁾، فقد نظم أرجوزة سماها (بغية الطلاب في علم الأسطرلاب)⁽²⁾ كانت هذه الأرجوزة من الإسهامات التي شارك بها الحباك في تطوّر علم الفلك. ومطلع هذا النظم⁽³⁾:

بِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ نَظْمِي أَبْتَدِي * مُصَدِّيًا عَلَى الرَّسُولِ أَحْمَدِ
وَأَرْتَجِي أَنْ تُجْزِلَن ثَوَابِي * عَلَى نِظَامِ بُغْيَةِ الطُّلَّابِ

ومن الأسباب التي دفعته إلى نظم هذا الرجز وغيره⁽⁴⁾ هو تقريب هذا العلم إلى نفوس طلبة العلم ولتيسير حفظها، فالمنظوم أسهل حفظا من المنثور. ويبدو أنّ هذه المنظومة لم تخل من الغموض، فقام بشرحها⁽⁵⁾ لتوضيح الغامض من الألفاظ والتراكيب، وهي نفس الأسباب التي دفعت تلميذه السنوسي إلى عمل شرح عليها⁽⁶⁾. وقد بيّن السنوسي في شرحه أنّ علم الأسطرلاب مهمّ لصلته الوثيقة بمعرفة مواقيت العبادات منها الصلّاة، وشرف هذا العلم من شرف هذه العبادة، فقال: «إنّ أعظم القواعد التي كلفنا بها إقامة الصلّاة. وكانت معرفة أوقاتها من أوجب الواجبات، والطريقة إلى ذلك (أي عمل الأسطرلاب) من أشرف العلوم الشرعية... ومن أجل الصنائع الموصلة إلى هذا المطلب الشريف (إقامة الصلّاة) صناعة الأسطرلاب

1- علم الأسطرلاب: هو فرع من فروع علم الهيئة، يبحث فيه عن كيفية استعمال الأسطرلاب الذي هو آلة رصد يتوصّل بها إلى معرفة كثير من الأمور النجومية على أسهل طريق وأقرب مأخذ، كلّ ذلك موضّح في كتبها، كارتفاع الشمس ومعرفة الطالع وجهة القبلة وعرض البلاد وغير ذلك. ينظر: كشف الظنون، حاجي خليفة، ج1، ص81.

2- نيل الابتهاج، التّبكتي، ص543.

3- ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، ج1، ص116.

4- عمد الحباك إلى رسالة الصّفّار في الأسطرلاب فنظم منثورها. ينظر: نيل الابتهاج، التّبكتي، ص543.

5- ينظر: المصدر نفسه، ص543.

6- ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، ج1، ص117.

المعينات (كذا) على كثير من تدقيقات المعدّلين والحساب⁽¹⁾. فهو بهذا يرى أنّ الباعث التّعبدّي أساس للاستكشاف والإبداع، وليس معوّقا للتقدّم العلمي بل هو حافز على تقدّم الصنائع والفنون وبناء الحضارة. ويتفق السنوسي مع شيخه الحباك في الاهتمام بالآلات التي تيسر العمل التّعبدّي، وهذه الآلة تعرف بالربيع المجيب، وقد وصف لنا شكلها وبيّن أهميّتها وفوائدها في كتابه الموسوم ب(نيل المطلوب في العمل بربع الجيوب)، فقال: «لما كان الربيع المجيب أحسن الآلات شكلا وأحقّها عملا وأخفّها حملا، مع استخراج الأعمال منه لجميع العروض للوقت المفروض هجس في خاطري أن أقيّد عليه رسالة تذكرة لنفسي ولمن شاء من جنسي⁽²⁾. ومن هذا النصّ يمكن أن نستنتج أنّ آلات الرصد الفلكيّة تحمل جملة من الأبعاد؛ منها البعد النفعي وهذا أساس إبداعها وصنعها، والبعد الجماليّ الذي يتجلّى في مظهرها البديع الذي يجمع بين المادة التي صنع منها وبين ما تحمله من نقوش ورسوم وكتابات، فهذه الآلات مصنوعة من معدن النحاس الخفيف الذي يعمل صانعوها على تزيين تلك الصّفائح وإخراجها في أبهى صورة، ويقوم الحرفيون بتزويقها بالنقوش الجميلة والرسوم المتنوّعة والزخارف المختلفة، فهي تؤدّي أدوارها النفعيّة والجماليّة والدقويّة. وهذه الأبعاد اتّفق معه فيها تلميذه السنوسي في النصّ الذي مضى حين أشار إلى البعد النفعي لآلة الأسطرلاب، ولم يُغفل البعد الجماليّ لهذه الآلة في شرحه لمنظومة (بغية الطّلاب)، فوصف المظهر الخارجي الفنّي لهذه الآلة بقوله: «بزيينة النّقوش وأشكال الرّسوم»⁽³⁾.

إنّ هذه النصوص مهمّة في التّأريخ لمظهر من المظاهر الحضاريّة في هذه الفترة، ألا وهو فنّ النّقش والرّسم على آلات الرصد الفلكيّة النحاسيّة، وفيها تجليات لعلاقة التّأثير والتّأثر بين الأدب والحضارة، من حيث إنّ الأدب ينقل للمتلقّين متوسّلا باللّغة الانفعالات النّفسية اتّجاه تلك الإبداعات الفنّيّة والمخترعات العلميّة، والحضارة بمنجزاتها الماديّة والمعنويّة تمدّ الأدب بالمادّة التي تستقرّ الأديب فيبدي رأيه في خطابات نثريّة أو شعريّة.

1- نقلا عن: تاريخ الجزائر النّقافي، أبو القاسم سعد الله، ج1، ص117.

2- نقلا: عن المصدر نفسه، ج1، ص118.

3- نقلا: عن المصدر نفسه، ن. ص.

ومن علوم الفلك والهيئة التي أتقنها الحباك علم التعديل وهو: «... علم يتعرف منه كيفية تفاوت الليل والنهار، وتداخل الساعات في الليل والنهار، عند تفاوتها في الصيف والشتاء، ونفع هذا العلم عظيم»⁽¹⁾، فنعته أهل التراجم بالمعدل⁽²⁾، لسعة معرفته بعلم التعديل. ومن مؤلفاته في علم التعديل شرح على رجز الجادري الفاسي (ت818هـ / 1415م) (روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار) سمّاه (تفجير الأنهار خلل روضة الأزهار)⁽³⁾. كما أظهر الحباك اهتمامه بعلوم الرياضيات والفرائض، حيث قام بشرح (تلخيص أعمال الحساب) لابن البناء المراكشي في الحساب، وقام بتأليف كتاب أسماه (تحفة الحساب في عدد السنين والحساب)، وله في علم المواريث شرح على الأرجوزة التلمسانية⁽⁴⁾.

1- كشف الظنون، حاجي خليفة، ج1، ص 419.

2- ينظر: كفاية المحتاج، التنبكتي، ج2، ص179.

3- ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، ج1، ص118.

4- ينظر: وفيات الونشريسي، ص101.

4 - القلصادي (815 - 891هـ / 1412 - 1486م):

1 - اسمه وكنيته ومولده:

هو علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي⁽¹⁾ البسطي (نسبة إلى مدينة بسطة بالأندلس)⁽²⁾، كنيته أبو الحسن، واشتهر بالقلصادي (بفتح القاف واللام)⁽³⁾. ولد ببسطة قبل سنة (815هـ / 1412م)، وبها نشأ وتعلم⁽⁴⁾. ثم ارتحل خارج الأندلس في رحلة ذات طابع علمي وتعبدي سنة (840هـ / 1436م)⁽⁵⁾ فمر في طريقه بأهم الحواضر العلمية، والتقى بعلمائها، ثم أدى فريضة الحج، وبعدها عاد إلى بلده بسطة سنة (855هـ / 1451م) بعد حوالي خمس عشرة سنة، ثم استقر بعد ذلك بغرناطة⁽⁶⁾.

2 - شيوخه:

أتى القلصادي في رحلته على تعداد عدد من شيوخه الذين أخذ عنهم مختلف العلوم النقلية والعقلية (فقه، لغة، قراءات، حساب، فرائض...)، أو من حضر مجالسهم مشرقا ومغربا، وذكر أكثر من ثلاثين شيخا، فكان منهم بمسقط رأسه بسطة أبو الحسن علي بن عزيز (ت 844هـ / 1441م)، محمد القسطلري (ت 844هـ / 1441م)، الخطيب أبو عبد الله محمد البياني. وعندما كان يتردد على غرناطة لازم الشيخين أبا إسحاق إبراهيم ابن فتوح وأبا عبد الله محمد السرقسطي وقرأ بتلمسان على ابن مرزوق الحفيد ويوسف الزيدوري (845هـ / 1441م) وغيرهم عددا من المؤلفات. وبتونس لقي عددا من العلماء منهم الطبيب أبو عبد الله الدهان (853هـ / 1448م) الذي قرأ عليه أرجوزة ابن سينا في الطب وغيرها، وبمصر قرأ مختصر خليل بن

1- نسب إسماعيل باشا البغدادي القلصادي إلى القرشي بالفاء بدل القرشي، وزاد له لقبا آخر وهو نور الدين. ينظر: هدية العارفين، البغدادي، ج1، ص737.

2- بسطة: مدينة قريبة من جيان، يقال لها بالإسبانية (BAZA)، مدينة حسنة الموضع، عامرة أهلة، لها أسوار عظيمة. ينظر: الحل السندسية، شكيب أرسلان، ج1، ص126، 127.

3- ينظر: الضوء اللامع، السخاوي، ج6، ص14.

4- ينظر: المصدر نفسه، ج6، ص14.

5- ينظر: المصدر نفسه، ج6، ص15.

6- ينظر: رحلة القلصادي، ص161.

إسحاق على الشيخ قاسم النويري (899هـ / 1493م). وفي الحجاز روى الحديث عن أبي الفتح المراغي الحسني، وأجازه بأسانيده في رواية كتب الحديث⁽¹⁾.

3- تلامذته:

جلس القلصادي للتدريس داخل الأندلس وخارجه مختلف العلوم النقليّة والعقليّة، ممّا مكّن عددا كبيرا من طلبة العلم الذين صاروا علماء الأخذ عنه. فممن أخذ عنه علمي الحساب والفرائض نظريّا وعمليّا بغرناطة أبو جعفر البلوي⁽²⁾، وبتلمسان الشيخ السنوسي⁽³⁾ وتلميذه أبو عبد الله محمد الملاي⁽⁴⁾ وغيرهم.

4- أقوال الآخرين فيه:

أجمع كلّ من ذكر القلصادي أو ترجم له من معاصريه أو من جاء بعدهم في العالم الإسلامي على تضلّع القلصادي من مختلف العلوم والحرص على نشرها وتدريسها، والتفوّق في علوم الجبر والحساب والفرائض، مع الصّلاح في الدّين، وكثرة التّصانيف. إذ يقول عنه تلميذه أبو جعفر البلوي في ثبته: «شيخنا الإمام العلامة الحاجّ الصّالح الرّحال، فرضي العصر وعدديّه، ذو التّصانيف العديدة الكثيرة والفوائد الفريدة الغزيرة... ولم أر مثله سلامة باطن وصدق نيّة وحرصا على إيصال الإفادة - رحمه الله -»⁽⁵⁾، وكذا قال عنه السّخاوي⁽⁶⁾ والمقري⁽⁷⁾ وابن الأزرقي الغرناطي⁽⁸⁾ أبو عبد الله الملاي⁽⁹⁾ وغيرهم.

5- مؤلفاته:

1- ينظر: رحلة القلصادي، ص 83، 84، 96، 97، 100، 101، 117، 149، 135، 162.

2- ينظر: ثبت البلوي، ص 104.

3- ينظر: نفح الطّيب، المقري، ج 2، ص 692.

4- ينظر: البستان، ابن مريم، ص 275.

5- ثبت البلوي، ص 104.

6- ينظر: الضّوء اللّامع، السّخاوي، ج 6، ص 15.

7- ينظر: نفح الطّيب، المقري، ج 2، ص 692.

8- ينظر: روضة الأعلام، ابن الأزرقي، ج 2، ص 782.

9- ينظر: نيل الابتهاج، التّنكّي، ص 339.

خلف القلصاديّ عددا كبيرا من المؤلفات حتى عدّه المقرّي آخر المكثّرين من التّأليف بالأندلس، وتتجاوز مؤلّفاته أربعين مؤلّفا في الفقه والحديث والقراءات والنّحو والعروض والقوافي والمنطق وأكثرها في الحساب والفرائض⁽¹⁾، ممّا يعكس تفوّقه في هذا الميدان، وما يميّز مؤلّفاته هو حسن التّرتيب والتّبويب⁽²⁾ نذكر منها:

- 1- (التّبصرة الواضحة في مسائل الأعداد) ألّفه أيام إقامته بتلمسان⁽³⁾.
- 2- وله أيضا كتاب (كشف الجلباب عن علم الحساب)، و(القانون في الحساب) وله شرح عليه، و(الكليات في الفرائض) وقام بشرحه في نحو أربع كراريس، كلّها ألّفها بتونس⁽⁴⁾.
- 3- (كشف الأسرار في علم الغبار)⁽⁵⁾.
- 4- شرح على كتاب (فرائض ابن الحاجب)، وشرح منظومة الشّرّان في الفرائض⁽⁶⁾.
- 5- شرح على مختصر خليل بن إسحاق وعلى رسالة ابن أبي زيد القيرواني⁽⁷⁾.
- 6- (تمهيد الطّالب ومنتهى الرّاغب إلى أعلى المنازل والمناقب) يعرف برحلة القلصاديّ، وهو ثبّت وضعه للتّعريف بسيرته الذاتيّة العلميّة وبشيوخه⁽⁸⁾. وتكمن أهميّة هذا المؤلّف في أنّ صاحبه يصوّر لنا جانبا من الحياة الحضاريّة في أهمّ حواضر العالم الإسلاميّ في القرن التاسع الهجريّ، فأتى على تصوير الحياة العلميّة وطبيعة النّشاط العلميّ من حيث المعاهد والمدارس وطرق التّعليم والعلماء ومختلف العلوم والمؤلّفات التي كانت تدرس. كما إنّه أظهر اهتماما بالجوانب العمرانيّة بالمدن، فحين تستوقفه تلك المعالم لا يفوته وصف تخطيط المدينة وأبنيتها

1- ينظر: تراجم المؤلّفين التّونسيّين، محمّد محفوظ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، لبنان، ط2، 1994م، ج4، ص110-113.

2- ينظر: عالم رياضيّ أندلسيّ تونسيّ القلصاديّ، محمّد السّويسيّ، حوليات الجامعة التّونسيّة، تونس، العدد: 09، السّنة: 1972، ص40.

3- ينظر: تراجم المؤلّفين التّونسيّين، محمّد محفوظ، ج4، ص108، 110.

4- ينظر: المصدر نفسه، ج4، ص108، 112.

5- ينظر: المصدر نفسه، ج4، ص112.

6- ينظر: رحلة القلصاديّ، ص135.

7- ينظر: تراجم المؤلّفين التّونسيّين، محمّد محفوظ، ج4، ص110-113.

8- ينظر: رحلة القلصاديّ، ص82.

وطبيعتها وهواءها وسكانها، وهذا ما حدّث به عن مدينة الإسكندرية التي قال في شأنها: «والمدينة من أحسن البلاد ترتيباً وبناءً، وجدرانها بالحجر الأبيض المنجور، وسككها كلّها على نسق نافذة متّسعة يعلم من ذلك أنّها تخطيط حكيم، وبنّاؤها تحت الأرض محكم، والماء يخترق باطنها... وهي كثيرة الوخامة، فلا تجد أهلها إلّا صفر الوجوه، وإذا مرّ على الإنسان فيها يوم أو يومان يشعر بالضّعف والنقص في بدنه وذلك من أجل مائها - والله أعلم -»⁽¹⁾.

هذا المؤلّف ذو أهميّة أدبيّة وتاريخيّة فهو مصدر مهمّ في فنّ التراجم إذ تناول ترجمة أكثر من ثلاثين شيخاً الذين تلقّوا عنهم العلوم أو من التقى بهم، وحوى عدداً من النصوص النثرية والشعرية، ربّما لا تجدها في مصادر أخرى. من ذلك نصّ نثريّ لابن الخطيب في وصف بسطة⁽²⁾، وحكمة رواها عن إبراهيم التّازي حين زاره بزايته بوهران يقول فيها: «العالم لا تُعاده، والجاهل لا تُصافيه، والأحمق لا تُواخه»⁽³⁾. ونقل نصّاً شعريّاً للأستاذ ابن الجبير اليحصبيّ في رثاء محمّد السّرقسطيّ يقول فيه⁽⁴⁾ - الطّويل -:

وَنُورُكَ لَمَّا غَابَ أَظْلَمَتِ الدُّنْيَا	✽	بَكَتْكَ رُسُومُ الدِّينِ يَا أَوْحَدَ الْعُلْيَا
صَدَعَتْ بِأَحْكَامِ الشَّرْعَةِ وَالْفُتْيَا	✽	لَئِنْ صَدَعَ الْإِسْلَامُ فِيكَ فَطَالَ مَا
وَقَدْ زَهَدُوا فِي الْعَيْشِ بَعْدَكَ وَالْبَقْيَا	✽	عَلَى نَعَشِكَ انْتَالَتْ نُفُوسُ أُولِي النُّهَى
مُنَاجِينَ رَبَّ الْعِزَّةِ الْوَاحِدِ الْحَيَا	✽	وَقَدْ بَسَطُوا أَيْدِيَ الدُّعَاءِ بِقَوْلِهِمْ
تَعُودُ عَلَى مَنَوَاهُ بِالْغَيْثِ وَالسَّقْيَا	✽	عَلَى السَّرْقُطِ الرُّضَى مِنْكَ رَحْمَةً

6 - وفاته:

كانت الأوضاع بالأندلس أواخر القرن التاسع الهجريّ غير مستقرّة، ممّا أدّى إلى نزوح القلصاديّ عن غرناطة، واختار النّزول بتونس حيث توقّى بمدينة باجة التّونسيّة منتصف ذي الحجة (891هـ / 1486م)، ودفن بتونس قرب ضريح سيدي محرز بن خلف⁽⁵⁾.

1 - رحلة القلصاديّ، ص125.

2 - ينظر: المصدر نفسه، ص92.

3 - المصدر نفسه، ص111.

4 - المصدر نفسه، ص165، 166.

5 - ينظر: تراجم المؤلّفين التّونسيين، محمّد محفوظ، ج4، ص107.

7 - إسهاماته العلمية:

يعدّ القلصاديّ آخر علماء الرياضيات بالأندلس، حيث نبغ في علم الرياضيات ومسائله، وكثرة مؤلفاته في هذا العلم وعلم المواريث شاهد على ذلك. فهو فرضيّ عصره بشهادة معاصريه⁽¹⁾، ومن جاء بعدهم من أحاب التّراجم والمتخصّصين في علوم الرياضيات⁽²⁾. ومن أهمّ ما قدّمه القلصاديّ في سبيل تطوّر هذا العلم ميله إلى استعمال الرّموز الرياضيّة قصد تبسيط العمليات الحسابيّة واختصار المعادلات، فقد وضع حرف الجيم (ج) فوق العدد للدلالة على الجذر التّربيعيّ للعدد اثنين بهذا الشّكل تقريباً (2^ج) والآن يرمز له هكذا ($\sqrt{2}$)، وللدلالة على العدد المجهول في المعادلة رمز إليه بحرف الشّين، وقد يستعمل بدلها أحياناً نقاط حرف الشّين الثلاثة (.:)⁽³⁾. ومن طرق تبسيط العمليات الحسابيّة للمبتدئين وضعه لكتب موجزة، مثل كتاب (كشف الأستار عن علم حروف الغبار) ذي الصّبغة التّعليميّة، حيث جنح القلصاديّ فيه لسهولة العبارة بطريقة مباشرة، مع تكرار العمليات والملاحظات وتكثيف من التّمارين حتى يسهل إدراك القواعد وفهمها والدّربة على حلّ المسائل، فطريقته في التّعليم قائمة على الجمع بين ما هو نظريّ وتطبيقيّ، حيث يقول تلميذه أبو جعفر البلوي: «أخذت عنه علمي العدد والفرائض تفقّها وعملاً»⁽⁴⁾. وعمل على إشراك المتلقّي عن طريق الأسلوب الحواريّ، كقوله: «إذا كان لك كذا وكذا فالعمل كذا ويحصل لك كذا»⁽⁵⁾.

ويبدو أنّ هذا المنهج التّعليميّ امتازت به المدرسة الأندلسيّة، فقد مرّ بنا إشادة ابن الازرق بطريقة شيخه ابن الجبير اليحصبيّ في التّدريس، وهي تقوم على المحاورّة والمناقشة بين الأستاذ والمتعلّم بالدليل والحجّة، وهذا بطلب من الشّيوخ وإحاحه، حتّى ولو أفضى الحوار إلى مخالفة التّلميذ رأي شيخه، مع التّزام الأدب مع الشّيوخ. وهذه الطّريقة من الطّرق الحديثة المعتمدة في المناهج التّعليميّة، وهذه الطّريقة الحواريّة ليست قاصرة على البعد التّعليميّ

1- ينظر: ثبت البلوي، ص104.

2- ينظر: تراجم المؤلّفين التّونسيّين، محمّد محفوظ، ج4، ص110-113.

3- ينظر: عالم رياضيّ أندلسيّ تونسيّ القلصاديّ، محمّد السّويسيّ، ص40.

4- ثبت البلوي، ص104.

5- ينظر: المصدر نفسه، ص47.

والتّحصيليّ فحسب، بل إنّها تحمل أبعاداً حضاريّة أخرى كالبعد التّربويّ والنّفسيّ، فالمتعلّم يتدرّب على أدب النّقاش والحوار ويقبل على الدّرس بحيوية ونشاط وتبعث في نفس المتعلّم روح الإيجابيّة، ويُغرس فيه روح النّقد الإيجابيّ، وتحفّز المعلّم على البحث أكثر والتّحرّي، ممّا يتيح له اكتساب معلومات جديدة⁽¹⁾. وهذه الفوائد التي تحصل للمعلّم عن طريق المنهج الحواريّ وجدها ابن مرزوق الحفيد لما وصل أبو الفضل المشدائيّ إلى تلمسان لأخذ عنه العلم، واختصرها في قوله: «ما عرفت العلم حتّى قدم عليّ هذا الشّاب. ف قيل له: كيف؟ قال: لأنّي كنت أقول فيسلم لي كلامي، فلمّا جاء هذا الفتى شرع بغاز⁽²⁾ فشرعت أتحرّز، وانفتحت لي أبواب المعارف»⁽³⁾.

إلى جانب هذا أسهم القلصاديّ في خدمة علم الفرائض، وعمل على تبسيط المواريث وتقريبها ومن مظاهر ذلك تلك العناوين التي حملتها مؤلّفاته منها كتاب (تقريب المواريث وتنبيه البواعث)، و (لباب تقريب المواريث وغنية العقول البواحث)⁽⁴⁾. وتارة يقوم باختصار تلك الشّروح التي يصعب على طلبة العلم فهمها وإدراكها، كشرحه المختصر على الأرجوزة التّلمسانية في الفرائض بعد المطوّل، حيث قال: «لما صنّفت شرح التّلمسانية بطريقة التّصحيح والكسور، واستصعبه الدّخيل، رأيت نتائج العزم قوية لاختصار ذلك الكتاب»⁽⁵⁾، حيث أوضح سبب تأليفه لهذا الشّرح، وهو صعوبة الفهم والإدراك.

ومن إسهامات القلصاديّ في علوم الرّياضيات والفرائض اعتماد مؤلّفاته في مختلف العالم شرحاً وتدرّيساً وترجمة، من ذلك كتاب (كشف الأسرار عن علم حروف الغبار) الذي شرحه محمود بن سعيد مقديش (1154 - 1228هـ / 1742 - 1813م) سمّاه (إعانة ذوي الاستبصار

1- ينظر: الشّامل في المناهج وطرائق التّعليم والتّعلّم الحديثة، شادية عبد الحليم تّمّام وصلاح أحمد فؤاد صلاح، مركز ديبونو لتعليم التّفكير، عمّان، المملكة الأردنيّة الهاشميّة، ط1، 2016م، ص189.

2- كلمة غير مفهومة، ويبدو أنّها ينازعني.

3- ينظر: نيل الابتهاج، التّنبكتي، ص542.

4- ينظر: تراجم المؤلّفين التّونسيين، محمّد محفوظ، ج4، ص110 - 113.

5- ينظر: المصدر نفسه، ج4، ص111، 113.

على كشف الأستار عن علم حروف الغبار) ، وظلّ العديد من إنتاجه العلمي يدرس مدّة طويلة في جامعة الزيتونة بتونس وجامع القرويين بالمغرب الأقصى⁽¹⁾.

8 - نماذج من خطابه الأدبي:

نختار نصّا سرديّاً وصفيّاً من رحلته التي أتى فيها على بيان جانب من سيرته العلميّة، والتي لم تخل من الجوانب الأدبيّة السردية، فهو حين يصف استعداداه للرحلة عن مدينة بسطة، يشرع في وصف بلدته التي ألفها وكأنّه ينتزع منها انتزاعاً، فلولا رحلته المشرقيّة لما فارقها، فيقول: «ثم ارتحلت عن مسقط رأسي، ومحلّ أنسي مع أبناء جنسي»⁽²⁾، وقبل ذلك يصوّر لنا الحالة النفسيّة التي عاشها حين ودّع شيخه عليّ اللّخميّ بقوله: «ثم جئت الشيخ للتوديع، ولهيب الفراق على القلب يذيع، فأذنت النفس للدّموع بالانسكاب، وأضرمت في القلب نار الشّوق والالتهاب، فودّعته والجوانح ملتبهة والدّموع منسكبة، والشّوق بالقلب لاعب، وغراب البين بالأحبة ناعب، فأكبت على يديه مودّعاً، وفؤادي من الفراق متوجّعاً، وعبراتي يتحدّرن من المآقي، وزفراتي يتصدّرن من التّراقي، وكانت هذه خاتمة التّلاقي»⁽³⁾. ثمّ أنشأ يصف جمال الطّبيعة بمدينة بسطة وحسن أبنيتها، مستفتحاً ذلك بجملة اعتراضية دعائيّة، وكأنّه يستودعها الله ممّا يحيق بها من أخطار داخلية أواخريّة، ويسأل الله لها دوام الأمن والإحسان، فيقول: «بسطة - سقى الله تعالى أرجاءها المشرقة، وأغصانها المورقة، شأبيب الإحسان، ومهدّها بالهدنة والأمان - دارّ تخلّ منها الدّور، وتتقاصر عنها القصور، وتقرّ لها بالقصور، مع ما حوته من المحاسن والفضائل، من صحّة أجسام أهلها وما طبعوا عليه من كرم الشّمائل، لهوائها الصّحيح وفضائها الفسيح، وحسبك فيها من عدم الحرج، أن داخلها باب الفرج. ولذلك قال فيها ابن الخطيب: «إنّها خصيب ومنزل حبيب، وكفاها بمسجد الجنة دليلاً على البركة، وبباب المسك دليلاً على الطّيب، ولها من اسمها نصيب، إذ هي بحر الطّعام، وينبوع العيون المتعدّدة بتعدّد أيّام العام».

1- ينظر: تراجم المؤلّفين التّونسيين، محمّد محفوظ، ج4، ص358، 359.

2 - رحلة القلصاديّ، ص89، 90.

3 - المصدر نفسه، ص92.

[ولله درّ القائل⁽¹⁾] - الكامل - :

دارٌ مَشَى الإِتْقَانُ فِي تَنْجِيدِهَا * حَتَّى تَنَاسَبَ رَوْضُهَا وَبِنَاؤُهَا
مَرْقُومَةٌ الْجَنَبَاتِ ذَاتُ قَرَارَةٍ * يَمْتَدُّ قُدَّامَ الْعُيُونِ فِضَاؤُهَا
مَا زَالَ يَضْدُكُ دَائِمًا نَوَارُهَا * فِي وَجْهِ سَاحَتِهِ وَيَلْعَبُ مَاؤُهَا

ولبعض أصحابنا فيها الكاتب الأديب ابن الأزرق - الكامل -

فِي بَسْطَةِ حَيْثُ الْأَبَاطِحُ مُشْرِقُهُ * أَضْدَتْ جُفُونِي بِالْمَدَاسِنِ مُغْلَقَهُ
وله أيضا في تورية - الرمل - :

قُلْ لِمَنْ رَامَ النَّوَى عَنْ وَطَنِ * قَوْلَةٌ لَيْسَ بِهَا مِنْ حَرَجٍ
فَرَجُ الْهَمِّ بِسُدْنِي بِسْطَةِ * إِنَّ فِي بَسْطَةِ بَابِ الْفَرَجِ⁽²⁾

في هذا النَّصِّ يصف القلصادي بسطة، حيث نلفيه يميل إلى استعمال الأسلوب الذي يقوم على مراعاة الصنعة اللفظية، والتأنق في إبرازها، حرصا على الجوانب الإيقاعية التي تمدّ النَّصَّ بموسيقى تحدث تأثيرا في المتلقي. وتظهر هذه السمات الموسيقية في السجع الناتج عن التوافق بين الفواصل فهو يشبه القافية في الشعر. والسجع الذي أثر استخدامه هو السجع بسيط غير مركّب ليس فيه تكلف كبير. إذ نسجّل تأثرا بالمدرسة الأندلسية في النثر الفني وهو الأسلوب الغالب في رحلته، ويبدو تأثره بآبن الخطيب واضحا حين أدرج له نصّا يقوم على السجع القصير البسيط ؛ في وصف مدينة بسطة والثناء عليها في ثانيا خطابه.

أما المحسنات البديعية فقد جاء هذا النَّصُّ غنياً بالوحدات الإفرادية التي ساعدت في تكوينه وتلوينه، وساعدته على إيجاد النهايات المسجوعة على مستوى البنية التركيبية، وإقامة الفواصل وتشكيل الميزان الإيقاعي. فمن المحسنات البديعية التي أكثر منها الجناس الناقص (رأسي - أنسي - جنسي / المشرقة - المورقة / الإحسان - الأمان / الفضائل - الشّمائل / الصّحيح - الفسيح / الحرج - الفرّج)، أما الجناس التّامّ بين (القصور / القصور). ونسجّل أيضا في الجانب الموسيقي الاهتمام بالموازنة بين الفاصلتين في الوزن (رأسي - أنسي - جنسي / المشرقة -

1 - لم يرد هذا النَّصُّ في نصّ رحلة القلصادي، وأدرجه المقرّي في النَّفح. ينظر: نفح الطيّب، المقرّي، ج6، ص447.

2 - رحلة القلصادي، ص92، 93.

المورقة / الصّحيح - الفسيح/ الحرج - الفرج). وكذا التّرصيع القائم على توازن الألفاظ مع توافق الفواصل، وهذا في قوله (أرجاءها المشرقة، وأغصانها المورقة)، (لهوائها الصّحيح وفضائها الفسيح).

أظهر القلصاديّ في هذا النّص اهتماما بالصّورة الفنّية في خطابه، فاستعان ببعض ألوان البيان لتوصيل رسالته للمتلقّي، والتّعبير عن أحواله وأحاسيسه. فوظّف الكناية في قوله: «مسقط رأسي، ومحلّ أنسي»⁽¹⁾، فمسقط الرّأس هو الموضع الذي يقع فيه رأس المولود، ومحلّ الأنس المكان الذي تزيّ فيه وأنس بأهله وطبيعته، وهو كناية عن شدّة التّعلّق بالبلد الذي ولد فيه ونشأ. ومن أجل نقل الصّورة الجميلة لبلدته بسطة إلى المتلقّي استعان بالاستعارة المكنية في قوله: «دارّ تخجل منها الدّور... وتقرّ لها بالقصور»⁽²⁾، حيث شبّه بلدته بسطة بالمرأة الحسناء التي تخجل النّساء من منافستها لفرط حسنها وجمالها، فحذف المشبّه به وهي المرأة الحسناء، والنّساء اللّواتي يخجلن من التّصريح من إبداء حسنهنّ أمام مدينة بسطة، وأشار إليه بأحد لوازمه وهو الخجل، فبسطة فاقت مدن الأندلس جمالا بعمارتها من دور وقصور وأبواب.

ولتأكيد شدّة تعلقه بمدينة بسطة وإظهار جمالها دعم القلصاديّ نصّه بخطاب نثريّ تعريفيّ ببسطة لابن الخطيب، وبعدد من الأبيات الشعريّة المناسبة لموضوع الخطاب، منها أبيات لابن الأزرق الغرناطيّ يشيد فيها بسكنى بسطة وبطبيعتها الجميلة، ويخصّ بالذكر باب الفرج الذي يراه فأل خير على من دخل منه بأن يُفرّج عنه، وهذا كلّ عن طريق التّناسل الأدبيّ المباشر، حيث وظّف المخزون المعرفيّ لديه توظيفاً فنّياً ضمن بنية خطابه. كانت هذه بعض السّمات الفنّية للخطاب الأدبيّ الرّحليّ للقلصاديّ.

1 - رحلة القلصاديّ، ص 92.

2 - المصدر نفسه، ن. ص.

5- أبو عمرو عثمان الحفصي (821 - 893هـ/1418 - 1488م):

1- نسبه ومولده وخلافته:

هو عثمان بن محمد بن عبد العزيز الحفصي، يكنى أبا عمرو⁽¹⁾، لقّب بالمتوكل على الله⁽²⁾، ولد في السابع والعشرين رمضان سنة (821هـ/1418م)، من أمّ علجية (أروبية) اسمها ريم (ت839هـ/1435م)⁽³⁾. ونشأ في ظلّ العائلة المالكة فحفظ القرآن الكريم وأخذ شيئاً من العلوم⁽⁴⁾. رأى فيه جدّه نباهة فتوسّم فيه انقياد أمر بني حفص إليه، فكان أبو عمرو عثمان أحد أبرز ملوك الدولة الحفصية، وهو السلطان الثاني والعشرين في سلسلة الدولة الحفصية⁽⁵⁾، بوع بالخلافة يوم الجمعة الثالث عشر من صفر سنة (839هـ/1435م)، بعد وفاة أخيه أبي عبد الله المنتصر الحفصي، وعمره أقلّ من ثماني عشرة سنة⁽⁶⁾، واستمر في الحكم حوالي (54) عاماً إلى غاية وفاته، وهذا من سنة (839هـ إلى 893هـ)⁽⁷⁾.

2- أقوال الآخرين فيه:

ذكر السّخاوي أنّ السلطان أبا عمرو عثمان كان محلّ ثناء كثير من الذين التقوا به، ونقل ثناء أبي الخير الفاسي المكي عنه، وكان آخر من حدّث السّخاوي عنه⁽⁸⁾. وقد أثنى عليه مؤرّخو الدولة الحفصية، وسردوا مآثره وإنجازاته، فقال عنه ابن الشّماع: «مولانا الإمام رفيع الشأن أمير المؤمنين عثمان ذو المآثر السّنية والأحوال المرضية»⁽⁹⁾.

3- إنجازاته الحضارية:

- 1- ينظر: تاريخ الدولتين، الزركشي، ص134.
- 2- ينظر: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، برنشفيك، ص272.
- 3- ينظر: تاريخ الدولتين، الزركشي، ص131، 134.
- 4- ينظر: الصّوء اللّامع، السّخاوي، ج5، ص138.
- 5- ينظر: الأدلة البيّنة، ابن الشّماع، ص140.
- 6- ينظر: تاريخ الدولتين، الزركشي، ص131، 134.
- 7- ينظر: الأدلة البيّنة، ابن الشّماع، ص140.
- 8- ينظر: الصّوء اللّامع، السّخاوي، ج5، ص138.
- 9- الأدلة البيّنة، ابن الشّماع، ص121.

كانت المدة الطويلة التي حكم فيها أبو عمرو عثمان امتدادا لمآثر سابقه من سلاطين بني حفص، فقد أسهم في تنشيط الحياة العلمية والأدبية والفكرية والفنية، وظهر ذلك في تقريبه للعلماء وإكرامهم، وقد اجتمع في تونس عدد كبير من العلماء، وقد أسند إلى كثير منهم وظائف حكومية وعينهم في مناصب دينية⁽¹⁾.

كان المغرب الأدنى في أيامه مقصد العديد من العلماء والأدباء والرحالة، فمن الذين ارتحلوا إلى تونس في زمانه القلصادي وبقي هناك إلى وفاته⁽²⁾، وقصده أبو القاسم القسنطيني صاحب كتاب (الافتتاح من الملك الوهاب في شرح رسالة سيدنا عمر بن الخطاب) وعينه في منصب القضاء⁽³⁾، وزار تونس في أيامه المؤرخ عبد الباسط الظاهري، ودون جانبا من تاريخ الدولة الحفصية في أيامه⁽⁴⁾. ووفد عليه من المشرق أيضا علي بن محمد الحسيني (كان حيا 863هـ / 1459م) فألف كتابه (عمدة المرغب الأريب وعدة المرهب اللبيب) في تونس بأمر من السلطان أبي عمرو عثمان⁽⁵⁾.

وقد نشطت الحياة الأدبية في أيامه، وذلك بتشجيعه للشعراء والأدباء وإكرامهم، فممن خصهم بالقرب من الشعراء ابن الخلف القسنطيني ومحمد الخير الملقب اللذان عكفا على خدمة السلطان وولي عهده المسعود ومدحه. ومقابل هذا المدح والثناء شملهما إحسانه وكرمه، وظهرت آثار ذلك الإحسان والعطاء على ابن الخلف الذي صرح في شعره أن من بواعث سفره من المشرق إلى تونس هو كرم السلطان أبو عمرو عثمان، وهذا في قوله⁽⁶⁾ - الطويل - :

دَعَانِي عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ نَوَالُهُ ❀ فَحَقَّقَ آمَالِي وَأَوْهَى شَكَايَتِي

- 1- ذكر الزركشي رجال دولة أبي عمرو عثمان من قضاة الجماعة وقضاة الأنكحة ومفتين وخطباء جامع الزيتونة، وقد تولى هذه المناصب أشهر العلماء. ينظر: تاريخ الدولتين، الزركشي، ص 134، 135.
- 2- ينظر: رحلة القلصادي، ص 115.
- 3- ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، ج 1 ص 132، 133.
- 4- ينظر: رحلة عبد الباسط، ص 19.
- 5- ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين، محفوظ، ج 2، ص 140، 141.
- 6- ديوان ابن الخلف، ص 90.

هذا وإنه كان للسلطان أبي عمرو مجلس علمي يلتقي فيه العلماء والأدباء وغيرهم، تقام فيه المناظرات والمناقشات والمحاورات في قضايا متنوعة ومسائل مختلفة، منها ما هو متعلق بعلوم الشريعة والآداب وغيرها. فيستمع السلطان لما يقدمه الحاضرون ويبدى رأيه فيما يعرضونه. فقد بدا راضيا عن قاضيه أبي القاسم القسنطيني وهو يتكلم عن شرحه لرسالة عمر بن الخطاب في القضاء⁽¹⁾. وكان أبو عمرو في بعض الأحيان طرفا في تلك المحاورات، فقد أوردت المصادر أنه جرت مناظرة بينه وبين البدر الشماخي الإباضي، وتناولوا عددا من القضايا الدينية والكلامية⁽²⁾.

ومن المظاهر الحضارية التي دأب عليها أهل تونس في زمان أبي عمرو عثمان تلك الاحتفالات التي كانت تقام بعد الانتصارات التي يحققها السلطان. فقد جرى العرف أن تزيّن شوارع عاصمة الحكم تونس وأزقتها بزينة متميزة، وتقام فيها مراسم خاصة يتم فيها الإعلان عن بشائر النصر، وتستمر أياما عديدة يظهر فيها الأهالي فرحتهم وابتهاجهم وولاءهم للسلطان. وقد لفت هذا الأمر انتباه الرحالة عبد الباسط الظاهري، حيث كانت هذه المهرجانات النصرية مادة مهمة ومصدر إلهام للرحالة عبد الباسط في كتابته جوانب من رحلته ولم يفته تدوينها، فعبر عن موقفه وأحاسيسه ومشاعره اتجاه هذه المراسم التي بعثت فيه روح الإعجاب والدهشة والغربة، وقد شهد عبد الباسط وهو بتونس بلوغ خبر إخضاع السلطان أبي عمرو عثمان تلمسان للدولة الحفصية، ونقل لنا جانبا من مراسم الاحتفال في قوله: «... فدفقت البشائر وزينت تونس زينة هائلة غريبة عجيبة على طريقة تلك البلاد، بهيئة غريبة لم أرها بهذه البلاد، ولم يزلوا على ذلك مدة أيام، وأظهروا من الفرح والسرور ما لا عنه مزيد»⁽³⁾.

ومن المراسم السلطانية في عهد أبي عمرو استقبال السلطان إثر عودته من الحملات العسكرية. فعند عودته يؤدي أول صلاة جمعة في جامع الزيتونة، حيث تفرش مقصورة الجامع للسلطان بأنواع من الحصير الجديد والفرش والزرابي، وتجمر بمجامر من العود بعد غلق

1- ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، ج1 ص133.

2- ينظر: السير، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي، تحقيق: أحمد بن سعود السيادي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ط2، 1412هـ / 1992م، ج2، ص187.

3- رحلة عبد الباسط، ص20.

أبوابها ونوافذها - للحفاظ على الرائحة الطيبة داخل المقصورة أو لمقصد أمني حفظا لسلامة السلطان - . ويُخصّ السلطان بسجادة متقنة الصنعة متخذة من سعف رفيع. كانت هذه المراسم من الأمور التي سجّلتها رحلة عبد الباسط. والقيّم على كلّ هذه الترتيبات ناظر الحبس الذي يأمر: «... بقمّ المقصورة... وبسطها بالحصر الجيدة الجديدة، وأطلق بها مجامر العود وأغلق بابيها وشبابيكها، ثمّ أحضرت سجادة السلطان، وهي من سعف رفيع محكمة الصنعة، ففرشت بمكان جلوسه للصلاة»⁽¹⁾. وبعد تهيئة المقصورة يأتي أبو عمرو عثمان في موكب سلطاني وحوله حاشيته يقدمه وليّ عهده وأفراد من عائلته، والناس يسلمون عليه بلقب السلطنة أو الخلافة⁽²⁾.

إنّ هذه الاحتفالات النصرية والماراسم السلطانية ذات البعد الحضاريّ تعكس علاقة الأدب بالحضارة التي من مظاهرها قيامها على ثنائية التأثير والتأثر. فقد أمدّت هذه المظاهر الأدب بالمادة التي يصوغها الأديب صياغة لغوية تحت أيّ جنس أدبيّ سعيا منه إلى بلوغ أقصى غايات الإبداع الأدبيّ لإيصالها للمتلقّي، فيفرغ فيها من أحاسيسه ومشاعره ومواقفه ما يكون عاملا مؤثرا في المتلقّي، ويكون فيها الأدب حافظا لتلك المنجزات الحضارية.

ومن المنجزات العمرانية الحفصية الاهتمام بالحدائق الملكية التي تتخذ منتزهات للعائلة المالكة، وقد لقيت هذه الحدائق عناية كبيرة واهتماما في عهد أبي عمرو عثمان، وأشهر هذه المنتزهات رأس الطابية، وهي حديقة جميلة تأخذ بالألباب لجمال منظرها وحسن ترتيبها وتنظيمها، يتوسّطها بناء عظيم بديع الصنعة متقن البناء، وبالقصر بركة مائية كبيرة، تغذى جوانب الحديقة بالماء الذي يجتمع في حجر رخاميّ واسع كالدائرة منقور الجوانب، ومن ثمّ ينتقل عن طريق مجاري أفعوانية (تسمّى المحنشة) معقّدة التصميم ذهابا وإيابا. أبهر جمالها وحسن تصميمها الرّحالة عبد الباسط الذي وصفها في قوله: «... وبه بركة ماء عظيمة كبيرة جدّا، يقال له المحنشة، برسم جريان الماء، فيه نقر في حجر كالرخام يدخل الماء إليه من جهة ثمّ يجول فيه جولانا غريبا في أوضاع محفورة نقرا في هذه البلاطة على هيئة دائرة واسعة متداخلة

1- رحلة عبد الباسط، ص20.

2- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

النقور، بديعة الصفات تسر الناظرين وتشرح الخاطر، وهي من النّوادر يجول فيه الماء كأنّه حنش، ويتعكس الجولان عدّة معاكسات غريبة الهيئات»⁽¹⁾. ورأس الطّابية هي من المنجزات الحضاريّة التي تشهد على جمال الفنّ المعماريّ للحفصيّين. ولم تكن رأس الطّابية منتزهاً للعائلة المالكة فحسب، لكنّها كانت مواطن مراكز ثقافيّة تقام فيها مجالس للمذاكرات العلميّة والتّاريخيّة والأدبيّة وغيرها يجتمع فيها السّاسة والمفكّرون والأدباء وطلبة العلم وأرباب الأموال⁽²⁾.

أولى أبو عمرو عثمان عناية بالعمارة الدّينيّة، فاهتمّ بجامع الزّيتونة باعتباره صرحاً حضاريّاً ومعلّماً ثقافيّاً ومركز إشعاع علميّ، ومقصّد العلماء والزّحالة وطلبة العلم من مختلف أقطار العالم الإسلاميّ. فأمر في شهر شعبان من سنة (852هـ / 1448م) ببناء ميسضة ملحقة بجامع الزّيتونة، وأمر بتسخين الماء فيها في فصل الشّتاء، وتمّ الانتهاء من بنائها في رجب من سنة (854هـ / 1450م). كما أنشأ مكتبة خاصّة بالكتب بالجامع، جمع فيها أمّهات الكتب في مختلف العلوم، منها العلوم الشّرعية واللّغويّة والطّبّ والحساب وغيرها، وجعلها بين يدي طلبة العلم⁽³⁾. قال عنه السّخاوي: «وأنشأ الأبنية الهائلة والخزانة الشّرقية بجامع الزّيتونة، وجعل بها كتباً نفيسة للطلّبة»⁽⁴⁾.

ومن منجزاته العمرانيّة الدّينيّة بناؤه لعدد من مدارس العلم والزّوايا داخل تونس وخارجها، كالمدرسة القريبية من ضريح الشّيخ محرز بن خلف، والتي بنيت سنة (840هـ / 1437م)، وقد وصفها ابن الشّماع بأنّها في غاية الحسن والجمال والإتقان⁽⁵⁾. واختطّ زاوية بعين الزميت على الطّريق الغربيّ للمتجهين إلى تونس في مكان قفر، بها مسجد للصّلاة وأقام بها دروساً للعلم، وكانت رباطاً للقاطنين بها⁽⁶⁾. فكانت هذه المؤسّسات الدّينيّة تؤدّي دوراً تعليميّاً وروحانيّاً

1- ينظر: رحلة عبد الباسط، ص20.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص21.

3- ينظر: تاريخ الدّولتين، الزّركشي، ص 143، 144.

4- ينظر: الضّوء اللّامع، السّخاوي، ج5، ص139.

5- ينظر: الأدلّة البينة، ابن الشّماع، ص 122.

6- ينظر: المصدر نفسه، ص120 - 124.

واجتماعيًا وعسكريًا، فهي تستقبل طلبة العلم والمتصوفة والفقراء والمحتاجين ومأوى للمسافرين ورباطات لردّ الغارات والهجمات العسكرية. وكانت الأوقاف التي أمر بها السلطان أبو عمرو من المصادر المالية التي تغطي نفقات التي من أجلها بنيت هذه المؤسسات، وكذلك للاهتمام بالجانب العمراني⁽¹⁾. وذلك لأنّ للأوقاف دورًا حضاريًا، فهي تؤمّن الاستمرارية والديمومة لعمل هذه المؤسسات وتدعمها بما توفره من مداخيل مالية ثابتة. وهي تساعد على استمرار النشاط العلمي والفكري والديني والاجتماعي والاقتصادي والعمراني، وهذا عبر شبكة من العلاقات بين القائمين على الأوقاف والجهات المستفيدة منها والمستغلين لها عن طريق كراء الأملاك الوقفية⁽²⁾.

1- ينظر: الأدلة البيّنة، ابن الشّماع، ص 124.

2- ينظر: دور الأوقاف الإسلامية في التنمية العمرانية في القدس، موسى سرور، حويات القدس، مؤسسة الدراسات المقدسية، القدس، العدد: 14، خريف 2012م، ص 64.

6- ابن الأشقر المالقي (قبل 820 - بعد 908هـ / 1417 - 1502م):

1- نسبه وهجرته:

هو موسى بن سمویل⁽¹⁾ بن يهودا الإسرائيلي المالقي الأندلسي اليهودي، اشتهر بنسبته إلى أبيه (ابن سمویل) وأيضاً عرف بابن الأشقر وبه اشتهر⁽²⁾. كان اليهود يمثلون جزءاً من النسيج الاجتماعي الأندلسي، وبعد سقوط مدن الأندلس بيد القشتاليين استقروا بالمدن الكبرى في مملكة بني الأحمر، وكانت لهم بها أحياء تجمعهم، فيها معابدهم وحمّاماتهم. اختارت عائلة ابن الأشقر مدينة مالقة للاستقرار بها بعد أن هاجرت من إشبيلية إثر موجة الاضطهاد التي طالت اليهود سنة (792هـ / 1391م). كان الجزء الشرقي من مدينة مالقة - يعرف بمقبرة اليهود - يضمّ الحيّ اليهودي⁽³⁾. ولد ابن الأشقر قبل سنة (820هـ / 1417م) بمدينة مالقة التي نشأ فيها وتعلّم، ثمّ هاجر إلى تلمسان واستوطنها، ويبدو أنّ الأوضاع السياسيّة في الأندلس كانت وراء هذه الهجرة⁽⁴⁾.

2- شيوخه:

ما يمكن استخلاصه من ترجمة عبد الباسط لابن الأشقر أنّه أخذ العلوم الدينيّة والعقليّة بمسقط رأسه مالقة عن عدد من العلماء، أهمّهم والده سمویل الذي يبدو أنّه كان من الطبقة العلميّة اليهوديّة⁽⁵⁾.

3- أقوال الآخرين فيه:

أبدى الرّحالة عبد الباسط الظّاهريّ إعجاباً شديداً بشخصيّة أستاذه ابن الأشقر من حيث تفوّقه العلميّ والتزامه الدينيّ. فقد ألمّ ابن الأشقر بعدد من العلوم العقليّة والدينيّة، فأظهر تفوّقا

1- جاء الاسم (سمویل) بالسّين، وقد يأتي بالصاد (صمويل).

2- ينظر: رحلة عبد الباسط، ص 19.

3- ينظر: غرناطة في ظلّ بني الأحمر، يوسف فرحات، ص 98.

4- ينظر: أهل الذمّة في الدولة الزيانية (633 - 962هـ / 1235 - 1554م) (دراسة سياسيّة، اقتصاديّة، اجتماعيّة وثقافيّة)،

عبد الصّمد حمزة، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الدّكتوراه في التّاريخ والحضارة الإسلاميّة، قسم الحضارة الإسلاميّة، جامعة أحمد

ابن بلّة 1، وهران، 1437 - 1438هـ / 2016 - 2017م، ص 29.

5- ينظر: رحلة عبد الباسط، ص 19.

في الطبّ وعلم الميقات. وجمع إلى ذلك الالتزام الدينيّ وفق شريعته اليهوديّة مع النّباهة ورجاحة العقل، حتّى إنّ عبد الباسط تمنّى له أن يدخل الإسلام. فوصفه بقوله: «... الرئيس الفاضل الأدرى الأقرئ ... لم أسمع بزمي ولا رأيت كمثلَه في مهارته في هذا العلم وفي علم الميقات وبعض العلوم القديمة، مع التّعبّد الرّائد في دينه»⁽¹⁾. فهذه الشّهادة تعكس مكانة ابن الأشقر الدّينيّة والعلميّة والأخلاقيّة.

4 - وظائفه:

بلغ ابن الأشقر بكفائه العلميّة ونباهته وديانته مكانة اجتماعيّة وسياسيّة وعلميّة ودينيّة، فقد صار رئيس الطّائفة اليهوديّة بتلمسان، وعُيّن في منصب ناجد (نجيد أو نعيد - Najid) وهو اللّقب الرّسميّ في الدّولة لرئيس اليهود. والناجد يجمع بين الوظيفة الدّينيّة والإداريّة، ولا يتولّى هذه الوظيفة إلّا من توقّرت فيه عدّة شروط منها: أن يكون كبير الكهنة أو الحبر الأكبر عالما بشرائع اليهود متقنا للغة العربيّة مع النّزاهة والخلق الحسن. ويتمّ تعيينه بموجب مرسوم ملكيّ يكون فيه النّاجد ممثلاً لليهود أمام الدّولة ويتولّى تسيير شؤونهم، وهو يمثل أعلى سلطة قضائيّة له تعيين القضاة والمقدّمين الذين يسيرون اليهود في الأقاليم، ويقوم على جمع أموال الضّرائب والجزية وغير ذلك من المهام، ويبقى في منصبه إلى غاية وفاته⁽²⁾. ويبدو أنّ السّلطان العاقل الرّيانيّ (ت866هـ / 1462م) قد عيّنه بعد وفاة الحبر أفرام أنقاوة (845هـ / 1442م)⁽³⁾، واستمرّ في هذا المنصب زمن حكم محمّد بن أبي ثابت المتوكّل (ت890هـ / 1485م)⁽⁴⁾.

لقي ابن الأشقر اهتماما كبيرا من السّلطة الرّيانيّة وعناية ملحوظة، فقد كان مقربا من سلاطينها، فعين طبيبا للسّلطان المتوكّل واختصّ به، وذلك لكونه ماهرا بالتّطبيب وامتكّنا من هذا العلم، حتّى انتهت إليه الرّئاسة في الطبّ⁽⁵⁾. وهنا يظهر لنا مدى اهتمام الحكّام الرّيانيّين

1- رحلة عبد الباسط، ص44.

2- ينظر: اليهود في مصر، قاسم عبده قاسم، دار الشّروق، القاهرة، ط1، 1993م، ص65-67.

3- ينظر: أهل الدّمة في الدّولة الرّيانيّة، عبد الصّمد حمزة، ص27، 29، 30، 247.

4- ينظر: رحلة عبد الباسط، ص45.

5- ينظر: المصدر نفسه، ص44، 45.

بأصحاب الكفاءات العلميّة وتتمين جهودهم دون النظر إلى توجّهاتهم الدينيّة أو أصولهم العرقيّة، وهذه من القيم الحضاريّة التي عرفت لدى سلاطين بني زيّان⁽¹⁾.

5 - وفاته:

لم نجد في المصادر التي يستن أيدينا تاريخا لوفاة ابن الأشقر، غير أنّ المتفق عليه هو أنّه كان حيّا سنة (869هـ/1463م) وهو العام الذي التقى فيه بالرحالة عبد الباسط تلمسان⁽²⁾. ويمكننا أن نستنتج تاريخا لوفاته ومكان موته انطلاقا ممّا سبق ذكره. إنّ تعيين السلطنة الزيّانيّة للنّاجد اليهوديّ لا يكون إلّا بعد وفاة الذي قبله، وقد تمّ تعيين حبر آخر بعد ابن الأشقر وهو يوسف بن موسى الأشقر المعروف بالركيز الذي هاجر من الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة (897هـ/1492م) إلى شمال المغرب العربيّ، وقصد تلمسان واستقرّ بها⁽³⁾ بعد سنة (908هـ/1502م)⁽⁴⁾، ومن ثمّ تكون وفاة ابن الأشقر الطّبيب بتلمسان بعد هذا التاريخ، والمرجّح أنّه مدفون بمقبرة اليهود.

6 - بعض إنجازاته العلميّة والفكريّة:

كان ابن الأشقر من العلماء الذين أسهموا في تنشيط الحياة العلميّة في المغرب الإسلاميّ، ولاسيما عندما انتقل إلى تلمسان. ومن نشاطاته العلميّة جلوسه للتدريس في حلقات علميّة يلقّن فيها العلوم العقليّة والتّجريبية وأهمّها علميّ الفلك والطّب، فهو من جملة العلماء الذين أتقنوا هذه العلوم في زمانه. فكان يقصده العلماء وطلبة العلم من كلّ مكان للأخذ عنه. وكان عبد الباسط الظّاهريّ واحدا من الذين لازموا الطّبيب ابن الأشقر مدّة من الزمن وانتفع به ومنحه إجازة في الطّب⁽⁵⁾. إنّ هذا الاتصال العلميّ بين عدد من العلماء والفضلاء المسلمين وابن الأشقر الذّمّيّ

1- ينظر: تلمسان في العهد الزيّانيّ، عبد العزيز فيلالي، المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الغاية، الجزائر، 2002م، ج1، ص193، 194.

2- ينظر: رحلة عبد الباسط، ص19.

3- ينظر: أهل الذّمّة في الدّولة الزيّانيّة، عبد الصّمد حمزة، ص29، 30.

4- ينظر: يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، فوزي سعد الله، شركة دار الأمانة للطباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط2، 2004م، ص114.

5- ينظر: رحلة عبد الباسط، ص44.

ذي الديانة اليهودية هو مظهر من مظاهر الرقي الفكري والحضاري، إذ كان التركيز على أخذ العلوم دون الالتفات إلى الاختلافات الدينية ولا الفوارق الطبقيّة. ومن القيم الحضاريّة التي تتجلى في حياة ابن الأشقر قيمة التعايش الدينيّ والسلميّ مع أهل الذمة داخل المجتمع التلمسانيّ.

7 - البدر الشماخي (ت 928هـ / 1522م):1 - نسبه ونشأته:

هو أحمد بن أبي عثمان سعيد بن عبد الواحد الشماخي العامري (نسبة إلى أحد أجداده عامر) نسبا اليفرنّي بلدا (نسبة إلى بلدته يفرن)⁽¹⁾، ويلقب ببدر الدين⁽²⁾، وكنيته أبو العبّاس⁽³⁾. كان مولده في العقد الرابع من القرن التاسع الهجري، ببلدة يفرن بجبل نفوسة⁽⁴⁾ بليبيا⁽⁵⁾. الشماخي ينحدر من عائلة إباضية المذهب، عريقة الحسب والنسب، مشهورة بالعلم ومشهود لها بالصّلاح⁽⁶⁾، من أشهر أعلام هذه الأسرة أبو ساكن عامر بن علي الشماخي (792هـ / 1279م)⁽⁷⁾. تلقى البدر الشماخي تعليمه الأولي ببلدته يفرن، ثم انتقل إلى منطقة تطاوين وتلالت بجنال دمر جنوب تونس لطلب العلم، ثم رحل إلى تونس مقرّ الدولة الحفصية⁽⁸⁾.

2 - شيوخه:

أخذ الشماخي مختلف العلوم ببلده بجبل نفوسة عن الشيخ أبي عفيف صالح بن نوح التّدميرتي، ولما ارتحل إلى تونس أخذ بعض العلوم عن الشيخ أبي زكريا يحيى بن

1- أضاف كاسترس هذا النسب (العامري)، ويبدو أنه نسبة لبعض أجداده. ينظر: ببليوغرافيا الإباضية، أم أتش كاسترس، ترجمة: مومحمد ومادي، خديجة كير، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، ط1، 1334هـ / 2012م، ج1، ص471.

2- تارة يستعمل لقب (البدر) بدل (بدر الدين). ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، ج1، ص62، 180.

3- ينظر: معجم أعلام الإباضية، بابا عمي، بحاز، باجو، شريفي، ص44، 45.

4- نفوسة: قبيلة بربرية نسبة إلى نفوس بن زحيك بن مادغيس الأبتّر، وكانوا من أعظم القبائل الأمازيغية. ينظر: القبائل الأمازيغية (أدوارها - مواطنها - أعيانها)، بوزياني الدراجي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر، د. ط، 2007م، ص136، 363، 440.

5- ينظر: معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، محمد بن موسى بابا عمي، إبراهيم بن بكير بحاز، مصطفى بن صالح باجو، مصطفى بن محمد شريفي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1421هـ / 2000م، ج2، ص44، 45.

6- ينظر: الدّعاية إلى سبيل المؤمنين، أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، المطبعة السلفية ومكتبتها، د. ط، 1342هـ / 1923م، ص29.

7- ينظر: السير، الشماخي، ج2، ص198.

8- ينظر: معجم أعلام الإباضية، بابا عمي، بحاز، باجو، شريفي، ص44، 45.

زكريا (874هـ / 1469م)، وانتفع بالتوجيهات النحوية واللغوية للشيخ أبي يوسف يعقوب بن أحمد بن موسى (894هـ / 1489م)⁽¹⁾. وقرأ على عالم جبل نفوسة البيدموري (كان حياً 850هـ / 1446م)، وجلس في حلقاته العلمية التي يدرس فيها علوم الشريعة والسير⁽²⁾.

3 - تلاميذه:

أما الذين أخذوا عن البدر الشماخي فلم يعرف منهم سوى أبي يحيى زكرياء بن إبراهيم الهواري، وهذا رغم شهرة الشماخي وجلوسه للتدريس وخاصة تدريس الكتب ذات الطابع التعليمي في العقيدة والأصول وغيرها التي عكف على شرحها⁽³⁾.

4 - أقوال الآخرين فيه:

أثنى أهل التراجم والسير والدارسون على غزارة علم الشماخي وسعة اطلاعه وكثرة مؤلفاته، فنعتوه بأوصاف كثيرة، فقال عنه أبو إسحاق إبراهيم أطفيش (1305 - 1385هـ / 1888 - 1965م): «العلامة المحقق نادرة زمانه الغزير المادّة... أحد المؤلفين في كثير من الفنون، والذين أبرزوا نتائج قرائحهم للقاصي والداني... يعلم من طالع كتبه مقدار تضلّعه وما أوتي من الحكمة وسعة المعلومات»⁽⁴⁾.

5 - وفاته:

ذكرت المصادر أنّ البدر الشماخي توفي في جمادى الأولى سنة (928هـ / 1533م). واختلف في مكان وفاته وموضع قبره، فرأي يرجح أنّ وفاته كانت بجزيرة جربة بتونس، وقبره بمقبرة قرية تيواجن، ورأي آخر يرى أنّه مدفون ببلدته يفرن⁽⁵⁾.

6 - مؤلفاته:

- 1- ينظر: السير، الشماخي، ج2، ص200، 202، 203، 206.
- 2- ينظر: معجم أعلام الإباضية، بابا عمي، بحاز، باجو، شريف، ص102.
- 3- ينظر: المصدر نفسه، ص44، 45.
- 4- ينظر: الدعاية إلى سبيل المؤمنين، أطفيش، ص29.
- 5- ينظر: المؤخون الإباضيون (في شمال إفريقيا)، تادايوش ليتيفسكي، ترجمة: ماهر جرّار وبيما جرّار، مؤسسة تاولت الثقافية، د. ط، 2007م، ص20، 21.

أكثر الشّماخيّ من التّصانيف والشّروح في مختلف العلوم، فألّف في الفقه وأصوله والعقائد والمنطق والتّاريخ والتّحويّ، فهو بهذا مؤرّخ وفقيه وأصوليّ ولغويّ ومتكلّم. فمن مؤلّفاته في علم الكلام شرح على (متن الديانات) لعامر بن عليّ الشّماخيّ (ت792هـ / 1488م)، وعلى متن (عقيدة التوحيد) لعمر بن جميع. اهتمّ الشّماخيّ بخدمة المذهب الإباضيّ، فاعتنى بمؤلّفات شيوخه كأبي يعقوب يوسف الوارجلانيّ (570هـ / 1175م) الذي اختصر كتابه (العدل والإنصاف) في أصول الفقه، ثمّ ألّف شرحا عليه، وقام بشرح كتابه في المنطق والفلسفة (مرج البحرين)⁽¹⁾.

أمّا أهمّ مؤلّفاته التّاريخيّة والتي يعرف بها كتاب (السّير)، وهو من أهمّ الكتب المعتمدة عند الإباضيّة التي تؤرّخ للمذهب الإباضيّ من التّأسيس إلى بداية القرن العاشر الهجريّ بالمشرق والمغرب. تناول في بداية الكتاب التّاريخ الإسلاميّ من البعثة، وتاريخ الفرقة الإباضيّة بالمشرق وشمال إفريقيا، وأتى على ذكر جوانب من تراجم أعلام المذهب وطبقاتهم وسيرهم من الفقهاء والأئمّة، معتمدا على عدد من المصادر الإباضيّة وغيرها⁽²⁾.

7 - نماذج من خطابه النثريّ:

البدر الشّماخيّ من أعلام المذهب الإباضيّ الذين عملوا على نشر مذهبهم تعليما وتأليفا، ودفاعا عنه بالردّ على المخالفين عن طريق المحاورّة والمناظرة في المجالس أو عن طريق المراسلة، وخاصّة في القضايا ذات الطّابع العقديّ. ويشهد لذلك تلك المحاورّة والمناظرة التي جمعتها بالسلطان الحفصيّ أبي عمرو عثمان أيّام إقامته بتونس سنة (891 أو 892هـ)، حيث ناقشا فيها عددا من القضايا. وقد نقل الشّماخيّ جانبا من هذه المناظرة، والتي يبدو أنّها عالجت العديد من المسائل ذات البعد الدّينيّ، وهذا يفهم من قوله: «فآل بنا الأمر إلى أن قال...»⁽³⁾. ثمّ شرعا في الخوض في مسألة كلاميّة تتمثّل في إثبات الكرامة ونفي وجودها لدى الإباضيّين، إذ يقول الشّماخيّ: «فآل بنا الأمر إلى أن قال: ليس فيكم أولياء ولا صالحون. فقلت: يا سبحان

1- ينظر: معجم أعلام الإباضيّة، بابا عمّي، بحاز، باجو، شريفيّ، ص44، 45.

2- ينظر: المؤخّون الإباضيّون، ليتيفسكي، ص21، 22.

3- ينظر: السّير، الشّماخيّ، ج2، ص187.

اللَّهِ! إذا لم تكن الأولياء فينا ففي أيّ الفرق تكون؟ من رأيتم يبول على عقبه ويترك الصَّلَاة قَلْتُمْ: هذا مجذوب ووليّ. ولكن أرسل الشُّهود إلى جبلنا لينظروا ما فيه من الكرامات ما لا يحتمل التَّأويل، فسألني عنها وكنت أعدّها عليه، وعندهم الخبر في بعضها كأثر الغنم وخشب الشَّيْح⁽¹⁾ بل حملوا خشبة منها إليهم وأبصروها، فأفحم وسكت»⁽²⁾.

ساق هذا الخطاب الحواريّ في سياق الكلام عن الحياة العلميّة والروحيّة في جبل نفوسة. ومن مظاهر تلك الكرامات الموروثة وهي آثار طبيعيّة في الموروث الإباضيّ ذات بعد دينيّ، تشهد على كرامات علماء المذهب الإباضيّ وصالحيه، وهي من المشاهد التي تزار عندهم، كآثار أبي عثمان السّاكن في مصلاه، وآثار الغنم الهابطة من الجبل، وبعض الحكايات التي عدّها من الكرامات التي تميّز بها جبل نفوسة.

وله مناقشات ومناظرات ومراسلات حول قضايا كلاميّة بحتة مع المخالفين له في المذهب في نفس البيئة؛ منها تلك المراسلات التي جرت بينه وبين الفقيه المالكيّ صولة بن إبراهيم الغدامسيّ، ومن أهمّ القضايا التي أثّرت في هذه المراسلات مسألة خلق القرآن ورؤية الله (ﷻ) والصفات الخبريّة (الاستواء، الوجه، اليد) والإيمان والكبائر وغيرها⁽³⁾.

فجاءت رسالة الغدامسيّ ردّا على رسالة لأحد المنتسبين للمذهب الإباضيّ. ويتميّز خطاب الغدامسيّ بإيراد الحجج التي تعضّد العقيدة السنيّة والتي تبطل معتقد الفرق الأخرى بما فيها الإباضيّة، ويتنبّعها مسألة مسألة، مستدلّا بالأدلة النقليّة والعقليّة. وإلى جانب هذا نجد خطاب الغدامسيّ من بدايته يميل إلى شدّة اللّهجة، والعبارات الجزلة والمفردات الموحية بالصراع والتي تصوّر الخصم في صورة العدو الذي ضلّ عن الهداية، وحارب الله ورسوله، وهذا محاولة منه للتأثير في المتلقّي (الخصم/ القارئ)، ومن مظاهر هذا التأثير عبارات الانتقاص للخصم وتوظيف أسلوب التّهكّم والاحتقار، بداية بتجاهل اسم المرسل وعدم ذكره في نصّ الخطاب،

1- يبدو أنّ هناك تصحيفا في كلمة (الشَّيْح) في الحرف الأخير، والأصحّ الشَّيْخ بالخاء بدليل أنّه ذكرها بعد ذلك، والسّياق يتكلم عن كرامات الشَّيْخ. ينظر: السَّير، الشَّماخيّ، ج2، ص187.

2- ينظر: المصدر نفسه، ن.ص.

3- ينظر: الحوار الإباضيّ المالكيّ، صولة الغدامسيّ وأبو العباس أحمد بن سعيد الشَّماخيّ، تحقيق: العربي بن علي بن ثاير، وزارة التّراث والثّقافة، سلطنة عمان، ط2، 1435هـ / 2014م، ص49.

ورميه بالجهل والحماقة وقلة المعرفة بأساليب الجدل والمناظرة. كل هذا لأجل الانتصار للمعتقد السنّي على العموم والمالكي على الخصوص والدفاع عنه في هذه المنطقة. وقد أظهر كل هذا في المقدمة الاستهلاكية التي قدمها بين يدي رسالته، فمما جاء فيها قوله: «... قد ورد عليّ من بعض الإباضية المنتمين إلى الفرقة الوهبيّة أوراق، سلق⁽¹⁾ فيها بشقره ونعره⁽²⁾، وكشف ما قبح من عجره وبجره⁽³⁾... وقد كذب على الله واجترى وتجاسر على رسوله وافترى، وواقع حمى ضنائن الحق واعتدى، واشترى في ذلك الضلالة بالهدى فتردى، وحارب الله ورسله وسعى فسادا في أرض الهدى... فهو في غيبه الحرمان قد استقبل بإعراض وبُسر، وضرب بينه وبين الهداية بسور... على أنّه تجشّم هذا الأمر بغير نبراس، ورازم⁽⁴⁾ أفنيته بنعت الانكراس⁽⁵⁾... هذا وإنّ تتبّع تهاثر حماقاته وهواهي مقالته... ينافي قضاء الشرع بالإعراض عن جدال من تولّى بعناده، وقضت الحكمة أنّ السكوت عن الأحق عين جوابه، لكن دعاني إلى صدع هذا الباطل وقلع أسّه، وخلع أصل ذلك العاقل وقطع رأسه الحميّة لله ولرسوله المستقرّة...»⁽⁶⁾. ويبدو أنّ الذي حمّله على هذا الخطاب الشّديد هو أنّ محتوى رسالة الإباضيّ كان استفزازيا.

أ - البنية الموضوعيّة لرسالة البدر الشّماخيّ:

جاءت رسالة الشّماخيّ جوابا طويلا لرسالة صولة بن إبراهيم الغدامسيّ، وسيقت لنقض الحجج التي قدّمها لإثبات عقيدة أهل السنّة. وقد استوفت الرّسالة من النّاحية الفنيّة أغلب أركان فنّ النّرسّل، حيث صدر خطابه بالبسملة وثناه بالحمدلة والصّلاة والسّلام على النّبيّ (ﷺ). دون الإشارة إلى المرسل والمرسل إليه، وما ورد في بداية الرّسالة فهو تصدير من النّاسخ، حيث أبان عن اسم المرسل والمرسل إليه: «هذا

1- سلق: رفع صوته عند موت أو عند مصيبة، المخاطبة الشّديدة والأذية بالكلام. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة(سلق).

2- الشّقر: الوهم، والنّقر: رفع الصّوت. ينظر: المصدر نفسه، مادة(شقر، نقر).

3- عجره وبجره: ظاهر عيوبه وباطنها. ينظر: المصدر نفسه، مادة(عجر، بجر).

4- رازم: الخلط بين الأشياء. ينظر: المصدر نفسه، مادة(رزم).

5- انكرس: الدّخول في الشّيء منكبا. ينظر: المصدر نفسه، مادة(كرس).

6- ينظر: الحوار الإباضيّ المالكيّ، الغدامسيّ والشّماخيّ، ص77 - 79.

جواب العلامة أبي العباس سعيد الشماخي لصولة بن إبراهيم الغدامسي⁽¹⁾. ثم تخلص الشماخي إلى موضوع خطابه بقوله (وبعد)، وموضوع الرسالة يمكن تقسيمه ثلاثة أقسام وهي:

- القسم الأول [155- 159]: يتناول نقدا لغويا ونحويا لبعض ما جاء في مقدمة رسالة الغدامسي، وعرض توجيهاته، وهذا لإظهار القصور اللغوي والنحوي لخصمه، كقوله: «والعجب من قصورك أن تكتب في خطبتك (لما تأتيتهم) بالياء لم تحذفها للجازم...»⁽²⁾.

- القسم الثاني [160- 268]: وهو ذو صبغة عقديّة، يبحث في المسائل العقديّة التي أثارها رسالة الغدامسي. وهي: خلق القرآن [160- 188]، رؤية الله [189- 209]، الصفات الخبريّة [209- 216]، مسألة الإيمان [216- 238]، مسألة خلود الكفار في النار [238- 258]، الشفاعة [258- 268].

- القسم الثالث [269- 271]: وهو قسم ذو طابع فقهيّ، تناول فيه مسائل خالف فيها المالكيّة النصوص الحديثيّة بحجة (ليس عليه العمل).

أما الخاتمة فقد كانت ردّا على ما جاء في ختام رسالة الغدامسي، ولخص فيها الشماخي عمله في جوابه، ثم ختمها بالدعاء والصلاة والسلام على النبي (ﷺ) وصحبه والحمد لله (ﷻ). [271- 271].

ب - بعض السمات الفنيّة:

رسالتا الشماخي والغدامسي قد أسهمت في إثراء فنّ المناظرة الذي هو يعدّ من الفنون الأدبيّة. والمناظرة تقوم على النظر من طرفين في مسألة من المسائل للوصول إلى الصواب، تقتضي عارضا ومعتريضا يسعى كل طرف وراء الإقناع أو الاقتناع⁽³⁾. فأهمّ وظائف المناظرة الوظيفة التأثيريّة والإقناعيّة. والمناظرة ضرب من ضرب الخطاب الحجاجي الذي: «هو كلّ

1- ينظر: الحوار الإباضي المالكي، الغدامسي والشماخي، ص153.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص159.

3- ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000م، ص46، 47.

منطوق موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّ له الاعتراض عليها⁽¹⁾. فالخطاب الحجاجي يقتضي طرفين (مخاطب له وظيفة مدّعي / مخاطب له وظيفة معترض)⁽²⁾، ويتّسم هذا الخطاب بقصدية التأثير والحرص على الإقناع، والاستعانة بالاستدلال العقلي والبراهين المختلفة لتأييد قضية أو نقضها، مع محاولة إشراك المتلقين وإشهادهم على مراحل سير الخطاب ومواقع النقاش⁽³⁾. ومن سماته أيضا الحوارية بين الطرفين وهذا عن طريق إدراج قول الخصم ثم نقضه أو توجيهه، وهذه السمة حاضرة لدى الشماخي في خطابه، حيث نجده يورد قول الغدامسي قائلا: (قولك...) ثم مباشرة يردفه بقوله (أقول)، وكأنّ المناظرة تتم بصورة مباشرة.

ومن ثمّ نجد أنّ الشماخي يسعى للوصول إلى هدفه وهو محاولة التأثير في المتلقي المعارض للعقيدة الإباضية أو المتشكك فيها بإثباتها ونقض الآراء التي جاءت في رسالة الغدامسي. وهذا بعدد من الطرق والآليات منها؛ الاستعانة بالحجاج البلاغي - وهو نوع من أنواع الخطاب الحجاجي⁽⁴⁾ - إذ يعتمد على توظيف البلاغة أداة ليس لتحقيق الأبعاد الجمالية فحسب، ولكن لتحقيق الأبعاد الإقناعية والتأثيرية، وهذا عن طريق استعمال ألوان البيان⁽⁵⁾. فالصورة البيانية المتشكلة من التشبيهات والاستعارات والكنيات والمجازات وسيلة من وسائل التأثير والإقناع. وظّف الشماخي أنواعا من الاستعارات لأنّها تمثّل أعلى درجات الإقناع أكثر ممّا يقدمه المعنى الحقيقي الذي سدّ مسدّه، وهي ذات فاعلية في الخطاب الحجاجي، وذلك لأنّ

1- ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998م، ص226.

2- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

3- ينظر: أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي (تنظير وتطبيق على السور المكية)، مثنى كاظم صادق، كلمة للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 1436هـ / 2015م، ص41.

4- إضافة إلى قسيميه الحجاج الفلسفي والتداولي. ينظر: أسلوبية الحجاج، كاظم صادق، ص47، 50، 53.

5- ينظر: المصدر نفسه، ص47، 48.

المعتز يسعى بتوظيفها نقض حكم سابق على الخصم في ذهن المتلقي، لحمل المتلقي على تغيير تلك الأحكام السابقة⁽¹⁾.

ومن الاستعارات التي وظفها الشماخي الاستعارة المكنية في قوله (ألبست ركافة كلامك أردية الدعوى)، حيث وصف كلام الغدامسي في رسالته بالركيف، وشبهه بالإنسان الذي توضع عليه ثيابا لا تليق به، فحذف المشبه به وهو الشخص ورمز إليه بأحد لوازمه وهي الأردية وكلمة ألبس. وهذا زيادة في انتقاص خطاب الغدامسي الذي نسب إليه القصور اللغوي والبياني والتحقير والتجهيل قد التأثير على الخصم واستمالة غيره.

والاستعارة التصريحية في قوله (أبعدت سمالة⁽²⁾ محلّه عن ساحة القبول)⁽³⁾ حيث شبه كلامه في رسالته ببقية الماء الراكد، فصرح بالمشبه وهو السمل وحذف المشبه به وهو خطابه، ووجه الشبه هو أنّ كلامه غير مقبول وركيف العبارة كالماء الراكد الذي صار نتئا لا يقربه أحد ولا يقبل به، والغاية من تصوير كلامه بهذا الوصف وفي هذه الصورة هو التأثير في الخصم بإثارة السخرية منه واحتقاره.

ومن آليات الإقناع البلاغي توظيف ألوان البديع، فهي ليست ذات صبغة تزيينية جمالية وموسيقية فحسب، بل يمكن اعتبارها ذات بُعد تأثيري إقناعي للمخاطب متى ما أدت وظيفتها الحجاجية. ومن ثمّ فالمحسنات البديعية يمكنها أن تؤدي الوظيفة الجمالية والموسيقية والإقناعية التأثيرية في آن واحد⁽⁴⁾.

ومن هذه المحسنات البديعية التي وظفها الشماخي في خطابه الجناس والطباق والمقابلة وكان توظيفها قصدياً في المقدمة، وهذا قصد إظهار القصور اللغوي والنحوي والصرفي والمعرفي والعقدي الذي بدا في رسالة الغدامسي. فاستعمل الطباق بين (الحق ≠ الباطل)،

1- في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات)، عبد الله صولة، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011م، ص91، 92، 93.

2- السملة: الحمأة والطين، والسمل هو بقية الماء في الحوض. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (سمل).

3- الحوار الإباضي المالكي، الغدامسي والشماخي، ص155.

4- ينظر: التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، صابر الحباشة، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سورية، ط1، 2008م، ص51.

(ضياء ≠ ظلمة)، (الضلال ≠ الهدى)، وهذا لبيان أن ما هو عليه خصمه من اعتقاد ما هو إلا بُعد عن طريق الحق وسبيل الهدى. ولكشف ضعف خطاب الغدامسي على مستوى الوحدات الإفرادية والتركيبية على مختلف المستويات اللغوية (من نحو، صرف، دلالة، بلاغة) استعان بالجناس الناقص بين (الخطأ/ الخطأ)، (العار/ العوار)، (الترصيف/ التصريف)، وأتى بالموازنة بين الألفاظ وموافقة الفواصل عن طريق في قوله (سبكه غير منتظم/ معناه غير ملتئم) لتلخيص ما أراد أن يبلغه من مواقف في بداية رسالته، حتى يستميل المتلقي ليقنع بما هو آت من في صلب الخطاب. إلى جانب هذه المقاصد التأثيرية هناك البعد الجمالي في توظيف هذه المحسنات، وهو الجانب الموسيقي فقد أظهر الشماخي اهتماما بالسجع الذي يكفل الجرس الموسيقي عند نهاية كل فاصلة تسترعي انتباه المتلقي، ويظهر ذلك في الديباجة، وهذا عرف جرى عليه الكتاب فهم ينمقون مقدمات رسائلهم، من ذلك قوله: «زخرفت الخطأ بالخطأ، وارتكبت العار إذ أبديت العوار، وما ألجأك إلى التأليف وأنت لا تحسن التّرصيف بغير النحو [كذا] والمعاني والتّصريف، تدعي قصارى التّبيان والتّعريف»⁽¹⁾. ولا نكاد نجد نفس الاهتمام من الشماخي بالسجع بعد ذلك، إذ لجأ إلى الأسلوب المرسل فهو يناسب موضوع الخطاب وهو مناقشة قضايا كلامية.

ومن آليات الإقناع التي اعتمد عليها الشماخي في هذا الخطاب توظيفه للتناص بأنواعه المختلفة وخاصة التناص الديني، ويأتي به لغرض البرهنة والتدليل على المعتقد الإباضي الذي يريد توضيحه للمتلقي، وردّ الشبهات التي جاء بها خطاب الغدامسي. ولذا نجد الخطاب مشحونا بالنصوص الدينية المقتبسة والمضمنة، وخاصة الآيات القرآنية التي استند إليها الشماخي لتأييد معتقده، وهذا في أكثر من مئة موضع، حيث يأتي بالآيات التي تعالج نفس الموضوع متوالية ومتواترة⁽²⁾. ومن أمثلة ذلك وفي سياق حديث الغدامسي عن الشفاعة لأهل الكبائر من المسلمين يوم القيامة، ردّ الشماخي بأنهم غير معيّنين بنيل الشفاعة، ولا تُقبل شفاعة

1- ينظر: الحوار الإباضي المالكي، الغدامسي والشماخي، ص155.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص195، 196، 197، 201، 209، 213، 219، 230، 232، 233، 235، 241، 242، 247، 248، 250، 258، 259.

الشّافعين فيهم إلّا لمن رضي الله فعله، ثمّ استدلّ بعدد من الآيات القرآنيّة التي تناولت موضوع الشّفاة منها قول الله (ﷻ): ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَبْعَةٌ﴾. [سورة البقرة: 48]، وقوله (ﷻ): ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَبْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾. [سورة البقرة: 123]، وقوله (ﷻ): ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّبْعَةُ إِلَّا مَنْ أَدِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾. [سورة طه: 109]، وقوله (ﷻ): ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَمِيعٍ يُطَاعُ﴾. [سورة غافر: 18].

أمّا التّناس مع الحديث النبويّ فقد كان حاضرا في هذا الخطاب، نجد الشّماخيّ يسوق الأحاديث النبويّة التي تتناسب وموضع النقاش، ويأتي بها تباعا في الغالب للرّدّ على المخالف، وقد استدلّ بخمسة وثلاثين حديثا⁽¹⁾. وعمدته في ذلك كتب الحديث لدى الإباضيّة كمسند الرّبيع بن حبيب الأزديّ ومن بعده كتاب التّرتيب لأبي يعقوب يوسف الورجلانيّ (ت570هـ). ومن أمثلة ذلك في مسألة الشّفاة لأهل الكبائر نجده يستدلّ بعدد من الأحاديث النبويّة لبيان انتفاء الشّفاة عنهم يوم القيامة، من ذلك حديث: «لَيْسَتْ الشَّافَعَةُ لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»⁽²⁾، وحديث: «لَا تَنَالُ شَفَاعَتِي الْعَالِي فِي الدِّينِ وَالْجَافِي عَنْهُ»⁽³⁾، وحديث: «لَا تَنَالُ شَفَاعَتِي سُلْطَانًا ظَلُومًا غَشُومًا لِلنَّاسِ، وَرَجُلًا لَا يُرَاقِبُ اللَّهَ فِي الْيَتِيمِ»⁽⁴⁾.

ومن التّناسات الدّينيّة التي رآها تخدم خطابه وتعيّنه على الرّدّ على خصمه؛ اعتماده على أقوال العلماء من مختلف المذاهب في المسائل الخلافيّة، وأكّد على إدراج أقوال علماء أهل السنّة وآرائهم لإقامة الحجّة على الغدامسيّ، حيث قال: «فسأعتمد على ما ذكره مشاهير أهل السنّة إذ هم الحجّة عليك»⁽⁵⁾. ومن أمثلة هذا النوع إدراج قول أبي حامد الغزاليّ في الرّدّ على الغدامسيّ الذي روى الإجماع حول خلود الكافرين في النّار، وليوضح أنّ هذه المسألة فيها

1- ينظر: الحوار الإباضيّ المالكيّ، الغدامسيّ والشّماخيّ، ص305 - 307.

2- ينظر: التّرتيب في الصّحيح من حديث الرّسول، أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلانيّ، تحقيق: نور الدّين عبد الله بن حميد السّالميّ، مكتبة مسقط، مسقط، عمان، ط1، 1423هـ / 2003م، ص456.

3- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

4- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

5- ينظر: الحوار الإباضيّ المالكيّ، الغدامسيّ والشّماخيّ، ص160.

خلاف حتّى بين أهل السّنة، راح يستدلّ بقول علم من أعلام المذهب الأشعريّ وهو الغزاليّ الذي قال: «... الرّحمة تشتمل على كثير من الأمم السّالفة، وإن كان أكثرهم يعرضون على النّار... بل أقول إنّ أكثر نصارى الرّوم والتّرك في هذا الزّمان تشملهم الرّحمة، أعني الذين هم في أقاصي الرّوم والتّرك ولم تبلغهم الدّعوة فإنّهم ثلاثة أصناف: صنف لم يبلغهم اسم محمّد أصلاً فهم معذورون، وصنف بلغهم اسم محمّد - عليه السّلام - وبعثه وما ظهر عليه من معجزات وهم المجاورون لبلاد الإسلام وهم الكفّار المخلّدون، وصنف ثالث بين الدّرجتين. انتهى كلامه»⁽¹⁾. أظهر الشّماخيّ عبر التّناسل ثقافة الدّينيّة وسعة اطلاع على آراء العلماء من مختلف المذاهب، وهذا مكّنه من الرّدّ على المخالفين والدّفاع عن معتقدات الإباضيّة.

ومن آليات الحجاج التي تمّ توظيفها في نسيج الخطاب الأساليب الإنشائيّة، وقد استعملها الشّماخيّ للتأثير في المخاطب وإقناع الخصم بتوجّهاته ومعتقداته. منها ما جيء بها قصد السّخرية والانتقاص، كتوظيفه لعدد من الأساليب الإنشائيّة في ردّ دعاوى الإجماع التي جاءت في خطاب الغدامسيّ، فأتي بأسلوب التّعجب في قوله: «ما أسرعك إلى نقل الإجماع من غير مستند»⁽²⁾ والغرض منه الإنكار عليه دعوى الإجماع في مسألة خلود الكفار في النّار، وهذا يطعن في الأمانة العلميّة للغدامسيّ إن كان يعلم الخلاف، وإلّا فهو قصور علميّ منه يترتّب عليه عدم الخوض في المناظرات لعدم الأهليّة. ومنها توظيف التّرجي والتّمني والاستفهام في قوله: «لعلّ هذا إجماع أهل غدامس، وليتك ذكرت من أين ظفرت بهذا الإجماع»⁽³⁾، وهذا لغرض السّخرية والتّهكّم بالخصم ومذهبه، وهو أسلوب انتهجه الشّماخيّ في خطابه للتأثير في المتلقّي، وهذا ينافي آداب المناظرة الذي قوامه التّركيز على المضمون واجتنب الإساءة للخصم بأيّ شكل من أشكال الإساءة من قول أو فعل⁽⁴⁾. وإلى جانب هذا التّحامل على الخصم نجده يحاول إنكاء روح الحوار والتّعايش السلميّ بين الإباضيّ والمالكيّ، حيث راح يبحث عن

1- ينظر: الحوار الإباضيّ المالكيّ، الغدامسيّ والشّماخيّ، ص239.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص240.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص238.

4- ينظر: في أصول الحوار، طه عبد الرّحمن، ص74، 75.

القضايا التي يتفق فيها المذهبان، حتى في سياق التشجيع على المذهب المالكي، فقال: «وأكثر مذهبنا في ذلك موافق لمالك»⁽¹⁾.

ما وصلنا إليه في فن المناظرة عند الشماخي خطابين؛ أحدهما مباشر ناظر فيه السلطان الحفصي، حيث لمسنا حوارا التزم فيه الطرفان بآداب الحوار والنقاش، وهذا مراعاة للمقام الذي يقتضي الأدب مع السلطان. وأما الخطاب الآخر فهو غير مباشر عن طريق الترسل جرى بينه وبين الغدامسي المالكي، وامتاز بالشدة والعنف وتوظيف الأساليب التهمية والأوصاف الساخرة، التي توحى بالصراع المذهبي وتعكس التدافع العقدي في تلك المنطقة من المغرب الإسلامي.

1- ينظر: الحوار الإباضي المالكي، الغدامسي والشماخي، ص 271.

8 - الحسن الوزان (ليون الإفريقي) (894 - بعد 957هـ / 1489 - بعد 1550م):

1 - اسمه وكنيته ومولده:

اسمه الأصلي الحسن بن محمد الوزان الغرناطي، وكنيته أبو علي. اشتهر في أوروبا باسم (يوحنا ليون الإفريقي) أي الأسد الإفريقي، سمّاه الإسبان (Juan Leon Africano)، والفرنسيون (Jean Luan African)⁽¹⁾. وقد سمّاه بهذا الاسم البابا جان ليون العاشر (ت 927هـ / 1521م)⁽²⁾.

ولد الوزان بغرناطة من أسرة يعود أصلها إلى قبيلة بني زيات الزناتية القريبة من مدينتي شفشاون وتطوان، انتقل إلى المغرب رفقة عائلته قبل سنوات قليلة من سقوط غرناطة⁽³⁾. وقد وقع خلاف بين المؤرخين في تاريخ مولده بين سنوات (886هـ / 1481م) و (888هـ / 1483م)⁽⁴⁾ و (901هـ / 1496م)⁽⁵⁾، وقول آخر يرى أنّه ولد سنة (894هـ / 1489م) بناء على بعض ما جاء في كتاب الحسن بن الوزان (وصف إفريقيا)، فقد ذكر أنّ سفره الأول لمدينة آسفي وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ورجع إلى باديتها بعد مرور أربع عشرة سنة وذلك في (920هـ / 1514م) وهو ابن ستة وعشرين عاما⁽⁶⁾، فيكون دخوله الأول إليها سنة (906هـ / 1500م) فيكون على هذا مولده سنة (894هـ / 1489م). والواقع أنّ هذا التضارب عائد إلى فهم نصوص الوزان نفسه، منها قوله: «ولمّا ذهب إلى آسفي كنت غلاما في الثانية عشرة من عمري، ولكن بعد مرور نحو أربع عشرة سنة أخرى قابلت حاكم هذه البادية موفدا إليه من قبل ملك فاس... وذلك عام 920هـ»⁽⁷⁾، فمن فهم أنّ دخوله الأول كان بعد احتلال البرتغال لها سنة (913هـ /

1 - ينظر: تاريخ تطوان، محمد داود، ج1، ص87.

2 - ينظر: حياة الحسن الوزان الفاسي، محمد الحجوي، المطبعة الاقتصادية، الرباط، 1354هـ / 1935م، ص22.

3 - ينظر: مقدّمة تحقيق وصف إفريقيا، ج1، ص6، 7.

4 - Christian- Muslim Relations A Bibliographical History, David Tomas-John Chesworth- John Azumah- Stanislaw Grodz- Andrew Newman- Douglas Pratt, Brill, Leiden- Boston, 2014, Vol:06(Western Europe), P439.

5 - ينظر: حياة الحسن الوزان الفاسي، محمد الحجوي، ص9.

6 - ينظر: وصف إفريقيا، الوزان، ج1، ص151.

7 - المصدر نفسه، ن. ص.

1508م) رجّح تاريخ مولد سنة (901هـ / 1496م)⁽¹⁾، ومن فهم أنّ دخوله الأول إليها كان سنة (906هـ / 1500م) رجّح تاريخ مولده سنة (894هـ / 1489م)، وليس شرطاً أن يكون دخلها أول مرة في مهمة سياسية فقد يكون دخلها صحبة والده. ولكننا لم نجد مستنداً مقنعاً لمن قال أنّه مولده كان سنة (886هـ / 1481م) أو (888هـ / 1483م)⁽²⁾. وما يؤيدّ استبعاد هذين التاريخين قول صاحب تاريخ تطوان أنّ مولده كان بعد سقوط غرناطة (897هـ / 1492م)⁽³⁾.

2- نشأته وتعلّمه:

لما انتقل الحسن الوزان رفقة أسرته إلى المغرب استقرّ به المقام بمدينة فاس فنشأ بها وترعرع⁽⁴⁾، وهناك أخذ علوماً مختلفة من عقائد وفقه وعلوم لغة وغيرها ممّا كان يدرس في فاس من علوم وفنون. فقد ذكر أنّه كان يحضر مجلساً في (عقائد النّسفي) بمدرسة قريبة من منزله بفاس⁽⁵⁾. استطاع أن يكون شخصيته العلمية والاجتماعية والسياسية، فكان من النخبة التي شاركت في تنشيط الحياة العلمية والفكرية والمشاركة في الحياة السياسية داخل المغرب الأقصى وخارجه⁽⁶⁾.

3- رحلاته:

يعدّ الوزان من أهمّ الرّحالة المغاربة في القرن العاشر الهجريّ في رحلات داخلية زار فيها أهمّ مدن المغرب الكبرى والمناطق المجاورة لها، ورحلات خارجية قادته إلى السودان وبلدان المشرق، وهذه الرّحلات ذات بعد ديني وسياسي وسياحي واستكشافي. فمن رحلاته الدّاخلية السياسية التي كانت بأمر من السلطان الوطاسي محمّد البرتغالي في سنوات (919 - 922هـ / 1513 - 1516م) إلى مدن المغرب؛ رحلته إلى جبال الأطلس حيث زار مدينة حاحا وقراها،

1- ما يؤيدّ هذا القول أنّه كان ابن ستة عشر عاماً (16) يوم أن سافر إلى السودان، وصرّح أنّ مدينة آزموّر سقطت بيد البرتغال وهو يومئذ بالسودان سنة 918هـ، فيكون تاريخ مولده بين (901 و 902هـ). ينظر: وصف إفريقيا، الوزان، ج1، ص159.

2- ينظر: مقدّمة تحقيق وصف إفريقيا، ص7.

3- ينظر: تاريخ تطوان، محمّد داود، ج1، ص87.

4- ينظر: وصف إفريقيا، الوزان، ج1، ص232.

5- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص137.

6- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص106.

ووصف عمرانها ومناخها وطبيعتها وطبائع أهلها وعاداتهم وثقافتهم وصنائعهم، ونقل كثيرا من الأخبار والوقائع التي حضرها⁽¹⁾. ومن رحلاته الداخلية ذات الطابع الديني زيارته ضريح ابن الزيات التادلي (ت 627هـ / 1229م) بتاغية بين جبال الأطلس⁽²⁾. وانتدب الوزان في رحلة خارجية في سفارة عن السلطان إلى بلاد السودان صحبة عمه السفير إلى ملك تنبكتو، وكان عمره ستة عشر عاما⁽³⁾. واللفت للانتباه أن كل رحلاته كانت في العقد الثاني من عمره، وقد نال ثقة السلطان وإعجاب أمير سوس محمد القائم بأمر الله السعدي (ت 923هـ / 1517م) وأمير جبل وازكيت ناحية هسكورة⁽⁴⁾. قام الحسن بن الوزان برحلة إلى المشرق بعد أن شهد معركة المعمورة التي حضرها بين الوطاسيين والبرتغاليين سنة (921هـ / 1515م)⁽⁵⁾. فأدى مناسك الحج ومن ثم توجه إلى تركيا في وفادة على السلطان العثماني سليم الأول الذي كان يقوم بحملة عسكرية لإحراق مصر بالسلطنة العثمانية سنة (923هـ / 1517م) فوفاه بمصر⁽⁶⁾. وفي كل رحلاته كان يمر بالمدن والأماكن التي لم يفته أن يدون كل ما يتعلق بتلك البلدان في مذكراته التي سيجمعها في مؤلفاته.

4 - محنته:

لما عاد الوزان من رحلته المشرقية إلى تونس عبر البحر ومن هناك إلى المغرب سنة (926هـ / 1520م) وقع أسيرا في أيدي قراصنة إيطاليين⁽⁷⁾ قرب جزيرة جربة، ونقلوه إلى نابولي الإيطالية. ولما علموا أن الأسير ذو وجهة وعلم قدموه هدية للبابا جان ليون العاشر الذي كان له اهتمام بنشر العلوم بأوروبا وشارك في نهضتها، فقرّبه منه وسمّاه باسمه (جان ليون العاشر)، وهناك تعلّم الوزان اللغة الإيطالية واللّاتينية وأتقن الإسبانية والعبرانية، وبعد

1- ينظر: وصف إفريقيا، الوزان، ج1، ص96- 112، 121.

2- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص204، 205.

3- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص172.

4- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص103، 104، 146، 171، 172.

5- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص211- 213.

6- ينظر: مقدّمة تحقيق وصف إفريقيا، ص10.

7- وقيل هم قراصنة إسبانيين ينظر: Christian - Muslim Relations A Bibliographical History, David

Tomas-John Chesworth- John Azumah- Stanislaw Grodz- Andrew Newman- Douglas, P440.

موت (جان ليون العاشر) سنة (927هـ / 1521م) أصبح تحت حماية الكاردينال جيل دي فيطرب (Gilles De Viterbe) الذي حاول - فيما يبدو - أن يدفعه إلى أحد النبلاء الإِسبانيّين وهو (جان ألبير ويدماننسطار) (J.A. Widmanstard) الذي وصل إلى بولونيا فلم يجد الوزان لأنّه كان قد اختفى وعاد إلى تونس حوالي سنة (934هـ / 1528م) ⁽¹⁾ أو سنة (957هـ / 1550م) ⁽²⁾، وقد اجتهد (ويدماننسطار) في البحث عن الوزان حتّى إنّه سافر إلى تونس ولكنّه لم يجد له أثرا وهذا بطلب من الكاردينال فيطرب، لأنّهم كانوا في حاجة ماسّة إلى خدماته إذ لم يكن بإيطاليا من يتقن اللّغة العربيّة غير الكاردينال الذي أشرف على الموت، ولذا سعى في طلب الوزان ⁽³⁾.

5 - وفاته:

كانت حياة الوزان بعد خروجه من إيطاليا غامضة، ولذا لا يمكن معرفة تاريخ وفاته ولا مكانها، ويبدو أنّه توفي بتونس بعد سنة (957هـ / 1550م) ⁽⁴⁾.

6 - إنجازاته الحضاريّة:

تظهر إنجازات الوزان الحضاريّة في نشاطه العلميّ والفكريّ والسّياسيّ بالمغرب الإسلاميّ وأوروبا. وتتمثّل إنجازاته العلميّة بالمغرب في الكتب التي ألّفها قبل انتقاله إلى إيطاليا، وهي عديدة ومتنوّعة؛ في التّاريخ واللّغة والأدب والشّريعة، منها الموجود المطبوع والمخطوط، ومنها ما هو في حكم المفقود، نذكر منها:

1 - (مختصر تاريخ الإسلام) أكثر من الإحالة عليه في كتابه (وصف إفريقيا)، أرّخ فيه للتّاريخ الإسلاميّ بما في ذلك الأحداث التي عايشها في المغرب وعاصرها ⁽⁵⁾.

1- ينظر: حياة الحسن الوزان الفاسيّ، محمّد الحجويّ، ص 17، 18، 23.

2- ينظر: مقدّمة تحقيق وصف إفريقيا، ص 14.

3- ينظر: حياة الحسن الوزان الفاسيّ، محمّد الحجويّ، ص 24، 25.

4- ينظر: مقدّمة تحقيق وصف إفريقيا، ص 14.

5- ينظر: وصف إفريقيا، الوزان، ج 1، ص 13، 108، 119، 130، 151، 161.

2- (تاريخ إفريقيا الحديث) أشار إليه في كتابه (وصف إفريقيا)، وقد أرّخ فيه لكثير من الأحداث التي وقعت بالمغرب في زمانه، مثل وقائع منطقة تكوليت بمدينة حاحا أيام سقوطها بيدي البرتغاليين سنة (923هـ / 1517م)⁽¹⁾.

3- (الشريعة والعقيدة في الإسلام) أشار فيه إلى بعض العادات في الأعياد والمواسم⁽²⁾.

4- مؤلف صغير في البلاغة ألفه في مدة شهر حوالي سنة (921هـ / 1515م) أيام إقامته بمنطقة أديكيس بمدينة حاحا عند فقيه وصفه بالفظاظة والغلظة لكنّه مغرم بالبلاغة، ألح عليه بالبقاء عنده، فلما أتمّ الوزان الكتاب قرأه عليه فأذن له ذلك الفقيه بالرحيل⁽³⁾. وكلّ هذه المؤلفات في حكم المفقود⁽⁴⁾.

الحسن الوزان من الأعلام الذي أسهموا في تنشيط الحياة الفكرية بالمغرب الأقصى، وذلك بانخراطه في المجالس العلمية التي تثار فيها قضايا للنقاش، وبحضوره للمناظرات العلمية التي تجمع الفقهاء والقضاة. وقد نقل لنا جانبا من هذه النقاشات بمنطقة آيت داود من أعمال مدينة حاحا، حيث أثّرت قضية بيع ملك الخواص إذا احتاجت إليها الأمة والمصلحة العامة، وقد حضر جمع من الفقهاء بدار الوكيل الشرعي، وكان الفصل في هذه المسألة لأحد الفقهاء الذي يلقّب بالجزّار وذلك لمعرفته بالمسائل الفقهية ومقدرته على الفصل فيها كمعرفة الجزّار بمفاصل البهائم⁽⁵⁾.

ويضاف إلى ذلك مشاركته في الحياة الأدبية حيث كان يقرض الشعر، وقد صرّح بنظمه قصيدة مدحية في أمير جبل واوزكيت ناحية هسكورة الذي زاره وأقام عنده ليلة أنشده فيها تلك القصيدة، وهذا أثناء رحلته السياسية إلى السودان رفقه عمّه السفير، وكان عمره يومئذ ستّة عشرة عاما⁽⁶⁾.

1- ينظر: وصف إفريقيا، الوزان، ج1، ص100، 101.

2- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص258.

3- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص101، 102.

4- ينظر: مقدّمة تحقيق وصف إفريقيا، ص13.

5- ينظر: وصف إفريقيا، الوزان، ج1، ص106.

6- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص171، 172.

ومن إسهاماته الأدبية اهتمامه بأدب شواهد القبور والأضرحة، وهذا اللون من الأدب يعنى بالكتابات التثنية والشعرية التي تنقش على شواهد القبور والأضرحة، وتحمل موضوعات مختلفة من مرثي ومواعظ وآيات قرآنية. وتعنى أيضا بالسيرة الذاتية للميت فيكتب اسمه وألقابه وعائلته، وعبارات التبجيل والترحم وتاريخ الوفاة والدعوة إلى الترحم على صاحب القبر وغيرها من المضامين⁽¹⁾.

عمد الحسن الوزان إلى تدوين الأشعار المكتوبة على الشواهد والأضرحة في الأماكن التي زارها، وجمعها في كتاب سماه (شعر الأضرحة) جمع فيه ما كتب من أشعار زهدية ووعظية، قدّمه هدية لأحد أبناء الشيخ محمد الوطاسي عند وفاة والده⁽²⁾.

أما عن نشاطه السياسي فقد مرّ بنا أنّه انخرط في الحياة الدبلوماسية وهو في العقد الثاني من عمره، وكان عضواً في عدد من السفارات داخل المغرب الأقصى وخارجه فرحل إلى السودان ومصر والقسطنطينية. واستطاع أن يؤثر في كثير من الشخصيات السياسية بحنكته ونباهته وكفاءته العلمية والدبلوماسية، وتولّى أمر الوساطات بين المتنازعين، فقد جمع بين السلطان محمد البرتغالي والقائم بأمر الله السعديّ قصد محاربة البرتغاليين⁽³⁾.

أما عن آثاره في أوروبا فتظهر في نشاطه التعليمي والتأليفي، فقد قام بتعليم اللغة العربية في روما للكاردينال فيطرب. وعيّن مدرّساً للغة العربية بكلية مدينة بولونيا، وهذه الكلية التي كانت من أهم المراكز العلمية التي ساهمت في النهضة الأوروبية، حيث كانت تدرّس بها العلوم الحديثة⁽⁴⁾.

أما عن نشاطه التأليفي في إيطاليا فقد ألف كتباً في علوم وفنون مختلفة؛ في التراجم والسير والمعاجم والجغرافية والاجتماع والتاريخ وهي:

- 1- ينظر: شواهد القبور في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، محمد حقي، مجلة كلية الآداب بني ملال، جامعة السلطان مولاي سليمان (كلية الآداب والعلوم الإنسانية)، بني ملال، العدد: 09، السنة: 2008م، ص 120، 125، 126.
- 2- ينظر: مقدّمة تحقيق وصف إفريقيا، ص 13.
- 3- ينظر: وصف إفريقيا، الوزان، ج 1، ص 157.
- 4- ينظر: حياة الحسن الوزان الفاسي، محمد الحجوي، ص 23.

1- معجم (عربي - عبري - لاتيني) ألفه للطبيب اليهودي يعقوب بن شمعون سنة (930هـ / 1524م)، وهو ضمن قائمة المخطوطات بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا⁽¹⁾. وهذا المؤلف يكشف عن الموسوعية اللغوية للوزان وإمامه بعدد اللغات وتمكّنه منها. ويعكس لنا التواصل الثقافي بينه وبين علماء الطوائف والأديان الأخرى داخل المجتمع الأوروبي.

2- (حياة الفلاسفة العرب) في التّراجم باللّغة اللّاتينية أتمّه عام (933هـ / 1527م) تناول فيه ترجمة ثلاثين شخصيّة من الفلاسفة العرب وأطبائهم وحكّماءهم⁽²⁾. أشار إليه في كتابه (وصف إفريقيا)، وذكر من جملة من ترجم لهم في كتابه الكيميائيّ والشّاعر الحسين بن عليّ الطّغرائيّ (455-513هـ / 1063-1120م) صاحب كتابي (جامع الأسرار) و (حقائق الاستشهاد) في الكيمياء⁽³⁾.

3- (وصف إفريقيا) هذا الكتاب هو من أهمّ مؤلّفات الوزان، جمع فيه بين عدّة علوم وفنون؛ بين علم التّاريخ والجغرافية العامّة وعلم الاجتماع وفنّ التّراجم والسّيرة الذاتيّة. يقوم أكثره على مشاهداته وتجاربه التي عاشها، ساعده في ذلك كثرة تنقلاته ورحلاته داخل المغرب وخارجه. ويبدو أنّه استفاد أيضا من بعض المؤلّفات والحواليّات المتعلّقة بإفريقيا كالتّي وجدها عند أحد أعيان منطقة تكوليت بحاحا⁽⁴⁾. تناول فيه مناخ الأقاليم وتضاريسها وعمرانها وثقافة أهلها وأخلاقهم. وهي عبارة عن مذكرات كتبها باللّغة العربيّة كانت معه حين نُقل إلى إيطاليا، ألف منها كتابه باللّغة الإيطاليّة وأنهاه سنة (932هـ / 1526م) بمدينة روما⁽⁵⁾، وهذا بطلب من البابا جان ليون العاشر⁽⁶⁾.

وهذا الكتاب ذو قيمة علميّة كبيرة، فهو يعدّ مصدرا من مصادر التّاريخ الاجتماعيّ والجغرافيّ لأفريقيا في القرون الوسطى، وهو آخر الأعمال الكبيرة التي خلفها الجغرافيون العرب

1- ينظر: مقدّمة تحقيق وصف إفريقيا، ص13.

2- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

3- ينظر: وصف إفريقيا، الوزان، ج1، ص275.

4- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص100، 101.

5- ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص284.

6- ينظر: حياة الحسن الوزان الفاسي، محمّد الحجويّ، ص22.

في هذه الفترة. ولذا لقي قبولا واهتماما من الباحثين العرب والغربيين. فأول من انتبه لقيّمته العلميّة عالم إيطاليّ يدعى (جان باتيست راموز) سنة (956هـ / 1550م)، وقام بنشره ضمن كتب الملاحة والرحلات⁽¹⁾. واعتمد عليه المستشرق الفرنسيّ ماسينيون (1883 - 1962م) في كتابه (لوحة جغرافيّة للمغرب في السّنّوات الخمس عشرة الأولى من القرن السّادس عشر، تبعا لليون الإفريقيّ) تناول فيه دراسة تاريخ المغرب الأقصى في السّنّوات الأولى من القرن العاشر الهجريّ، وزاد اهتمامه به حين ترجم نصّ الكتاب من الإيطاليّة إلى الفرنسيّة⁽²⁾. وتولّى ترجمته إلى العربيّة عدد من الباحثين العرب منهم (محمّد حجيّ ومحمّد الأحضر، عبد الرّحمن حميدة). أمّا من حيث القيمة الأدبيّة فقد صنّفه المستشرق الرّوسيّ كراتشكوفسكيّ (1883 - 1951م) ضمن الأدب الجغرافيّ، الذي يعنى بالبحث في الأنماط الأدبيّة باعتبارها الأصل، وبعلم الجغرافية وتاريخه باعتباره فرعاً⁽³⁾، فلم يغيب الوزن الجانب الفنيّ في كتابه الذي له صلة وثيقة بأدب الجغرافيّة، فقد جمع فيه بين الجغرافية العلميّة والأدبيّة. ومن أعماله في ميدان التّرجمة قيامه بتصحيح وتنقيح ومراجعة ترجمة باللّغة اللّاتينيّة للقرآن الكريم⁽⁴⁾. وهذا العمل من الوزن يعكس دوره في التّواصل بين الثّقافيّ بين جنوب المتوسط وشماله، وحلقة من حلقات التّلاقح الفكريّ بين الفكر الإسلاميّ والمسيحيّ.

- 1- ينظر: الجغرافيّ الحسن الوزانيّ الرّيانيّ وكتابه وصف إفريقيا، عبد الكريم إبراهيم السّمك، مجلة أجواء المعرفة، مكتبة عبد العزيز العامّة، العدد: 83، السّنة: 20 (شوّال 1437هـ / يوليو 2016م)، ص55.
- 2- ينظر: موسوعة المستشرقين، عبد الرّحمن بدويّ، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، تمّوز / يوليو 1993م، ص530.
- 3- ينظر: المصدر نفسه، ص16.

4 - Christian- Muslim Relations A Bibliographical History, David Tomas- John Chesworth- John Azumah- Stanislaw Grodz- Andrew Newman- Douglas, P440.

9 - عبد الرحمن التَّاجُورِيّ (ت 960هـ / 1552م):

1 - اسمه ونسبه ووفاته:

هو عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الطَّرابُلُسيّ، المعروف بالتَّاجُورِيّ⁽¹⁾ نسبة إلى تاجوراء القريبة من طرابلس بحوالي عشرين كيلومترا (20 كلم)، بها ولد وفيها نشأ وتلقّى تعليمه الأوّلِيّ⁽²⁾، وكنيته أبو زيد⁽³⁾، ولم تذكر المصادر سنة مولده. أمّا وفاته فقد كانت حوالي سنة (960هـ / 1552م) على ما ذكره تلميذه بدر الدّين القرافي (ت 1008هـ / 1600م)⁽⁴⁾، وهو أقرب إلى الصّحة لكون تلميذه حريصا على متابعة أخبار شيخه، وذكر الزّركليّ⁽⁵⁾ وعمر كحالة⁽⁶⁾ وغيرهما أنّ وفاته كانت سنة (999هـ / 1590م) وهذا القول يبدو بعيدا.

2 - شيوخه:

من شيوخ التَّاجُورِيّ الأخوين محمد شمس الدّين اللّقانيّ (857 - 935هـ / 1453 - 1528م) وناصر الدّين اللّقانيّ (ت 958هـ / 1551م) حيث أخذ عنهما الفقه⁽⁷⁾. ومن شيوخه الذين أخذ عنهم الطّريقة الصّوفية محمد بن أبي بكر الذي وصفه محمد بن عليّ الخروبيّ الطَّرابُلُسيّ الجزائريّ (ت 963هـ / 1556م) بقوله: «الوليّ العارف القطب الوارث، المربيّ ذي الكرامات الطاهرة والخوارق الباهرة شيخ شيوخ أهل إفريقية»⁽⁸⁾.

3 - تلامذته:

- 1- ينظر: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، أحمد النّائب، ص 197.
- 2- ينظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم، ج 4، ص 360.
- 3- ينظر: شجرة النّور الزّكيّة، مخلوف، ج 1، ص 405.
- 4- ينظر: توشيح الدّيباج وحلبة الابتهاج، بدر الدّين محمد بن يحيى بن عمر القرافيّ، تحقيق: عليّ عمر، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، القاهرة، ط 1، 1425هـ / 2004م، ص 103.
- 5- ينظر: الأعلام، الزّركليّ، ج 3، ص 331.
- 6- ينظر: معجم المؤلّفين، عمر كحالة، ج 5، ص 131.
- 7- ينظر: توشيح الدّيباج، القرافيّ، ص 102.
- 8- نفحات النّسرين والريّحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، أحمد بن الحسين النّائب الأنصاريّ، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجانيّ للنّشر والتّوزيع، د. ط، د. ت، ص 109.

من تلامذته محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الجزائري (ت 963هـ / 1556م) الذي قال عنه: « كان يؤدبنا بآداب الفقراء... وصحبناه زمانا وخدمناه أياما »⁽¹⁾. ومنهم بدر الدين القرافي (1008هـ / 1600م) صاحب توشيح الديباج الذي حضر دروسه بالأزهر أيام إقامته بمصر، فسمع منه دروسا في الفقه المالكي فسمع منه الموطأ والرسالة وغيرهما⁽²⁾.

4- رحلاته:

ارتحل التاجوري إلى المشرق في رحلات دينية وعلمية وسياحية، فرحل إلى الأزهر وأخذ مختلف العلوم عن العديد من علمائه، كما توجه إلى التدريس فاستفاد منه جمع من طلبة العلم. وكانت له رحلة إلى الحج وأقام هناك مدة⁽³⁾. وله رحلة أخرى إلى بلاد الترك أيام السلطان العثماني سليمان القانوني. هناك اطلع عن قرب على تطوّر علوم الفلك والميقات، والتقى بالعلماء، وأخذ عدة فنون فلكية، كما إنّه وقف على فنون العمارة بما فيها العمارة الإسلامية⁽⁴⁾.

5- أقوال الآخرين فيه:

وصفه تلميذه الخروبي بالرجل العابد الزاهد المتصوّف، كان ورعا ناصحا ومحسنا للفقراء، فكثر أتباعه ومريدوه وصحبه الصالحون⁽⁵⁾. وصفه تلميذه بدر الدين القرافي بقوله: « العالم العامل الناسك الجامع بين الحقيقة والسرعة »⁽⁶⁾. برع التاجوري في علوم الفلك والميقات، ممّا جعل القرافي ينعتة بعلامة الزمان في علم الميقات على الإطلاق⁽⁷⁾، وقد لقّب بشيخ الجماعة في الفلك والتوقيت⁽⁸⁾.

1- ينظر: نفحات النّسرين، أحمد النّائب، ص 109

2- ينظر: توشيح الديباج، القرافي، ص 102.

3- ينظر: المنهل العذب، أحمد النّائب، ص 198، 199.

4- ينظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ج 4، ص 361.

5- ينظر: نفحات النّسرين، أحمد النّائب، ص 109

6- توشيح الديباج، القرافي، ص 102.

7- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

8- ينظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ج 4، ص 360.

6 - مؤلفاته:

ترك التاجوريّ عددا من المؤلفات في علم الفلك والمواقيت منها: (رسالة في العمل بربع المقنطرات)، (رسالة في الفصول الأربعة) و (ورقات في معرفة وضع بيت الإبرة على الجهات الأربع)⁽¹⁾، وله أيضا (حاشية على فتحة المارديني على الربع المجيب)⁽²⁾. وله كتاب (تنبيه الغافلين عن قبلة الصحابة والتابعين)⁽³⁾.

7 - نماذج من خطابه النثري:

كان للتاجوريّ شهرة في بلاد المغرب الإسلاميّ مكنته من إقامة علاقات أخويّة بينه وبين علماء عدد من أقطاره. من ذلك تلك العلاقة الأخويّة التي جمعت به عائلة التّمكروتيّ بوادي درعة بالمغرب الأقصى، ويبدو أنّ هذه العلاقة كانت بتونس أيام ملازمة الأخوين محمّد وعبد الله ابني عليّ التّمكروتيّ الشّيخ عبد العزيز القسنطينيّ فكانت بينهم مراسلات علميّة. وهي أهمّ ما يمثّل خطابه النثريّ، وهي من جملة رسائله الإخوانيّة التي بعثها إلى محمّد بن عليّ التّمكروتيّ (ت حوالي 965هـ / 1558م) والد صاحب رحلة (النّفحة المسكيّة في السّفارة التّركيّة) يدعوه فيها إلى إصلاح القبلة بمساجد بلاد المغرب الأقصى، وهي خطاب مشفوع بأدلة عقلية ونقلية⁽⁴⁾، وهذا بعد أن أبلغه جماعة من المغاربة وهو مقيم بمصر عن اتجاه القبلة نحو الجنوب بمساجد المغرب الأقصى وخاصة مسجد القرويين بفاس⁽⁵⁾. ممّا جاء في نصّ الرّسالة: «... والسّلام عليكم وعلى ولدكم أخي سيّدي عبد الله، وعلى سادتنا الفقهاء ومن يلوذ بهم...»⁽⁶⁾، «... فالله الله يا سيّدي محمّد، انظر في إصلاح قبلة المسلمين، فكلّ مسجد تجده

1- ينظر: فهرس المخطوطات العربيّة المحفوظة في الخزّانة العامّة بالرباط، ي. س. علوش وعبد الله الرجراجي، منشورات الخزّانة العامّة للكتب والوثائق، ط2، 1421هـ / 2001م، ج2، الجزء الثّاني (1921 - 1953)، ص291، رقم: 2513.

2- ينظر: الأعلام، الزّركليّ، ج3، ص332.

3- ينظر: تراجم ليبية (دراسة في حياة وآثار بعض الفقهاء والأعلام من ليبيا قديما وحديثا)، جمعة محمود الزّريقيّ، دار المدار الإسلاميّ، بيروت، لبنان، ط1، حزيران / يونيو 2005م، ص 473.

4- ينظر: الحركة الفكرية بالمغرب، محمّد حجّي، ج2، ص546.

5- ينظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم، ج4، ص361.

6- حضارة وادي درعة من خلال النّصوص والآثار، محمّد المّونّي، مجلة دعوة الحقّ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، الرباط، المغرب، العدد: 2، السّنة: 16 (رمضان 1393هـ / أكتوبر 1973م)، ص138.

مستقبلاً جهة الجنوب، اجعل محرابه في الحائط الشرقيّ وسدّ محرابه الجنوبيّ. وابتعث رسولك إلى السلطان محمد (يقصد السلطان السّديّ محمد المهديّ الشّيخ) صاحب مراكش ينظر في محاريب بلاد مملكته وإصلاحها، وتصويبها إلى جهة مشارق الاعتدال...»⁽¹⁾.

وهي رسالة بعثها في عهد السّديّين بعد الأولى التي أرسلها إلى السلطان أبي العباس أحمد الوطاسيّ سنة (955هـ / 1548م) في نفس الموضوع يحثّه على إصلاح القبلة ويحمّله مسؤولية تركها على حالها دون إصلاحها⁽²⁾، ولكنّها لم تلق استجابة على الرّغم من أنّ السلطان جمع العلماء لهذا الأمر، ولم يجبه عن خطابه إلّا القاضي محمد بن أحمد اليسيتيّ (ت 959هـ / 1551م) والفقير عبد الوهاب الزّقاق الدّين حاولا أن يردّا على التّاجوريّ قوله ويفنّدا رأيه بحجج عقلية ونقلية، ولكنّه تمكّن من الردّ على حججهما في كتابه (تنبيه الغافلين عن قبلة الصّحابة والتّابعين)، وبقي هذا الجدل قائماً حتى عهد السلطان السّديّ محمد الشّيخ الأصغر (1063هـ / 1654م) الذي أمر بتحويل القبلة ووضع علامة تدلّ على الجهة الصّحيحة للقبلة⁽³⁾. وتكمّن براعة التّاجوريّ في تمكّنه من علم الفلك فعلى الرّغم من عدم ثبوت تنقله إلى المغرب إلّا أنّه استطاع أن يحدّد لهم اتجاه القبلة الصّحيح. وبهذا كان من العلماء الذين أسهموا في تنشيط الحياة الفكرية في القرن العاشر الهجريّ، وحلقة من حلقات التّواصل الفكريّ بين المغرب والمشرق.

1- الحركة الفكرية بالمغرب، محمد حجّي، ج2، ص547.

2- ينظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم، ج4، ص361.

3- ينظر: تراجم لبيبة، الزّريقي، ص472-473.

10- يوسف بن موسى الأشقر:

1- اسمه ولقبه وأسرته:

هو يوسف بن موسى (موشي)⁽¹⁾ الأشقر (أو الصقر)⁽²⁾ بن يهودا بن السّمّوأل المالقي الإسرائيلي، يلقّب بالركيز (Er Rkyése) (وتعني الرجل الذي أوقف الشّمس)⁽³⁾. ينحدر من أسرة يهوديّة سكنت إشبيلية، جدّه الأكبر (السّمّوأل) كان طبيبا، ولد للسّمّوأل بإشبيلية ابن اسمه يهودا وحفيد من يهودا اسمه موسى (موشي) - ولد سنة (782هـ / 1380م) كان من رجال الدّين اليهود وشعرائهم. وبعد موجة الاضطهاد القشتاليّ سنة (792هـ / 1391م) ارتحل يهودا وأسرته إلى جنوب الأندلس أين استقرّ في شرقي مدينة مالقة بالحيّ اليهوديّ، وأصبح رئيس الطّائفة اليهوديّة هناك. ولد لموسى ابنان هما يوسف ويهودا في مدينة مالقة⁽⁴⁾. ويؤيّد هذا ما جاء في مجلّة (the jewish Quartely Review) الذي يفيد أنّ ابن الأشقر في كتاباته يذكر أنّ والده موسى وجدّه يهودا وجدّه الأكبر السّمّوأل وهما طبيبان⁽⁵⁾، وهذه الأسرة هي من أشرف اليهود بالأندلس⁽⁶⁾.

2- هجرته:

استقرّت عائلة يوسف بمدينة مالقة ما يقارب قرنا من الزّمن (792 - 897هـ / 1391 - 1492م)، ثمّ ارتحل يوسف بعد سقوط غرناطة واتجه مع أخيه يهودا إلى الدّولة الزيانيّة، فاستقرّ يهودا بمستغانم، واختار يوسف تلمسان لكونها أضحت قبلة لليهود الأندلسيّين المهاجرين

1- ينظر: يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، فوزي سعد الله، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2004م، ص114.

2- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

3- ينظر: اليهود في المغرب الإسلاميّ خلال القرنين (7- 9هـ / 13- 15م)، فاطمة بوعمامة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الأبيار، الجزائر، د. ط، 1432هـ / 2011م، ص180.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص177، 178.

5- Joseph Al- Ashkar, A. Neubauer, The jewish Quartely Review, University of Pennsylvania Prees, vol:6, N:02(Jan,1984), p400.

6- ينظر: يهود الجزائر، فوزي سعد الله، ص114.

منذ (792هـ / 1391م) ومركزا علميا للديانة اليهودية قصده كثير من أبحارهم وعلمائهم⁽¹⁾. وكان وصوله إلى تلمسان بعد سنة (908هـ / 1502م)⁽²⁾.

3 - وفاته:

توفي يوسف بن الأشقر بتلمسان ودفن بمقبرة اليهود بحي قباسة. ولم نظفر بتاريخ محدد لوفاته، ولكنه توفي في القرن العاشر الهجري. وقد نسجت حول وفاته حكايات وأساطير يهودية، منها أسطورة تقول بأن يوسف الأشقر حينما أحسّ بوفاته منتصف نهار الجمعة طلب من تلاميذه أن يدقوا مسمارا في جدار البيت ولا ينزع إلا بعد الانتهاء من مراسيم دفنه، فتوفي من يومه، وخافوا أن تغرب الشمس ويدخل السبب دون الفراغ من دفنه، ولكنهم انتهوا من دفنه والشمس لم تزل مشرقة، فلما عادوا نفّذوا وصيته ونزعوا المسمار فحلّ الظلام مباشرة، فاعتقدوا أنه حبس الشمس عن الغروب، فصار مقدّسا عندهم ومعظّما. وأطلق عليه لقب الرّكّيز لكونه حبس الشمس. صار ضريح يوسف الأشقر وضريح الحبر أفرام أنقاوة من المزارات الهامة في العهد العثماني وفترة الاستعمار الفرنسي وإلى أيامنا هذه لليهود من مختلف مناطق العالم⁽³⁾.

4 - مكانته العلمية والدينية:

تميّز يوسف الأشقر بسعة المعرفة فجمع شتى العلوم، ومكّنه تفوّقه العلمي واجتهاده من أن يصبح أستاذا بالمدرسة التلمودية العليا (يشيفا - Yeshiva) ورئيسها بتلمسان⁽⁴⁾. واليشيفا لغة هي كلمة عبرية تعني الجلوس، واصطلاحا لها مدلولان، الأول بمعنى الحلقة التلمودية التي تقوم بدراسة الفقه والإفتاء والقضاء، والمدلول الآخر هو مؤسسة تعليمية متخصصة في التعليم العالي للعلوم الدينية اليهودية، ويكون فيها التعليم التخصّصي للتلمود ودراسته تفسيراته ومعرفة فتاوى الحاخامات وتعلّم القوانين التشريعية، فلَبَّابُ الدّراسة هو التلمود⁽⁵⁾.

1- ينظر: يهود الجزائر، فوزي سعد الله، ص178.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص114.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص164، 165.

4- ينظر: اليهود في المغرب الإسلامي، فاطمة بوعمامة، ص180.

5- ينظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1999م، ج3، 494-496.

تم تعيين يوسف الأشقر رئيساً لليهود بتلمسان خلفاً لابن الأشقر الطبيب بعد وفاته، لكونه بلغ درجة من العلم بالشرعية اليهودية وتوقرت فيه الشروط التي أهلت له لهذا المنصب الديني والسياسي⁽¹⁾. كما إن يوسف الأشقر جمع إلى مكانته العلمية والدينية والاجتماعية الأخلاق الحسنة، فقد كان شديد التواضع والورع⁽²⁾.

5- جهوده العلمية والأدبية:

تركزت جهود ابن الأشقر العلمية على خدمة الموروث الديني لليهود، وظهر ذلك جلياً في مؤلفاته العديدة والمتنوعة التي تركها، وأغلبها شروح وإضافات وتفسيرات لنصوص الكتب المقدسة عند اليهود، حاول بهذه الأعمال تقريب تلك التفاسير للمتعلّمين وتبسيطها، وهذا حينما عمل أستاذاً باليشيفا. فأول كتاب ألفه سمّاه (Abrek) وهو شرح للتفسير الذي وضعه الحاخام (راشي - Rashi) (431 - 498 هـ / 1040 - 1105 م) على التلمود⁽³⁾. وله كتاب آخر تضمّن عدداً من الإضافات والشروح لبعض النصوص الغامضة في الكتاب المقدس (العهد القديم) والتلمود أسماء (شجرة التفاح - Sefer Toppouah)، وأيضاً له تأليف حول ما يعرف بالماسوراه (Masorah)، وهي القواعد الموضوعية من لدن الحاخامات السابقين، وهي تعنى بطريقة كتابة العهد القديم وقراءته وهجائه⁽⁴⁾، سمّاه (ثمرة يوسف - Porat Yaseph) وفيه شروح للمعاني الغامضة الموجودة في كتب اليهود المقدسة كالتلمود والزّوهار⁽⁵⁾ والعهد القديم⁽⁶⁾. ومن مؤلفاته التي تعكس ميولاته الزّهدية والروحانية؛ والتي أراد أن يجمع فيها بين ما هو نظري وتطبيقي في جملة الآداب والعبادات - كتابه (علاج الروح - Refouet ha Nefesh)⁽⁷⁾.

1- ينظر: أهل الذمة في الدولة الزيانية، عبد الصمد حمزة، ص 29، 30.

2- ينظر: اليهود في المغرب الإسلامي، فاطمة بوعمامة، ص 178.

3- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

4- ينظر: موسوعة اليهودية، المسيري، ج 5، ص 89.

5- الزّوهار (Zohar): هو الكتاب المقدسة عند متصوفة اليهود القباليين، وهو عندهم بمثابة التلمود عند الحاخامات، وهو التفسير الباطني للعهد القديم، واختلف في نسبته، فقبل هو للحاخام شمعون بن يوحاي (القرن 2م)، وقيل لموسى دي ليون الأندلسي كتبه ما بين (678 - 684 هـ / 1280 - 1285 م). ينظر: المصدر نفسه، ج 5، ص 181.

6- ينظر: اليهود في المغرب الإسلامي، فاطمة بوعمامة، ص 178.

7- ينظر: المصدر نفسه، ن. ص.

وَأَلَّفَ فِي الْأَحْكَامِ التَّشْرِيعِيَّةِ كِتَابًا فِي فَقْهِ الذَّبَائِحِ، وَهُوَ بَيَانٌ لِكُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ مِنْ فَرَائِضِ الذَّبْحِ الشَّرْعِيِّ وَسُنَنِهِ وَطَرِيقَتِهِ سَمَّاهُ (شهادة يوسف-Edout bi yossef) ⁽¹⁾ وهذا وفق الشريعة اليهودية ⁽²⁾.

إلى جانب هذا كانت ليوسف الأشقر جهود في الميدان الأدبي، حيث ظهرت ملكته الشعرية في ما نسجه من أشعار جمعت في ديوان شعري نسب إليه، طرق فيه عددا من الأغراض وعالج فيه الموضوعات عقدية وأخلاقية وتشريعية، له شعر في العفة وطهارة المأكولات الغذائية في شريعته، وله شعر يتعلّق بالإله. وأنشأ قصيدة في غرض المدح أثنى فيها على عصره (سليمان بن شمعون دوران) الحبر اليهودي بالجزائر (872هـ / 1467م). هذا وقد جمع لحاخامات المعابد اليهودية ما أثر عنهم من أقوال في مصنّف سَمَّاهُ (عربة نائب الملك - Markebeth Hammiché) ⁽³⁾. كلّ هذا يعكس اهتمام يوسف الأشقر بالأدب اليهودي شعرا ونثرا.

1- ينظر: اليهود في المغرب الإسلامي، فاطمة بوعمامة، ص178.

2- للذّبْحِ الشَّرْعِيِّ (Ritual Slaughter) عند اليهود شروط منها: الذّبْحُ لا يكون إلاّ بسكين ذي مواصفات معلومة، ويكون الذّبْحُ بطريقة محدّدة، والتأكّد جيّدا من طهارة الحيوان أو الطّير وهذا بعد فحصه، مع أهليّة الذّاْبِحِ ويسمّى بالعبريّة (شوحيط)، وعملية الذّبْحِ تسمّى (شحيطاه). ينظر: موسوعة اليهوديّة، المسيري، ج5، ص211.

3- ينظر: اليهود في المغرب الإسلامي، فاطمة بوعمامة، ص178، 179.

11 - ابن حمزة الجزائري:

ابن حمزة الجزائري من أعلام المغرب الإسلامي في القرن العاشر الهجري الذين لم يحضوا باهتمام المؤرخين، وجاءت ترجمته مختصرة غير وافية حيث أغفلت المصادر تفاصيل كثيرة حول حياته، فتناولت اسمه وبلده وإشارة إلى بعض رحلاته ومؤلفاته.

1 - اسمه ونسبه ونشأته:

هو علي بن والي بن حمزة، أبوه والي بن حمزة جزائري الأصل من مدينة الجزائر، ووالدته من أصل تركي، يعرف في المصادر بابن حمزة نسبة إلى جدّه، و يعرف أيضا بابن حمزة المغربي نسبة إلى المغرب في مقابل المشرق، وليس المقصود المغرب الأقصى. ولد ابن حمزة بمدينة الجزائر، دون أن يُعرف له تاريخ ولادة ولا وفاة في المصادر والمراجع التي ترجمت له، بيد أنها تجمع على أنه من أعلام أواخر القرن العاشر الهجري، وورد في بعضها أنه كان حيا سنة (999هـ/1590م)⁽¹⁾. نشأ ابن حمزة بالجزائر وتعلّم بمدارسها ومساجدها فحفظ القرآن الكريم في صغره، وحفظ الحديث، وبرع في علم الحساب⁽²⁾، ثم انتقل إلى إستانبول فأقام مدة يتردد على مدارسها متعلّما ومعلّما لعلم الحساب، وقد تمكّن من إتقان اللغة التركية⁽³⁾.

2 - رحلاته:

تشير المصادر والمراجع إلى قيام ابن حمزة برحلتين نحو المشرق؛ إحداها إلى عاصمة الدولة العثمانية، وهذا بعد أن بلغ العشرين من عمره، حيث أصر والده أن يرسله عند أخواله في إستانبول قصد أخذ العلم على يد علماء الدولة العثمانية فمكث هناك مدة من الزمن⁽⁴⁾. ثم بعد ذلك عاد إلى الجزائر بعد أن بلغه وفاة والده ليهتمّ بوالدته، وليقوم بتسيير الأملاك التي ورثها عن والده⁽⁵⁾. أمّا الرحلة الأخيرة فكانت حجازية لأداء مناسك الحج رفقة والدته، وهذا بعد أن باع

1- ينظر: معجم المؤلفين، عمر كحالة، ج7، ص258.

2- ينظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ج7، ص245.

3- ينظر: العلوم عند العرب والمسلمين، نوال حسن البحيطي، دار الخليج للنشر والتوزيع، عمان، 2017م، ص74.

4- ينظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ج7، ص245.

5- يبدو أنه وحيد والديه ليس له أخوة.

كلّ أملاكه بالجزائر⁽¹⁾. استقرّ ابن حمزة بمكة المكرمة واشتهر هناك فكان مقصد الناس في حلّ ما استشكل عليهم من المسائل الحسابية وقضايا المواريث⁽²⁾. وبعد وفاة والدته بمكة ارتحل ابن حمزة عنها⁽³⁾، ولكن لا يعلم أين كانت وجهته، والمحتمل أنّه قصد العاصمة العثمانية إستانبول.

3 - وظائفه:

اشتغل ابن حمزة بديوان المال لدى السلطان العثماني أيام إقامته بإستانبول بعد أن اشتهر بالنباهة والكفاءة والتفوق في علم الحساب، وحسن السلوك. كما عينه والي مكة المكرمة بعد ذلك قيما على الشؤون المالية مدة خمس عشرة سنة. ومن الوظائف التي شغلها ابن حمزة في حلّه وترجاله جلوسه لتدريس الرياضيات في المدن التي أقام بها خاصة إستانبول ومكة المكرمة⁽⁴⁾. ومن الأمور التي اعتنى بها ابن حمزة اشتغاله بالترجمة حيث مكّنه إتقانه للغة التركية والعربية أن يترجم العلوم التي يدرسها لطلبة العلم العرب القادمين إلى إستانبول، ولغيرهم من الذين يحسنون اللغة التركية⁽⁵⁾.

4 - مؤلفاته:

لم يعرف لابن حمزة من مؤلفاته سوى كتابه الذي ألفه سنة (999هـ/1590م)⁽⁶⁾ أيام السلطان العثماني مراد الثالث، لما كان مقيما بمكة المكرمة، وآثر أن يكون باللغة التركية التي أجادها⁽⁷⁾.

- 1- ينظر: عالم الرياضيات النسّاب (ابن حمزة المغربي)، هدى الصادق أرحومة، المجلة الجامعة، جامعة طرابلس، ليبيا، العدد: 15، المجلد: 01، ص 180، 181.
- 2- ينظر: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، قدرى حافظ طوقان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1374هـ / 1954م، ص 423.
- 3- ينظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ج7، ص 247.
- 4- ينظر: عالم الرياضيات النسّاب (ابن حمزة المغربي)، هدى الصادق أرحومة، ص 180، 181.
- 5- ينظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ج7، ص 246.
- 6- ينظر: كشف الظنون، البغدادي، ص 536.
- 7- نسأل لماذا ألف كتابه باللغة التركية وهو بمكة المكرمة؟ كان الأولى أن يؤلف كتابه باللغة العربية التي هي لغة أهل الحجاز. وهذا يقودنا إلى عدة احتمالات؛ إما أنّ ابن حمزة كان في هذه الفترة مقيما بإستانبول، وهذا يؤيد قيامه برحلة أخرى إلى تركيا بعد خروجه من مكة إثر وفاة والدته، وقد يفسّر بكون كتابه الذي ألفه قد بعث به إلى السلطان العثماني يومئذ.

وعرف هذا الكتاب بعدد من العناوين⁽¹⁾ وهي: (تحفة الأعداد في الحساب)⁽²⁾، و(تحفة العدد لذوي الرشد والسدد)⁽³⁾، ويعرف عن المتأخرين باسم (تحفة الأعداد لذوي الرشد والسدد)⁽⁴⁾. موضوع الكتاب يعالج عددا من مباحث علم الرياضيات (حساب وجبر وهندسة)، قسمه ابن حمزة إلى مقدمة وأربع مقالات وخاتمة⁽⁵⁾.

تناول في مقدمة كتابه التعريف بعلم الحساب وأتى على فيها بيان جانب من تاريخ الترقيم والتعداد. أما المقالة الأولى فبين فيها عمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة في الأعداد الصحيحة، وفي المقالة الثانية بحث أنواع العمليات الحسابية في الكسور والجذور، وفي المقالة الثالثة تناول طرق استخراج العدد المجهول في المعادلات الحسابية، وخصّص المقالة الأخيرة لدراسة مساحات الأشكال وحساب الأجسام. وفي الخاتمة ذكر عددا من المسائل الغريبة والطريقة وقام بعرض حلول لها بطرق غريبة لم يسبق إليها. وبهذا فالكتاب يعدّ من أكمل وأتمّ المؤلفات في علم الحساب في هذه الفترة⁽⁶⁾.

5 - إنجازاته العملية:

أظهر ابن حمزة نبوغا وتفوقا في علم الرياضيات والمواريث، حيث أثرى ببحوثه عددا من المباحث الرياضية، فابن حمزة الجزائري يعدّ من واضعي أصول اللوغاريتمات⁽⁷⁾، حيث بحث العلاقة بين المتواليات العددية والهندسية التي هي أساس علم اللوغاريتمات قبل أن يتوصّل إليها الأسكتلندي جون نابيير (1550 - 1617م)⁽⁸⁾.

1- هناك من يرى أنّ (تحفة الأعداد في الحساب) و(تحفة العدد لذوي الرشد والسدد) أو (تحفة الأعداد لذوي الرشد والسدد) كتابين مختلفين. ينظر: موسوعة علماء العرب والمسلمين، محمد فارس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1993م، ص28.

2- ينظر: كشف الظنون، البغدادي، ج1، ص362.

3- ينظر: معجم المؤلفين، عمر كحالة، ج7، ص258.

4- ينظر: تراث العرب العلمي، طوقان، ص423.

5- ينظر: كشف الظنون، البغدادي، ج1، ص362.

6- ينظر: تراث العرب العلمي، طوقان، ص423، 424.

7- ينظر: المصدر نفسه، ص422.

8- ينظر: موسوعة علماء العرب والمسلمين، محمد فارس، ص28.

وقد لخص هذه العلاقة بين المتواليات العددية والهندسية في قوله: «إنَّ أسَّ أساس أيِّ حدٍّ من حدود متوالية هندسيّة، تبدأ بالواحد الصّحيح، يساوي الأساس الحدين الذين حاصل ضربهما يساوي الحدّ المذكور ناقصا واحدا»⁽¹⁾.

ومن إبداعات ابن حمزة الرياضيّة - حسب قدرتي طوقان - ابتكاره ما سمّاه (الأرقام الغباريّة)⁽²⁾ حيث قام بابتداع أشكال غير معهودة في عصره لرسم الأرقام⁽³⁾.

ومن الأمور التي اشتهر بها ابن حمزة حرصه الشّديد على تحريّ الدقّة في نقل المعلومة والعناية بتوثيق مصدرها، ما يعكس أخلاقيات البحث العلميّ، وهو ما يعرف بالأمانة العلميّة وتظهر في نسبة العمل لصاحبه والبعد عن ما يعرف بالسرقات العلميّة، حيث كشف عن المصادر التي اعتمد عليها في بحوثه والاعتراف للسّابقين بما قدّموه من خدمات جليلة في علم الرياضيات. فقد نوّه بعدد من العلماء الذين أخذ عنهم وأفاد من مؤلّفاتهم ونظريّاتهم في بحوثه وإنجازاته الرياضيّة، ولم يخف ذلك، فأشاد بسنان بن الفتح الحرّانيّ، وابن الهائم المصريّ (753 - 815هـ / 1352 - 1412م)، وابن غازي المكناسيّ وجهودهم العلميّة في الرياضيات. لذلك لقّب ابن حمزة وعرف بالنّسّاب، لنسبة كلّ قول لصاحبه⁽⁴⁾.

والأمانة العلميّة هي قيمة من القيم الحضاريّة في أصول البحث العلميّ. وقد نسي مؤرّخو الرياضيات الغربيّين أو تناسوا أن يذكروا أعمال ابن حمزة وبحوثه المتقدّمة في اكتشاف أصول اللّوغاريتمات، وبالمقابل اعترفوا للأسكتلنديّ جون نابيير بالسّبق وهو لم يتوصّل إليه إلّا بعد أربع وعشرين سنة من إنجازات ابن حمزة⁽⁵⁾.

1- نقلا عن: تراث العرب العلميّ، طوقان، ص66.

2- أمّا التّسميّة فقد مرّ بنا أنّ القلصاديّ له مؤلّفات حملت اسم أرقام الغبار، فالتّسميّة إذن ليست جديدة ولا مبتكرة، أمّا أشكال الأرقام فممكن أن تكون من مبدعاته. ينظر: ص250.

3- ينظر: تراث العرب العلميّ، طوقان، ص422.

4- ينظر: عالم الرياضيات النّسّاب (ابن حمزة المغربي)، هدى الصّادق ارحومة، ص181.

5- ينظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم، ج7، ص247.

ابتكر ابن حمزة طرقاً جديدة لم يسبق إليها لحلّ العديد من المسائل المعقّدة⁽¹⁾. وقد أفادته نباهته وكفاءته في علم الحساب أن يجد حلولاً لما استشكل من القضايا التي عجز عن حلّها غيره. ومن ذلك ما يعرف بالمسألة المكيّة⁽²⁾ في الميراث، وسمّيت بهذا الاسم نسبة إلى مكّة التي كان يقيم بها ابن حمزة حين تولى حلّ المسألة التي عرضها عليه رجل من الهند بعد أن عجز عنها علماء الهند ولم يهتدوا إلى حلّها، ولكنّ ابن حمزة اهتدى إلى الحلّ المرضي. وكانت هذه المسألة من الأسباب التي حملت والي مكّة على تعيينه قيماً على ديوان المال⁽³⁾.

والمسألة هي: أنّ رجلاً توفي وترك وراءه تسعة أولاد ورثوا عنه إحدى وثمانين نخلة، الأولى تعطي رطلاً واحداً من التمر كلّ سنة، والثانية رطلين كلّ سنة، والثالثة ثلاثة أرطال كلّ سنة، وهكذا... إلى النخلة الحادية والثمانين فهي تعطي واحداً وثمانين رطلاً من التمر في السنة. والمطلوب تقسيم النخلات بحيث تكون أنصبتهم متساوية عدداً وتمراً. فقام بإعداد جدول من تسعة أعمدة عدد الورثة، كلّ عمود يمثّل رقم النخلة التي تكون من نصيب كلّ ولد، ومن تسعة أسطر كلّ سطر يمثّل رقم النخلة التي من نصيب كلّ الورثة. وفي الأخير حظي كلّ وريث بتسع نخلات تعطي نفس الأبطال من التمر لكلّ وريث، فكلّ واحد يحظى بتسع وستين وثلاثمائة (369) رطل من التمر كلّ سنة. فمثلاً الولد الأول يرث النخلة رقم (1، 18، 26، 34، 42، 50، 58، 66، 74)، ويجني كلّ سنة من التمر (369) رطلاً⁽⁴⁾.

1- ينظر: تراث العرب العلمي، طوقان، ص 423، 424.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص 424، 425.

3- ينظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظمة العربيّة للتربيّة والثقافة والعلوم، ج 7، ص 247.

4- ينظر: تراث العرب العلمي، طوقان، ص 424.

وهذا هو الجدول⁽¹⁾:

الأولاد	الأول	الثاني	الثالث	الرابع	الخامس	السادس	السابع	الثامن	التاسع
أرقام النّخلات	1	2	3	4	5	6	7	8	9
	18	10	11	12	13	14	15	16	17
	26	27	19	20	21	22	23	24	25
	34	35	36	27	29	30	31	32	33
	42	43	44	45	37	38	39	40	41
	50	51	52	53	54	46	47	48	49
	58	59	60	61	62	63	55	56	57
	66	67	68	69	70	71	72	64	65
	74	75	76	77	78	79	80	81	73
مجموع الأرطال	369	369	369	369	369	369	369	369	369

وبهذا تمكّن ابن حمزة من حلّ هذه المسألة، متّبعا طريقة معقّدة يصعب فهمها، وهي تعكس قوّة عقله الرّياضيّ، والقدرة على حلّ ما عسر من المشاكل الرّياضيّة.

1- نقلا عن: تراث العرب العلميّ، طوقان، ص425.

ما نخلص إليه في هذا الفصل الخاص بأعلام الحضارة في المغرب الإسلامي في هذه القرنين التاسع والعاشر الهجريين هو نبوغ عدد من العلماء في كثير من فروع المعرفة بما في ذلك العلوم النّقلية (فقه، عقيدة، فتاوى) والعقلية (الرياضيات، الفلك، الجغرافية، الترجمة، الطب، ...)، وقد أسهموا في إثراء المعارف ببحوثهم وإضافاتهم العلميّة. ففي القرن التاسع الهجريّ نلّف القلصاديّ من أعلم أهل زمانه بالحساب والفرائض، وقد سعى إلى خدمة العلوم الرياضيّة وتطويرها، ومن جملة ما قدّمه استعماله للرموز الرياضيّة قصد تبسيط العمليات الحسابيّة واختصار المعادلات. وفي نفس التّخصّص نبغ ابن حمزة الجزائريّ وهو من واضعي أصول اللّوغاريتمات في الرياضيات في القرن العاشر الهجريّ، وابتكاره للأرقام الغباريّة، حيث قام بابتداع أشكال جديدة لرسم الأرقام، وحلّ أعقد المعادلات الرياضيّة والمسائل الحسابيّة.

وما سجّلناه من المظاهر الحضاريّة على المستوى التّعليميّ الاهتمام الكبير بالمؤلّفات ذات الصّبغة التّعليميّة في مختلف العلوم النّقلية أو العقلية، وذلك لتسهيل تلك العلوم وتقريبها لطلبة العلم، فكثرت المنظومات العلميّة والأراجيز، والشّروح المبسّطة والاختصارات، وكثيرا ما نجد المؤلّف يصرّح بالقصد من النّظم أو الشّروح، ويرجعه إلى استصعاب فهمها لدى طلبة العلم وإدراكها، كشرح القلصاديّ المختصر على الأرجوزة التّلمسانيّة في الفرائض بعد شرحه المطوّل. وفي المجال التّعليميّ سلك عدد من العلماء مناهج تعليميّة قصد إيصال المعلومة للمتعلم بطرق بسيطة وأكثر فاعليّة، كالمنهج الذي يجمع بين النّظريّ والتّطبيقيّ في تدريس المواد العلميّة. وهذا منهج وظّفه القلصاديّ، حيث أثر سهولة العبارة والأسلوب المباشر وتكرار العمليات والملاحظات، وكثرة التّمارين حتى تترسّخ القواعد في ذهن المتلقّي ويسهل إدراكها وفهمها. وزاد على ذلك الطّريقة الحواريّة بين المعلّم والمتعلّم قصد إشراك المتعلّم، وهي من الطّرق الحديثة المعتمدة في المناهج التّعليميّة، وهذه الطّريقة الحواريّة ليست قاصرة على البعد التّعليميّ والتّحصيليّ فحسب، بل إنّها تحمل أبعادا حضاريّة أخرى كالبعد التّربويّ والنّفسيّ، فالمتعلّم يتدرّب على أدب النقاش والحوار ويقبل على الدّرس بحيوية ونشاط، فيُغرس فيه روح النّقد الإيجابيّ ويتدرّب على أساليب الإقناع. وقد وقفنا على التّوجيهات المنهجية العلميّة والتّربويّة لابن سراج لطلبة العلم وإرشادهم إلى التّركيز أكثر على فرع من فروع المعرفة

والتَّخَصُّص في علم من العلوم، وهذا بعد الإلمام بعدد من العلوم الأخرى لضمان التَّكامل بينها فهو أدعى إلى الانتفاع، وهذا مظهر آخر من مظاهر الحضارة على المستوى التَّعليمي التي يقدِّمها أعلام الحضارة الإسلامية للعالم.

وهذه الدَّعوة إلى التَّخَصُّص المعرفي مكَّنت من ظهور عدد من العلماء الذين كان لهم أثر بارز في العلوم التي تَخَصَّصوا فيها، واستطاعوا أن يقدِّموا إضافات علمية، تَمَثَّلَت في مؤلَّفاتهم التَّخَصُّصية في الرياضيات والمواريث والفقه والفلك. والإبداع في تقديم المادَّة العلمية.

ومن القيم الأخلاقية التي التزم بها عدد من الأعلام الأمانة العلمية في مجالات تخصصاتهم التي برعوا فيها، وظهرت في نقلهم للخطابات من لغة إلى أخرى عن طريق التَّرجمة، ونقلهم للعلوم ونسبتها إلى أهلها. وهذا ما أظهره كلٌّ من التَّرجمان والوزَّان وابن حمزة الجزائري. فالتَّرجمان كان حريصا على نقل النصوص المترجمة إلى اللغة العربية بكلِّ أمانة باحترافية. وابن حمزة لم يخف عن المتلقِّي تلك الإسهامات العلمية للسَّابِقين في العلوم الرياضية والتي ساعدته على تحقيق ما توصل إليه من نتائج رياضية، حتى إنَّه لَقَّب بالنَّسَّاب لشِدَّة تحرِّيه نسبة الأقوال إلى أهلها.

وأهمُّ ما يشترك فيه أولئك الأعلام هو قيامهم برحلاتهم خارج بلدانهم لأسباب مختلفة. فكانت لهذه الهجرات ثمرات تَمَثَّلَت في إثراء مختلف المعارف ونقل التَّجارب وربط العلاقات بين شعوب بلدان الحوض المتوسط والعالم الإسلامي. فقد ترك كثير من العلماء آثارا في مختلف البلاد الإسلامية والأوروبية التي رحلوا إليها، وظهر تأثيرهم الحضاري، فأسهموا في الحياة العلمية في البلاد التي رحلوا إليها فنقلوا العلوم وصنَّفوا في مختلف الفنون وأخذ عنهم الكثير، ونالوا مكانة اجتماعية وعلمية، فتبوَّؤوا المناصب العلمية والإدارية بكفاءاتهم العلمية والإدارية. فرأينا أثر الحسن الوزَّان الأسير الذي نقل إلى إيطاليا وما تركه من آثار علمية وثقافية في روما وبولونيا، حتَّى إنَّهم أسفوا على مغادرته البلاد وجَدُّوا في البحث عنه، واستفادوا من مؤلَّفاته وجهوده التَّعليمية. كان الحسن بن الوزَّان والتَّرجمان من حلقات التَّواصل بين التَّحافة الإسلامية والمسيحية بين شمال الحوض المتوسط وجنوبه.

وقد تبين لنا مدى اهتمام بعض سلاطين بلدان المغرب الإسلامي بتنشيط الحياة العلمية والفكرية والأدبية ببلدانهم، وذلك بتقريبهم لأصحاب الكفاءات العلمية وتنميين جهودهم دون النظر إلى توجهاتهم الدينية أو أصولهم العرقية، وهذه من القيم الحضارية التي أبداها سلاطين الدولة الحفصية والزيرية، فكان ابن الخلف القسنطيني ومحمد الملقى من شعراء الدولة ومن كتابها، وعبد الله الترجمان قيما على ديوان البحر و مترجما، وابن الأشقر اليهودي جعلته السلطة الزيرية طبيب البلاط ورئيس الطائفة اليهودية.

وسجلنا كثيرا من القيم الحضارية في المجتمعات التي عاش فيها أولئك العلماء الذين ترجمنا لهم منها، فألفينا قيمة التعايش السلمي بين مختلف مكونات مجتمعات بلدان المغرب الإسلامي على اختلاف مللهم ونحلهم وطوائفهم، وأيضا ضمان الحرية الدينية في ظل تلك الدول التي عاشوا فيها. وكان لهم دور سياسي واجتماعي واقتصادي وثقافي وعلمي. خاصة أولئك الذين نرحوا عن الأندلس فرارا من الاضطهاد الإسباني، كالجالية اليهودية التي استوطنت بلدان جنوب البحر المتوسط، وعاشت بين أهلها وفي ظل حكامها بوصفها أهل ذمة، حقوقهم محفوظة كالحقوق الدينية والعلمية والاقتصادية، فكانت حرية التدين وإقامة شعائهم مكفولة، ولهم بيعهم ومدارسهم ومقابرهم الخاصة. وكان اليهود يوصي بعضهم بعضا بالإقامة بدول العالم الإسلامي، يقول أحدهم: «هنا تجدون أبواب الحرية مفتوحة دائما على مصراعيها لكم، حتى تتمكموا من ممارسة ديانكم اليهودية ممارسة كاملة»⁽¹⁾. وقد بلغ التسامح الديني والتعايش السلمي في ظل الدولة بني وطاس إلى اعتبارهم مواطنين مغاربة لهم حق المواطنة، إذ كانوا يعطون تصاريح تثبت أنهم مواطنون مغاربة⁽²⁾.

إضافة إلى هذا فقد أظهروا عناية بالجانب العمراني والفني. فقد أعطى أبو عمرو عثمان الحفصي أولية للعمارة الدينية فاهتم بجامع الزيتونة وبمرافقه فأمر سنة (852هـ / 1448م) ببناء مiazza ملحقة بالجامع وأمر بتسخين الماء فيها في فصل الشتاء، وأنشأ مكتبة خاصة بالكتب

1- ينظر: يهود الجزائر، فوزي سعد الله، ص 192، 193.

2- ينظر: اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين، عطا علي محمد شحاتة ريه، دار الكلمة ودار الشفيق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط 1، 1999م، ص 214.

بالجامع، جمع فيها أمّهات الكتب في مختلف العلوم. وأحدث كثيرا من المؤسسات الدينية من مدارس وزوايا التي تؤدي دورها التعليمي والتربوي والروحي والاجتماعي، إلى جانب ذلك كله لها بعدها الفني والجمالي، حيث برع المعماريون في بناء هذه المؤسسات واستطاعوا أن يجمعوا بين عدد من الفنون؛ بين فن الهندسة المعمارية وفن الزخرفة وفن الخطوط العربية، فبرزت في أعمالهم القيم الجمالية والفنية التي نالت إعجاب الناظرين. فقد وصف مؤرخ الدول الحفصية ابن الشّماع المدرسة التي أمر ببنائها أبو عمرو عثمان سنة (840هـ / 1437م) بالقرب من ضريح الشيخ محرز بن خلف بأنها في غاية الحسن والجمال والإتقان.

ومما سجّلناه أيضا هو دور الشرائع الدينية في الإبداع الحضاري، فالقيم الدينية تبعث على إيجاد الوسائل التي تعين على تأدية العبادات وتيسيرها، وقد رأينا الرابط المهم بين مواقيت الصلاة والاهتمام بالإسطرلاب علما وآلة، وقاد ذلك إلى ترقية فن النقش على الآلة النحاسية، فوقع الجمع بين البعد التعبدي والتفصي والجمالي، وكلها من القيم التي تنتشدها الحضارة الإسلامية. ومن التشريعات التي أدت دورا حضاريا منظومة الأوقاف، فهي تدعم النشاط العلمي والفكري والديني والاجتماعي والاقتصادي والعمراني والعسكري، وتكفل الاستمرارية لعمل المؤسسات القيمة على تلك النشاطات، وذلك بتوفير التغطية المالية لمتطلبات تلك المؤسسات والعاملين بها. وكان السلاطين يدعمون النظام الوقفي، وقد مرت بنا تلك التعليمات السلطانية من أبي عمرو عثمان الحفصي بتخصيص أوقاف ثابتة للمؤسسات الدينية التي أمر ببنائها.

ونلفي من الأعلام الذين ترجمنا لهم من كانت له مشاركة في الميدان الأدبي، فتناولوا عددا من الفنون النثرية كأدب الرسائل وأدب الرحلة وفن المناظرة والترجمة الأدبية، وكذلك النثر التأليفي.

حظي فن المناظرة باهتمام لافت باعتبار المناظرة منهجا فكريا يقوم على الإقناع والتأثير بأساليب مختلفة، وشملت موضوعات كثيرة ذات بعد ديني تتعلق بقضايا فقهية وعقدية واقتصادية واجتماعية، فكان من رجالها ابن سراج وأبو عمرو عثمان الحفصي والشماخي والحسن الوزان. وهذه المناظرات المذهبية والنقاشات الدينية محطة من محطات التفكير النقدي في المغرب الإسلامي في هذه الفترة، وتعكس التضج الفكري لدى علماء المغرب الإسلامي،

وتوضح صورا من صور التعايش بين أتباع هذه المذاهب، وهي أيضا تحمل أبعادا حضارية أخرى، حيث كانت مجالس الأمراء من المواطنين التي تناقش فيها قضايا مختلفة، وهو ما جرى من مناقشات عقدية وفقهية بين السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان والشماخي.

وإلى جانب هذا رأينا رسالة التاجوري إلى أهل فاس يدعوهم فيها إلى إصلاح القبلة، وهي رسالة تعكس طبيعة العلاقات بين أعلام المشرق والمغرب القائمة على التواصل العلمي والتلاقح الفكري. حيث استقرّ برسالته قرائح علماء فاس فردّوا على هذه الرسالة بردود نقدية وعقلية. وهي تثبت الكفاءة العلمية لدى التاجوري وتبحّره في علوم الفلك والميقات، حيث استطاع أن يحدّد جهة القبلة بالمغرب بناء على معطيات شفووية بلغته وهو بالمشرق.

ومن أهمّ السمات الفنية للخطاب النثري لدى هؤلاء الأعلام التزيين اللفظي خاصة في مقدّمات خطاباتهم ومؤلفاتهم. ومالوا إلى الاهتمام بالمحسنات البديعية من جناس وطباق وسجع وموازنة وهذا ما ميّز خطاب القلصاديّ سليل المدرسة الأندلسية ذات النزعة التصنيعية. وإلى جانب هذا هناك المدرسة المطبوعة التي مالت عن السجع المعقّد إلى البسيط وإلى الأسلوب المرسل البعيد عن التكلّف كخطاب الترجمان والتاجوريّ والشماخيّ. ولم يغفلوا عن التزيين المعنويّ فوظّفوا الصّور البيانية من استعارات وكنايات وتشبيهات وغيرها، التي أعانتهم على تبليغ خطابهم والتأثير في المتلقّي، وعلى عرض بعض تجاربهم الذاتية، وظهر ذلك جليّا في خطابي القلصاديّ والشماخيّ.

وهذه الفنون الأدبية النثرية لها قيمتها الحضارية، فهي تؤرّخ للخطاب النثريّ، وتقيدنا في الاطلاع على موضوعاته والوقوف على أهمّ السمات الفنية والموضوعية. وتمدّنا بصور عن الحياة الدنيوية والاجتماعية والفكرية والعمرانية وغيرها في هذه الفترة الزمنية ليس في المغرب الإسلاميّ فحسب بل في بلدان الحوض المتوسط والمشرق.

خاتمة



توصّلنا بعد الانتهاء من إنجاز هذا البحث إلى عدد من النتائج تمثّلت في ما يلي:

- إنّ الأدباء والشعراء كانوا من طبقة الفقهاء وأسهموا في تنشيط الحركة الأدبية، حيث جمعوا بين الفقه والأدب، وبين الخطاب النثريّ والشعريّ حتّى إنّهُ ليصعب على الدارس أحيانا تصنيفهم، ووجدنا من وُصف بالفقيه والشاعر والأديب. كما كان لأغلبهم اتصال بالسلطة الحاكمة فعملوا في الدواوين السلطانية بالكتابة أو الترجمة، وسخروا أدبهم في خدمة ملوكهم. ويمكننا القول إنّ أدب هذه الفترة هو أدب الفقهاء.

- أبدى أدباء هذه الفترة من الفقهاء والمتصوّفة عناية بالخطاب النثريّ، وظهر جليّا في مختلف الفنون النثريّة التي تناولوها، فكتبوا الرسائل السلطانية والإخوانيّة والمقامات والخطب، وألّفوا في فنّ التّراجم والسّير وأدب الرّحلات ودوّنوا الفتاوى واهتمّوا بفنّ المناظرات. وقد استجابت تلك الفنون للبنية التقليديّة للخطاب النثريّ، سوى ما سجلناه في بنية المقامة عند الفقيه عمر المالقيّ التي انزاح عن ضوابط المقامة المشرقيّة.

- عالج الخطاب النثريّ موضوعات متنوّعة متعلّقة بواقع الحياة منها الواقع السياسيّ والاجتماعيّ والدينيّ والروحيّ والحضاريّ، أبدى الأديب من خلالها تفاعلا مع الوقائع والأحداث والتّوزال في تلك الفترة. فتناول الأدباء في رسائلهم وخطبهم ومقاماتهم ومناظراتهم وأدبهم الرّحليّ والتأليفيّ والفتاوى عددا من الموضوعات كالجهاد في سبيل الله لدفع الأعداء والأوبئة، والاختلافات العقديّة والفقهية، ووصفوا المنشآت الحضاريّة من عمارة دينيّة ومدنيّة وعسكريّة والإبداعات الفنيّة والمخترعات العلميّة والمناسبات الموسميّة والاحتفالات الدينيّة. وهذه من مظاهر علاقة التأثير والتأثر بين الأدب والحضارة، إذ استطاع الأدباء أن ينقلوا للمتلقين متوسّلين بالّلغة الأدبيّة تجاربهم الشّخصيّة وانفعالاتهم النّفسيّة ومواقفهم الذاتيّة وكذلك علاقاتهم الإنسانيّة.

- ومن الموضوعات التي تناولها الخطاب النثريّ بعض قضايا النّقد الأدبيّ. وكان لكلّ النّثريّ وابن الخلف وأحمد زروق ممارسات نقدية وروى. ولم نجد لهم مؤلّفات مخصّصة للنّقد الأدبيّ وإنّما جاءت هذه النّصوص النّقدية ضمن مؤلّفات نثرية وشعريّة. وممّا أثّر من قضايا النّقد مفهوم الملكة الشعريّة وطرق تحصيلها، وطبيعة الممارسة الشعريّة، وكشفنا عن طبيعة النّقد

الأدبي الممارس من لدن التنسي وأحمد زروق وبعض المعايير النقدية لديهم. فالاتجاه النقديّ
الغالب هو النقد الأخلاقي والانطباعي.

- سجّلنا وفرة في الإنتاج الأدبي الثري والشعري في هذه الفترة، فمنه المحفوظ كشعر ابن
الخلوف القسنطيني الذي ترك دواوين شعريّة، ومنه ما هو في حكم المفقود كشعر محمد الخير
المالقي وأكثر شعر الفقيه عمر المالقي وأدب أبي عصيدة البجائي. ومنه المبتوث في كتب
الأدب والتراجم والتاريخ وبعض المصنّفات الشعريّة، فحاولنا جمعه من تلك المظانّ كشعر ابن
الخطيب الزرويلي ومحمد بن إبراهيم الشّرّان. ولو وصلنا ذلك الإنتاج الأدبي كاملا لأمكننا أن
تشكيل صورة كاملة للواقع الأدبي والنقدي في هذه الفترة.

- أمّا الخطاب الشعريّ من أشعار وموشّحات وأزجال فقد تناول معظم الأغراض الشعريّة
التقليدية كالمدح والفخر والتّهنة فمدحوا الأشخاص والملوك والبلدان. وأيضا لهم في غرض
الرثاء مرثيات بكوا فيها الأبناء والشيوخ والأقران والأمراء والبلدان. إلى جانب ذلك ألفينا غرض
الهجاء ومن رجاله ابن الخطيب الزرويلي الذي هجا الأشخاص والبلدان، وهناك غرض الوصف
وخير من مثّل هذا اللون ابن الخلوف القسنطيني، وقد تناول وصف الطبيعة ومظاهرها من
رياض وأزهار وحدائق وأنهار وغيرها، وشاركه في هذا الغرض ابن الأزرق الغرناطي إضافة
إلى وصف المعارك والحروب، ولهم شعر في الخمر وهو غرض امتزج بشعر الطبيعة والغزل.
ويكاد يكون ابن الخلوف شاعر هذه الفترة إذ طرق كلّ أغراض الشعر، مع اهتمامه الكبير
بالشعر الديني، حيث خصّص ديوانا جمع فيه قصائده في المديح النبوي، واختصّ بفنّ
البديعيات الذي يقوم على المزوجة بين ألوان علم البديع والمديح النبوي. كانت التجربة الصوفيّة
حاضرة في شعر إبراهيم التّازي والحوضي الذين استعانا بغرض الغزل واتّخذوه وسيلة للتعبير
عن مشاعرهم الروحيّة وتجاربهم الوجدانيّة، وجعلوه من بنية القصيدة الصوفيّة كما جرى عليه
التقليد في القصيدة المدحية.

- جنح شعراء المدح للقصائد الطويلة مع التزامهم بالبنية الفنيّة للقصيدة العربيّة. وسجّلنا
اهتماما باللغة الشعريّة فألفينا جمعا بين اللفظ والمعنى بما يناسب الغرض، فجزالة في اللفظ
وقوّة التعبير في شعر الحماسة والمدح والفخر وهذا نتيجة التّأثر بالشعراء القدامى، وهناك
بساطة في اللفظ وسهولة في الخطاب الزهدي والهجائي. ولذا جاءت المعاجم اللغويّة مختلفة

ومتنوعة بحسب الغرض الشعري، فهناك المعجم الصوفي والزهدي والحربي والغزلي والخمري. لم نلمس تجديدا في الموضوعات الشعرية فالأفكار التي ساقها الشعراء هي ذات صلة بالمعاني المطروقة في الشعر القديم، وخاصة شعر المدح والحماسة والفخر عند شعراء السلاطين والأمراء كابن الخلف والشران والحامدي.

- أظهر الأدباء والشعراء عناية بالترتين اللفظي، وحرصوا على البنية الإيقاعية للخطاب النثري والشعري فتجلى اهتمامهم بالجوانب الموسيقية الداخلية للنصوص في استعمال المحسنات البديعية كالجناس والطباق والتضاد والتقابل والسجع وغيرها. ولم تتخلص الفنون النثرية من الصنعة اللفظية، وأكثر من شغل بذلك المدرسة الأندلسية ومثلها ابن عاصم الغرناطي والفيق عمر، ولم تسلم الرسائل والخطب ومقدمات الفتاوى والمقامات والرحلات ونصوص الإجازات والتراجم وعناوين المؤلفات من السجع، وهذا النوع من الأسلوب قد يجنح بالمبدع للتكلف. وإلى جانب هذه المدرسة وجدت خطابات مال أصحابها إلى الخطاب المرسل وحاولوا التخلص من الصنعة اللفظية ومثلها أحمد زروق. أما الموسيقى الخارجية للنص الشعري فقد سجلنا التزاما من الشعراء بالوزن والقافية والزوي قصد إقامة البنية الإيقاعية، وتقيدا بالأوزان الخليلية، فكان البحر الطويل والبسيط والكامل أكثر البحور استعمالا.

- سجلناه عددا من القيم حضارية ظهرت في حياة هؤلاء الأعلام ومجتمعاتهم. ففي المجال العلمي تركوا موروثا كبيرا في مختلف ميادين المعرفة، فاعتنوا بالتأليف التعليمي الموجه للنشئة وطلبة العلم، واعتمدوا طرقا ومناهج تعليمية تعين على التحصيل العلمي، وهذا قصد بناء الشخصية العلمية والحضارية للنشئة. وأفيناهم أشد الناس حرصا على الأمانة العلمية لكونها من أخلاقيات البحث العلمي.

- ساهم رجال المدرسة الصوفية في البناء الروحي والسلوكي والتعبدية للفرد والمجتمع، وسعوا إلى تحقيق الأبعاد الحضارية التي ينشدها الفكر الصوفي.

- وفي المجال الاجتماعي ألفينا عددا من القيم الحضارية كالتعايش السلمي والتسامح الديني بين مختلف مكونات المجتمع.

- كان رجال العلم والأدب وغيرهم حلقة من حلقات التواصل الحضاري والتلاقح الفكري والثقافي بين بلدان المغرب والمشرق الإسلاميين، وبين شمال الحوض المتوسط وجنوبه.

وأخيرا فقد حاولنا في هذه الرسالة الوقوف على كثير من القضايا ذات البعد الأدبي والحضاري غير أنها تبقى موضوعات تحتاج إلى مناقشة وإثراء لتعم الفائدة والنفع وتكون منطلقا لبحوث أخرى. ونأمل أن تكون هذه الدراسة مثرية للمكتبة العربية والإسلامية، ولبنة في بابها، وخدمة لتراث الأدبي والفكري في المغرب الإسلامي. ونحسب هذا العمل بمثابة مشاركة في مشروع تسعى من ورائه النخبة المثقفة والصفوة من الأساتذة والباحثين لخدمة آداب المغرب الإسلامي وحضارته وأعلامهما ليس في القرنين التاسع والعاشر الهجري فحسب بل في القرون السابقة واللاحقة.

الفهارس



- ❖ فهرس الآيات القرآنية
- ❖ فهرس الأحاديث النبوية
- ❖ فهرس الأعلام
- ❖ فهرس البلدان
- ❖ مكتبة البحث
- ❖ فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية



الرقم	الآية	الصفحة
1	﴿ لَا تَجْزِءُ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَبْعَةٌ ﴾. [سورة البقرة: 48].	283
2	﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾. [سورة البقرة: 57].	158- 159
3	﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾. [سورة البقرة: 68].	93
4	﴿ وَلَا تَنْبَغُهَا شَبْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾. [سورة البقرة: 123].	283
5	﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾. [سورة الأعراف: 160].	159
6	﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَتَلُؤْا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾. [سورة التوبة: 123].	120
7	﴿ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْظَمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَاوِيلٍ إِلَّا حُلُمٌ بِعَلَمِينَ ﴾. [سورة]	93

	يوسف: 44]	
159	﴿ يَبْنِي إِسْرَآءِيلَ فَدَٰنِجَيْنَاكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْآيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَ ﴾. [سورة طه: 80].	8
283	﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّجَعَةُ إِلَّا مَنَ آذَنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾. [سورة طه: 109].	9
121	﴿ لَا يَخْزَنُهُمُ الْقَبْرُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَفِّيهِمُ الْمَلَكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾. [سورة الأنبياء: 102].	10
93	﴿ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾. [سورة القصص: 6].	11
159	﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِے الطُّولِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾. [سورة غافر: 3].	12
283	﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَمِيعٍ يُطَاعُ ﴾. [سورة غافر: 18].	13

فهرس الأحاديث النبوية



الرقم	الحديث	الصفحة
1	« الطَّاعُونَ رِجْسٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ، فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ، وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا، فِرَارًا مِنْهُ. »	51
2	« كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ. »	94
3	« أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكَ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ. »	94
4	« إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ. »	121
5	« مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ - كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ، وَتَوَكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ، بِأَنْ يَتَوَقَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. »	121
6	« لَيْسَتْ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْكِبَايِرِ مِنْ أُمَّتِي. »	283
7	« لَا تَنَالُ شَفَاعَتِي الْغَالِي فِي الدِّينِ وَالْجَافِي عَنْهُ. »	283
8	« لَا تَنَالُ شَفَاعَتِي سُلْطَانًا ظَلُمًا غَشُومًا لِلنَّاسِ، وَرَجُلًا لَا يُرَاقِبُ اللَّهَ فِي الْيَتِيمِ. »	283

فهرس الأعلام



الرقم	العلم	الصفحة
❖ الأهمزة		
1	إبراهيم أطفيش	275
2	إبراهيم الحسناوي البجائي	22
3	إبراهيم بن محمد البرشاني	216
4	إبراهيم حركات	11
5	إبراهيم بن فتوح العقيلي	255، 246، 173، 63
6	إبراهيم التازي	208، 144 - 126، 105، 98، 88
7	ابن الأزرق الأندلسي	14، 23، 25، 231، 236،
8	أحمد الأعرج السعدي	223
9	أحمد البنيولي	170
10	أحمد الدقون	33
11	أحمد الوطاسي	25
12	أحمد زروق	18، 19، 41، 47، 48، 98، 99، 100، 101، 102، 103، 104، 105، 106، 107، 108، 137، 138، 139، 145، 313، 315
13	أحمد الحباك المكناسي	39
14	أحمد الحفصي	27، 238، 239
15	أحمد المنجور	23، 26
16	أحمد السلاوي	200
17	أحمد بن عبد الله الجزائري	33
18	أحمد بن عبد الرحمن	22

	القيرواني (حلولو)	
104، 100	أحمد بن عقبة الحضرمي	19
246، 245، 69، 60، 50، 59، 49	الأيسر النصري	20
238، 26	أنسيلم ترميدا (Anselmo Di Turmeda)	21
37	الأكل بن خلوف المغراوي	22
299، 271	أفرايم أنقاوة	23
273، 272، 271، 270، 236	ابن الأشقر المالقي	24
175، 174	الأشرف قايتباي	25
❖ الباء		
34	بايزيد الثاني	26
52	بديع الزمان	27
295، 294	بدر الدين القرافي	28
24، 237، 266، 274، 276، 278، 279، 280، 281، 282، 283، 284، 285، 311، 312	البدر الشماخي	29
275	البيدموري	30
134	البكري	31
14، 17، 45، 110، 133، 148، 174، 216، 217، 218، 256، 259	البلوي، أبو جعفر أحمد بن علي بن داود	32
254	ابن البناء المراكشي	33
99	أم البنين	34
❖ الميم		
254	الجادري الفاسي	35
289	جان ألبير ويدمانستار - J.A. Widmanstard	36
293	جان باتيست راموز	37
286، 288، 289، 292	جان ليون العاشر	38

259، 258، 174	ابن الجبير اليحصبي	39
275، 274	جون نابيير	40
290	الجزار	41
291، 289	جيل دي فيطرب Gilles De Viterbe	42
108	الجنيد البغدادي	43
❖ الدال		
240، 201	ابن أبي دينار	44
❖ الهاء		
305	ابن الهائم المصري	45
99	أم هاني	46
100	هارون	47
134، 131	هنري دي كاستري	48
❖ الواو		
302	والي بن حمزة	49
251، 249، 247، 217، 109، 41، 16، 14	الونشريسي، أبو العباس أحمد	50
45، 14	الونشريسي، عبد الواحد بن أحمد	51
55، 26، 25	الوزير الغساني	52
❖ الزاي		
13	ابن زاغو التلمساني	53
114	زهير بن أبي سلمى	54
288	ابن الزيات التادلي	55
257، 102	ابن أبي زيد القيرواني	56
202	زين الدين بن مزهر	57
294	الزركلي	58
240	الزركشي	59
44، 23، 20	ابن زكري التلمساني	60

174	الزغل	61
❖ الحاء		
44، 39	ابن الحاج اليبدي التلمساني	62
204	حاتم الطائي	63
254، 255، 254، 253، 236	الحباك التلمساني	64
314، 233، 222، 219، 218، 217، 216، 141، 33	الحوضي	65
125، 111	أبو حمو موسى الثاني	66
308، 307، 306، 305، 304، 303، 302، 237، 309	ابن حمزة الجزائري	67
292	الحسين بن علي الطغرائي	68
8، 14، 15، 25، 137، 149، 237، 285، 286، 287، 288، 289، 290، 291، 292، 293، 309، 311	الحسن الوزان	69
225	أبو الحسن المريني	70
37	حسن بن خير الدين	71
108، 107	أبو الحسن الشاذلي	72
52	الحريري	73
131	الحضيكي	74
❖ الطاء		
249، 62	ابن طركاظ العكي	75
95، 85	طرفة بن العبد	76
❖ الباء		
298	يهودا	77
275	زكرياء بن إبراهيم الهواري	78
16، 15	ابن يونس	79
285	يوسف الورجلاني	80
255	يوسف الزيدوري	81

246، 245، 67	يوسف بن المول	82
301، 300، 299، 298، 272، 237	يوسف بن موسى الأشقر	83
164، 163، 67، 64، 60، 36، 33، 32، 30	يوسف الثالث	84
121، 120، 118، 117، 47، 40، 39، 29، 19، 122، 124، 125، 126، 127، 128، 129، 137، 234، 145، 140	ابن يجبش التازي	85
275	يعقوب بن أحمد بن موسى	86
292	يعقوب بن شمعون	87
❖ الألف		
37	الكونت دالكوديت	88
293	كراتشكوفسكي	89
❖ الألف		
245	ابن لب فرج بن قاسم	90
❖ الميم		
204	مالك بن أنس	91
291	ماسينيون	92
217، 100، 30	أبو مدين شعيب	93
249	المهدي الوزاني	94
250، 249، 248، 246	المواق	95
23	أبو موسى الأشعري	96
43	محمد بن أحمد بن يوسف الكفيف	97
297، 21	محمد بن أحمد اليسيتي	98
293	محمد الأحضر	99
255، 58	محمد البياني	100
20	محمد بن بلقاسم المشدالي	101
291، 287، 45، 29	محمد البرتغالي	102

294	محمد بن أبي بكر	103
291، 42	محمد الوطاسي	104
100	محمد الزيتوني	105
293	محمد حجي	106
228، 227	محمد الحران	107
11	محمد الطمار	108
29، 19	محمد بن يحيى البهلوي	109
245	محمد بن يوسف بن سراج	110
24	محمد الكراسي الأندلسي	111
297	محمد المهدي الشيخ	112
297	محمد بن موسى العبدوسي	113
286، 265، 23	محمد بن محمد بن أبي قاسم القسنطيني	114
256	محمد الملاي	115
225، 224	محمد المختار السوسي	116
257، 255، 246	محمد السرقسطي	117
246، 46	محمد بن عبد الله الفراوسني	118
25، 20، 19	محمد بن عبد الكريم المغيلي	119
36، 30	محمد بن علي الهوزالي	120
245	محمد بن علي الحفار	121
245	محمد بن علي بن علاق	122
136، 131	محمد بن علي الفشتالي	123
296	محمد بن علي التّمكروتي	124
295، 294، 21	محمد بن علي الخروبي الطرابلسي	125
32	محمد بن عمر الشاوي	126
21	محمد بن عقاب	127

20	محمد العقباني	128
30، 168، 169، 170، 202، 203، 207، 265	محمد بن عثمان، المسعود بالله الحفصي	129
25	محمد بن القاسم الأنصاري السبتي	130
99	محمد بن القاسم المشدالي	131
255	محمد القسطلري	132
297	محمد الشيخ الأصغر	133
294	محمد شمس الدين اللقاني	134
25	محمد خونجي	135
30، 141، 167، 168، 169، 170، 171، 200، 233، 234، 265، 314	محمد الخير المالقي	136
14، 21، 45، 225، 226، 227	محمد الشيخ السعدي	137
15	محمد بن الغرديس التغلبي	138
260	محمود بن سعيد مقديش	139
201، 258، 268، 311	محرز بن خلف	140
12، 16، 30، 32، 33، 35، 36، 45، 131، 135، 230	المنصور السعدي	141
264	المنتصر الحفصي	142
65	المقداد بن الأسود	143
هـ، 17، 31، 35، 49، 50، 52، 54، 58، 59، 63، 111، 115، 137، 163، 175، 176، 177، 256، 257	المقري	144
32، 110، 113، 219	المتوكل الزباني	145
94، 234	المتنبي	146
44، 132، 303	مراد الثالث	147
21، 22، 23، 25، 26، 109، 144، 250، 255	ابن مرزوق الحفيد	148

260		
45	ابن مرزوق الكفيف	149
د، 148، 217، 240	ابن مريم التلمساني	150
13، 48، 72، 73، 74، 75، 77، 78، 79، 81، 82، 83، 84، 87، 89، 90، 92، 93، 94، 95، 96، 99، 260	المشدائي، أبو الفضل	151
246، 173	ابن منظور، أبو عمرو	152
❖ النون		
114	التابغة الديباني	153
264	ناصر الدين اللقاني	154
171	ابن نباتة المصري	155
234، 198، 197، 159	أبو نواس	156
242، 240، 239	نقلو مرتيل	157
❖ السين		
224، 223	ابن سودة	158
255	ابن سينا	159
288	سليم الأول	160
16	سليمان بن يوسف بن إبراهيم الحسناوي	161
295	سليمان القانوني	162
301	سليمان بن شمعون دوران	163
298	السّمّوال	164
270	سمويل (صمويل)	165
305	سنان بن الفتح الحرّاني	166
17، 20، 23، 99، 117، 119، 129، 145، 218، 219، 220، 251، 252، 253، 256	السّنوسي	167
174	سعد بن علي بن يوسف بن	168

	نصر المستعين بالله	
36	سعيد بن محمد بن أبي سالم المريني	169
141، 223، 224، 225، 226، 209، 228، 229، 233، 234، 315	سعيد بن علي الحامدي	170
21، 22، 58، 69، 70، 236، 245، 246، 247، 248، 249، 250، 308، 311	ابن سراج الغرناطي	171
246، 255، 258	السرقسطي	172
100، 109، 200، 202، 208، 214، 248، 256، 264، 268	السخاوي، محمد بن عبد الرحمن	173
❖ العين		
274، 276	عامر بن علي الشماخي	174
14، 28، 31، 41، 42، 48، 49، 54، 55، 56، 57، 58، 59، 60، 61، 63، 64، 67، 68، 69، 137، 168، 173، 177، 179، 182، 183، 185، 189، 193، 194، 199، 246، 249، 315	ابن عاصم الغرناطي، أبو يحيى	175
34، 57، 58، 59، 63، 249	ابن عاصم الأب، أبو بكر	176
57، 58	ابن عاصم العم، أبو يحيى	177
271	العائل الزباني	178
13	ابن العباس العبادي	179
99	أبو العباس الفشتالي	180
109	ابن العباس الصغير	181
146، 167، 168، 170، 211، 265، 266، 267، 270، 271، 272	عبد الباسط الظاهري	182
16	عبد الجبار الفجيجي	183
38	عبد الواحد الحميدي	184
16	عبد الواحد، أبو مالك	185

19	عبد الوارث اليلصوتي	186
297	عبد الوهاب الزقاق	187
14	عبد الحق السكوني	188
119، 42	أبو عبد الله بن الأحمر	189
21	عبد الله الهبطي	190
18	عبد الله الورياغلي	191
هـ، 5، 35، 344، 348	عبد الله كنون	192
101	عبد الله بن محمد العياشي	193
26، 236، 238، 239، 240، 241، 242، 244، 309، 310، 312	عبد الله التّرجمان	194
134	ابن عبد ربّه	195
20، 25	عبد الرحمن الأخضرّي	196
293	عبد الرحمن حميدة	197
99	عبد الرحمن المجدولي	198
37	عبد الرحمن بن موسى الوجديدي	199
99	عبد الرحمن القوّري	200
25، 237، 294، 295، 296، 297، 312	عبد الرحمن التّاجوري الطّرابلسي	201
224	عبد الرحمن التّمنارتي	202
18، 23، 33، 43، 44، 45، 99	عبد الرحمن الثّعالبي	203
31، 40	عبد العزيز الفشتالي	204
296	عبد العزيز القسنطيني	205
108	عبد القادر الجيلاني	206
200	العزّ المقدسي	207
240	عيسى ابن مريم (عليه السّلام)	208
23	ابن عطية الغرناطي	209
261	عليّ اللّخمي	210
265	عليّ بن محمد الحسيني	211

212	علي بن محمد التّمكروتي	44، 48، 130، 131، 132، 133، 134، 135، 137، 296، 138
213	علي بن ميمون الغماري	19
214	علي بن سعد	174
215	علي بن عزيز	255
216	علي بن قاسم الرّقاق	23
217	عمر كحالة	294
218	عمرو بن جميع	276
219	عمرو بن سليمان الشّيطمي	20، 102
220	عمر بن الخطّاب	20، 265، 266
221	أبو عمرو عثمان الحفصي	16، 78، 96، 170، 175، 202، 203، 204، 264، 265، 266، 267، 268، 276، 310، 311، 312
222	ابن عربي الحاتمي	152
223	ابن عروس التّونسي	20
224	ابن عسكر	د، 100، 117، 130، 232، 234
❖ الفاء		
225	أبو فارس الوريكلي	100، 102
226	أبو فارس عبد العزيز	350
227	ابن الفارض	152، 153، 229
228	ابن فركون الغرناطي	28، 30، 32، 163
229	ابن الفتوح التّلمساني	22
230	أبو الفتوح المراغي الحسيني	256
231	أبو الفتوح التّونسي	32
❖ الصاد		
232	صالح بن نوح التّدميري	274
233	ابن الصّباغ المكناسي	26
234	صولة بن إبراهيم الغدامسي	237، 277، 278، 279

235	ابن سعد التلمساني	13
❖ الغاف		
236	القائم بأمر الله السعدي	284، 281، 125
237	قاسم التويري	256
238	أبو القاسم التويري	200
239	قاسم بن سعيد العقباني	109
240	أبو القاسم سعد الله	76، 71، 11
241	أبو القاسم القسنطيني	265
242	ابن القاضي المكناسي	د، 248، 230، 224، 223، 216
243	القاضي عياض	هـ، 343، 131، 63
244	قذري طوقان	305
245	قيس بن الملوّح	95، 94
246	القلصادي	16، 21، 25، 44، 161، 162، 236، 237، 247، 255، 256، 257، 258، 259، 260، 261، 262، 263، 265، 308، 312
❖ الرءاء		
247	راشي - Rashi	300
248	الرّبيع بن حبيب الأزدي	283
249	ريم	264
250	الرّصّاع، أبو عبد الله	16
251	الرّصّاع، محمّد قاسم	99
❖ الشّين		
252	شاويل	100
253	ابن الشّاط الهنديسي	21
254	ابن الشّماع	هـ، 311، 268، 264، 240
255	الشّرّان، محمّد بن إبراهيم	49، 116، 141، 162، 163، 164، 233، 234، 257، 314، 315

119، 42	الشريف العقيلي	256
❖ التاء		
234، 115، 94	أبو تمام	257
هـ، 59، 101، 106، 162، 217، 246، 251	التبكتي	258
17، 24، 48، 99، 109، 110، 111، 112، 115، 116، 139، 145، 148، 163، 313، 314	التنسي	259
❖ الحاء		
135، 134	خالد بن عيسى البلوي	260
245	خوان الثاني	261
112	ابن خولة، محمد بن موسى الثاني	262
257	أبو الخير الفاسي المكي	263
213، 175، 25	ابن خلدون	264
26، 28، 30، 35، 36، 40، 141، 167، 168، 169، 170، 199، 200، 201، 2012، 203، 204، 205، 206، 207، 208، 209، 210، 211، 212، 213، 214، 232، 233، 234، 235، 265، 310، 313، 314، 315	ابن الخلف القسنطيني	265
95	الخليل بن أحمد الفراهيدي	266
22، 102، 255، 256	خليل بن إسحاق	267
هـ، 61، 63، 115، 126، 258، 261، 262، 263	ابن الخطيب، لسان الدين	268
37، 141، 230، 231، 232، 233، 314	ابن الخطيب الزرويلي	269
❖ الغين		
225	الغالب بالله السعدي	270
37، 305	ابن غازي المكناسي	271
113	ابن غالية	272

فهرس البلدان



الرقم	البلد	الصفحة
❖ الهمة		
1	أديكيس	290
2	أوروبا	291، 289، 288، 286، 240
3	آيت داود	290
4	إيطاليا	309، 292، 291، 289
5	أكادير	10
6	الأندلس	هـ، 7، 10، 11، 12، 17، 22، 23، 33، 41، 49، 50، 52، 55، 56، 58، 61، 67، 137، 163، 167، 168، 170، 174، 175، 178، 182، 183، 208، 233، 238، 240، 245، 247، 255، 256، 257، 259، 262، 263، 270، 272، 298، 310
7	أنقيرة	57
8	إسبانيا	292
9	الإسكندرية	258
10	إستنبول	303، 302، 135
11	أصلا	235، 128، 10
12	إشبيلية	298، 270
❖ الباء		
13	باجة	258
14	بجاية	246، 133، 132، 101، 71، 15، 10
15	بولونيا	309، 291، 289
16	بنزرت	132

10	البريجة	17
❖ المجمع		
117	الجريد	18
❖ النون		
277، 275، 274	نفوسة	19
303، 302، 301، 251، 132، 37، 11، هـ، د	الجزائر	20
288، 275	جزيرة جربة	21
❖ الدال		
32	دمشق الشام	22
❖ الهاء		
306	الهند	23
290، 288	هسكورة	24
❖ الواو		
296، 132، 130	وادي درعة	25
36	وادي المخازن	26
290، 288	واوزكيت	27
258، 161، 146، 145، 143، 132، 112، 101، 37، 10	وهران	28
❖ الحاء		
292، 290، 287	حاحا	29
❖ الطاء		
10	طنجة	30
294، 134، 132، 99، 10، هـ	طرابلس	31
❖ الباء		
275	تيواجن	32
275، 274	يفرن	33
❖ الكاف		
232	كتامة	34

❖ الأام		
238	لاندرة	35
274 هـ	ليبيا	36
❖ الميم		
49، 50، 51، 52، 167، 168، 169، 173، 174، 176، 270، 298	مالقة	37
14، 73، 75، 77، 94، 97، 101، 143، 144	المدينة المنورة	38
10	المهدية	39
37	مزگران	40
238، 239	ميورقة	41
249	المرية	42
14، 75، 143، 303	مكة المكرمة	43
37	مكناسة	44
112	مليانة	45
112، 298	مستغانم	46
34، 71، 72، 73، 74، 75، 77، 74، 75، 101، 103، 104، 105، 150، 160، 174، 175، 200، 202، 208، 255، 288، 291، 295، 296	مصر	47
101، 104	مصراتة	48
15، 17، 131، 132، 133، 135، 223، 225، 231، 232، 297	مراكش	49
245	مرسية	50
7، 240، 265	المغرب الأدنى	51
7، 10	المغرب الأوسط	52
هـ، و، 7، 10، 28، 29، 30، 223، 230، 233، 261، 287، 290، 291، 293، 296، 302	المغرب الأقصى	53
❖ النون		
288	نابولي	54

❖ السّ		
55	سبّة	24، 12، 10
56	سوس	288، 225، 130
❖ الع		
57	عين الزميت	268
58	عناية	10
❖ الفاء		
59	فاس	د، 8، 14، 15، 17، 21، 22، 42، 99، 100، 103، 119، 132، 223، 286، 287، 296، 312
❖ الصاد		
60	صقلية	244، 239
❖ الغاف		
61	قابس	132
62	القدس الشريف	13، 75، 174، 175، 176، 199، 200
63	قرطبة	245
64	قسنطينة	199
65	القسنطينية	291
66	القصر الكبير	232
❖ الرّاء		
67	روما	291، 292، 309
❖ الشّين		
68	شفشاون	230، 286
❖ التّاء		
69	تاجوراء	294
70	توات	20، 111
71	تونس	8، 10، 12، 14، 30، 32، 71، 72، 74، 77، 101، 135، 143، 144، 167، 168، 169، 170، 199، 200، 201، 202، 233

238، 239، 240، 246، 247، 250، 255، 275، 261، 265، 266، 268، 274، 275، 276، 288، 289، 296		
274	تطاوين	72
24، 45، 132، 286، 287	تطوان	73
238	تيونسية	74
224	تيلكات	75
290، 292	تكوليت	76
274	تلات	77
د، هـ، 8، 9، 10، 11، 13، 14، 15، 16، 20، 22، 32، 100، 101، 103، 109، 111، 112، 117، 143، 144، 216، 217، 219، 220، 227، 247، 250، 251، 255، 256، 260، 266، 270، 271، 272، 298، 299، 300	تلمسان	78
112	تمزغان	79
130، 132	تمكروت	80
288	تتبكتو	81
10	تنس	82
45، 131، 133، 135، 288	تركيا	83
❖ الغين		
284	غدامس	84
7، 9، 14، 30، 34، 40، 42، 49، 50، 51، 55، 57، 58، 59، 60، 61، 119، 138، 162، 167، 173، 174، 175، 178، 145، 246، 247، 248، 249، 255، 256، 258، 272، 286، 287، 298	غرناطة	85

1- القرآن الكريم (رواية ورش عن نافع).

قائمة المصادر والمراجع العربية

❖ الهمة

- 2- أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، دار البصائر، الجزائر، ط3، 2007م.
- 3- الأدلة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، أبوعبد الله محمد بن أحمد ابن الشّماع، تحقيق: الطّاهر بن محمد المعموري، دار العربية للكتاب، د. ط، 1984م.
- 4- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أبو العباس المقرئ التلمساني، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد العظيم شلبي، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، د. ط، 1358هـ/1939م.
- 5- أحمد زروق والزّروقية، علي فهمي خشيم، دار المدار الإسلامي، ط3، 2000م.
- 6- إيضاح المكنون في الذّيل على كشف الظّنون، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البابانيّ البغداديّ، تحقيق: محمد شرف الدّين بالتّقايا رئيس أمور الدّين، والمعلم رفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت.
- 7- إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام أبي عبد الله مالك، أحمد بن يحيى الونشريسي، تحقيق: الصّادق بن عبد الرّحمن الغريانيّ، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ/2006م.
- 8- الإيقاع في الشعر العربيّ، عبد الرّحمن الوجي، دار الحصاد للنّشر والتّوزيع، دمشق، ط1، حزيران 1989م.
- 9- الأتس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليميّ الحنبليّ، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان، د. ط، د. ت.
- 10- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، دار الفكر العربيّ، القاهرة، د. ط، 1418هـ/1998م.

- 11- الأسلوبية - مدخل نظري ودراسة تطبيقية، فتح الله أحمد سليمان، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1428هـ / 2008م.
- 12- أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي (تنظير وتطبيق على السور المكية)، مثني كاظم صادق، كلمة للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 1436هـ / 2015م.
- 13- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري السلاوي، تحقيق: جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب ، الدار البيضاء، ط1، 1418هـ / 1997م.
- 14- الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1980م.
- 15- أعلام ليبيا، الطاهر أحمد الزاوي، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 2004م. الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام، العباس بن إبراهيم السملالي، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1413هـ / 1993م.
- 16- الأصول (دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب)، تمام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، د. ط، 1420هـ / 2000م.
- 17- أضواء على ابن جبش التازي، أبو بكر البوخصيي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1396هـ / 1976م.

❖ الباء

- 18- باقة السّوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، عاصمة دولة بني زيّان، الحاج محمد بن رمضان شاوش، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2011.
- 19- بدائع السلك في طبائع الملك، أبو عبد الله ابن الأزرق، تحقيق: علي سامي النجار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط1، 1429هـ / 2008م.
- 20- بيبليوغرافيا الإباضية، أم أنثس كاسترس، ترجمة: موحّد ومادي، خديجة كرير، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، ط1، 1334هـ / 2012م.
- 21- بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث)، يوسف حسين بكار، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط2، 1982م.

22- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ابن مريم الملبتي المديوني التلمساني، تحقيق: عبد القادر بويابة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1435هـ / 2014م.

❖ المجمع

- 23- جمهرة الأمثال، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1408هـ / 1988م.
- 24- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، أبو زيد بن محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق: علي محمد البجادي، مطبعة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، د. ت.
- 25- جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، أبو يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، تحقيق: صلاح جرار، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د. ط، 1410هـ / 1989م.
- 26- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، أحمد بن القاضي المكناسي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، د. ط، 1973م.

❖ الدال

- 27- دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، تحقيق: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ط2، 1397هـ / 1977م.
- 28- ديوان أحمد بن القسم الخلوف الأندلسي، المطبعة السليمية، بيروت، 1872م.
- 29- ديوان جنى الجنّتين في مدح خير الفرقتين، ابن الخلوف القسنطيني، تحقيق: العربي دحو، منشورات اتحاد الكتاب الجزائري، الجزائر، 2004م.
- 30- ديوان طرفة بن العبد، شرح وتقديم: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1423هـ / 2002م.
- 31- ديوان ابن نباتة المصري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت.
- 32- ديوان أبي نواس الحسن بن هاني الحكمي، تحقيق: إقبال قاغور، دار النشر فرانز شتايز قيسباون، بنشوتغارد، ط1، 1408هـ / 1988م.

- 33- ديوان سيدي لخضر بن خلوف، تحقيق: محمد بن الحاج الغوثي بخوشة، ابن خلدون للنشر والتوزيع، تلمسان، د. ط، د. ت.
- 34- ديوان ابن الفارض، دار صادر، بيروت، د. ط، د. ت.
- 35- ديوان ابن فركون، تحقيق: محمد ابن شريفة، مطبوعات أكاديمية، المملكة المغربية، الرباط، المغرب، ط1، 1407هـ / 1987م.
- 36- ديوان قيس بن الملوّح، دراسة وتعليق: يسري عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ / 1999م.
- 37- ديوان شهاب الدين ابن الخلوف، تحقيق: هشام بوقمرة، الدار العربية للكتاب، د. ط، 1988م.
- 38- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد ألتنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1425هـ / 2005م.
- 39- دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، محمد بن يوسف الزيّاني، تحقيق: البوعبدلي المهدي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013م.
- 40- الدعاية إلى سبيل المؤمنين، أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، المطبعة السلفية ومكتبتها، د. ط، 1342هـ / 1923م.
- 41- درة الحجال في أسماء الرجال، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي، تحقيق: محمد الأحمد أبو النور، مكتبة التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس، د. ط، د. ت.

❖ إهداء

- 42- هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، وكالة المعارف، إستنبول، تركيا، د. ط، 1955م.

❖ الواو

- 43- الوافي بالأدب العربي بالمغرب الأقصى، محمد بن تاويت، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1404هـ / 1984م.

- 44- وفيات المنشريسي، أحمد بن يحيى المنشريسي، تحقيق: محمد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر، د. ط، د. ت.
- 45- وفيات الرسموكي، تحقيق: محمد المختار السوسي، مطبعة الساحل، الرباط، ط1، 1408هـ / 1988م.
- 46- وصف إفريقيا، الحسن بن محمد بن الوزان الفاسي، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأحضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1983م.

❖ الزايم

- 47- زهر الآس في بيوتات أهل فاس، عبد الكبير بن هاشم الكتاني، تحقيق: علي بن المنتصر الكتاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1422هـ / 2002م.

❖ الحاء

- 48- حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار، أبو القاسم بن محمد بن إبراهيم الغساني (الشهير بالوزير)، تحقيق: محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1410هـ / 1990م.
- 49- الحوار الإباضي المالكي، صولة الغدامسي وأبو العبّاس أحمد بن سعيد الشماخي، تحقيق: العربي بن علي بن ثاير، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، ط2، 1435هـ / 2014م.
- 50- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، شكيب أرسلان، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط1، 1355هـ / 1936م.
- 51- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)، أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ط، د. ت.
- 52- الحركة الفكرية بالمغرب الأقصى في عهد السعديين، محمد حجي، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، د. ط، د. ت.
- 53- حركة التأليف عند العرب، أمجد الطرابلسي، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، ط2، 1376هـ / 1956م.

❖ الطاء

- 54- طبقات الحضيكي، محمد بن أحمد الحضيكي، أحمد بومزكو، مطبعة النجّاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1427هـ / 2006م.
- 55- طلوع سعد السّعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، الآغا بن عودة المزاري، تحقيق: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990م.

❖ الباء

- 56- اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين، عطا عليّ محمد شحاتة ربه، دار الكلمة ودار الشّفيق للطباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، سورية، ط1، 1999م.
- 57- اليهود في مصر، قاسم عبده قاسم، دار الشّروق، القاهرة، ط1، 1993م.
- 58- اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين (7 - 9هـ / 13 - 15م)، فاطمة بوعمامة، مؤسّسة كنوز الحكمة للنّشر والتّوزيع، الأبيار، الجزائر، د. ط، 1432هـ / 2011م.

❖ الكاف

- 59- الكافي في علمي العروض والقوافي، شهاب الدّين أحمد بن عباد القنائيّ المعروف بالخواص، تحقيق: عبد المقصود محمد عبد المقصود، مكتبة الثقافة الدّينيّة، القاهرة، ط1، 1428هـ / 2006م.
- 60- الكناش، أحمد زروق، تحقيق: عليّ فهمي خشيم، المنشأة الشّعبية للنّشر والتّوزيع والإعلان، ليبيا، 1980م.
- 61- كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، دار الإحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت.
- 62- كتاب العمر في المصنّفات والمؤلّفين التّونسيّين، حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة وإكمال: محمد العروسيّ المطويّ وبشير البكّوش، دار الغرب الإسلاميّ، ط1، 1425هـ / 2005م.

❖ اللام

- 63- لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ.
64- اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998م.

❖ الميم

- 65- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ابن أبي دينار، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ط1، 1286هـ.
66- مؤرخو الشرفاء، ليفي بروفنسال، ترجمة: عبد القار الخلافي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، د. ط، 1397هـ / 1977م.
67- المؤخون الإباضيون (في شمال إفريقيا)، تادايوش ليتيفسكي، ترجمة: ماهر جزار وبما جزار، مؤسسة تالوت الثقافية، د. ط، 2007م.
68- مؤرخون من ليبيا - مؤلفاتهم ومناهجهم (عرض ودراسة)، علي مصطفى المصراي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، ط1، 1977م.
69- مجموعة الرسائل المنيرية، تحقيق: محمد منير عبده آغا الدمشقي، المطبعة المنيرية، د. ط، 1343هـ.
70- المدائح النبوية حتى نهاية العصر الملوكي، محمود سالم محمد، دار الفكر، دمشق، ط1، 1417هـ.
71- موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجيل، بيروت، ط1، 1425هـ / 2005م.
72- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1999م.
73- موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، تموز / يوليو 1993م.
74- موسوعة علماء الرياضيات (حياتهم وآثارهم)، موريس شريل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991م.
75- موسوعة علماء العرب والمسلمين، محمد فارس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1993م.

- 76- موسوعة التصوف الإسلامي، رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1999م.
- 77- موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1952م.
- 78- من أعلام تلمسان (مقاربة تاريخية - فنية)، محمد مرتاض، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، د. ط، د. ت.
- 79- مناهج النقد الأدبي، يوسف وجليسي، جسور للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط3، 1431هـ / 2010م.
- 80- مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، تحقيق: عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، د. ط، د. ت.
- 81- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، فيفري 2008م.
- 82- المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، أحمد بك النائب الأنصاري، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب، ليبيا، د. ط، د. ت.
- 83- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، المستشرق زامبور، أخرجه: زكي محمد حسن بك، حسن أحمد محمود، سيّدة إسماعيل كاشف، حافظ أحمد حمدي، أحمد ممدوح حمدي، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، د. ط، 1400هـ / 1980م.
- 84- معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط2، 1400هـ / 1980م.
- 85- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1435هـ / 2004م.
- 86- معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 87- معجم التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، د. ط، د. ت.
- 88- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أبو العباس أحمد الونشريسي، تحقيق: جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجّي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب ودار الغرب الإسلامي، بيروت، د. ط، 1401هـ / 1981م.
- 89- معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، د. ط، 1410هـ / 1989م.

- 90- مصادر الفقه المالكي - أصولا وفروعا في المشرق والمغرب قديما وحديثا -، أبو عاصم بشير ضيف بن أبي بكر بن البشير بن عمر العربي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1429هـ / 2008 م.
- 91- المقامات الأندلسية من القرن الخامس إلى القرن التاسع (دراسة استقصائية - تاريخية - تحليلية - أسلوبية)، شريف علاونة، وزارة الثقافة، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 1429هـ / 2008م.
- 92- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للنشر، مصر، ط6، مارس 2014م.
- 93- المقصور على مآثر الخليفة المنصور، أحمد بن القاضي، تحقيق: محمد رزوق، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، د. ط، 1986م.
- 94- مظهر النور الباصر، أبو الحسين ابن فركون، تحقيق: محمد ابن شريفة، د. ط، 1412هـ / 1991م.
- 95- المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1398هـ / 1978م.

❖ النون

- 96- النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، ط2، د. ت.
- 97- نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر، مؤلف مجهول، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار حسان، دمشق، ط1، 1404م.
- 98- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط1، 1389هـ / 1989م.
- 99- نيل الأمل في ذيل الدول، زين الدين عبد الباسط الظاهري، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ / 2002م.
- 100- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1408هـ / 1988م.
- 101- نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، أحمد بن الحسين النائب الأنصاري، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، د. ط، د. ت.
- 102- النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، أحمد مختار عمر، منشورات الجامعة الليبية، 1391هـ / 1971م.

103- نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمد بن الطيب القادري، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، د. ط، 1397هـ / 1977م.

❖ التاء

- 104- تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، محمد بن عبد الكريم المغيلي، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ / 1994م، ص13.
- 105- التاج والإكليل لمختصر خليل، أبو عبد الله المواق المالكي، بهامش (مواهب الجليل في شرح مختصر خليل للحطّاب)، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1416هـ / 1994م.
- 106- تاريخ الأدب الجزائري، محمد الطّمار، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، د. ط، 2006م.
- 107- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، أغناطيوس يوليانونفتش كراتشكوفسكي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1963م.
- 108- تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، روبر بارنشفيك، ترجمة: حمادي السّاحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1988.
- 109- تاريخ بني زيّان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيّان)، محمد بن عبد الله التّنسي، تحقيق: محمود آغا بوعياض، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرّعاية، الجزائر، د. ط، 2011م.
- 110- تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1384هـ / 1965م.
- 111- تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، صالح بن قرية، سامية بوعمران، د:خالف محمد نجيب، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، ط1، 2007م.
- 112- تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مبارك بن محمد الهلالي الميلي، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، د. ط، 1964م.
- 113- تاريخ الجزائر الثقافي (1500 - 1830)، أبو القاسم سعد الله، دار البصائر، الجزائر، ط6، 2009م.

- 114- تاريخ الدولتين الموحديّة والحفصيّة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، د. ط، 1966.
- 115- تاريخ تطوان، محمد داود، معهد مولاي الحسن، د. ط، 1339هـ / 1959م، تطوان.
- 116- التداوليّة والحجاج (مداخل ونصوص)، صابر الحباشة، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سورية، ط1، 2008م.
- 117- تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي، محمد همام، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط1، 2017م.
- 118- توشيح الديباج وحلية الابتهاج، بدر الدين محمد بن يحيى بن عمر القرافي، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1425هـ / 2004م.
- 119- تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية النّص)، محمد مفتاح، دار الشؤون للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د. ط، 1985م.
- 120- تحفة الأريب في الردّ على أهل الصليب، عبد الله الترجمان الميورقي، تحقيق: عمر رفيق الداعوق، دار البشائر الإسلامية، ط1، 1408هـ / 1988م.
- 121- تلمسان في العهد الزيّاني، عبد العزيز فيلاي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعيّة، الغاية، الجزائر، 2002م.
- 122- تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم محمد الحفناوي، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، د. ط، 1323هـ / 1906م.
- 123- التصوف والبدعة بالمغرب طائفة العاكزة ق16 - 17م، عبد الله نجمي، مطبعة النّجاح الجديدة، الرباط، ط1، 1422هـ / 2000م.
- 124- تراجم لبيبة (دراسة في حياة وآثار بعض الفقهاء والأعلام من ليبيا قديما وحديثا)، جمعة محمود الزريقي، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، حزيران / يونيو 2005م.
- 125- تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1994م.
- 126- تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، قدرى حافظ طوقان، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1374هـ / 1954م.
- 127- التّرجمة بين النظريّة والتّطبيق (مبادئ ونصوص وقاموس للمصطلحات الإسلامية)، محمد أحمد منصور، دار الكمال للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 1427هـ / 2006م.

- 128- التّرجمة ونظرياتها (مدخل إلى علم التّرجمة)، أمارو أورتادو ألبير، ترجمة: علي إبراهيم المنوفي، المركز القومي للتّرجمة، القاهرة، ط1، 2007م.
- 129- التّرتيب في الصّحيح من حديث الرّسول، أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوريثاني، تحقيق: نور الدّين عبد الله بن حميد السّالمي، مكتبة مسقط، مسقط، عمان، ط1، 1423هـ / 2003م.
- 130- التّذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار، أبو عبد الله محمّد بن خليل غلبون الطّرابلسي، تحقيق: الطّاهر أحمد الزّاوي الطّرابلسي، القاهرة، 1339هـ.

❖ الثّاء

- 131- ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، أبو جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، تحقيق: عبد الله العمراني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ.
- 132- الثّغر الجمانّي في ابتسام الثّغر الوهراني، أحمد بن محمّد بن علي بن سحنون الرّاشدي، تحقيق: الشّيخ المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنّشر والتّوزيع، المحمّديّة، الجزائر، ط1، 2013م.

❖ الحاء

- 133- اختصار الأخبار عمّا كان بسببته من سني الآثار، محمّد بن القاسم الأنصاري السّبتي، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ط2، الرّباط، 1403هـ / 1983م.
- 134- الخطاب الشّعري عند فقهاء المغرب العربي، محمّد مرتاض، دار الأوطان للطّباعة، النّشر، التّوزيع والتّرجمة، الجزائر، ط1، 2009م.
- 135- خلال جزولة، محمّد المختار السّوسي، المطبعة المهدية، تطوان، المغرب، د. ط، د. ت.
- 136- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمّد أمين بن فضل الله المحبّي، المطبعة الوهبيّة، القاهرة، 1284هـ.
- 137- ابن الخلف القسنطيني، وديوانه جنى الجنّتين في مدح خير الفرقتين (المعروف بديوان الإسلام)، العربي دحو، دار المعية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط3، 2013م.

❖ الرّاء

- 138- رجالات العلم العربي في سوس من القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن الرابع عشر، محمّد المختار السّوسي، ط1، 1409هـ / 1989م.
- 139- روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، أحمد بن محمّد المقرّي، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1403هـ / 1983م.
- 140- روضة الأعلام بمنزلة العربيّة من علوم الإسلام، أبو عبد الله ابن الأزرق الغرناطي، تحقيق: سعيدة العلمي، منشورات كلية الدّعوة الإسلاميّة، طرابلس، ط1، 1429هـ / 1999م.
- 141- روضة النّسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخّرين، محمّد بن سعد الأنصاريّ التلمساني، تحقيق: يحيى بوعزيز، عالم المعرفة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط. خاصّة، 2009م.
- 142- رحلة عبد الباسط بن خليل، نشرها روبر بارنشفيك (القسم العربي).
- 143- الرّحلة العياشيّة، عبد الله بن محمّد العياشي، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السّويدي للنّشر والتّوزيع، الإمارات العربيّة المتّحدة، ط1، 2006م.
- 144- رحلة القلصادي، أبو الحسن علي القلصاديّ الأندلسي، تحقيق: محمّد أبو الأجفان، الشركة التّونسيّة للتّوزيع، تونس، د. ط، 1978م.
- 145- رسائل سعديّة، عبد الله كنون، دار الطّباعة الملكية، تطوان، المغرب، د. ط، 1373هـ / 1954م.

❖ الذاك

- 146- ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، عبد الله كنون، تقديم: محمّد بن عزّوز، دار ابن حزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت لبنان، ط1، 1430هـ / 2010م.

❖ السّين

- 147- سيكولوجية الإبداع في الفنّ والأدب، يوسف مخائيل أسعد، مطابع الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د. ط، 1986م.

148- سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1996م.

❖ الشين

- 149- الشامل في المناهج وطرائق التعليم والتعلم الحديثة، شادية عبد الحليم تمام وصلاح أحمد فؤاد صلاح، مركز دبيونو لتعليم التفكير، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 2016م.
- 150- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد بن عمر بن قاسم بن مخلوف، خرج حواشيه وعلق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2010م.
- 151- شرح ديوان أبي تمام، الخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1414هـ / 1994م.
- 152- شرح المنهج المنتخب إلى قواعد المذهب، أحمد بن علي المنجور، تحقيق: محمد الشيخ محمد الأمين، دار عبد الله الشنقيطي للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، د. ت.
- 153- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط1، 1410هـ / 1989م.

❖ الصاد

- 154- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، دار الكتب المصرية، القاهرة، د. ط، 1430هـ / 1922م.
- 155- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ.
- 156- صفوة من انتشار من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير الإفرائي، تحقيق: عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1425هـ / 2004م.

❖ الضاد

157- الضوء الأملع لأهل القرن التاسع، محمد بن محمد السخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ط، د. ت.

❖ الغين

158- غنيمّة الوافد وبغية الطالب الماجد، عبد الرحمن الثعالبي، تحقيق: محمد شايب شريف تحقيقه، دار ابن حزم للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ / 2005م.

159- غرناطة في ظلّ بني الأحمر، يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ط1، 1413هـ / 1993م.

❖ العين

160- عيوب النفس ودواؤها، أبو العباس أحمد بن أحمد زروق البرنسي الفاسي، تحقيق: محمد طيّب، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 2010م.

161- علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1419هـ / 1998م.

162- علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة (منهجيتها - تطورها - قيمتها العلميّة)، عبد الله المرابط الترغي، مطبعة التّجّاح الجديدة، الدّار البيضاء، ط1، 1420هـ / 1999م.

163- العلوم عند العرب والمسلمين، نوال حسن البحطيبي، دار الخليج للنشر والتوزيع، عمّان، 2017م.

164- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للطباعة والتوزيع والنشر، ط5، 1401هـ / 1981م.

165- عتبات النصّ البنية والدلالة، عبد الفتّاح الحجمري، منشورات الرّابطة، الدّار البيضاء، ط1، 1996م.

❖ الغاء

- 166- فهرس أحمد المنجور، أحمد المنجور، تحقيق: محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، د.ط، 1396هـ / 1976م.
- 167- فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزنة العامة بالرباط، ي. س. علوش وعبد الله الرجراجي، منشورات الخزنة العامة للكتب والوثائق، ط2، 1421هـ / 2001م، ج2، الجزء الثاني (1921-1953).
- 168- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيكات والمسلسلات، عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، اعتناء: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1402هـ / 1982م.
- 169- فهرست الرصاع أبي عبد الله محمد الأنصاري، تحقيق: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، د. ط، د. ت.
- 170- الفوائد الجمة بإسناد علوم الأمة، أبو زيد عبد الرحمن التمارتي، تحقيق: اليزيد الراضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1428هـ / 2007م.
- 171- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000م.
- 172- في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات)، عبد الله صولة، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011م.
- 173- في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، د. ط، د. ت.
- 174- فن الترجمة، محمد عناني، الشركة المصرية العاملة للنشر، لونجمان، ط5، 2000م.
- 175- فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط1، 1427هـ / 2006م.
- 176- فتاوى قاضي الجماعة أبي القاسم بن سراج الأندلسي، جمع ودراسة وتحقيق: محمد أبو الأجفان، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، د. ط، 1420هـ / 2000م.

❖ الغاف

- 177- القبائل الأمازيغية (أدوارها - مواطنها - أعيانها)، بوزياني الدراجي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر، د. ط، 2007م.
- 178- قواعد التصوف وشواهد التعرف، أبو العباس أحمد زروق الفاسي، تحقيق: نزار حمادي، المركز العربي للكتاب، الشارقة، د. ط، د. ت.
- 179 - قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، منشورات مكتبة النهضة، ط3، 1967م.

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية



❖ C

1- Christian- Muslim Relations A Bibliographical History, David Tomas- John Chesworth- John Azumah- Stanislaw Grodz- Andrew Newman- Douglas Pratt, Brill, Leiden- Boston, 2014, Vol:06(Western Europe).

❖ D

2- Deux récits de voyage inédits en Afrique du nord au xv siècle, Abd Albasit B. Halil et adorne, Robert Brunschving, Paris, V-I la rose éditeur, 1936.

❖ J

3- The jewish Quartely Review, University of Pennsylvania Press, Vol:6, N:02(Jan,1984).

قائمة الرسائل الجامعية



- 1- أهل الذمة في الدولة الزيانية (633 - 962هـ / 1235 - 1554م) (دراسة سياسية، اقتصادية، اجتماعية وثقافية)، عبد الصمد حمزة، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة أحمد ابن بلّة 1، وهران، 1437 - 1438هـ / 2016 - 2017م.
- 2- الانزياح التركيبي والدلالي في ديوان محمد جربوعة، سامية شكال، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 1436 - 1437هـ / 2015 - 2016م.
- 3- الشعر الصوفي في ضوء الدراسات النقدية الحديثة (ابن الفارض أنموذجا)، بولعشار مرسللي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، كلية الآداب والفنون، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة أحمد بن بلّة 1، وهران، 2014 - 2015م.

قائمة الرّوريات



- 1 - أجواء المعرفة، مكتبة عبد العزيز العامّة، العدد: 83، السّنة: 20(شّوال 1437هـ / يوليو 2016م).
- 2 - الأصالة، وزارة التّعليم الأصليّ والشّؤون الدّينيّة، الجزائر، العدد: 26، السّنة: 4(رجب، شعبان 1395هـ / جويلية، أوت 1975م).
- 3 - إضاءات نقدية في الأدبين العربيّ والفارسيّ، جامعة آزاد الإسلامية، إيران، العدد: 01، السّنة: 01(ربيع الأوّل 1390هـ / آذار 2011م).
- 4 - دعوة الحقّ، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلامية، الرّباط، المغرب.
- العدد: 3، السّنة: 7(ديسمبر 1965 / رجب 1383هـ).
- العدد: 2، السّنة: 11(رمضان 1387هـ / دجنبر 1967م).
- العدد: 3(270)، السّنة: 29.
- العدد: 5(277)، السّنة: 30(جمادى الأولى 1410هـ / دجنبر 1989م).
- العدد: 5(286)، السّنة: 32(صفر، ربيع 1، ربيع 2 / شتنبر، أكتوبر، نونبر 1991).
- 5 - دورية كان التاريخيّة الإلكترونيّة، السّنة: 4، العدد: 13 (سبتمبر - أيلول - 2011م / شّوال 1432هـ).
- 6 - حوليات الجامعة التّونسيّة، تونس، العدد: 09، السّنة: 1972م.
- 7 - حوليات القدس، مؤسّسة الدّراسات المقدسيّة، القدس، العدد: 14، خريف 2012م.
- 8 - مجلة الآداب، كلّية الآداب والعلوم والتّربيّة، جامعة عجلون، الأردن، العدد: 110، السّنة: 1436هـ / 2014م.
- 9 - مجلّة جامعة الأنبار للّغات والآداب، جامعة الأنبار، العراق، العدد: 3، السّنة: 2010م.
- 10 - المجلّة الجامعة، جامعة طرابلس، ليبيا، العدد: 15، المجلد: 01.
- 11 - مجلّة كلّية الآداب بني ملال، جامعة السّلطان مولاي سليمان(كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة)، بني ملال، العدد: 09، السّنة: 2008م.
- 12 - المناهل، وزارة الشّؤون التّقافيّة، الرّباط، المغرب، العدد: 25، السّنة: 9(صفر 1403هـ / 1982م).
- 13 - مقاليد، كلّية الآداب واللّغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد: 2، السّنة: ديسمبر 2012م.

فهرس الموضوعات



الرقم	العنوان	الصفحة
1	إهداء	
2	شكر	
3	اقتباس	
4	مقدمة	أ - و
5	مدخل	46 - 7
	1 الحياة السياسية	7
	2 الحياة الثقافية	11
	3 الحياة الفكرية	18
	4 الحياة الأدبية	28
6	الفصل الأول	139 - 47
	من أعلام النثر في المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين	
	1 الفقيه عمر بن الحاج المالقي	49
	2 ابن عاصم الغرناطي	57
	3 أبو عصيدة البجائي	71
	4 أحمد زروق	98
	5 أبو عبد الله التنسي	109
	6 ابن يجيش التازي	117

130	علي بن محمد التّمكروتي	7	
235 - 140	الفصل الثاني من أعلام الشّع في المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين		
142	إبراهيم التّازي	1	
162	محمد بن إبراهيم الشّرّان الغرناطي	2	
167	محمد الخير المالقي	3	7
173	ابن الأزرق الغرناطي	4	
199	ابن الخلف القسنطيني	5	
216	محمد بن عبد الرّحمن الحوضي	6	
223	سعيد بن عليّ الحامدي	7	
230	ابن الخطيب الزّرويلي	8	
312 - 236	الفصل الثالث من أعلام الحضارة في المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين		
238	عبد الله التّرجمان	1	
245	ابن سراج الغرناطي	2	
251	الحبّاك التّلمساني	3	
255	القلصادي	4	
264	أبو عمرو عثمان الحفصي	5	8
263	ابن الأشقر المالقي	6	
270	البدر الشّماخي	7	
286	الحسن الوزّان (ليون الإفريقي)	8	
294	عبد الرّحمن التّاجوري	9	
298	يوسف بن موسى الأشقر	10	
302	ابن حمزة الجزائري	11	

316 - 313	خاتمة	9
337 - 317	الفهارس	
318 - 317	فهرس الآيات القرآنية	1
319	فهرس الأحاديث النبوية	2
332 - 320	فهرس الأعلام	3
337 - 333	فهرس البلدان	4
357 - 338	مكتبة البحث	
354 - 338	قائمة المصادر والمراجع العربية	5
355	قائمة المصادر والمراجع الأجنبية	6
356	قائمة الرسائل الجامعية	7
357	قائمة الدوريات	8
360 - 358	فهرس الموضوعات	11

المخلص:

تتناول هذه الرسالة دراسة سيرة بعض الأعلام وجهودهم في مختلف الحقول الأدبية ومشاركاتهم في الميادين الحضارية في القرنين التاسع والعاشر الهجريين في المغرب الإسلامي، ودراسة آثارهم العلمية والأدبية، مع التحليل لبعض إبداعاتهم الأدبية والعلمية، وهذا العمل هو محاولة للمشاركة في التأسيس للتاريخ الأدبي والحضاري لبلدان المغرب الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: الأعلام - الأدب - الحضارة - المغرب - الإسلامي.

Résumé :

Cette thèse porte sur l'étude de la biographie de certaines personnes éminentes et de leurs efforts dans divers domaines littéraires et de leurs participations dans les domaines de la civilisation aux Xe et Xe siècles de l'Hégire au Maghreb islamique et à l'étude de leurs travaux scientifiques et littéraires avec l'analyse de certaines de leurs activités littéraires et scientifiques. Ce travail est une tentative de participer à l'établissement de l'histoire littéraire et civilisationnelle des pays du Maghreb islamique.

Mots clés: Personnes éminentes - Littérature - Civilisation - Maghreb - Islamique.

Abstract:

This thesis deals with the study of the biography of some of great figures and their efforts in various literary fields and their participations in the civilizational fields in the ninth and tenth centuries Hegira in the Islamic Maghreb and the study of their scientific and literary works with the analysis of some of their literary and scientific creativities. This work is an attempt to participate in establishing the literary and civilizational history of the Islamic Maghreb countries.

Key Words: Great figures - Literature - Civilization - Maghreb-Islamic.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

Université Abou Bekr Belkaid
Tlemcen Algérie



تلمسان الجزائر

جامعة أبي بكر بلقايد



كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربيّ



ملخص الرسالة



ملخص الأطروحة:

يعدّ المغرب الإسلاميّ ساحة شاهدة على مشاركة أعلامه من المفكرين والأدباء والعلماء والساسة والفنانين وغيرهم في بناء الحضارة الإنسانية، كما أسهموا في التّواصل الفكريّ والثّقافيّ والحضاريّ بين مختلف أقطار العالم الإسلاميّ وبلدان حوض المتوسط. ولذا ينبغي أن نسعى إلى إبراز ما قدّمه من معارف وعلوم، ولن يتأتّى ذلك إلّا بدراسات جدّية وعميقة لكلّ ما يتعلّق بحياتهم وتراثهم، وذلك بترجمة وافية للأعلام الفاعلين في مختلف الحقول المعرفيّة ودراسة آثارهم وتحقيقها.

وقد وقع اختيارنا على عنوان لأطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدّكتوراه، موضوعها قائم على دراسة حياة أعلام الأدب والحضارة دراسة تاريخيّة وفنّيّة في فترة زمنيّة تمتدّ من بداية القرن التّاسع الهجريّ إلى نهاية القرن العاشر الهجريّ. فكان عنوان الأطروحة موسوماً: «من أعلام الأدب والحضارة في المغرب الإسلاميّ من بداية التّاسع الهجريّ إلى نهاية القرن العاشر الهجريّ». وإنّا نسعى من وراء هذا البحث إلى تحقيق عدد من الأهداف؛ منها: الاطّلاع على الواقع السّياسيّ والثّقافيّ والفكريّ والأدبيّ والنّقديّ، وبيان أهمّ السّمات الموضوعيّة والفنّيّة للأدب وبعض المظاهر الحضاريّة في هذه الفترة، والتّعريف بعدد من الأعلام الفاعلين في مختلف الحقول المعرفيّة والحضاريّة، وهذا من خلال الاطّلاع على تكوينهم العقليّ ونشأتهم العلميّة، وإبراز آثارهم الماديّة والمعنويّة التي تكتنز نصوصاً معرفيّة مهمّة تكشف عن وبعض المظاهر الحضاريّة في هذه الفترة، وعن واقع الحياة العامّة في بلاد المغرب الإسلاميّ. ومن المقاصد التي نطمح لها هو محاولة وضع نواة معجم لأعلام الأدب والحضارة في المغرب الإسلاميّ، وبيان إسهاماتهم في الحقلين الأدبيّ والحضاريّ، ودراسة حياتهم وآثارهم ومنجزاتهم، والبحث عن الأعلام المغمورين والتّراث المفقود.

وموضوع الأطروحة يكتسي أهميّة في تصوّرنّا، فهو يعنى بدراسة جانب من التّاريخ الأدبيّ والحضاريّ بالمغرب الإسلاميّ وأعلامهما خلال القرنين التّاسع والعاشر الهجريّين، فالدراسة تهتمّ بجمع الآثار الأدبيّة والمنجزات الحضاريّة لطائفة من أعلام المغرب الإسلاميّ، وتُلقي الضّوء على كثير من الأحداث التّاريخيّة المساعدة على فهم الفكر الحضاريّ للمغرب الإسلاميّ في هذه الفترة، فكلّ واحد من هؤلاء الأعلام يمثّل لبنة في الصّرح الحضاريّ الإسلاميّ

والإنساني، وهذا يدعم الارتباط الحضاريّ ويكشف عن الوحدة الثقافية لدى المكوّن البشريّ ببلدان المغرب الإسلاميّ.

وقد أعدنا خطة تتكوّن من مقدمة ومدخل وثلاثة فصول وخاتمة وفهارس عامّة. أمّا المدخل فهو بعنوان (لمحة عن الحياة السياسيّة والحياة الثقافيّة في المغرب الإسلاميّ في القرنين التاسع والعاشر الهجريّين)، تناولنا فيه الحياة السياسيّة في المغرب الإسلاميّ في الفترة الزمّنيّة التي تشمل القرنين الهجريّين التاسع والعاشر، فمعرفتها ضروريّة لتأثيرها بطريقة أو بأخرى في سير الحركة الثقافيّة والفكريّة والأدبيّة. ورأينا أنّ بلاد المغرب الإسلاميّ في القرنين التاسع والعاشر الهجريّين كانت تعيش حالة من الضعف السياسيّ نتيجة الانقسامات الداخليّة والصّراعات بين أبناء الأسر المالكة، وبين سلاطين الممالك، فضلا عن الأخطار الخارجيّة التي أدّت إلى سقوط غرناطة، وما نتج عنه من احتلال النصارى لعدد من مدن الشّريط السّاحليّ لبلدان المغرب الإسلاميّ جنوب الحوض المتوسط، والتي كانت ذات أهميّة اقتصاديّة وتجاريّة وعسكريّة وثقافيّة. وقد تأثّر سير الحركة الثقافيّة والفكريّة والأدبيّة نتيجة هذا الواقع السياسيّ، وظهر أثره في المردود الفكريّ والأدبيّ وطبيعته، وفي الطبّقات العلميّة والأدبيّة والمتنفّذة، وكذلك المؤسسات الثقافيّة والتّربويّة ودورها، وهذا مقارنة بما سبق من القرون. فالوضع السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ أدّى إلى هجرة الكفاءات العلميّة خارج بلدان المغرب الإسلاميّ. وخربت كثير من المدن التي كانت عامرة بالمراكز الثقافيّة (مساجد، مدارس، زوايا، مكتبات) بسبب الحروب، فطمست معالمها الحضاريّة وتعطلّت وظائفها التّعليميّة والتّربويّة. وفي مقابل هذا التّراجع لمسنا انتعاشا ثقافيا وفكريا وأدبيا أيام السعديّين بالمغرب الأقصى في النّصف الثّاني من القرن العاشر الهجريّ. تجلّى في تزايد المؤسسات التّعليميّة، كثرة العلماء والأدباء والطلّبة، وكثرة المؤلّفات في مختلف العلوم والفنون مع ازدهار الآداب.

وأمام هذا الواقع السياسيّ والثقافيّ فقد بقيت أهمّ الحواضر الكبرى المشهورة تؤدّي دورها الحضاريّ، وكان لبعض السّلاطين محاولات في إنعاش الحياة الثقافيّة والفكريّة والعمرانيّة ببنائهم للمؤسسات الثقافيّة وحرصهم على استقطاب الكفاءات العلميّة وتشجيعها، كما ساعد الوعي الحضاريّ عند كثير من الأسرات العلميّة المشهورة في النّشاط العلميّ والفكريّ. ولذا برز كثير من الأعلام الذين أسهموا في مختلف الحقول الحضاريّة بالمغرب الإسلاميّ. وظهر ذلك جليّا في أعمالهم التي قدّموها وآثارهم التي تركوها، فكان منهم العلماء والمفكّرون والأدباء والشّعراء والأطباء والسّلاطين وغيرهم.

خصّصنا الفصل الأوّل للخطاب النثريّ وفنونه وأعلامه، فجاء الفصل بعنوان (من أعلام النثر في المغرب الإسلاميّ في القرنين التاسع والعاشر الهجريّين). فترجمنا فيه لسبعة أدباء من مختلف أقطار المغرب، وطريقة اختيارنا لهم بحسب شهرتهم الأدبيّة واشتغالهم بالفنون النثريّة ولو كانت لهم مشاركة في الخطاب الشعريّ. فأتينا على ذكر أسمائهم وأنسابهم وشيوخهم وتلاميذهم ومؤلفاتهم وأقوال الآخرين فيهم، وعرض بعض النماذج من خطابات النثريّة والشعريّة. وهم على التّوالي: الفقيه عمر بن الحاج المالقيّ (كان حيّاً 844هـ/1441م)، ابن عاصم الغرناطيّ (ت 857هـ/1453م)، أبو عصيدة البجائيّ (ت حوالي 865هـ/1461م)، أحمد زروق البرنسيّ (846 - 899هـ/1442 - 1493م)، أبو عبد الله التّنسيّ (حوالي 820 - 899هـ/1417 - 1494م)، ابن يجّيش التّازيّ (ت 920هـ/1514م). عليّ بن محمّد التّمكروتيّ (941 - 1003هـ/1534 - 1595م).

ثمّ قمنا بدراسة لبعض النماذج النثريّة المختارة تحليلاً فنياً للكشف عن بعض السمات الموضوعيّة والفنّيّة والملاحم البارزة للخطاب النثريّ. ومن الخطابات التي تناولناها بالدراسة الفنّيّة بشيء من التّفصيل (رسالة الغريب إلى الحبيب) وهي رسالة أبي عصيدة البجائيّ إلى أبي الفضل المشدّليّ، و(كتاب الجهاد) لابن يجّيش التّازيّ. وقمنا بدراسة بعض النصوص النّقديّة لمعرفة طبيعة النّقد الأدبيّ في الفترة المذكورة ومعرفة بعض الآراء النّقديّة. ومن النصوص النّقديّة التي نتناولها بالتّحليل نصّ لأحمد زروق نبحت فيه رؤيته النّقديّة، ونصّان آخران نقديان لأبي عبد الله التّنسيّ نقف على طبيعة الممارسة النّقديّة لديه.

وقد رأينا أن هؤلاء الأدباء أظهروا اهتماماً بالخطاب النثريّ، حيث طرّقوا مختلف الفنون النثريّة؛ فحرّروا الرسائل السّلطانيّة والإخوانيّة والخطب والمقامات، واهتمّوا بأدب الرّحلات وفنّ التّراجم والسّير ودوّنوا فتاواهم وغيرها من الآثار المكتوبة. ومنهم من برّز في جلّ هذه الفنون النثريّة، وأبدع أدباء المدرسة الأندلسيّة على الرّغم من أنّ الأندلس كانت في أيّامها الأخيرة.

والشّيء اللافت هو مشاركة الفقهاء في فنون الأدب، فأغلب من ترجمنا لهم من الذين مارسوا الفقه، ومنهم من عرف بلقب الفقيه كالفقيه عمر المالقيّ، ولو شئنا لقلنا إنّ هذه الفترة هي فترة أدب الفقهاء بامتياز، وقد أدّى ذلك إلى ظهور أثر العلوم الشرعيّة في خطابات النثريّة. وإلى جانب ذلك مشاركة عدد المتصوّفة في الحياة الأدبيّة والسياسيّة، فعالجوا في آثارهم النثريّة موضوعات ذات بُعد صوفيّ وخاصّة عند المغاربة كأحمد زروق وابن يجّيش التّازيّ. ولم يكن

اهتمام أدباء هذه الفترة منصبًا على الخطاب النثريّ بل جمعوا إلى ذلك المشاركة في نظم الأشعار في مختلف الأغراض الشعريّة المعهودة من مدح وثناء وفخر وتهنئة وغيرها.

أمّا موضوعات نثرهم فمتنوّعة، عالجت واقع الحياة من أحداث سياسيّة واجتماعيّة ودينيّة، كأدب الجهاد وهذا ما رأيناه عند ابن جَبّش التّازي، وذلك لأنّ حركة الجهاد كانت ضرورية لدفع الإسبان والبرتغال عن سواحل بلدان المغرب العربيّ. وعالج النثر موضوعات ذات طابع اجتماعيّ كالظواهر الصحيّة منها موضوع الأوبئة، مثل مرض الطّاعون الذي حلّ بغرناطة منتصف القرن الهجريّ التّاسع، وهو موضوع مقامة عمر الفقيه. ومن أبرز موضوعات النثر وصف المنشآت الحضاريّة الماديّة والمعنويّة في بلاد المغرب الإسلاميّ وخارجه، فوصفوا المنشآت الحضاريّة من عمارة وحدائق وغيرها، والمناسبات كالاحتفالات بالأعياد الموسميّة وإقامة الموالد والمراسيم الملكيّة. وقد استوعبت رحلة التّمكروتيّ كلّ هذا. فالأديب شخص يتفاعل مع الأحداث والوقائع، ويحاول أن يسجّل تلك التّجارب الدّائيّة في خطابه النثريّ الذي هو ثمرة من ثمرات ذلك التّفاعل، وهو مظهر من مظاهر العلاقة بين الأدب والحضارة.

وقد لفت انتباهنا ذلك الانحراف عن النمط البنائيّ لبعض فنون النثر، من ذلك فنّ المقامة النثريّة عند الفقيه عمر، حيث لم تتضبط بضوابط المقامة المشرقيّة التي تقوم على حضور شخصيّة الراوي والبطل، وظهرت في شكل الرّسالة، حيث حقّقت أركانها الثلاثة؛ الاستفتاح والغرض والخاتمة، فقد نحا منحى المقامة الأندلسيّة التي أخذت في الغالب شكل الرّسالة، وهذا ملحوظ في مقامته الوباء. كما سجّلنا خروجًا عن المعهود في كتابة الرّسائل الإخوانيّة عند أبي عسيّة من حيث الافتتاح بالمنظوم من الكلام، إذ عمد إلى رسم الخريطة الابتدائية لنصّ الرّسالة نظامًا، محقّقًا الخصائص الهامّة لفنّ الرّسائل من بيانٍ للموضوع الأساس للخطاب والإشارة إلى الجهة المرسلّة والمستقبلة للخطاب.

أمّا من النّاحية الفنيّة فإنّنا ألفينا ميلا إلى التّزيين اللفظيّ وبخاصّة في مقدّمات المؤلّفات والفتاوى وبعض النّصوص النثريّة. ومنهم من تكلف الصّناعة اللفظيّة فأغرق في التّصنّع وتزيين نتائجهم النثريّ إلى درجة التّعقيد والرّكون إلى الأساليب المسجوعة المركّبة، وهذا المذهب امتازت به المدرسة الأندلسيّة. وإلى جانب ذلك هناك المدرسة المطبوعة التي مالت عن السّجع المعقّد إلى البسيط وإلى الأسلوب المرسل، وهذا ما سجّلناه عن أحمد زروق والنّسّي.

أمّا التّزيين المعنويّ فقد كان حاضرا إذ تجلّى في العناية بالصّورة الفنيّة التي تشكّلت من عديد الصّور البيانيّة من استعارات وكنائيات وتشبيهات وغيرها، حيث أعانتهم على تبليغ

خطابهم والتأثير في المتلقي، وساعدتهم على عرض بعض تجاربهم الذاتية. كما اهتموا بتوظيف أنواع الانزياح؛ منه التركيبي على الخصوص، كالانزياح بالحذف والاعتراض والتقديم والتأخير، وذلك لمقاصد نفسية تأثيرية كاستمالة المتلقي أو التشويق والاستعطاف أو التأكيد، وقد يساق الانزياح لغرض إيقاعي يقصد منه المحافظة على البنية الإيقاعية داخل النص النثري وذلك بإقامة الفواصل المسجوعة والمقاطع الموزونة، وهذا حاضر بشكل لافت في الخطاب الأندلسي. ونسجل أيضا خطابات نثرية غنية بأنواع التناصات الظاهرة السطحية المباشرة والباطنة العميقة غير المباشرة، وكان أغلبها ذات طابع ديني شهد حضور الثقافة الدينية، وذلك لأن أغلب المشتغلين بالنثر كان من الفقهاء. إلى جانب ذلك هناك التناص الأدبي (أشعار، أمثال، حكم وغيرها) الذي كان جزءا من التشكيل الفني لبنية النص النثري عند هؤلاء الأدباء، حيث ألفيناهم في خطاباتهم النثرية (رسائل ومقامات وخطب وأدب الرحلة وفتاوى وغيرها) يميلون إلى إدراج الخطاب الشعري والاهتمام بالنظم، وهذا إما لإظهار البراعة الفنية في النثر وإبراز المقدرة الشعرية وسعة المعرفة بالموروث الشعري القديم، أو لأن الشعر يساعد على تبليغ الخطاب للمتلقي، وقد مرر بنا في خطبة ابن جبش التازي في التحريض على الجهاد أنه استعان بالشعر للتأثير في نفس المتلقي واستمالته.

كان النقد الأدبي من جملة قضايا الأدب في هذا الفصل، فقد اهتم بعض الأدباء بالنقد الأدبي وموضوعاته، ولكنه جاء ضمن مؤلفاتهم النثرية دون أن تُخصّص له مؤلفات تعنى بقضايا نقدية بحتة. واكتشفنا المعايير النقدية عند أحمد زروق والتي تقوم على المعيار الأخلاقي، ورأينا الممارسة النقدية عند النّسي في نصين له، اعتمد فيهما على النقد التأثري مع شيء من التحليل والتعليل.

1- وتناولنا في الفصل الثاني بعض القضايا التي تتعلق بالشعر وأعلامه في هذه الفترة، وجاء تحت عنوان (من أعلام الشعر في المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين). اخترنا ثمانية أعلام اشتغلوا بالخطاب الشعري واشتهروا بذلك وإن كانت لهم خطابات نثرية، فقمنا بترجمة لهم متبعين العناصر نفسها التي مررت بنا في الفصل الأول، والتي تصحبنا في الفصل الثالث أيضا. وهؤلاء الشعراء هم على التوالي: إبراهيم التازي (حوالي 810 - 866هـ / 1407 - 1462م)، محمد بن إبراهيم الشّرّان الغرناطي (كان حيا: 837هـ / 1433م)، محمد الخيّر الملقّي (831 - بعد 888هـ / 1427 - بعد 1483م)، ابن الأزرق الغرناطي (831 - 896هـ / 1427 - 1491م)، ابن الخلف القسنطيني (829 - 899هـ / 1425 - 1494م)،

محمد بن عبد الرحمن الحوضي (ت910هـ/1505م)، سعيد بن علي الحامدي (ت973هـ/1565م)، ابن الخطيب الزرولي (ت993هـ/1585م).

واختارنا بعض النماذج الشعرية حيث أخضعناها للتحليل الفني وهذا قصد الوقوف على أهم السمات الموضوعية والفنية البارزة في الخطاب الشعري عند هؤلاء الشعراء. ومن هذه الخطابات الشعرية التي تناولناها بالدراسة الفنية بشيء من التفصيل، مطلع قصيدة المديح النبوي لإبراهيم التازي، وقصيدة مدحية لابن الأزرقي الغرناطي، وهذا لا يعني أننا أغفلنا دراسة شعر الآخرين بل لنا وقفات فنية. ومن النصوص النقدية التي نحاول تحليلها نص نقدي للشاعر ابن الخلف القسنطيني مقتطف من المقدمة النثرية لديوانه (جنى الجنتين في مدح خير الفرقين) والمعروف ب(ديوان الإسلام)، وسنحاول أن نكشف عن بعض القضايا النقدية التي أثارها ابن الخلف في هذه المقدمة.

وانتهينا بعد ترجمتنا لثمان من الشعراء من مختلف بلدان المغرب الإسلامي في هذه الفترة الزمنية، إلى أن حياتهم كانت حافلة بالعطاء المعرفي والشعري، وأغلبهم كانوا من شعراء سلاطين دول المغرب الإسلامي، فاتصل الشعراء محمد الشران وابن الأزرقي بملوك بني الأحمر بالأندلس، واختص ابن الخلف والمالقي بالحفصيين بتونس، والحامدي بالسعديين بالمغرب الأقصى. ومنهم من أثر الابتعاد عن هذا الجو، وهذا شأن المتصوفة كالحوضي وإبراهيم التازي. وهؤلاء الشعراء كانت نشأتهم العلمية ببلدانهم فقد تلقوا العلوم الدينية واللغوية والأدبية، ومنهم من هاجر خارج بلده بسبب الأوضاع السياسية وغيرها، مما أدى إلى إثراء الحركة الشعرية في البلاد التي استوطنوها، وهذا حال محمد الخير المالقي، وهم يمثلون نماذج للتبادل الثقافي بين صفتي حوض المتوسط. ومن هؤلاء الشعراء من كانت له ملكة شعرية ولكنهم لم يتوفر لهم من الأسباب ما توفر لغيرهم كالاتصال بالملوك، فعاش منعزلا لأسباب اجتماعية، مما أثر عليه نفسيا واجتماعيا، ومن ثم لم يحظ بالاهتمام اللازم، حتى إنه لم يحفظ له من شعره إلا النزر القليل، وهذا حال ابن الخطيب الزرولي.

وأیضا كان لبعض هؤلاء الشعراء اشتغال بالعلوم الدينية كالفقه والحديث، ومما أثر في عطائهم الشعري حيث كانت بعض أشعارهم أقرب إلى النظم منه إلى الشعر. ولم يرغب الفكر الصوفي عن الخطاب الشعري عند بعضهم فأبانوا فيه عن أحاسيسهم الروحية وتجاربهم الوجدانية وهذا ظاهر عند إبراهيم التازي ومحمد الحوضي. وأيضا لم يكتف هؤلاء الشعراء بقرض الشعر فقط بل إنهم اهتموا بالخطاب النثري فكان منهم الكتاب بالدواوين السلطانية، كابن

الخلوف الذي سمّي بذي الصّناعتين لبراعته في الشّعر والنّثر، ومحمّد الشّرّان الذي وصف بالكاتب البارِع والأبرع.

ولاحظنا وفرة في النّتاـج الشّعريّ وتنوّعه حيث طرق الشّعراء مختلف فنون الشّعر، منه الشّعر التّقليديّ والموشّحات والأزجال، ومنهم من حرص على جمع أشعاره في دواوين كصنيع ابن الخلوف. عالـج الشّعر العـديد من الموضوعات ولامس الشّعراء مختلف مناحي الحياة وعبروا عن انشغالاتهم الشّخصيّة والعامة، وتناولوا مختلف الأغراض الشّعريّة من مدح وحماسة وفخر ووصف،(فمدحوا الملوك والأمراء، ووصفوا المعارك والحروب فهي فترة صراعات داخلية وخارجية). واهتمّوا بالغزل الذي لم يكن مقصودا لذاته أو عن تجربة شخصيّة بل هو تقليد جرى عليه أكثر الشّعراء إذ جعلوه من بنية القصيدة المدحية، أو ساقه أصحاب النّزعة الصّوفيّة للتعبير عن مشاعرهم الرّوحية وتجاربهم الوجدانيّة كالتعبير عن الحبّ الإلهيّ عند إبراهيم التّازي. ووجد غرض الرّثاء بأنواعه، فرثوا الأشخاص(الأبناء والشيوخ)، كمرثية سعيد الحامديّ محمّد الحران السّعديّ، وأيضا رثى الشّعراء المدن التي وقعت في أيدي الإسبان والبرتغال منها مدن الأندلس أو المدن السّاحليّة جنوب المتوسّط، من ذلك رثاء ابن يعبش التّازي لمدينة أصيلا التي سقطت بأيدي البرتغاليين. كما اهتمّ هؤلاء الشّعراء بالشّعر الدينيّ وأظهروا عناية بالمديح النبويّ، كابن الخلوف الذي خصّص ديوانا جمع فيه شعره في مدح النّبي(ﷺ) سمّاه (جنى الجنّتين)، ولهم في الزّهد قصائد ومقطوعات موضوعها الدّعوة إلى التّخلّي بالفضائل والتّخلّي عن الرّذائل، والاستعداد للموت، وترك حبّ الدّنيا، وممّن اهتم بذلك إبراهيم التّازي. ومن الأغراض التي طرقت الوصف وقد انصب على وصف الطّبيعة ومظاهرها من رياض وأزهار وحدائق وأنهار وغيرها، وأبدع ابن الخلوف في هذا الباب، وشاركه ابن الأزرق. إلى جانب هذه الأغراض سجّلنا حضورا للهجاء، وكان من هجائيّ هذه الفترة ابن الخطيب الزّرويليّ الذي لم يصل من أغراض شعره إلّا الهجاء. وكلّ هذه الموضوعات والأغراض الشّعريّة تؤكّد تفاعل الشّاعر مع ما يجري حوله، فالشّاعر ابن بيئته وزمانه، ويحاول أن يسجّل ذلك في خطابه الشّعريّ الذي هو نتاج للتّجربة الدّائيّة. ومن الألوان الشّعريّة التي كانت حاضرة في هذه الفترة المعارضات الشّعريّة وهذا ما كشفنا عنه في شعر ابن الخلوف القسنطينيّ، وتلك المساجلات الشّعريّة التي جرت بينه وبين منافسه محمّد الخيّر المالقيّ، والأهاجي المتبادلة بين الشّاعرين ابن الخطيب الزّرويليّ وابن عسكر.

أما من الناحية الفنية فلم تغب النزعة التقليدية للشعر القديم في خطابهم الشعري، فالأفكار التي ساقها الشعراء هي ذات صلة بالمعاني المطروقة من قبل وبخاصة في شعر المدح والحماسة والفخر عند الشعراء المرتبطين بالقصور الملكية (كابن الخلف، والشَّران، الحامدي) فتحسَّ عند قراءة شعر المدح والحماسة حضور المتنبي وأبي تمام، وفي الخمرات أبي نواس. كما حاول الشعراء الاهتمام بلغتهم الشعرية جمعاً بين اللفظ والمعنى بما يناسب الغرض، فسجلنا جزالة في اللفظ وقوة في شعر الحماسة والمدح، وهذا ناجم عن محاولة محاكاة الشعراء القدامى، وأيضاً نجد بساطة في الألفاظ وسهولة خاصة في الخطاب الزهدي والهجائي.

وأما تشكيل الصورة الشعرية التي هي ثمرة امتزاج الأحاسيس بالأفكار والعالم الخارجي أظهرها الشاعر للوجود مستعيناً بالتعبير اللغوي والصَّور البيانية، فقد حاول الشعراء الارتقاء بتشكيل صورهم الشعرية، فمالوا إلى توظيف المجازات والتشبيهات والاستعارات التي تعطي بعداً جمالياً وتأثيرياً. كما وظَّفوا الانزياح بالحذف أو الاعتراض أو التقديم والتأخير وغيره من الأنواع، وهذا إما اختياراً أو اضطراراً كالضرورة الشعرية، وذلك لغرض نفسي كلفت الانتباه وإثارة الأذهان، والتشويق أو التأكيد، أو لغرض إيقاعي أي مراعاة للبنية الموسيقية في شعرهم. واستخدموا التناسل بأنواعه منه الديني والأدبي، فكان التناسل مع القرآن الكريم والحديث الشريف والموروث الأدبي القديم. وذلك لأنَّ عدد من هؤلاء الشعراء هم من الفقهاء والمتصوفة، وقد أدَّى ذلك إلى امتزاج الخطاب الشعري لديهم بالتقافة الدينية التي كانت جزءاً من التشكيل الفني لبنية النص الشعري. وأظهر هؤلاء الشعراء اهتماماً بالجوانب الإيقاعية في أشعارهم على المستويين الداخلي والخارجي، فحرصوا على استعمال المحسنات البديعية من طباق وجناس وتضاد ومقابلة وغيرها. واختاروا الوزن والقافية والروي لإقامة البنية الإيقاعية للنص الشعري، وحاولوا تحسينها وجعلها أكثر تأثيراً في المتلقي، وأكثر ما استخدموا من البحور البحر الطويل والبسيط والكامل.

ومن القضايا التي عولجت في هذا الفصل بعض قضايا النقد الأدبي وموضوعاته، فوقفنا عند مقدِّمة ديوان ابن الخلف الذي أشار فيها إلى مسألة نقدية تتعلق بمفهوم الملكة الشعرية الاكتسابية وكيفية تحصيلها، وبين أنَّ ذلك لا يتأتى إلاَّ بتهيئة الوسائل والأدوات والسبل اللازمة لتنمية القدرات الأدبية، والتي من أهمها الاستعداد النفسي، وعامل السن والاطِّلاع الواسع وحفظ الموروث الأدبي القديم، والتدرب على قرض الشعر.

أما الفصل الثالث فكان عنوانه موسوماً (من أعلام الحضارة في المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين)، وخصَّصناه لتراجم الأعلام الذين كانت لهم مشاركة في مختلف

المجالات الحضارية، وحاولنا الكشف عن إسهاماتهم في بناء الحضارة الإنسانية، والتي تجلّت في إبداعاتهم المعرفيّة وإضافاتهم العلميّة وجهودهم العمليّة في مختلف العلوم والفنون. وقمنا باختيار أحد عشر علّما ممّن برعوا في عدد من العلوم النّقليّة ونبغوا في العلوم العقليّة، وشاركوا في الحياة السّياسيّة والفكريّة. وهم على التّوالي: عبد الله التّرجمان (756 - 832هـ / 1355 - 1430م)، ابن سراج الغرناطيّ (ت848هـ / 1444م)، الحباك التّلمسانيّ (ت867هـ / 1463م)، القلصاديّ (815 - 891هـ / 1412 - 1486م)، أبو عمرو عثمان الحفصيّ (821 - 893هـ / 1418 - 1488م)، ابن الأشقر المالقيّ (قبل 820هـ - بعد 908هـ / 1417 - 1502م)، البدر الشّماخيّ (ت928هـ / 1521م)، الحسن الوزّان (ليّون الإفريقيّ) (894 - 957هـ / 1489 - 1550م)، عبد الرّحمن التّاجوريّ (ت960هـ / 1552م)، يوسف بن موسى الأشقر، ابن حمزة الجزائريّ.

واخترنا من الخطابات الأدبيّة النّثريّة نصّا من رحلة القلصاديّ، ورسالة البدر الشّماخيّ إلى صولة بن إبراهيم الغدامسيّ، وهي خطاب نثريّ جمع بين فنيّ التّرسل والمناظرة. وقمنا بتحليل هذه الخطابات تحليلا موجزا بما يتناسب مع طبيعة الخطاب للكشف بعض السّمات الموضوعيّة والفنيّة.

وانتهينا بعد ترجمتنا لهؤلاء الأعلام إلى الوقوف على نبوغ عدد من العلماء في كثير من فروع المعرفة بما في ذلك العلوم النّقليّة (فقه، عقيدة، فتاوى) والعقليّة (الرّياضيّات، الفلك، الجغرافية، التّرجمة، الطّبّ وغيرها)، وقد أسهموا في إثراء المعارف ببحوثهم وإضافاتهم العلميّة. ففي القرن التّاسع الهجريّ نلّف القلصاديّ من أعلم أهل زمانه بالحساب والفرائض، وقد سعى إلى خدمة العلوم الرّياضيّة وتطويرها، ومن جملة ما قدّمه استعماله للرّموز الرّياضيّة قصد تبسيط العمليات الحسابيّة واختصار المعادلات. وفي نفس التّخصّص نبغ ابن حمزة الجزائريّ وهو من واضعي أصول اللّوغاريتمات في الرّياضيّات في القرن العاشر الهجريّ، وابتكاره للأرقام الغباريّة، حيث قام بابتداع أشكال جديدة لرسم الأرقام، وحلّ أعقد المعادلات الرّياضيّة والمسائل الحسابيّة.

وما سجّلناه من المظاهر الحضاريّة على المستوى التّعليميّ الاهتمام الكبير بالمؤلّفات ذات الصّبغة التّعليميّة في مختلف العلوم النّقليّة أو العقليّة، وذلك لتسهيل تلك العلوم وتقريبها لطلبة العلم، فكثرت المنظومات العلميّة والأراجيز، والشّروح المبسّطة والاختصارات، وكثيرا ما نجد

المؤلف يصرح بالقصد من النظم أو الشرح، ويرجعه إلى استصعاب فهمها لدى طلبة العلم وإدراكها، كشرح الفلصادي المختصر على الأرجوزة التلمسانية في الفرائض بعد شرحه المطول. وفي المجال التعليمي سلك عدد من العلماء مناهج تعليمية قصد إيصال المعلومة للمتعلم بطرق بسيطة وأكثر فاعلية، كالمنهج الذي يجمع بين النظري والتطبيقي في تدريس المواد العلمية. وهذا منهج وظفه الفلصادي، حيث أثر سهولة العبارة والأسلوب المباشر وتكرار العمليات والملاحظات، وكثرة التمارين حتى تترسخ القواعد في ذهن المتلقي ويسهل إدراكها وفهمها. وزاد على ذلك الطريقة الحوارية بين المعلم والمتعلم قصد إشراك المتعلم، وهي من الطرق الحديثة المعتمدة في المناهج التعليمية، وهذه الطريقة الحوارية ليست قاصرة على البعد التعليمي والتحصيلي فحسب، بل إنها تحمل أبعادا حضارية أخرى كالبعد التربوي والنفسي، فالمتعلم يتدرّب على أدب النقاش والحوار ويقبل على الدرس بحيوية ونشاط، فيُغرس فيه روح النقد الإيجابي ويتدرّب على أساليب الإقناع. وقد وقفنا على التوجيهات المنهجية العلمية والتربوية لابن سراج لطلبة العلم وإرشادهم إلى التركيز أكثر على فرع من فروع المعرفة والتخصّص في علم من العلوم، وهذا بعد الإلمام بعدد من العلوم الأخرى لضمان التكامل بينها فهو أدعى إلى الانتفاع، وهذا مظهر آخر من مظاهر الحضارة على المستوى التعليمي التي يقدّمها أعلام الحضارة الإسلامية للعالم.

وهذه الدّعوة إلى التّخصّص المعرفي مكّنت من ظهور عدد من العلماء الذين كان لهم أثر بارز في العلوم التي تخصّصوا فيها، واستطاعوا أن يقدّموا إضافات علمية، تمثّلت في مؤلّفاتهم التّخصّصية في الرياضيات والمواريث والفقه والفلك. والإبداع في تقديم المادّة العلمية.

ومن القيم الأخلاقية التي التزم بها عدد من الأعلام الأمانة العلمية في مجالات تخصّصاتهم التي برعوا فيها، وظهرت في نقلهم للخطابات من لغة إلى أخرى عن طريق الترجمة، ونقلهم للعلوم ونسبتها إلى أهلها. وهذا ما أظهره كلّ من التّرجمان والوزّان وابن حمزة الجزائري. فالتّرجمان كان حريصا على نقل النّصوص المترجمة إلى اللّغة العربيّة بكلّ أمانة باحترافية. وابن حمزة لم يخف عن المتلقّي تلك الإسهامات العلميّة للسّابقين في العلوم الرّياضيّة والتي ساعدته على تحقيق ما توصل إليه من نتائج رياضيّة، حتى إنّّه لَقّب بالنّسّاب لشدّة تحرّيه نسبة الأقوال إلى أهلها.

وأهمّ ما يشترك فيه أولئك الأعلام هو قيامهم برحلاتهم خارج بلدانهم لأسباب مختلفة. فكانت لهذه الهجرات ثمرات تمثّلت في إثراء مختلف المعارف ونقل التّجارب وربط العلاقات بين

شعوب بلدان الحوض المتوسط والعالم الإسلامي. فقد ترك كثير من العلماء آثارا في مختلف البلاد الإسلامية والأوروبية التي رحلوا إليها، وظهر تأثيرهم الحضاري، فأسهلوا في الحياة العلمية في البلاد التي رحلوا إليها فنقلوا العلوم وصنّفوا في مختلف الفنون وأخذ عنهم الكثير، ونالوا مكانة اجتماعية وعلمية، فتبوّؤوا المناصب العلمية والإدارية بكفاءاتهم العلمية والإدارية. فرأينا أثر الحسن الوزان الأسير الذي نقل إلى إيطاليا وما تركه من آثار علمية وثقافية في روما وبولونيا، حتّى إنهم أسفوا على مغادرته البلاد وجَدّوا في البحث عنه، واستقادوا من مؤلفاته وجهوده التعليمية. كان الحسن بن الوزان والترجمان من حلقات التّواصل بين الثقافة الإسلامية والمسيحية بين شمال الحوض المتوسط وجنوبه.

وقد تبيّن لنا مدى اهتمام بعض سلاطين بلدان المغرب الإسلامي بتنشيط الحياة العلمية والفكرية والأدبية ببلدانهم، وذلك بتقريبهم لأصحاب الكفاءات العلمية وتنميين جهودهم دون النظر إلى توجهاتهم الدينية أو أصولهم العرقية، وهذه من القيم الحضارية التي أبدتها سلاطين الدولة الحفصية والزّيانية، فكان ابن الخلف القسطنطيني ومحمّد الملقّي من شعراء الدولة ومن كتّابها، وعبد الله الترجمان قيما على ديوان البحر و مترجما، وابن الأشقر اليهودي جعلته السلطة الزّيانية طبيب البلاط ورئيس الطائفة اليهودية.

وسجّلنا كثيرا من القيم الحضارية في المجتمعات التي عاش فيها أولئك العلماء الذين ترجمنا لهم منها، فألفينا قيمة التعايش السلمي بين مختلف مكونات مجتمعات بلدان المغرب الإسلامي على اختلاف مللهم ونحلهم وطوائفهم، وأيضا ضمان الحرية الدينية في ظلّ تلك الدول التي عاشوا فيها. وكان لهم دور سياسي واجتماعي واقتصادي وثقافي وعلمي. خاصة أولئك الذين نزحوا عن الأندلس فرارا من الاضطهاد الإسباني، كالجالية اليهودية التي استوطنت بلدان جنوب البحر المتوسط، وعاشت بين أهلها وفي ظلّ حكامها بوصفها أهل ذمة، حقوقهم محفوظة كالحقوق الدينية والعلمية والاقتصادية، فكانت حرية التّدين وإقامة شعائهم مكفولة، ولهم بيعهم ومدارسهم ومقابرهم الخاصة. وكان اليهود يوصي بعضهم بعضا بالإقامة بدول العالم الإسلامي. وقد بلغ التسامح الديني والتعايش السلمي في ظلّ الدولة بني وطّاس إلى اعتبارهم مواطنين مغاربة لهم حقّ المواطنة، إذ كانوا يعطون تصاريح تثبت أنّهم مواطنين مغاربة.

إضافة إلى هذا فقد أظهروا عناية بالجانب العمراني والفني. فقد أعطى أبو عمرو عثمان الحفصي أوليّة للعمارة الدينية فاهتمّ بجامع الزيتونة وبمرافقه فأمر سنة (852هـ / 1448م) ببناء مiazza ملحقة بالجامع وأمر بتسخين الماء فيها في فصل الشتاء، وأنشأ مكتبة خاصة بالكتب

بالجامع، جمع فيها أمّهات الكتب في مختلف العلوم. وأحدث كثيرا من المؤسسات الدّينية من مدارس وزوايا التي تؤدّي دورها التّعليمي والتّربوي والروحي والاجتماعي، إلى جانب ذلك كلّها لها بعدها الفنّي والجمالي، حيث برع المعماريون في بناء هذه المؤسسات واستطاعوا أن يجمعوا بين عدد من الفنون؛ بين فنّ الهندسة المعماريّة وفنّ الزّخرفة وفن الخطوط العربيّة، فبرزت في أعمالهم القيم الجماليّة والفنّيّة التي نالت إعجاب النّاظرين. فقد وصف مؤرّخ الدّول الحفصيّة ابن الشّماع المدرسة التي أمر ببنائها أبو عمرو عثمان سنة (840هـ / 1437م) بالقرب من ضريح الشّيخ محرز بن خلف بأنّها في غاية الحسن والجمال والإتقان.

ومما سجّلناه أيضا هو دور الشّرائع الدّينية في الإبداع الحضاريّ، فالقيم الدّينية تبعث على إيجاد الوسائل التي تعين على تأدية العبادات وتيسيرها، وقد رأينا الرّابط المهمّ بين مواقيت الصّلاة والاهتمام بالإسطرلاب علما وآلة، وقاد ذلك إلى ترقية فنّ النّقش على الآلة النّحاسيّة، فوقع الجمع بين البعد التّعبديّ والنّفعيّ والجماليّ، وكلّها من القيم التي تتشدها الحضارة الإسلاميّة. ومن التّشريعات التي أدّت دورا حضاريّا منظومة الأوقاف، فهي تدعم النّشاط العلميّ والفكريّ والدّينيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ والعمرانيّ والعسكريّ، وتكفل الاستمراريّة لعمل المؤسسات القيّمة على تلك النّشاطات، وذلك بتوفير التّغطية الماليّة لمتطلّبات تلك المؤسسات والعاملين بها. وكان السّلاطين يدعمون النّظام الوقفيّ، وقد مرّ بنا تلك التّعليمات السّلطانيّة من أبي عمرو عثمان الحفصيّ بتخصيص أوقاف ثابتة للمؤسسات الدّينية التي أمر ببنائها.

ونلّف من الأعلام الذين ترجمنا لهم من كانت له مشاركة في الميدان الأدبيّ، فتناولوا عددا من الفنون النّثريّة كأدب الرّسائل وأدب الرّحلة وفنّ المناظرة والترجمة الأدبيّة، وكذلك النّثر التّأليفيّ.

حظي فنّ المناظرة باهتمام لافت باعتبار المناظرة منهجا فكريّا يقوم على الإقناع والتّأثير بأساليب مختلفة، وشملت موضوعات كثيرة ذات بعد دينيّ تتعلّق بقضايا فقهية وعقدية واقتصاديّة واجتماعيّة، فكان من رجالها ابن سراج وأبو عمرو عثمان الحفصيّ والشّماخيّ والحسن الوزان. وهذه المناظرات المذهبيّة والنّقاشات الدّينية محطّة من محطّات التّفكير النّقديّ في المغرب الإسلاميّ في هذه الفترة، وتعكس النّضج الفكريّ لدى علماء المغرب الإسلاميّ، وتوضح صورا من صور التّعايش بين أتباع هذه المذاهب، وهي أيضا تحمل أبعادا حضاريّة أخرى، حيث كانت مجالس الأمراء من المواطن التي تناقش فيها قضايا مختلفة، وهو ما جرى من مناقشات عقديّة وفقهية بين السّلطان الحفصيّ أبي عمرو عثمان والشّماخيّ.

والى جانب هذا رأينا رسالة التّاجوريّ إلى أهل فاس يدعوهم فيها إلى إصلاح القبلّة، وهي رسالة تعكس طبيعة العلاقات بين أعلام المشرق والمغرب القائمة على التّواصل العلميّ والتّلاقح الفكريّ. حيث استقرّ برسالته قرائح علماء فاس فردّوا على هذه الرّسالة برودود نقليّة وعقليّة. وهي تثبت الكفاءة العلميّة لدى التّاجوريّ وتبحّره في علوم الفلك والميقات، حيث استطاع أن يحدّد جهة القبلّة بالمغرب بناء على معطيات شفوويّة بلغته وهو بالمشرق.

ومن أهمّ السّمات الفنيّة للخطاب النّثريّ لدى هؤلاء الأعلام التّزيين اللفظيّ خاصّة في مقدّمات خطاباتهم ومؤلفاتهم. ومالوا إلى الاهتمام بالمحسنات البديعيّة من جناس وطباق وسجع وموازنة وهذا ما ميّز خطاب القلصاديّ سليل المدرسة الأندلسيّة ذات النّزعة التّصنعيّة. وإلى جانب هذا هناك المدرسة المطبوعة التي مالت عن السّجع المعقّد إلى البسيط وإلى الأسلوب المرسل البعيد عن التّكلف كخطاب التّرجمان والتّاجوريّ والشّماخيّ. ولم يغفلوا التّزيين المعنويّ فوظّفوا الصّور البيانيّة من استعارات وكنايات وتشبيهات وغيرها، التي أعانتهم على تبليغ خطابهم والتّأثير في المتلقّي، وعلى عرض بعض تجاربهم الدّاتيّة، وظهر ذلك جليّا في خطابي القلصاديّ والشّماخيّ.

وهذه الفنون الأدبيّة النّثريّة لها قيمتها الحضاريّة، فهي تؤرّخ للخطاب النّثريّ، وتفيدنا في الاطّلاع على موضوعاته والوقوف على أهمّ السّمات الفنيّة والموضوعيّة. وتمدّنا بصور عن الحياة الدّينيّة والاجتماعيّة والفكريّة والعمرانيّة وغيرها في هذه الفترة الزّمنيّة ليس في المغرب الإسلاميّ فحسب بل في بلدان الحوض المتوسّط والمشرق.

وأما أهمّ النتائج التي توصلنا إليها ما يلي:

- انتهينا إلى أنّ هؤلاء الأعلام تجمعهم قواسم مشتركة بينهم؛ بداية بالتّشكّل العلميّة القائمة على تلقي مختلف العلوم النّقليّة والعقليّة والأدبيّة، فطبيعة المنهج العلميّ المتبع في تلك المؤسسات العلميّة يقتضي ذلك. وكان لغالبيتهم تنقّلات خارج بلدانهم وهجرات ساعدتهم في توسيع دائرة معارفهم ومداركهم.
- أسهم عدد من الأمراء السّلاطين في تنشيط الحياة العلميّة والاهتمام بالحياة الفكريّة والأدبيّة.

- ومن مظاهر التّلاقح الفكريّ الذي أحدثه هؤلاء الأعلام تلك المحاورات والمناظرات والنّقاشات المباشرة وغير المباشرة التي جرت بين العلماء والتي كان يؤطّرها السّلاطين أحيانا، والتي أثّرت فيها مختلف المسائل والقضايا والتّوازل، كانت أغلبها ذات بُعد دينيّ واجتماعيّ،

وكانت هذه المناقشات ذات طابع حضاريّ يقوم على الاحترام والتقدير المتبادل، وتعكس روح التعايش السلميّ بين المختلف الطوائف والفرق.

- استطاع هؤلاء الأعلام أن يتركوا آثارا علميةً تمثلت في انقطاعهم للتدريس في المؤسسات التعليمية في بلدانهم وخارجها. وكانت لهم إسهامات في مجال التأليف فتركوا تراثا علميا من تراث الحضارة الإسلامية في الغرب الإسلامي في هذه الفترة الزمنية، وقد تنوع هذا التراث فتركوا مؤلفات كثيرة ومتنوعة منظومة ومنثورة في مختلف العلوم النقلية والعقلية دلت على موسوعيتهم المعرفية. أثر أصحابها أن يجمعوا بين التأليف التخصصي والتعليمي، فكتبوا في مجالات تخصصهم وأبدعوا وصارت مؤلفاتهم معتمدة في العالم شرحا وتدريسا وترجمة، وظلّ العديد من إنتاجهم العلمي يدرس مدة طويلة في الجامعات. وكانت لهم إضافات علمية في العلوم التي برعوا فيها أسهمت في تطوّر تلك العلوم.

- ومما سجلناه من قيم حضارية قدّمها عدد من العلماء للإنسانية في المجال العلمي الحرص الشديد على الأمانة العلمية، والتي تقتضي الدقة في نقل المعلومة وتوثيق مصدرها ونسبة العمل لصاحبه، وهذه القيمة من أخلاقيات البحث العلمي.

- أسهمت الجهود العلمية لهؤلاء الأعلام في البناء الروحي، وممن تولّى هذه الجهود رجال المدرسة الصوفية الساعية إلى تحقيق الأبعاد الحضارية التي ينشدها الفكر الصوفي، وهو البناء الروحي والسلوكي والتعبدي للفرد والمجتمع.

- كان لأهل الذمة اليهود دور ثقافي وتعليمي وديني في المغرب الإسلامي، حيث أسهموا في التواصل الثقافي بين اليهود والمسلمين، وهذا التواصل يعكس درجة الوعي الفكري لدى الطبقة المثقفة، فالغاية هو التحصيل العلمي دون أن تعوقه الاختلافات المذهبية والعقدية.

- أغلب الأدباء والشعراء كانوا من طبقة الفقهاء الذين كان لهم دور في تنشيط الحركة الأدبية، حيث جمعوا بين الفقه والأدب، وبين الخطاب النثري والشعري حتّى إنّهُ ليصعب على الدارس أحيانا تصنيفهم، ويمكننا القول إنّ أدب هذه الفترة هو أدب الفقهاء.

- تنوع الخطاب النثري وظهر جليا في مختلف الفنون النثرية التي تناولوها، فكتبوا الرسائل السلطانية والإخوانية والمقامات والخطب، وألّفوا في فنّ التراجم والسير وأدب الرحلات ودونوا الفتاوى واهتموا بفنّ المناظرات. وقد استجابت تلك الفنون للبنية التقليدية للخطاب النثري. وعالج الخطاب النثري موضوعات متنوعة متعلّقة بواقع الحياة منها الواقع السياسي والاجتماعي والديني والروحي والحضاري.

- ومن القضايا التي تناولها الخطاب النثريّ بعض قضايا النّقد الأدبيّ وموضوعاته. ولم نجد لهم مؤلّفات مخصّصة للنّقد الأدبيّ وإنّما جاءت هذه النّصوص النّقدية ضمن مؤلّفات نثرية وشعرية. فالإتجاه النّقدّي الغالب هو النّقد الأخلاقيّ والانطباعيّ.

- أمّا الخطاب الشعريّ فقد سجّلنا وفرة فيه وتنوّعا، فمنه المحفوظ ومنه ما هو في حكم المفقود ومنه المبنوث في كتب الأدب والتّراجم والتّاريخ وبعض المصنّفات الشعرية. تناول الخطاب الشعريّ معظم الأغراض الشعرية النّقليّة. مع احتفاظه بالبنية الفنيّة للقصيدة العربية. ولم نلمس تجديدا في الموضوعات الشعرية فالأفكار التي ساقها الشعراء هي ذات صلة بالمعاني المطروقة في الشعر القديم.

- أمّا من النّاحية الفنيّة للخطاب الأدبيّ فقد سعى الأدباء والشّعراء إلى تشكيل الصّورة الفنيّة في خطاباتهم النثرية والصّورة الشعرية في خطابهم الشعريّ، وهذا لتؤدّي جملة من الوظائف كالوظيفة الجماليّة والتأثيريّة والإعانة على عرض بعض تجاربهم الدّائيّة، فالصّورة البيانيّة كانت جزءا من تشكّل الصّورة الفنيّة والشعرية، فأكثرنا من توظيف المجازات والتّشبيهات والاستعارات وغيرها.

- اعتنى الأدباء والشّعراء بالظواهر اللّغويّة والأسلوبية فوظّفوا أضربا من الانزياح والتّناس. وأظهر الأدباء والشّعراء عناية بالتّزيين اللّفظيّ، وحرصوا على البنية الإيقاعيّة للخطاب النثريّ والشعريّ فتجلّى اهتمامهم بالجوانب الموسيقيّة الدّاخلية للنّصوص في استعمال المحسّنات البديعيّة. ولم تتخلّص الفنون النثرية من الصّنع اللّفظيّة، وأكثر من شغل بذلك المدرسة الأندلسيّة. ولم تسلم الرّسائل والخطب ومقدمات الفتاوى والمقامات والرّحلات ونصوص الإجازات والتّراجم وعناوين المؤلّفات من السّجع. وإلى جانب هذه المدرسة وُجدت خطابات مال أصحابها إلى الخطاب المرسل وحاولوا التّخلّص من الصّنع اللّفظيّة.

- أمّا الموسيقى الخارجيّة للنّص الشعريّ فقد سجّلنا التزاما من الشعراء بالوزن والقافية والرّوي قصد إقامة البنية الإيقاعيّة، وتقيداً بالأوزان الخليليّة، فكان البحر الطّويل والبسيط أكثر البحور استعمالا.

الطالب: عياد عبد القادر

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

Université Abou Bekr Belkaid
Tlemcen Algérie



تلمسان الجزائر

جامعة أبي بكر بلقايد



كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي



نصّ مقدّمة الرّسالة المترجم إلى الإنجليزية



Introduction :

The islamic maghreb is considered as a witness scene on contribution of his eminent persons : thinkers , literary , scientists , politics , artists , and others to build human civilization ; and they have witness on influence in the most of public life domain (literary, politic, social, scientific, religious, urban...). And they contributed in the intellectual, cultural, and civilized communication between different countries of islamic world and mediterranean basin, so we must work to present what they exhibited from knowledges and sciences, and is not result till by serious and deep studies for all what relied with his tradition, and work to emerge it in shining garment and beautiful picture. This work is depended on specialists in all domains. Within what search in it undertake to make complete definition for active eminent persons in different knowledge champs, study and inquire their traditions.

In this case, we choose the title of thesis to obtain doctorat, his topic is **the study of life of eminent persons of literature and civilization, historical and artistic study**. In a period start in the beginning of 9th century to the end of 10th century of hijire. This period follow golden age of islamic maghreb history specially and islamic world generally. We choose between eminent persons of islamic maghreb : personalities contribute in literary and civilized life, kings, scientists, fuqaha, literary men, poets, so the title of the thesis is : **(some eminent persons of literature and civilization in islamic maghreb from the beginning of 9th century to the end of 10th century of hijire)**.

The title is introduced by **(from)** separative to demonstrate that there are many eminent persons not specialized with study or not signalise within the research, because that arrive inattentive or we can't arrive to their sources. The title gather between time and place element.

The place frame contain a number of islamic maghreb states, so the study go to place expand, and we limit the time frame in the two centuries 9/10th of hijire ; so it tightened in time and expanded in

place, in consideration that this project wish great effort and interest full knowledge.

We go after this research to realise some goals : known, political, intellectual, literary and critical actual. The demonstration of the interest objective and artistic characters of literature and some civilizied appearances in this period. Definition of a number of active eminent persons in diferent known and civilizied fields from finding their mental formation and scientific growth. And print their material and abstract traces that expose interest known texts demonstrate some civilizied appearances in this period and general actual life in islamic maghreb state. Between aims we desire an essay to make core of dictinnary of eminent persons of literature and civilization in islamic maghreb, and demonstrate their contributin in the two fields literary and civilizied, study their lives, traces and work, and research about eminent persons unknown and missing tradition. In our view the topic of thesis had interest with study of a part of literary and civilizied history in the islamic maghreb and their eminent persons in the two centuries 9/10th of higire. This studinterest to follow literary traces and civilizied achievements to a group of islamic maghreb eminent persons. And shed light on many historical incidents aid to understand civilizied thinking of islamic maghreb in this period. Someone of eminent persons present abode in islamic civilizied and human building. And this consolidate civilizied relay and expose cultural unit to human former in islamic maghreb states.

Between problems that this memory aim answering about some questions :

- what is the political, cultural, intellectual, and literay actual in islamic maghreb states in the two centuries 9/10th of higire?
- what is the artistic and objective of eminent persons literature in this period?
- what is the civivlizied efforts of these choosen eminent persons?
- what is the civilizied values exposed in their scientific and practical lives?

About subjective reasons to choose this research back to proposition of our truly professor ; prof doc :(**mohammed mortadh**) in our scientific forum, so this take for myself acceptance and attraction, and make for us enthusiasm and tendency, that with the great desire in to historical research about men of literature and civilization, information passion about life of literary personalities. About objective reasons, interest by literary and civilized treasure of islamic maghreb region is one of necessary questions and historical responsibilities of cultural selections and maghreban searchers to definite eminent persons of literature and civilization in this state, and learn their cultural and critical prints, and arrive on their civilized achievements.

For demonstrate all this, we made a plan contain : introduction, preface, three chapters, conclusion and general indexes. The preface intituled (**feature on political and cultural life in islamic maghreb in the two centuries 9/10th of higure**). We take view on political life in islamic maghreb in the period contain the two centuries 9/10th of higure, because his known is necessary from his influence in some way in cycle of cultural, intellectual and literary movement.

We reserve the first chapter for prosodic speech and their arts and eminent persons. So is intituled (**some eminent persons of prose in islamic maghreb in the 9/10th centuries of higure**). Where we definite seven literary men from different states of maghreb. The way to choose the men by their literary famous and work on prosodic arts even their contributions in poetic speech. So we cite their names, descents, professors, pupils, compositions, and citations of others on themselves and expose some examples from their prosodic and poetic speeches, after we study some chosen prose examples in artistic analyse to present some objective and artistic characters and appeared features of prosodic speech, in essay to study some critical texts to known nature of literary critic in the main period and know some critical views.

In the second chapter we present the questions related on poet and his eminent persons in this period, is intituled (**some eminent persons of poet in islamic maghreb in the centuries 9th and 10th of higure**), we choose eight eminent persons work on poetic speech and are famous

with even they have prose speeches, so we definite them in the same way in the first chapter and compain in the third chapter too. We choose some poetic examples making its on artistic analyse in aim to arrive on interest objective and artistic caracters appeared in poetic speech of these poets.

In the third chapter, we treat definitions of eminent persons have participations in diferent civilizied domains, present contributions in human civilisation building, where appeared in known creations, scientific additions, and practical efforts in diferent sciences and arts, this chapter is intitlled (**some eminent persons of civilization in islamic maghreb in the centuries 9th and 10th of higire**). We choose eleven eminent persons emerge in many vehicler sciences and appear in mental sciences, and participate in the political and intellectual life. And we end this study by conclusion assemble interest results in this research.

We make artistic indexes facilitate for reader arrive to chapters, begin by coranic verses and profetic traditions indexes, eminent persons index and countries in alphabetical classification, than the classification introduce by name of eminent persons or what it fame within surname or appellation or lineage.

And we cite research library presented in : sources and refernces in arabic and foreign languages, university memories and magazines, and conclude by a table of contents.

We are pretend distinction in this research or precedence, the knowlodge of men and study of their old print, till savants of nation oppose, so the abundance of biographies and behaviors is witness on, and these compositions and books take diferent tittles that their owners had many methods in classification of eminent persons, their names, request their lineages, cite their news and all what its relate brively or exaggeration. From those someone take time and place factors method to made biography of eminent persons of diferent islamic maghreb states. For example : (**dawhat an-nacher limahacen man kana bilmaghreb min machaikh al-qarn al-acher**) of ibn askar al-hasani chefchewni, (**al-bosten fi dhikr al-awliae wal eulama bitilimcen**) of ibn mariam at-tilimceni, (**jidhwat al-**

iqtibessfi dhikr man halla mina aalam madinata fas) of ibn al-qadi al-meknasi, and recently (**dictionnary of eminent persons of algeria**) of adel nwihadh. We take aid in this research by these compositions and other old and recent sources and references, that diversify on historical, literary, critical and biography. We cite about historical sources and references based on history of all state of islamic maghreb countries ; like the book of (**al-adilla albaina an-norania fi mafakhir adawla al-hafsia**) ibn chamae, (**al-istiqlal liakhbar dowal almaghreb al-aqsa**) ahmed an-asiri as-alawi, (**cultural history of algeria**) abou al-qasim saad allah, (**almanhal aladhb fi tarikh tarabls algharb**) ahmed bik anaib al-ansari, within encyclopedic compositions used the two books of almaqari atilimceni (**azhar aryadh fi akhbar alqadhi eyadh**) (**nafh atib min ghosn alandalos aratib wa dhikr waziriha lisan addin ibn alkhatib**), and within biography books based on the book (**adhawe allamie liahl alqarn atasie**) as-sakhawi, (**nail ibtihage bitatriz adibage**) ahmed baba attombokti, and about critical compositions (**alomda fi mahasin achier wa adabihi wa naqdih**) ibn rachiq qairawani, and other sources and references mentioned in bibliography of research.

And about precedente studies in this domain is abundant and diversified, there is what is related to eminent persons of a certain country or certain speciality, as the books of abdallah knoun (**encyclopedia of famous men of maghreb**) and (**memorial of famous maghreb in sciece, literature and politic**). And (**eminent persons of libya**) taher ahmed zawi, and within recent studies benifit from aid it is the base of our memory the book of our prof : mohammed mortadh (**some eminent persons of tlemcen -historical and artistic study-**),I think the topic of my memory is lenght to book topic.

So we prefer used many methods that aid on the memory topic, like historical method because the nature of research demand it. Then it treat a number of historical questions, as political and cultural actual study. And follow eminent persons life in addition that the memory limited in period, and used artistic method to analyse literary and poetic texts, that based on a number of procedures presented in linguistic analyse, textuality, repetition, remove, poetic pictures,

harmonic aspects. And for observing some literary and critical appearances in the prosedric and poetic texts and some civilized values in biographies of some scientific and literary personalities, and their material and abstract achievements we used the descriptive and analytic method.

Is additionally to say that any work or efforts is not empty from difficulties, the interest obstacle what arrive over us in our topic : operation of personalities classification according to specialise domains, because that mentioned as a type of risk if many eminent persons witnessed as encyclopedia, they contribute in diferent scientific champs and have participations in literature and his arts. And what taking us the difficulty to definid some births of eminent persons or their deads and it is problem for way to clssify them in the biography list, so we classify them before contemporaries or after according to alphabitical classification.

Within obstacles faced us too, not arrive to a number of sources especialy some manuscripts contained biographies of number of eminent persons and literary texts (prose and poetry), that's all related to social and financial reasons, we necessite abandon biography of some eminent persons.

So i find me very grateful to my supervisor prof doc : Mohammed Mortadh for all what he find for me and my colleagues even instructionsand advices, and I thank him for his great patience despite abundance of works and contacts I ask Allah to give him good health, and I not forget to thank all that help me in this memory about my brothers and colleagues, and I appropriate with thanks my brother (**kaddour hamou thani**) that dedicate me a number of sources and references bringing from extreme west (morroco).

Ghazaouet in : Chaaban 10th, 1440h

April 16th,2019

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

Université Abou Bekr Belkaid
Tlemcen Algérie



جامعة أبي بكر بلقايد

تلمسان الجزائر



كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي



نصّ خاتمة الرسالة المترجم إلى الإنجليزية



Conclusion :

After ending to achieve this research we arrive to a number of results that presented on :

- the literary men and poets were jurist contribute to activate the literary movement, so they joined between jurisprudence and literary men, and prosedric and poetic speech, so it impossible for learners to classify them, and we find who describe he as jurist, poet, literary man, and for the most relation with authority, its work in royal offices in writing or translation, and make their literature in serve of kings, and we can say that the literature in this period is jurist literature.

- the literary men as jurist and soufi in this period appear considering to prosedric speech, and it emerge in different prosedric arts that treat. They write royal and fraternal letters, maqama, orations, and compose in art of biography, travel literature, register fetwa, and interest by rival art. this arts respond to traditional structure of prosedric speech, even what we register in maqama structure of jurist : Omar Maliqi, where remote oriental maqama rules.

- the prosedric speech treat different topics related to actual life as : political, social, religious, soul and civilized actual. Where literary men appear about influence with acts, events and news in this period. The literary men treat many topics in their letters, orations, maqama, rivals, travel literature, compositions, fetwa, as holy war to defend enemies and epidemic, belief and jurist diversity. They describe civilized building as religious, civic, military urban, artistic achievements, scientific innovations, season occasions and religious parties, and these relations appearances of influence between literature and civilization. So literary men can transfer to admitters with literary language, personal experiences, self affection, positions, and human relations.

- from topics that prosedric speech treat some literary critic questions, Atinissi, Ibn khlouf and ahmed zerrouq had critical practices and views, we have not find compositions for them specialise to literary critic, even these critical texts get within prosedric and poetic compositions, between critical questions and poetic sense concept,

way to achieve them, nature of poetic practice, , we fetch nature of literary critic practiced by Attinissi, Ahmed Zerrouq and other critical norms, the most critical way is moral and character critic.

- we register abundance in prosedric and poetic literary in this period, even the preserved like poetry of Ibn khlouf qosantini that leave poetry collections, and what is lost like poetry of Mohammed El kheir Almaliqui, and the most of poetry of jurist Omar Maliqi, and Abi Asida bijai literature, and there are spread in books of literature, biographies, history and some poetic compositions, we try collect from references as poetry of : Ibn khatib Zarwili, Mohamed ibn Ibrahim Charane, if this literary production attain completely we can make complete picture to literary and critical actual in this period.

- for poetic speech as poems, terza rima, popular poems, is treat the most of critical poetic purposes like : praise, pride, and congratulation, they praise persons, kings and nations.beside we find satire purpose and about his men Ibn Khatib Zarwili that satirise persons and countries. And there is descriptive purpose, the best that represent this colour Ibn Khlouf Qosantini, that treat nature description and their appearances from : meadow, flowers, gardens, rivers and others. And participate in this purpose Ibn Azraq Gharnati, in addition to battles and wars description, they have poetry in wine that is a purpose mixed with nature and flirt poetry.Ibn Khlouf is the poet of period because is bring all poetry purposes, with great interest of religeous poetry, that made a collection assemble poems in profetic praise, and specialise with rhetoric art based on mixture between rhetoric and profetic praise. The soufi experience was present in the poems of Ibrahim Attazi, and Al-hawdhi that used flirt purpose and make it means to express soul senses and feeling experience, and use dit in soufi structure like in tradition of praise poem.

- the poets of praise tend to long poems in undertaking artistic structure of arabic poem. We register interest to poetic language, so we meet unification between term and sense following purpose, eloquence of term and strenght of express in poetry of : ardor, praise, pride, that result in influence by old poets, and there is simplicity in term and facility in apathic and satirised speech. So dictionnaires bring diferent and diversified according to poetic purpose, there is

soufi, apathic, military, flirted and wine dictionary. We not touch renewal in poetic topic and ideas that the poets used related to meanings frequented in old poetry, specially praise, ardor, pride, near sultans and princes as Ibn Khlouf, Charane, Hamidi.

- the literary men and poets appear attention to term adorned, wish harmonic structure of prosedric and poetic speech, what appear in their interest about intern musical aspects of texts in using rhetoric like : similitary, conformity, opposition, comparison, rhyme and others. And the prosedric arts not let term trade, and who is preoccupied is andalous school presented on : Ibn Asim Gharnaty, Faqih Omar. And the letters, orations, fetwa introduction, maqama, licence texts, biographies and tittles of composition not be free from rhyme. This type of style take creator to affectation, in side of this school it appear speeches that orators like simple speech and try independ term trade presented in : Ahmed Zerrouq. About externe music of poetic text, we register undertaking of poets to heavy, rhyme and final in aim to build harmonic structure, and restricted to KHALIL heavies, so the tall, simple, complete most useful measures.

- we register a number of civilizied values in life of those eminent persons and their societies. In the scientific domain they let great treasure in diferent known domains, sot hey focus on scientific composition for youth and students. And depend on educatif ways and methods help to knowledge obtain, in aim to build scientific and civiliaied personnality of youth. We find them veru greedy scientific charge because its moral scientific research.

- the men of soufi school contribute to soul, behaviour and adoration build of individual and society, and work to maintain civiliaied dimensions that soufi thinking seek.

- in the social domain we find a number of civiliaied values as : living in peace, religeous to toleration between diferent composes of society.

- the men of science and literature had link between circles of civiliaied communication and intellectual and cultural fecundation between countries of west and east islamic, and between north and south of mideterranean basin.

Finally, we try in this memory arrive on a number of questions had literary and civilized demension but its always topics need debats to generalise benifit and being beguining to other researchs. We hope this study had fortune of arabic and islamic library, and drobein it, service to literary and intalletual tradition in islamic maghreb. We regard this work a participation in a project that the cultural selection and best of professors and searchers aim to serve maghreb islamic literature and his civilization and their eminent persons not in the 9/10th centuries of higire but in the past and the last centuries.



كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي



المقالة: 01

مجلة الفضاء المغربي

مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي

عنوان المقال :

أثر ابن مزوق الخطيب في المشرق العربي



جَامِعَةُ أَبِي بَكْرٍ بَلْفَايْد - تِلْسِيَان

مجلة الفضاء المغاربي

مجلة دورية محكمة يصدرها
مركز الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها
في المغرب العربي

العددان العاشر والحادي عشر

السنة الرابعة عشرة - جمادى الآخرة 1437هـ / مارس 2016 م



رقم الإيداع القانوني

508-2003

الترقيم الدولي

ISSN: 1112- 4067



الفضاء المغربي

مجلة دورية محكمة يصدرها مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي

المدير المسؤول: أ.د. محمد مرتاض

رئيس التحرير: أ.د. محمد زمري

الهيئة الاستشارية:

أ.د. عكاشة شايف / الجزائر
أ.د. حسن الأمrani / المغرب
أ.د. فهد سالم الراشد / الكويت
د. حسن جلاب / المغرب
أ.د. كلود أودبار / فرنسا
أ.د. سان أوغستان / فرنسا

هيئة التحرير:

أ.د. محمد مهداوي
أ. رحيمة حران
د. نورية بن عدي
د. نجلاء مرتاض
أ. عمارة حياة

ضوابط النشر

- ترسل الأعمال المرشحة للنشر إلى المجلة مطبوعة على الحاسوب بخط: Traditional Arabic بحجم: 16 ومصحوبة بنسخة على القرص المضغوط (CD).
- يجب أن تكون الهوامش والإحالات في نهاية المقال.
- يراعى في المقالات التوثيق، والبعد عن الانطباعية.
- لا تنشر المجلة إلا المقالات التي لم تنشر من قبل.
- لا تعبر المواد المنشورة في المجلة إلا عن آراء أصحابها.
- لا ترد المقالات إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.
- ترتيب المواد يخضع لمقاييس فنية.

تتم المراسلات باسم :

مدير المجلة : مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي، كلية الآداب واللغات ، ص ب : 138 - تلمسان 13000 الجزائر . هاتف/ فاكس : 21 58 88 (043) البريد الإلكتروني: lab_elcm19@yahoo.fr

فهرس

7	اقتحاحية العدد
	دراسات شعرية ونثرية
11	المولدات بين المنزاع الاجتماعي والتفرد الفني أ.د. محمد زمري
23	التجليات الإلهية عند شعراء تلمسان المتصوفة د. فاطمة داود
43	قراءة في موشحات أبي مدين شعيب د. حسين فارسي
51	صورة المرأة في التراث الشعري الزياتي ودورها في تأصيل الهوية العربية الإسلامية نجاح بلعباس
59	صورة المرأة في شعر الأمير أبي الزبيح سليمان الموحّد فايزة سعيدات
67	جمالية الرمز الأنثوي في شعر مفدي زكرياء د. ليلى قراوان
77	المختلة التراثية وأبعادها في الزاوية العربية الجزائرية د. ابن جماعي أمينة
89	دلالة العنوان وانفتاح اللغة على التراث في رواية (لونجة والغول) لزهور ونيسي د. طرشي سيدي محمد
97	المرأة الموضوع والفاعل في المثل الشعبي التلمساني د. نصيرة شافع بلعيد
107	صورة المرأة في الأمثال الشعبية الجزائرية أ. ليلى برمضان
115	نظرة عن دلالة المكان في القصيدة المغربية ابن عمارة منصورية
	الأدب القصصي والمرأة
129	المرأة والثورة في القصة القصيرة الجزائرية أ.د. أحمد طالب
135	المرأة في الرواية الجزائرية عريم حموم
143	صورة المرأة في النثر الجزائري (الرواية أمودجا) قتون أمينة
151	صورة المرأة في رواية «غادة أم القرى» لأحمد رضا حوحو صابر حفيظة
159	صورة المرأة في الرواية الجزائرية شخصية نفيسة في «ريح الجنوب» نموذجاً ستي بوكليخة
165	صورة المرأة المهمشة في روايات مولود فرعون لطيفة بن سعيد
171	صورة المرأة في رواية نجمة لكاتب ياسين زهيرة مشرن

175	صورة المرأة وتجلياتها في رواية أسيا جبار - امرأة بلا قبر ابن عديس زهيرة
179	صورة المرأة في رواية: «الأسود يليق بك» لأحلام مستغامي فاطمة بن شعشوع
189	شخصية المرأة (البطلة) و فعل المقاومة في رواية «الأسود يليق بك» لأحلام مستغامي جنان فاطمة الزهراء
المصنفات والأعلام	
203	عبد الكريم الفكون (من أعلام القرن العاشر الهجري) أ. د. محمد مرتاض
215	الآراء التلمسانية في المتسائل النحويّة والصرفيّة واللغويّة د. فهد سام خليل الراشد
237	مرجعية المصادر الأدبية التلمسانية في تاريخ الحضارة الإسلامية د. عبد الواحد عبد السلام
255	مصادر شعر المغرب على عهد القاطمين أ. نورالدين سعيداني
274	الأدب المغربي ونقده في مصنفات المقري بلعربي جلييلة
285	كتاب الرحلة إلى المغرب والمشرق لأبي العباس المقري د. عبد القادر شرشار
299	الإشارات النقدية في ديوان الصبابة لابن أبي حجلة التلمساني د. عبد الحميد الحسامي
323	قراءة في كتاب الشعر الجزائري القديم لمحمد مرتاض أ. زليخة شعبان صاري
327	قراءة في كتاب «من أعلام تلمسان مقارنة تاريخية - فنية» للدكتور محمد مرتاض نعيمة طهراوي
331	قراءة في كتاب «أوزان الشعر» لمصطفى حركات* د. رحمان ليلى
335	ابن باديس شخصية ومواقف معط الله فتيحة
345	البشير الإبراهيمي سيرة و مسيرة فاطمة قلال
355	أعلام المدائح النبوية في الشعر الزياتي - دراسة توثيقية - عبدالحق هتهوت
التاريخ والفكر والثقافة	
363	أثر ابن مرزوق الخطيب في المشرق العربي عياد عبد القادر
376	القضاء في عهد الدولة الزيانية لطفي بقال بريكسي
383	إسهامات «المجلة الإفريقية La Revue Africaine» الفرنسية في نشر التراث الأدبي المغربي دراسة وصفية تحليلية د. بغداد عبد الرحمن
393	نضال المرأة الجزائرية خلال القرن الماضي أ. د. محمد مهداوي

أثر ابن مرزوق الخطيب في المشرق العربي

عياد عبد القادر

طالب دكتوراه - جامعة تلمسان

إنَّ الحديث عن أثر ابن مرزوق الخطيب⁽¹⁾ في المشرق العربي يدفعنا للإشارة إلى تنقّلات علماء المغرب العربي تلقاء العالم الإسلامي الشرقي في القرن الثامن الهجري، وعن حركة علماء تلمسان على وجه الخصوص وتيّمّمهم الحواضر الإسلامية العلمية الكبرى، كالقاهرة، بيت المقدس، مكّة المكرمة، المدينة المنورة، دمشق... من خلال تلك الرّحلات البريّة والبحريّة، والتي تعود أسبابها لعدة دوافع منها؛ الدّافع الدينيّ وهو المحرك الأساس لعمليات الانتقال، وفي طليعته الحج إلى مكّة المكرمة وزيارة المدينة المنورة، والقدس الشريف طلبا للثواب والبركة والمجاورة. إضافة إلى الدّافع المعرفي، إذ نلّفي الصفوة من العلماء والنخبة من طلبة العلم يرتحلون إلى المشرق توسيعا لمعارفهم وإثراء لها، وتنقيحها بلقائهم بالعلماء المشهورين بهذه الحواضر. حيث استطاعوا الإسهام في تفجير ينابيع الثقافة، والانخراط في المجتمعات المشرقيّة تأثرا وتأثيرا⁽²⁾. ويظهر هذا التّفاعل الثقافيّ في صور متعدّدة نذكر منها:

- تولي الكثير منهم الوظائف العلميّة في المؤسّسات التّعليميّة. فحسب الإحصاءات احتلّ العلماء المغاربة والأندلسيّين القائمين على التّدريس بمدارس وزوايا بيت المقدس المرتبة الثالثة بعد الشّاميّين والمصريّين. وهي نسب تقارب تسع () عدد العلماء الأساتذة في الفترة الزمنيّة الممتدّة من سنة (659هـ) إلى ما بعد سنة (803هـ)⁽³⁾.
- تولي المناصب الهامّة، منها منصب القضاء، وممن شغل هذه المقعد ابن خلدون بمصر في أواخر القرن الثامن الهجري⁽⁴⁾.
- تأليف الكتب نقلها واقتناء المؤلّفات ذات الصيت الذائع في العالم الإسلامي. كتأليف

كتاب ابن أبي حجلة التلمساني⁽⁵⁾ (ديوان الصبابة) للملك الناصر حسن⁽⁶⁾.

- القيام بالمناظرات في الأمور الدينية خاصة، والمسائل العلمية، والمستجدات على الساحة الفكرية. كمناظرة ابني الإمام لابن تيمية⁽⁷⁾.
- تبادل الإجازات العلمية في شتى العلوم وشهادات التزكية، وأسانيد القراءة والحديث وغيرها.

لم تكن الرحلة إلى المشرق مقصورة على الدوافع العلمية والدينية فحسب، فلا يمكننا أن نغفل الدافع السياسي فهو من الدوافع المحفزة لارتحال العلماء نحو المشرق، كالسفريات ضمن الوفود التي كان يبعثها الملوك والسلاطين حسب ما كانت تقتضيه الأعراف الدبلوماسية وقتئذ.

وأحيانا أخرى يكون التحول عن الأوطان قسرا واضطارا، إثر تدهور الأوضاع السياسية، وبعد الإحساس بالخوف على النفس والأهل ببلدانهم، يتوجهون قبل المشرق طلبا للأمن والاستقرار في ظل حكم سلاطين المماليك بمصر تحديدا،

والتي أصبحت بمثابة الحصن الأخير للحضارة الإسلامية غداة انتقال الخلافة العباسية لها بعد الاجتياح المغولي للعاصمة بغداد، ولمكانتها العلمية وازدهار الحياة الثقافية بها⁽⁸⁾.

تحتفظ لنا كتب الأدب والتاريخ والتراجم بأسماء لكثير من العلماء الوافدين على العواصم الثقافية بالشرق العربي في القرن الثامن الهجري، كابني الإمام⁽⁹⁾، أبو عبد الله الأبلبي⁽¹⁰⁾، أبو عبد الله التلمساني⁽¹¹⁾ وغيرهم كثير.

يمكننا القول بأن انتقال علماء الغرب الإسلامي إلى المشرق لم يكن انتقالا حسيًا جسديًا فحسب، بل كان فكريًا وروحيًا وثقافيًا. أسهموا في تحقيق التراكم المعرفي والحضاري الإنساني. وساعدوا على توطيد العلاقات بين دول المغرب والشرق العربي الإسلامي. وذلك بالتعامل السلمي والتقارب السياسي.

وابن مرزوق الخطيب يعدّ أنموذجا لهذا التفاعل بين المغرب والشرق في الميادين الثقافية والسياسية. فقد كان له أثر بين في المشرق وخاصة بمصر. وذلك راجع لمكانته لدى

العلماء بعد احتكاكه بهم، والسلاطين والأمراء المملوكيين حين وفوده عليهم، فعرف قدره وحقه صغيرا وكبيرا. وذلك من خلال تردده على المشرق العربي، إذ تحصي المصادر التاريخية لابن مرزوق عددا من الرحلات. بداية بالرحلة الأولى سنة (717هـ) وهو ابن ست أو سبع سنوات، والثانية سنة (724هـ) ودامت خمس سنوات، زار مكة والمدينة والقدس والخليل. والثالثة سنة (734هـ) قادتة إلى القاهرة والإسكندرية لمدة سنتين. تلقى خلال كل تلك الرحلات - ذات الطابع الديني والعلمي - مختلف العلوم الدينية على أيدي كبار علماء البلاد التي وطئتها قدماه. ورحلة رابعة ذات طابع سياسي سنة (737هـ)، وذلك حين وفد على السلطان المملوكي لأمر يتعلق بالسلطان أبي الحسن. ورحلة أخيرة سنة (773هـ)، كانت لأسباب سياسية اضطرته للانتقال إلى المشرق بنية الاستقرار، وهذا بعد أن قلب الزمان له ظهر المعجن، وضاعت عليه أرض المغرب بما رحبت، فقد شهد في حياته العديد من النكبات بين سجن ونفي ونهب للأموال بسبب مواقفه السياسية. اختار حط عصا الترحال بأرض مصر التي غدت محلا يأوي إليه العلماء، ومقاما يحط رحالهم الفضلاء⁽¹²⁾.

لا شك أن لابن مرزوق الخطيب - الذي اشتهر في المشرق العربي عموما و بمصر خصوصا- آثارا جعلته يحظى بمكانة لدى العلماء والسلاطين.

- فما هي هذه الآثار؟ وما هي أشكالها؟

من خلال صفحات حياة ابن مرزوق ندرك أنه شغل بأمرين:

- الأول منهما: تحصيل العلوم ونشرها.

- الآخر: انخراطه في الحياة العامة والعمل السياسي.

ومن هنا يمكن حصر أثر ابن مرزوق في المشرق في أثرين هما: الأثر العلمي والديني، والأثر السياسي.

الأثر العلمي والديني:

حظي ابن مرزوق عند نزوله أرض مصر بحفاوة كبيرة لدى السلطان الأشرف شعبان⁽¹³⁾، الذي أكرم وفادته وأوفاه حقه، وفي هذا يقول ابن مرزوق: «...ثم توجهت في البحر إلى القاهرة فحللت بها ولقيت من ملكها- الذي لم أر من الملوك مثله الأشرف شعبان بن

حسين- حلما وفضلا وجودا وتلطفاً ورحمى. وأجرى عليّ وعلى ولدي ما قام به الحال». (14)

فمن بين مظاهر هذا التشريف السّماح له بالمشاركة في الحياة العلميّة، والإسهام في العمليّة التربويّة والتّعليميّة، والحضور الرّسميّ في المجالس المملكيّة، والتّصدر للخطابات لدى الحضرة السّلطانيّة: «... وقلّدي دروسا ومدارس وأهلني بقول بحضرته». (15)

لا تسهب المصادر التي بين أيدينا في تفصيل حياة ابن مرزوق التّعليميّة في المشرق، إلا أنّها تشير إلى عرض قدّم له في شبابه وهو ابن تسع عشرة سنة؛ وهو وظيفة معيد للدّروس بجامع الحاكم بأمر الله وجامع ابن طولون مع راتب مغر، غير أنّ هذا العرض قوبل برفض والده الذي كان يصحبه في أكثر رحلاته التي قادته إلى المشرق (16). وفي آخر حياته تفصح عن تولّيه الوظائف العلميّة بالمدارس المملوكيّة، إذ تمّ تكليفه بالتّدريس في بعض المدارس والزوايا والخوانق (17) منها: المدرسة الشّيخونيّة (18)، والمدرسة الصّرغتمشيّة (19) والمنصوريّة (20)...

والذي أهله للتّدريس في هذه المعاهد؛ كفاءته العلميّة، فهو مشارك في كثير من العلوم النّقليّة والعقليّة ومبرز فيها؛ من أدب وفقه وحديث وقراءات وتصوّف وتاريخ ولغة... وهذا بشهادة العلماء، يقول ابن الخطيب: «...متّسع الرواية، مشارك في فنون، من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويشعر، ويقيّد ويؤلف...» (21). وهي نفس الشّروط التي وضعها واقفها في شيوخها: التّصوف والمعرفة بالتّفسير والأصول، فقه، حديث، قراءات، إسماع الصّحّاحين وكتاب الشّفا للقاضي عياض، وألا يكون قاضيا؛ وهذا الشّروط سار على جميع الشّيوخ القائمين على التّعليميّة، وكلّها متوفّرة لدى ابن مرزوق، ومن ثمّ عيّن لتّدريس الحديث في المدرسة المنصوريّة سنة (773هـ). (22)

كانت هذه المدارس إحدى قنوات العطاء العلميّ لابن مرزوق، فقد درس عليه خلق كثير، وانتفع بعلمه جلة العلماء. فمن تلاميذه بالقاهرة التي استقر بها كان: يحيى بن محمّد بن عبد الرحمن الأصبحي (23)، حسين بن علي البوصيريّ القاهريّ المالكي (24)، وبهكّة جمال الدّين ابن ظهيرة المكي (25) وغيرهم كثير.

ويظهر كذلك أثر ابن مرزوق في الحياة العلميّة بالمشرق في الإجازات التي كان يسعى

العلماء وطلبة العلم لتحصيلها منه، باعتبارها طريقة من طرق تحمّل الحديث ونقله، وتكون شفوية ومكتوبة، وتأخذ صوراً عدّة، أعلاها إجازة مُعَيّن مُعَيّن، ومنها إجازة معيّن لغير معيّن.

وابن مرزوق من العلماء الذين تلقّوا عن أشياخهم العلم، عن طريق السّماع أو الإجازة، وهذا ما يشير إليه عنوان كتابه (عجالة المتسوفز المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز، من أئمة المغرب والشّام والحجاز).

وهو من رجال الحديث ورواته وواحد من المسندين له، وهذا بشهادته قائلاً: «... أنّه ليس اليوم يوجد من يسند الأحاديث الصّحاح سماعاً من باب الإسكندرية إلى البريق [البرين]⁽²⁶⁾ والأندلس غيري»⁽²⁷⁾.

قال فيه ابن أبي حجلة التّلمساني [البسيط]⁽²⁸⁾:

العَالِمُ الْحَبِيرُ وَالشَّيْخُ الْجَلِيلُ وَمَنْ يُؤَافِقُ الرَّأْيَ مِنْهُ حُسْنُ تَوْفِيقٍ
لَوْ رَامَ بِالسُّنَنِ الْعَالِي السَّمَاءَ رُتَباً مَا عَاقَبَهُ فِي السَّمَاءِ إِذْ ذَاكَ عَيْوَقٌ⁽²⁹⁾

عمل ابن مرزوق على توريث مروياته لطلبة العلم ومريديه، بالمغرب والأندلس والمشرق العربيّ سماعاً وإجازة. ولقد أخذت إجازاته صوراً متعدّدة؛ منها إجازة غير معيّن لغير معيّن، فأجاز لمن أدرك حياته⁽³⁰⁾. وإجازة غير معيّن لمعيّن كأجازته بالمدينة المنورة لأحمد بن محمّد بن الجلال بن الجمال الخجنديّ ولولديه، بعد أن أرسل إليه يسأله الإجازة سنة (779هـ)، فكتب له ابن مرزوق قائلاً [الوافر]⁽³¹⁾:

أَجَزْتُ السَّائِلَ الْأَرْضَى الْمَجَازَا جَلَالَ الدِّينِ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَازَا
إِمَامَ مَعَارِفٍ وَكَفَى إِمَامَا لِعِلْمٍ مَذَاهِبِ النُّعْمَانِ جَازَا
وَإِنْ كُنْتُ الْأَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ لِنَقْصِي رِي حَقّاً لَا مَجَازَا
وَلِكُنِّي انْتَمَزْتُ لَهُ امْتِثَالَا وَمُقْتَفِيَا مَنَاهِجَ مَنْ أَجَازَا

ويظهر أثر ابن مرزوق باديّاً من خلال مؤلفاته التي لقيت قبولا حسناً عند العلماء المشرق. وكانت رافداً من الرّوافد المعرفيّة في كثير من الميادين (الفقه، السّيرة، الأدب، العربيّة، التّاريخ...). ففي التّاريخ تعدّ مؤلّفات ابن مرزوق مصدراً مهماً لكثير من الأحداث التّاريخية بالمغرب العربيّ، بمؤلفاته (المسند الصّحيح) و(المناقب المرزوقيّة). وكتابه (عجالة

المستوفز) الذي يعدّ من أهمّ المراجع في تراجم العلماء والمحدثين، والفقهاء والصالحين خلال القرنين السابع والثامن الهجريين في كلّ من المغرب والشّام والحجاز.

وممن استعان من العلماء بمؤلفات ابن مرزوق؛ ابن حجر العسقلاني، وخاصة في كتابه (الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)، إذ نلفيه يصرّح باطلاعه على مؤلفات ابن مرزوق، متخذاً إياها عمدة في ترجمة الأعلام، ونقل كثير من الأخبار. ولم يُغفل تلك التعليقات المهمة (تعليقات بخط المؤلف نفسه في كتبه أو كتب غيره، أو بخط غيره كتعليقات ابن الخطيب) التي ألفها على حواشي تلك الكتب، والتي شكلت مادّة غنيّة ذات شأن معرفي وقيمة تاريخيّة.⁽³²⁾

ومن آثار ابن مرزوق يظهر أيضاً من خلال استصحابه لمؤلفاته التي كتبها قبل نزوعه إلى مصر. وكذلك نقله لكتب العلماء المغاربة والأندلسيين إلى المشرق في رحلاته وخاصة في رحلته الأخيرة، فقد أفاد منها العلماء وطلبة العلم بالمشرق. فمن مؤلفاته (برج الخفا في شرح الشّفا) شرح لكتاب (الشّفا للقاضي عياض) كتبه بخطّ يده، وقد وقع الكتاب بيد ابن حجر الذي لقي ابن مرزوق الحفيد فأطلعه على مؤلف جدّه، فسرّ الحفيد لذلك كثيراً. ومن ذلك نقله لكتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) لابن الخطيب.⁽³³⁾

يعرف عن ابن مرزوق شدّة وفائه لمن لأحبّ. فتعلّقه بأشياخه ومحبّته لهم كان محرّكا أساسا للكتابة قصد التعريف بهم، وجمع سيرهم وأخبارهم، فصنّف كتابه (عجالة المستوفز). وخصّ شيخه بالمدينة المنورة الحسن بن علي الواسطيّ بمؤلف- هو في حكم المفقود- حوى مآثره وجمع في مناقبه. غير أنّنا لم نجد له ذكرا عند من ترجم لابن مرزوق، خلا ابن حجر الذي أشار إليه في ترجمته للحسن الواسطيّ⁽³⁴⁾. وكذلك وضع كتابا جمع فيه مناقب شيخه وشيخ والده الوليّ الصّالح أبي عبد الله المرشديّ⁽³⁵⁾ وكراماته وأخباره، وقد خلّفه وراءه بأرض الحجاز.⁽³⁶⁾

إذا كان حسن الوصال الذي كان يجمعه بملوك المغرب حافزا للكتابة والتأليف؛ فإنّ الأمر قد تكرّر بالمشرق. فتأليفه كتاب (المسند الصّحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن)- الذي عرض فيه لتفاصيل الحياة السلطانيّة بالمغرب الإسلاميّ في العصور الوسطى، ولشخصية السلطان أبي الحسن وعلاقته به- كان ثمرة الاجتباء والاصطفاء الذي

أولاه إياه السلطان أبو الحسن. ها هو ذا على موعد بمؤلف آخر، كان مطلعته هذه المرة من المشرق. والدافع لتأليفه أيضا تلك العلاقة المميزة بالسلطان المملوكي الأشرف شعبان، والمكانة التي حظي بها عنده، فهذا العمل من باب رد الجميل، فقد قيّده إحسانه، وشمله إنعامه. ذكر في هذا الكتاب فضائل مصر وخصائصها، افتتحه قائلا: «الحمد لله الذي أحلني محل أشرف الملوك...»⁽³⁷⁾. ويبدو أنه أهداه للسلطان، فعنوان الكتاب (أشرف الطرف للملك الأشرف) يوحي بذلك. ونأسف لأنه من ضمن ما هو في حكم المفقود من تراث ابن مرزوق. وهذا الكتاب يعكس مدى أثر ابن مرزوق في إنعاش الحياة الفكرية بمصر.

من جهة أخرى نجد ابن مرزوق يحمل لقباً لازمه طيلة عمره، وبه افتاز. هذا اللقب هو (الخطيب)، وأول ما خُلع عليه هذا اللقب كان بالمشرق، نتيجة الأثر الذي خلفه في نفوس سامعيه، من خلال الخطب التي ألقاها بالإسكندرية وهو ابن تسع عشرة سنة. فأول خطبة مرتجلة ألقاها بزاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي بناء على طلبه، وذلك بعد وقت يسير من نزوله رفقة والده ضيوفا على الشيخ يوم الجمعة. وكان هذا أمام جمع من العلماء والفضلاء والصالحين سنة (730هـ)، الذين تركت هذه الخطبة أثرا في نفوسهم، ونالت إعجاب الشيخ المرشدي، فقال له مهنئاً: «أحسن يا محمد، وقرأك عندنا أن نوليكَ الخطابة، وأن لا تخطب بخطبة غيرك ما وليت وحييت... فقال لي: يا خطيب، فقلت: يا سيدي عبدك ومملوكك، فقال لي: كن خطيباً، أنت الخطيب. وقال لي: لا بد أن تخطب بالجامع الغربي، وهو الجامع الأعظم بالإسكندرية»⁽³⁸⁾. ولعل دعاء الشيخ المرشدي أدركته فاستحق لقب الخطيب بامتياز، فقد اعتلى أكثر من ثمانية وأربعين منبراً بالمغرب والأندلس والشرق⁽³⁹⁾.

كان الميدان العلمي شاهداً على الأثر الواضح الذي تركه ابن مرزوق في المشرق العربي، وهو يعكس المكانة الكبيرة التي بلغها عند العامة والخاصة. كل هذا جعله مؤهلاً ومرشحاً لمنصب ديني ذي شأن خطير، وهو من أرفع المناصب الدينية،

وأرفعها قدراً، وأعظمها رتبة، ألا وهو منصب قاضي المالكية على ما ذكره ابن خلدون في تاريخه⁽⁴⁰⁾. ولا ندري ما كان موقف ابن مرزوق من هذا المنصب، هل كان على

استعداد لقبوله، أم لا؟ أم أن وصية والده: «يا بني... احذر أن تتولى خطة القضاء»⁽⁴¹⁾ ستكون حائلا دون قبول منصب القضاء إن هو عرض عليه؟ أم أنه أثر الانشغال بالتعليم والانقطاع له بحكم أن تولي منصب القضاء ينافي شروط الواقفين لتلك المدارس.

الأثر السياسي:

لقد انخرط ابن مرزوق في الحياة العامة والعمل السياسي في سن مبكرة من حياته. فبعد عودته من المشرق إلى تلمسان (737هـ) صادف وقوعها بيدي السلطان أبي الحسن المريني. فما إن وصل ابن مرزوق حتى اتصل بالسلطان عن طريق عمه الذي كان قائما على مسجد العباد والخطابة فيه، تحقيقا لوصية والده. فما كان من السلطان إلا أن قرّبه منه وأدناه لمكانة أسلافه وثقلهم الديني⁽⁴²⁾.

هذه الصلة أتاحت له أن يقوم بأدوار سياسية في سن مبكرة. وأصبح من رجالات الحكم والإدارة، تقلّد عدة مناصب سياسية ووزارية ودبلوماسية، أيام بني مرين. استطاع أن ينال ثقة السلاطين في معالجة كثير من القضايا الخطيرة الداخلية والخارجية، كتلك القضايا العالقة بين الدولة المرينية والدول الأخرى؛ الصديقة منها والمعادية. سفارات وإبرام معاهدات صلح...⁽⁴³⁾.

ولعل أهم ما قام به من أدوار سياسية أيام بني مرين، تحضيره لتولي السلطان أبي سالم مقاليد الحكم فتمّ ذلك الأمر، فكافأه السلطان بأن جعله وزيرا بين يديه أسلم إليه كثيرا من المهام والمسؤوليات، فأصبح ابن مرزوق يتحكم في أمور الدولة بدون منازع، وحظي بمكانة كبيرة، يصفها ابن الخطيب بقوله: «إذا انصرف تبعته الدنيا، وسارت بين يديه الوزراء، ووقفت ببابه الأمراء. قد وسع الكلّ لحظه وشملهم بحسب الرتب والأموال رعيه... لكنّ رضى الناس غاية لا تدرك والحقّ بين بني آدم قديم»⁽⁴⁴⁾.

هذه المكانة التي بلغها ابن مرزوق لدى الملوك الذين خدمهم في المشرق والمغرب والأندلس (فاس وتلمسان وغرناطة وتونس والقاهرة) راجعة إلى جملة من المواصفات توقّرت فيه أهله لينوء بمهامه السياسية، منها: خلاصة اللسان، وحسن الخطاب، وتخير الكلمات، والوصول إلى دسائس النفوس بحكمة، وقراءة صفحات الوجوه، حسن الأدب مع الملوك. وفي هذا يقول ابن الخطيب: «خلوب اللسان، طيب الحديث، مقدّر الألفاظ،

عارف بالأبواب، دَرَب على صحبة الملوك والأشراف... يسحرهم بخلاصة لفظه، ويفتلهم في الذروة والغارب بتنزُّله، ويهتدي إلى أغراضهم الكمينية بحذقه، ويصنع غاشيتهم بتلطفه، ممزوج الدَّعابة بالوقار...»⁽⁴⁵⁾.

أما عن إسهاماته في الحقل السياسي بالشرق فيظهر من خلال علاقة المرينين بدولة المماليك فقط. تلك العلاقة الموسومة بالودِّ والمحبة من أيام السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني والسلطان المنصور قلاوون. ومن أسباب التَّواصل السياسي هو المصالح المشتركة بين الدولتين. تَمَّظهرت في إيفاد السَّفراء والتَّعاون العسكري، وتبادل المعلومات، والقيام

بالوساطات لعقد الصلح بين الدولة المملوكية ودول أوروبا، وتبادل الهدايا، ومهام تتعلق بمناسك الحج. وهذا ما يفسر كثرة السَّفارات، وعظم الهدايا وكثرتها بين الطرفين.⁽⁴⁶⁾

ويبدو أثر ابن مرزوق السياسي بالشرق، في تلك المهمة التي دعاه إليها عثمان بن جرار (قائد ركب الحجاج إلى مكة) وهما بالحجاز لأداء مناسك الحج للقاء الملك الناصر بمصر (737هـ)، ليستأذنه في مقدم والده السلطان أبي الحسن لتأدية مناسك الحج. وفي الواقع كانت هذه الوفادة من بنات أفكار عثمان بن جرار، وباجتهاد منه، حين علم بعزم والده السلطان على الحج بعد فتح مدينة تلمسان مباشرة، ولم تكن الوفادة بإذن السلطان. وقد سأله ابن مرزوق- وهو العارف بالترتيبات الدبلوماسية-: «وهل كتب لك مولانا بشيء، أو خاطبهم فيه؟»، فأوهمه أن قد وقع الأمر. وقد استكتب كتابا باسم السلطان ودفعه إلى الملك الناصر، الذي قابل الوفد بالحفاوة، وكتب رسالة بليغة إلى السلطان أبي الحسن يعلمه فيها بوصول كتابه، وإطلاعه على مقدم والدته إلى الحج...⁽⁴⁷⁾

أما أيام استقراره بمصر فلم نجد في المصادر⁽⁴⁸⁾ التي بين أيدينا ما يفصل الدور السياسي غير تلك الإشارة منه في بيان المكانة التي حظي بها عند السلطان الأشرف: «... وأهلني بقول بحضرته»⁽⁴⁹⁾، هل الخطاب لدى سلطان مصر هو من جنس الخطاب الذي اعتاده عند سلاطين بني مرين، كالاستشارات السياسية وتصدر المجالس السلطانية؟.

أثر ابن مرزوق بمصر في السنوات الأخيرة من حياته يكاد يكون مقصورا على الأثر

العلمي حسب ما أوردته المصادر التي وقفنا عليها. ولا ندري أراجع هذا لقناعته بمكاره الحياة السياسية ومكايدها، والتي كانت سببا في نكبته ومحنته وغربته وانقطاعه عن وطنه، وبلدته تلمسان، أم أن الظروف لم تنهتيا على نحو التي كانت عليه أيام بني مرين. ومجمل القول أن ابن مرزوق الخطيب ما هو إلا حلقة من حلقات التواصل الحضاري بين أقطار العالم الإسلامي، ويظهر أثره بارزا في المجالين العلمي والديني من خلال ممارسة التعليم ونشر العلوم وتوريثها للأجيال، فقد جلس بين يديه خلق كثير، وانتفع بعلمه جلّة العلماء مشافهة ومكاتبة، سماعا وإجازة. كما أن مؤلفاته كانت رافدا من الروافد المعرفية في كثير من الميادين (الفقه، السيرة، العربية، الأدب، التاريخ...)، وهي تعكس مدى أثر ابن مرزوق في إنعاش الحياة الفكرية بالمشرق العربي. كما أنه اعتلى كثيرا من المنابر في مصر خاصة، وأمّ الناس في مساجدها.

هذا وإن المشاركة في المجال العلمي والديني كان شاهدا على مكانته العلمية وتأثيره الفكري والثقافي، بيد أن الحضور السياسي هناك لم يبلغ ما بلغه بالمغرب العربي أيام المرينيين.

هوامش وإحالات:

1 - ابن مرزوق الخطيب (711هـ - 773هـ): محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق، المكنى بأبي عبد الله، والملقب بشمس الدين والجد والخطيب والرئيس، الإمام العلامة الحافظ الرحالة الفقيه المحدث. كان مولده بمدينة تلمسان سنة 711هـ، شغل بطلب العلم وتحصيله ونشره، ولي أعمالا علمية وسياسية لدى السلطان أبي الحسن المريني، وابنه أبي عنان وأبي سالم، لحقه أذى كبيرا من وراء عمله السياسي أكثر من مرة، فرحل إلى الأندلس ثم تونس واستقر به المقام بمصر وبها توفي سنة 773هـ. له تأليف كثيرة منها: (المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن)، وضعه في سيرة السلطان أبي الحسن المريني. (تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام). (برج الخفا في شرح الشفاء). شرح لكتاب (الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى) للقاضي عياض. ينظر ترجمته: الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1394هـ/ 1974م، ج3، ص-103 130، تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط4، ج7، ص 396، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1408هـ/ 1988م، ج5، ص 391 وغيرها.

2 - ينظر: تلمسان في العهد الزياني، عبد العزيز فيلاي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002، ج2، ص 329.

- 3 - ينظر: دراسات في تاريخ القدس الثقافي في العصر الوسيط، حاتم محمد محاميد، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2009، ص115.
- 4 - ينظر: رفع الإصر عن قضاة مصر، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1418هـ / 1998م، ج1، ص248.
- 5 - ابن أبي حجلة (725هـ - 776هـ): أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني. عالم بالأدب شاعر. سكن دمشق، ولي مشيخة الصوفية بالقاهرة، مات بالطاعون، له أكثر من ثمانين مصنفًا، منها (ديوان الصبابة). الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1980م، ج1، ص268، 269.
- 6 - الملك الناصر (736هـ - 762هـ): أبو المحاسن حسن بن محمد بن قلاوون. من ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام. بويغ صغيراً سنة (748هـ)، ثم خلع وسجن. ثم بويغ سنة (755هـ)، فقبض على زمام الأمور بحزم إلى أن قتل مخنوقاً. المصدر نفسه، ج2، ص216.
- 7 - ينظر: المسند الصحيح الحسن، ابن مرزوق، ص241، 242.
- 8 - ينظر: القدس في العصر المملوكي، علي السيد علي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ط1، 1986م، ص121.
- 9 - ابنا الإمام: الأخوان الشقيقان أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى ابنا الإمام الصالح أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الإمام البرشكيان. رحلا إلى تونس والمشرق. كانت وفاة أبي زيد سنة (743هـ)، وعاش أبو موسى بعده ثمان سنوات وتوفي في الطاعون الجارف سنة (749هـ). البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ابن مريم التلمساني، تحقيق: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1326هـ / 1908م، ص123-127.
- 10 - الأبلي (681هـ - 757هـ): أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني. شيخ المغرب في العلوم العقلية وإمام وقته. رحل إلى المشرق ولقي العلماء. توفي بفاس. معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط2، 1400هـ / 1980م، ص12.
- 11 - أبو عبد الله التلمساني (... - 759هـ): محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن القرشي. برز في العربية والفقه والتفسير، ويحفظ الحديث والأخبار والتاريخ والآداب، والجدل والمنطق، ويكتب ويشعر شرق وحج، ولقي الأجلاء، ثم عاد إلى وطنه، وانقطع لخدمة العلم، تولى قضاء فاس. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ط2، 1399هـ / 1979م، ج1، ص21.
- 12 - ينظر: المسند الصحيح الحسن، ابن مرزوق، ص241، 242، 53.
- 13 - الملك الأشرف الثاني (754هـ - 778هـ): أبو المعالي ناصر الدين شعبان بن حسين ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون. من ملوك الدولة القلاوونية. ولي السلطنة سنة (764هـ)، انتظمت له شؤون الدولة إلى أن ثار عليه مماليكه فقبضوا عليه وقتلوه سنة (778هـ). كان ملكاً هيناً ليناً، منقاداً للشرعية، يحب أهل العلم. الأعلام، الزركلي، ج3، ص163، 164.
- 14 - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عدنان درويش، دار الجيل، بيروت، بدون ط، 1414هـ / 1993م، ج3، ص362.
- 15 - المصدر نفسه، ج3، ص362.

Université ABOU BEKR BELKAID — Tlemcen

REVUE L'ESPACE MAGHREBIN

REVUE PERIODIQUE
DIRIGEE ET PUBLIEE PAR LE
LABORATOIRE D'ETUDES LITTERAIRES
ET CRITIQUES ET DES GRANDES
FIGURES DANS LE MAGHREB ARABE

Numéros 10 - 11



N° légal d'édition
508-2003

Numérotation nationale
ISSN: 1112-4067





كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي



المقالة: 02

مجلة دراسات أدبية

مركز البصيرة للبحوث والاسنشارات والخدمات التعليمية

عنوان المقال :

حركة التأليف في فنّ التراجم والسير بالمغرب
الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين



دراسات أدبية

LITERARY STUDIES



دورية محكمة تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية
العدد الثاني والعشرون - ماي 2017 - شعبان 1438

إسهامات العرب في تطوير الزراعة بالأندلس

ابن عزوز نبيلة

تعليمية اللغة العربية في ظل تجربة المقاربة بالكفاءات

زوليخة شعبان صاري

مظاهر الحياة الاجتماعية في الشعر «عصر الموحدين»

مشرنن زهيرة

التعريب و تداعياته في الوطن العربي

كرزابي فادية

أثر حرف (من) في تقرير العقيدة

محمد ربحي

إشكالية المصطلح في اللسانيات الحديثة (المصطلح اللساني ومشكلات الترجمة)

قنون أمينة

الهيئة العلمية

- الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بن حسن العارف وكيل معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، السعودية.
- الأستاذ الدكتور علي ملاح، جامعة الجزائر 2.
- الأستاذ الدكتور سعيد بنكراد، كلية الآداب، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، المملكة المغربية.
- الأستاذ الدكتور عبد الله محمد العضيبي أستاذ الأدب والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى مكة المكرمة السعودية.
- الأستاذ الدكتور سعيد يقطين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المملكة المغربية.
- الأستاذ الدكتور عبد الكريم عوفي، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية.
- الأستاذ الدكتور محمد المشد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الكويت المفتوحة، الكويت.
- الأستاذ الدكتور عبد اللطيف عبيد، جامعة تونس.
- الأستاذ الدكتور محمد هاشم فالوقي، جامعة طرابلس، ليبيا.
- الأستاذ الدكتور عبد الرحيم مرashedة، رئيس قسم اللغة العربية، جامعة جدارا، المملكة الأردنية الهاشمية.
- الأستاذ الدكتور عطا محمد إسماعيل أبو جبين، المديرية العامة لتطوير المناهج، سلطنة عمان.
- الأستاذ الدكتور محمد عبد الحي، جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، الإمارات العربية المتحدة.
- الأستاذ الدكتور يسري عبد الغني عبد الله، خبير بالتراث الثقافي، جامعة القاهرة، مصر.
- الأستاذ الدكتور رباح اليمني مفتاح، كلية الآداب، جامعة الأقصى، غزة، فلسطين.
- الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر.
- الأستاذ الدكتور محمد زمري، جامعة تلمسان.
- الدكتور هشام خلدي، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.
- الدكتور عبد الحليم بن عيسى، جامعة وهران.
- الدكتور عبد الحكيم والي دادة، جامعة تلمسان.
- الدكتور رقيق كمل، جامعة بشار.

آراء الباحثين لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المؤسسة
مركز البصيرة يرحب بأبحاثكم واقتراحاتكم ونصائحكم.

تقبل البحوث والدراسات التي تعالج القضايا المتخصصة المتميزة. ويشترط في تلك الأعمال مراعاة قواعد النشر التالية:

- (1) أن يتوافق البحث مع أهداف الدورية ومحاورها.
- (2) أن يكون البحث غير منشور سابقا.
- (3) يرفق البحث بإقرار خطي بعدم تقديم البحث إلى أي جهة أخرى لغرض النشر.
- (4) أن لا يكون البحث جزءا أو مقتطفا أو مقتبسا من رسالة تخرج نال بها صاحبها شهادة علمية.
- (5) يرفق البحث بملخصين: (العربية والفرنسية) أو (العربية والإنجليزية).
- (6) يقدم الباحث نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- (7) ترسل البحوث والدراسات إلكترونيا أو تسلم في قرص مضغوط إلى إدارة المجلة.
- (8) تقبل البحوث باللغات: العربية والفرنسية والإنجليزية، على ألا يقل عدد صفحات البحث عن 15 صفحة ولا يزيد عن 25 صفحة، وألا يزيد عدد الأشكال والملاحق عن 15 بالمائة من حجم البحث.
- (9) أن يكتب البحث ببرنامج (Word). بـ: بخط: (Arabic Transparent) حجم 14 بالنسبة إلى المتن وحجم 10 بالنسبة إلى الهوامش (اللغة العربية) وبخط: (Times New Roman) حجم 12 بالنسبة إلى المتن وحجم 10 بالنسبة إلى الهوامش (اللغة الأجنبية).
- (10) أن يراعى في البحث المنهجية العلمية، ومناهج البحث العلمي. وعلى صاحبه الالتزام بالموضوعية.
- (II) توثق هوامش البحث وقائمة مصادره ومراجعته في نهاية البحث.
- (I2) تخضع البحوث للتحكيم العلمي المتعارف عليه عالميا، ويبلغ الباحث بقرار هيئة التحرير في آجالها.
- (I3) يعدّ البحث في حكم المسحوب إذا تأخر الباحث عن إجراء التعديلات المطلوبة على البحث لمدة تزيد عن شهر من تاريخ تسلمه الرد بوجوب التعديل.
- (I4) لا يمكن للباحث أن يسحب بحثه بعد موافقة الهيئة العلمية عليها وإدراجها ضمن مواضيع المجلة.

15) الإدارة ليست ملزمة بنشر كل البحوث التي تصلها وليست ملزمة كذلك بإعادتها نشرت أم لم تنشر.

16) تعبر البحوث عن رأي صاحبها ولا تمثل بالضرورة رأي الدورية أو المؤسسة التي تصدرها.

17) يحق للدورية إعادة نشر البحث كاملاً أو جزءاً منه بأي شكل وبأي لغة دون الحاجة إلى استئذان الباحث، إذ تتمتع الدورية بكامل الحقوق الفكرية للبحوث المنشورة فيها. من حق الدورية إصدار عدد يخصص بأكمله لغرض واحد عند الحاجة.

قائمة المحتويات

9	إسهامات العرب في تطوير الزراعة بالأندلس
	ابن عزوز نبيلة
19	تعليمية اللغة العربية في ظل تجربة المقاربة بالكفاءات
	زوليخة شعبان صاري
25	مظاهر الحياة الاجتماعية في الشعر «عصر الموحدين»
	مشرنن زهيرة
39	التعريب و تداعياته في الوطن العربي
	كرزاي فادية
47	أثر حرف (من) في تقرير العقيدة
	محمد ربحي
57	إشكالية المصطلح في اللسانيات الحديثة (المصطلح اللساني ومشكلات الترجمة)
	قنون أمينة
63	حركة التأليف في فنّ التّراجم والسّير بالمغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريّين
	عياد عبد القادر
75	مقاربة سيميائية - رواية زمن العشق والأخطار لمحمد مفلح -
	ليلي عوينتي
85	دور المجاز في آيات الإنفاق -شواهد من سورة البقرة-
	بوجلول زكرياء
95	مصطلح المفارقة في الخطاب الشفهي أمثال الميّداني أمودجا
	بوجمعة بومدين
105	المعجم اللّغويّ في القرآن الكريم معجم مفردات جسم الإنسان؛ الدّلالة والاستعمال
	بلي عبد القادر
113	الجملة بين القدماء والمحدثين
	العرباوي هاجر
119	ردّ العامّي الجزائريّ إلى أصله الفصح -الأمثال الشعبية أمودجا- دراسة تأثيلية
	زيان ليلي / بن أحمد بن علي
127	دور القرآن الكريم في تقعيد اللغة العربية الفصحى
	مزيود سامية
137	البعد التداولي لنظرية الأفعال الكلامية في التراث اللغوي العربي -مفتاح العلوم للسكاكي أمودجا-
	ليلي رمضان

143	الاحتجاج بالقراءات القرآنية في النحو العربي.
	حكوم مريم
149	أبعاد ترجمة معاني القرآن الكريم والمصطلحات الإسلامية لدى المستشرقين الفرنسيين
	فتحية عبد الكامل
161	عوامل ازدهار الحركة العلمية في الفترة الأموية بالأندلس
	صابر حفيظة
171	الإسناد الوظيفي في ظل الاستعمال اللغوي
	سليمة دالي
179	الأمير عبد القادر الجزائري والحضارة
	رابح مليكة
187	الاكتساب اللغوي من منظور البراديغم المعرفي
	حاجب سلسبيل
201	تعليمية العربية وفق ما جاء في مناهج الإصلاح في مرحلة التعليم الابتدائي
	سمير جباري
215	الجاحظ مبدع فن السخرية البخلاء أنموذجا
	ستي بوكليخة
231	اللهجات العربية وعلاقتها باللغة العربية الفصحى
	بوعام نجاة
239	نظرية العامل بين القدماء و المحدثين و انعكاساتها على الدرس النحوي
	حموم مريم
253	صورة الثورة في ثلاثية الطاهر وطار-اللاز،العشق والموت في الزمن الحراشي،الشمعة والدهاليز
	أيوب لعدودي
269	مأتمية الأنا وإدانة الآخر في يوم مشيئ في جنازتي... ومشى الناس للطاهر وطار
	أمينة بن جماعي
277	إشكالات ترجمة المصطلح اللساني
	وهيبة وهيب
285	واقع الهوية اللغوية الجزائرية في شبكات التواصل الاجتماعي
	آمنة شنتوف
293	أثر أدب الرحلة الجزائرية في الموروث الثقافي الجزائري و المتوسطي
	نورالدين بلحاج
311	السرققات الشعرية عند ابن خلدون والمقري
	بلعربي جلييلة
323	التخالف الصوتي في قراءة ابن كثير
	عصماني مختارية

حركة التأليف في فن التراجم والسير بالمغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين

عياد عبد القادر

إشراف: أ.د: محمد مرتاض

(جامعة تلمسان)

ملخص:

يتضمن هذا المقال التعريف بفن التراجم والسير وأنواعه وأهميته وعلاقته بعلمي التاريخ والأدب، والوقوف على مجهودات علماء المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين بهذا الفن ومظاهرها، وإحصاء مؤلفات التراجم والسير بنوعيهما (الغيرية أو العامة/ الذاتية أو المفردة)، وهذا وفق الترتيب الألفبائي، مع دراسة مختصرة لأهم هذه المؤلفات، وذلك بتناول موضوعاتها ومناهج المؤلفين وأسباب التأليف وغيرها.

Résumé :

Cet article consiste à faire connaître l'art des différents types des biographies et des autobiographies, leurs importances et leurs relations scientifiques avec l'histoire et la littérature. Il consiste aussi à valoriser les efforts consentis par les savants musulmans du Maghreb au IX et au X siècle de l'Hégire, à recenser en ordre alphabétique et les différents ouvrages biographiques et autobiographiques avec une brève étude sur quelques ouvrages, en prenant en compte les sujets, les méthodes des auteurs et les raisons de leurs compositions.

مدخل تعريفي:

فن التراجم والسير هو ذلك اللون الأدبي الذي يعنى بتعريف حياة شخص أو أكثر، بحثاً عن عنصر التميز لدى الشخص المترجم له وكشفاً عن مواطن العبقريّة ومكامن التفرد لديه، ودرجة التأثير في ما حوله مع ذكر مآثره وأثاره التي بها يذكر وإليه تنمى⁽¹⁾. ويستعين مؤلفو التراجم والسير بالمنهج التاريخي لتتبع الأحداث والأخبار، ولذا تجد هناك وشاجة بين فن التراجم والتاريخ باعتبارهما يميلان إلى تعقب الحدث التاريخي ورصد الأخبار، مما جعل الدارسين يعدّونه فرعاً من الحركة التاريخية⁽²⁾. وليس هذا فحسب بل الأمر يتعدى جمع المادة التاريخية حول الفاعلين في الحدث التاريخي إلى البحث عن الاعتبار والاستبصار بمن سبق وأخذ الدروس من مضي، فقراءة الحياة النفسية والعقلية والعلمية والاجتماعية... إلخ من الأعلام تعين على رسم صورة واضحة وفهم أكثر للحاضر. يقول ابن الجوزي: «واعلم أنّ في ذكر السير والتواريخ فوائد كثيرة، أهمّها قنّتان، أحدهما: أنّه إن ذكرت سيرة حازم ووصفت عاقبة حاله علمت حسن التدبير واستعمال الحزم، وإن ذكرت سيرته مفرط ووصفت عاقبته خويت من التفريط فينأدب المسّط، ويعتبر المتدنّكر، ويتضمّن ذلك شحذ صوارم العقول، ويكون روضة للمتّنزه في القول. والثانية: أن يطلع بذلك على عجائب الأمور وتقلّبات الرّمن، وتصاريف القدر، والنّص تجد راحة بسماع الأخبار»⁽³⁾. وهذا يعني وجود علاقة كبيرة بين فن التراجم والتاريخ.

وفي تحرير ما جمع من مادة تاريخية يلجأ أصحاب كتب التراجم إلى استعمال اللغة المباشرة لعرض أخبار المترجم له، ومنهم من يجنح إلى استعمال اللغة غير المباشرة مع الاتكاء على عنصر اللعب باللغة، والميل إلى تسجيل الألفاظ والتأنيق في تنقيحها وتهذيبها استرعاء لفكر المتلقي واستمالة لوجدانه، وإظهارا لمهارتهم اللغوية وبراعتهم الأدبية ومقدرتهم الإنشائية؛ مما يجعل من فن التراجم والسير يرقى إلى الأدبية. فالعبرة ليست بجمع المعلومات حول شخصية ما وسردها ولكن العبرة بكيفية عرضها فالعملية إذن لم تخل من عنصر الإبداع، فهو يعكس الشخصية العلمية والأدبية ومن ثم المستوى الثقافي لمؤلفيها، وهذا كله دون الإغراق في الصورة الأدبية للمترجم له مما يبعده عن الحقيقة والواقع. ومن هنا تظهر العلاقة بين فن التراجم والأدب⁽⁴⁾. إضافة إلى ذلك ما تكتنزه كتب التراجم من نصوص نثرية وشعرية للمترجم لهم تدفع الدارس للأدب وتاريخه إلى الاهتمام أكثر بهذا الفن وتتبع حركية الأدب في مختلف الأعصر، لأن هذا الفن من أهم المصادر في تاريخ الآداب.

وتظهر أهمية فن التراجم والسير في أنها توفر للمتلقي فضاء معرفيا تنحو به إلى البحث والتتقيب عن تفاصيل حياة الشخصية، وما توفره له كتب التراجم والسير سيزيده إحاطة بما يرغب، مع ما تضيفه من وضوح للوثائق، وفهم للنصوص التي بين يدي القارئ أو الباحث⁽⁵⁾. كما أنها تحفظ على الأمة تراثها فهي كاشفة لأحوال الفاعلين في مختلف الحقول المعرفية، وتصوير جوانب من الحياة الحضارية والثقافية والسياسية والاجتماعية للعصر الذي يترجم فيه للعلم، مع بيان مختلف التحولات على كثير من مناحي الحياة. ولكاتب التراجم الحرية في اختيار من يترجم لهم والمنهج الذي يرتضيه. فقد يميل إلى الكتابة حول حياته الشخصية فتكون الترجمة ذاتية، أو يتناول ترجمة شخصية أو أكثر، فتكون الترجمة غيرية أو التراجم العامة.

تقوم الترجمة على جملة من العناصر منها: اسم العلم، وتاريخ ولادته، والوسط الذي نشأ فيه، شيوخه، أحواله (وظائفه، مواقفه، آراء العلماء فيه...)، تلاميذه، مؤلفاته، وفاته. وهذا وفق مناهج مختلفة باعتبار الحيز الزماني أو المكاني، وقد تكون باعتبار طائفية أو مذهبية أو علمية أو سياسية... ويلحق بهذا الباب التصنيف في الوفيات. ومنهم من اهتم بترجمة المعاصرين والماضين، بترجم جماعية ومفردة، منثورة أو منظومة، يراعى فيها ترتيب الأعلام ترتيبا زمنيا (ولادة أو وفاة)، أبجديا أو هجائيا، وافية أو قصيرة بحسب المادة المتوفرة أو المنهج المتبع طولا أو قصرا⁽⁶⁾. وذلك لدوافع مختلفة منها الواجب الديني، حيث يرى أنه من واجبه أن يكتب في هذا الفن كصنيع نقاد الحديث النبوي زيادة حرص على تخليصه من الدخيل والموضوع والمصنوع ككتاب (الطبقات) لمسلم بن الحجاج⁽⁷⁾. أو لدافع أخلاقي كردّ الجميل كالترجمة للشيوخ باعتبارهم هم السبب في تكوينهم العلمي والتربوي وما وصلوا إليه، فينبغي المريد لكتابة سيرة شيخه من ذلك كتاب (المواهب القدسية في المناقب السنوسية) لمحمد بن عمر بن إبراهيم الملايكة التلمساني (897هـ/ 1492م) أتى فيه على سيرة أستاذه شيخه محمد بن يوسف السنوسي⁽⁸⁾. أو لدافع دنيوي على نحو ما يؤلف في سيرة الحكام والملوك رغبة في القرب منهم أو رجاء نيل عطاياهم أو لردّ جميل، ككتاب (المنتقى المقصور على مآثر خلافة المنصور) لأحمد بن القاضي المكناسي، وضعه

في سيرة مخدومه المنصور السعدي الذي افتداه من الأسر⁽⁹⁾. ويندرج تحت فن التراجم المناقب والطبقات والوفيات والسير الذاتية⁽¹⁰⁾.

إن الناظر في حركة التأليف في فن التراجم والسير يدرك أن علماء المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين اهتموا بفن التراجم وكتبوا فيه وخاضوا غماره. ويلمس إسهامهم الكبير في هذا الفن والعناية بعلم تراجم الرجال الذين سجلوا حضوراً فكرياً أو ثقافياً أو روحياً أو أدبياً أو سياسياً أو عسكرياً أو مذهبياً في مجتمعاتهم، وتتبع سيرهم وسرد أخبارهم، وتعداد مناقبهم، وجمع آثارهم في مؤلفات كثيرة. وهو ما يحاول هذا البحث الخوض فيه.

أولاً: التراجم الغيرية:

وهي التراجم التي يتناول واضعوها ترجمة غيرهم من الأعلام والوقوف على سيرهم وتعداد مناقبهم؛ ومن المؤلفات المنثورة في فن التراجم في القرنين التاسع والعاشر الهجريين- هو ما سيأتي مرتباً حسب الترتيب الألفائي:-

1- (ابتسام العروس ووشي الطروس في مناقب قطب الأقطاب سيدي أحمد بن عروس) لعمر بن أحمد الراشدي (868هـ / 1463م) كتبه في سيرة شيخه ابن عروس التونسي (ت 868هـ / 1464م)⁽¹¹⁾.

2- (البحر الطمطم في مناقب الشيخ سيدي عبد السلام) لعبد الرحمن بن علي المكي، وهو واحد من ثلاثة كتب التي ألفها صاحبها للتعريف بشخصية شيخه عبد السلام الأسمر وتعداد مناقبه. والثاني بعنوان (الكبريت الأحمر في مناقب الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر) والأخير (البحر الكبير في مناقب صاحب البندير)⁽¹²⁾.

3- (بلوغ الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته في الدولة المرينية من مدرّس وأستاذ وطبيب) ينسب الأستاذ عبد الله كنون- رحمه الله- هذا المؤلف لمحمد بن أبي بكر الحضرمي وكان زمن فروغه منه يوم الخميس 21 شعبان 824هـ⁽¹³⁾. ويبدو من خلال العنوان أن موضوع الكتاب يعني بترجمة الأعلام الذين دخلوا مدينة سبتة وشاركوا في الحياة العلمية والصحية من أساتذة ومعلمين ومشتغلين بالطب. وينسب إليه أيضاً كتاب (الكوكب الوفاة فيمن حل بسبته من العلماء والصالحاء والعباد)⁽¹⁴⁾. غير أن هناك إشكالا في نسبة الكتابين (الكوكب الوفاة) و(بلغة الأمنية) لمحمد بن أبي بكر الحضرمي المتوفى سنة 787هـ، من عدة وجوه. الوجه الأول: نجد الأستاذ عبد الله كنون ينسب الكتاب إليه وينص على أنه أنهاه سنة 824هـ أي بعد وفاته بنحو 37 عاماً. ومال إلى هذا الرأي الأستاذ عبد الوهاب بن منصور محقق كتاب (اختصار الأخبار عما كان بسبته من سني الآثار)⁽¹⁵⁾. ومن جهة أخرى نجد ابن القاضي المكناسي في جذوة الاقتباس عند ترجمته لابن زمرك الغرناطي يذكر أنه كان حياً سنة 792هـ، ويحيل على كتاب (الكوكب الوفاة) كمصدر من مصادر ترجمة ابن زمرك⁽¹⁶⁾، أي بعد وفاة الحضرمي بخمس سنوات. وهذا يدفعنا إلى القول إما أن الكتاب ليس للحضرمي وهذا ما جنح إليه عبد الله المرابط الترغي حيث ينسب كتاب (بلغة الأمنية) لأبي عبد محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري السبتي مع كتاب آخر بعنوان (الكواكب الوفاة فيمن كان بسبته من العلماء والصالحين والقادة)، حيث قال: "...فصنف كتباً منا بلغة الأمنية والكواكب الوفاة... وبرنامج مروياته توفي بعد 818هـ"⁽¹⁷⁾. أو يحتمل أن الحضرمي ابتدأ وهناك من أتمه بعد وفاته.

4- (تحفة الإخوان ومواهب الامتتان في مناقب سيدي رضوان) لأبي العباس أحمد بن موسى المرابي (ت 1034هـ/ 1625م) أتى فيه على ذكر سيرة شيخه أبي النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي (ت 991هـ) ومناقبه، ابتداء كتابته الجمعة ثامن عشر من صفر 992هـ/ 1584م⁽¹⁸⁾.

5- (دستور الإعلام بمعارف الأعلام) لمحمد بن عمر بن عزم التونسي المالكي (816- 891هـ/ 1414- 1486م)، وهو كتاب صغير الحجم ترجم فيه لأشهر الرجال تراجم قصيرة مختصرة في سطر واحد غالباً، يتناول فيها اسم المترجم له واسم أبيه وجده ومذهبه وتصانيفه، وهذا بأسلوب فيه شيء من التجديد من حيث طريقة ترتيب الأعلام، إذ قسمه خمسة أقسام وفق المشهور من الأسماء فالكنى فالنسبة، والرابع المصدر بابن والقسم الخامس ما صدر بكلمة صاحب⁽¹⁹⁾.

6- (دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر) ألفه محمد بن عسكر الشفشاوني (936- 986هـ/ 1529- 1578م) سنة (985هـ/ 1577م) سنة قبل وفاته، عني بترجمة ثلاث خمسين ومائة (153) شخصية من العلماء والشيوخ من المتصوفة الذين لقيهم وأخذ عنهم أو المشاهير الذين لم يجتمع بهم خلال القرن العاشر الهجري، وهذا بالمغرب الأقصى دون غيره من الأقطار، وقد علل اختياره المكاني بدافع نفسي وهو العصبية للوطن من منطلق شرعي⁽²⁰⁾.

7- (ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار) لموسى بن عيسى بن يحيى المازوني (ق 9هـ/ 15م) - والد يحيى المازوني صاحب (الذرة المكنونة في نوازل مازونة) - خصه لتراجم الأولياء والصلحاء ثم قام باختصاره في كتاب قصره على المشايخ المشهورين بالصلاح والولاية بوادي الشلف، منهم: واضح بن عاصم المكناسي، أبو عبد الله الهواري التنسي...⁽²¹⁾

8- (الروض الأريض في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقريض) لابن عاصم الأندلسي الغرناطي (ت 857هـ/ 1453م) وهو ذيل للإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، وهو يقع في عدة مجلدات⁽²²⁾. يبدو من خلال العنوان أن الكتاب يتناول ترجمة لسلطين بني نصر والكتاب والشعراء بغرناطة. وهو من كتب التراث المعدودة في حكم المفقود. وقد نقل لنا المقرئ من هذا الكتاب نصاً في ترجمة الغني بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل النصري تحت عنوان (شموس العصر من ملوك بني نصر) ووزيره لسان الدين ابن الخطيب⁽²³⁾.

9- (روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب صاحب الطار سيدي عبد السلام الأسمر) ألفه كريم الدين البرموني المصراطي (893- 998هـ/ 1488- 1590م) أتى فيه ذكر على سيرة عبد السلام الأسمر. وله في ذلك كتاب آخر يعد من التراث الذي هو في حكم المفقود سماه (الديوان في مناقب نجل سليم بن عمران) وهو عمل ضخم من أربعة أجزاء وكل جزء يضم أربعين كراساً⁽²⁴⁾.

10- (روضة النسر في مناقب الأربعة المتأخرين)⁽²⁵⁾ لابن سعد التلمساني (ت 901هـ/ 1496م) وهو مقتطف من كتابه النجم الثاقب، تناول فيه تراجم ومناقب ومفاخر دفيني وهران وهما: محمد بن عمر الهواري (751- 843هـ/ 1350- 1439م)، وإبراهيم التازي (866هـ/ 1461م)، ودفيني تلمسان وهما: الحسن أبركان (ت 868هـ/ 1464م). وأحمد بن الحسن الغماري (ت 874هـ/ 1469م). ذكر ابن مريم في البستان تقيداً

للسنوسي في مناقب الأربعة، ويبدو أن الأرجح هو نسبته لابن سعد، وذلك لأن إبراهيم الملالي لم يذكره ضمن مؤلفات شيخه السنوسي في مؤلفه المواهب القدسية، وكذا لم يشر إليه كل من البلوي في ثبته وابن مريم نفسه عند ترجمتهما للسنوسي (26).

11- (السنير) لأبي العباس أحمد بن عثمان الشماخي (ت 928هـ / 1521م) ترجم فيه لأعلام الإباضية من فقهاء وقادة وساسة وطبقاتهم عبر التاريخ بالمشرق والمغرب، وتناول فيه رصد حركات العلم والعمران في أماكن وجود الإباضية بالمغرب منذ عرف المذهب حتى أوائل القرن العاشر الهجري (27). القسم الأول منه يتناول تاريخ الإسلام من بدايته وتاريخ الإباضية بالمشرق، والقسم الثاني يعنى بتاريخ وسير أعلام الإباضية بإفريقيا الشمالية (28).

12- (غنية الرانض في طبقات أهل الحساب والفرائض) أحمد بن القاضي المكناسي وضع هذا الكتاب في تراجم الأعلام المتخصصين في علمي الحساب والفرائض (29).

13- (مناقب الشيخ إبراهيم المصمودي) من تأليف ابن مرزوق الحفيد أفرده في ترجمة شيخه إبراهيم بن موسى المصمودي والتعريف به (30).

14- (مشاهير بيوتات فاس الكبرى) موضوع الكتاب يعنى بالتعريف بالعائلات المشتهرة بمدينة فاس وأبرز أعلامها، وبلغ عددها ثلاثة وثمانين بيتاً. على أن هناك اختلافاً في نسبة الكتاب، فمنهم من نسبته إلى إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر الغرناطي، غير أن هناك تواريخ متأخرة عن وفاته، فيرجح أنه ابتداءً وأنهاء غيره (31). وقد طبع سنة 1972 عن دار المنصور بالرباط تحت عنوان (مشاهير بيوتات فاس الكبرى)، وأشير إلى المؤلف بـ (شارك في تأليفه: إسماعيل ابن الأحمر). ومنهم من نسبته إلى أحد تلاميذ أبي عبد الله ابن القاسم القوري، وقام باختصاره أبو زيد عبد الرحمن الفاسي (ت 1096هـ / 1684م) (32).

15- (المعزى في مناقب أبي يعزى) أحمد التادلي الصومعي (ت 920- 1013 هـ / 1514- 1604م) كتب سيرة الشيخ أبي يعزى (ت 572هـ) بناء على طلب من بعض أحفاد الشيخ أبي يعزى. وقد قسم كتابه سبعة أبواب وخاتمة بعد مقدمة وعرض فيها مكانة أبي يعزى، والدافع لجمع مناقبه وسرد عناوين الأبواب التي تناول فيها نسب أبي يعزى وشيوخه ومريده وكراماته، وشهادات الشيوخ والعلماء له بالولاية، وسلسلته شيوخه إلى النبي (ص) وأداب زيارة قبره وقبر تلميذه أبي مدين شعيب (33).

16- (الممدود والمقصود من سنا أبي العباس المنصور) لمحمد بن عيسى التاملي (ت 990هـ / 1582م)، من خلال عنوانه يبدو أنه قصره على ذكر مناقب وسيرة المنصور السعدي، غير أن الكتاب يعد من التراث المفقود أو من الذي أريد له ذلك بسبب نكته على يدي المأمون ولي عند المنصور السعدي (34).

17- (المنتقى المقصود على مآثر خلافة المنصور) لأحمد بن القاضي المكناسي، وضعه في سيرة مخدمه المنصور السعدي. قسمه إلى مقدمة وستة وعشرين باباً وخاتمة، تناول ذكر نسب المنصور وأخلاقه وعلمه وحكمه ومؤلفاته وشعره... والكتاب ذو قيمة تاريخية وأدبية. أنهاء قبل الشروع في كتابه (درة الحجال) الذي ابتداء سنة 999هـ وبعد إطلاق سراحه من الأسر سنة 995هـ. والباعث على التأليف رد جميل للمنصور السعدي الذي كان السبب المباشر في تخليصه من أسره لدى النصاري، ودفع مقابل ذلك فدية كبيرة وكذلك لأجل تقريبه من بلاطه (35).

18- (المواهب القدسية في المناقب السنوسية) لمحمد بن عمر بن إبراهيم الملاي التلمساني (897هـ/ 1492م) كتب فيه سيرة أستاذه محمد بن يوسف السنوسي. والذي حملة على هذا التقيد المفيد كما سماه. هو محبته الشديدة لشيخه الذي كان سببا في ما بلغه ببركته وإحسانه، وهذا من باب الشكر ورد الجميل. قسم كتابه عشرة أبواب بعد مقدمة، أتى فيه على ذكر فضائل شيخه السنوسي بذكر شيوخه أولا، ومكاشفته وكراماته ثانيا، وعلمه وزهده وورعه ثالثا، وتأليفه وما قيل فيها من أشعار رابعا، تفسيره بعضا من الآيات القرآنية خامسا، وتعبير ما أشكل من الأحاديث النبوية سادسا، وتوضيح ما أشكل من كلام أهل الحقيقة سابعا، وأوراده وأدعيته ثامنا، ووفاته وأيام مرضه تاسعا، وأخيرا أشعاره وأقوال العلماء فيه أثناء حياته وبعد مماته (36).

19- (النجم الناقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب) ألفه ابن سعد التلمساني (ت 901هـ/ 1496م) استجابة لدعوة السلطان الزياني محمد بن محمد المتوكل. مرتبا أسماء المترجم لهم من الأولياء والصلحاء من المشرق والمغرب وتعداد مناقبهم رتبة على حروف المعجم، وهو عمل ضخم في ثمانية أسفار (37) اعتمد على أكثر من مائة مصدر. وقد انتهى منه سنة 891هـ (38).

20- (النور البدر في التعريف بالفقيه المقرئ) لابن مرزوق الحفيد التلمساني أتى فيه على ذكر سيرة محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر المقرئ (758 هـ/ 1357م) جد صاحب نفح الطيب. قال المقرئ: "وقد ألف عالم الدنيا ابن مرزوق تأليفاً استوفى فيه التعريف بمولاي الجد سماه (النور البدر في التعريف بالفقيه المقرئ) (39). قال ابن مريم: «ولقد استوفى شيخ شيوخنا المحقق النظار أبو عبد الله ابن مرزوق الحفيد ترجمة المقرئ في كتاب سماه (النور البدر في التعريف بالفقيه المقرئ)» (40).

21- (النور النائر في سيرة الشيخ عبد السلام الأسمر) ألفه سالم بن محمد السنهوري (945- 1015هـ/ 1538- 1606م)، وهو كتاب أبان فيه عن مناقب شيخه عبد السلام الأسمر (41).

ومن مؤلفات التراجم التي تنسب إلى أصحابها ولم تذكر المصادر التي أوردتها عناوينها: 1- أحمد بن يحيى الونشريسي (ت 914هـ/ 1508م): له تأليف في ترجمة الفقيه أبي عبد الله المقرئ (758هـ/ 1357م)، وقد ذكره المقرئ- حفيد المترجم له- نفح الطيب (42) وألف هذا المؤلف بناء على طلب ابن غازي المكناسي وفرغ من تأليفه يوم الخميس رابع ربيع الأول عام 876هـ. أتى فيه على ذكر نبذة من حياة المقرئ ونسبه ومؤلفاته، كما عرض لبعض الآراء الفقهية لبعض الفقهاء (43).

2- الحسن الوزان ألف كتابا في التراجم باللغة اللاتينية أتمه عام (933هـ/ 1527م) تناول فيه ترجمة ثلاثين شخصية من الفلاسفة العرب وأطبائهم (44).

ومما ألف في هذا السياق الاهتمام بالوفيات، فنجد منها:

2- (لُقط الفراند من لفاظة حَقَقِ الفوائد) لابن قاضي المكناسي خصه لوفيات الأعلام ابتداء من سنة 802هـ وانتهى منه سنة 1000هـ، ثم أضاف إليه وفيات الأعلام إلى سنة 1009هـ، وهو بمثابة تذييل لوفيات ابن قنفذ القسنطيني. وقام بتحقيقه محمد حجي وأدرجه ضمن كتابه موسوعة أعلام المغرب المشتملة على تسعة كتب في التراجم، في ترتيب الكتب الأخرى رابعا في الجزء الثاني (45).

1- (الوفيات) ابن قنفذ القسنطيني (740-809هـ/1340-1406م): كتاب (الوفيات) أنجاه سنة 807هـ، وهو كتاب صغير لوفيات علماء الحديث من صحابة وعلماء ومفسرين ومؤلفين، ذيل به كتابه (شرف الطالب في أسنى المطالب) في علوم الحديث. ورتب الأعلام فيه ترتيباً زمنياً راعى فيه المنين من السنين في سابقة كما يقول. ابتدأه من المائة الأولى بداية بوفاة النبي سنة 11هـ إلى بداية المائة التاسعة والتي ترجم فيها فقط لثلاث شخصيات آخرهم وفاة الحافظ الضريير المراكشي سنة 807هـ. ورغم تراجمه القصيرة إلا أنه ذو قيمة من حيث هو عمدة لكتب التراجم من بعده كالبلستان لابن مريم ونيل الابتهاج للتنبكتي وغيرهم (46).

3- (وفيات الونشريسي) ألفه الفقيه أحمد بن يحيى الونشريسي (ت914هـ/1508م) متتبعا فيه وفيات رجال الفقه والحديث والتفسير والتصوف ببلاد المغرب والأندلس وحتى بعضا من المشاركة كابن دقيق العيد، في تراجم قصيرة. وهذا بداية من عام 701هـ إلى عام 912هـ، فأول من ذكره أبو زكريا يحيى اليفرنّي وآخرهم أبو الحسن علي بن قاسم الزقاق (47).

ومن مظاهر الاهتمام بفن التراجم والسير بالمغرب الإسلامي في هذين القرنين الاشتغال بكتب التراجم السابقة اختصارا وتذييلا وتكملة. ومن كتب التراجم التي شغل بها أعيان القرنين التاسع والعاشر الهجريين:

1- (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) لابن خلّكان (608-681هـ/1211-1282م) والذي اشتغل أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي (960-1025هـ/1553-1616م) على إكماله إلى أوائل القرن الحادي عشر في كتابه (درة الحجال في أسماء الرجال)، ولم يتقيد بترجمة فئة معينة أو طبقة من الأعلام، بل عني بتراجم المشاهير فحسب، معتمدا على ما علق في ذاكرته. مرتباً وفق ترتيب حروف المغاربة. وقد قدم الكتاب للخزانة المنصورية السعدية شكرا للمنصور السعدي الذي كان سببا في تخليصه من سجنه لدى النصاري قال: «ولم أقتصر فيه على العلماء والأدباء بل كل من له شهرة، واستطار على اللسنة ذكره من أولى الفضل والأعلام، والصدور من نوي السبق والأحلام، وذكرت من وفاة ابن خلّكان إلى آخر العاشرة وأول الحادية عشرة مما حفظته من الأعيان...» (48).

كما قام أبو القاسم بن محمد بن طركاظ الأندلسي (ت854هـ/1450م) باختصار وفيات ابن خلّكان أسماه (اختصار وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)، منه نسخة مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط (49).

2- (معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان) لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسدي المعروف بالدبّاغ (ت696هـ) ترجم فيه للأعلام الذين دخلوا القيروان من الصحابة وغيرهم إلى غاية القرن السابع الهجري، وبلغ عدد من المترجم لهم ثلاث عشرة ومائتي شخصية (213). اهتم به أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التّوخي (ت839هـ) تذييلا وتكميلا وتعليقا، حيث يصدر ابن ناجي تعليقاته وتكميلاته داخل المتن بعبارة (قلت) وللأصل بعبارة (قال) مع عزو النقول إلى مصادرها (50).

كانت هذه الكتب المنثورة في فن التراجم والسير، أما ما نظم في هذا الفن فهو قليل بالنسبة للمنثور منه، بحكم أن النثر يوفر للمؤلف مجالا مطلقا فهو مخير بين الإطالة والتقصير، أما النظم فهو يلقي بقيوده على الناظم يضطره إلى الاختصار فيحتاج الأمر بعد ذلك إلى شروح

لبيان ما اختصر، غير أنه يسهل على المتلقي حفظه، ويتيسر له استحضاره. ومما ألف من المنظوم في هذا الباب خلال هذه الفترة:

1. (المعرب الفصيح عن سيرة الشيخ الرضى الفصيح) أرجوزة من (1373) بيتا ألفها محمد بن عبد الله ابن محمد الهبطي المعروف بالصغير (1001هـ / 1593م) ترجم فيها لوالده محمد الهبطي (ت 963هـ / 1556م) تناول فيها سيرته وشيوخه وتلاميذه وأصحابه بشكل واسع (51).

2. (لامية الفشتالي) وهي منظومة لامية طويلة بلغت ثلاثة آلاف بيت في الوفيات لمحمد بن علي الفشتالي (ت 1021هـ / 1612م)، نظم وفيات ابن قنفذ من زمن النبوة إلى المائة الثامنة وذيها لابن القاضي المكناسي (لقط الفراند من لفاظة حُقق الفوائد)، وقد أنهاه الفشتالي وفياته إلى سنة ألف، ومما قال في أواخر المنظومة (52):

... من الوفيات جبت ففرا بمهمه ! وانضاء فكر من قلانص ذبل
... ولم أعتمد سوى ابن قنفذ وابن قا ! ضي مكناسة يتلو بوصف مكمل

ثانيا: التّراجم الذاتيّة:

السيرة الذاتية: وهي ميل الشخص لتدوين تاريخه بنفسه، تسجيلا للحوادث والأخبار في مختلف أطوار حياته من طفولة وشباب إلى أيام كتابة سيرته، وسردا لأعماله وأثاره. وهي من أحسن ما يكتب في هذا الباب، وذلك لأنه أعلم الناس بتفاصيل حياته، إذ هو أقرب إلى الحقيقة والنتبّت منه إلى التخمين والرجح بالغيب، متى مال صاحبها إلى الاعتدال وابتعد عن المغالاة. وهو رأي مال إليه الأديب الإنجليزي جونسون الذي يقول: «إن حياة الرجل حين يكتبها بقلمه هي أحسن ما يكتب عنه» (53).

وعلى الرغم من كثرة الكتابات في فن التراجم والسير، فإننا لا نلفي اهتماما كبيرا بالسير الذاتية في القرنين التاسع والعاشر الهجريين خلا ما جرى عليه العرف لدى كثير من العلماء في وضعهم لتأليف تخصّ سيرهم الذاتية العلمية، تعرف بالآفهارس والأنبات والكناشات والبرامج والمشیخات (54) ... تكاد جميع هذه المصطلحات تتفق في الغايات والمضامين. وتكمن أهمية هذا النوع من التأليف في أنّ صاحبه يبلور لنا جانبا من الحياة الثقافية في عصر مؤلفه، والحياة العلمية (طرق التعليم، الكتب، المدارس، والمكتبات...)، مع الترجمة للشيوخ الذين تلقى عنهم العلوم، والإجازات ونصوصها، والزحلات العلمية، وينقل لنا صورا من التحوّلات النفسية والتربويّة. ويعدّ هذا النوع من الكتب مصدرا هاما في الأدب والتاريخ؛ إذ يحوي كثيرا من المعارف والأخبار والتراجم والنوادر والحكايات والنصوص الأدبية (نثرا وشعرا). وهي تعكس غالبا توجهات أصحابها الفكرية والعلمية (فقهها، حديثها، تصوّفا، تاريخا...) (55).

ومن هذه المؤلفات المذكورة (56):

1. ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي أشي (839هـ / 1532م).
2. برنامج أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي بن عبد الواحد المجاري الأندلسي (ت 862هـ / 1458م).
3. فهرس محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن غازي المكناسي (841 - 919هـ / 1437 - 1513م).

4. فهرس محمد بن عبد الملك بن علي القيسي الغرناطي المنثوري (ت834هـ / 1431م)
5. فهرس أبي عبد الله محمد بن قاسم الأنصاري المعروف بالرصاص (ت894هـ / 1489م).
6. فهرس أبي العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن المنجور (926- 995هـ / 1520- 1587م).
7. (غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد) لعبد الرحمن الثعالبي (786- 875هـ / 1384- 1470م).

8. الكناش- صور من الذكريات الأولى- لأحمد زروق (846- 899هـ / 1442- 1493م).
ومن الذين يشدون الانتباه إليهم في كتاباتهم حول سيرهم الذاتية الفنية محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الجزائري (ت963هـ / 1556م) الذي له في السير الذاتية رسالة صغيرة لا تحمل عنواناً، تناول فيها الحديث عن مشاهداته وذكرياته العائلية، وحياته العلمية والتربوية والروحية داخل البيت وخارجه، ترجم في هذا المؤلف لوالديه وبعض أقاربه وأساتذته ومعلميه بشكل موجز لا يعتمد على ذكر تواريخ الميلاد والوفاة. فمن الشخصيات التي كانت له دور بارز في النص والدته فهي العمدة والمصدر الذي اتكأ عليه في سرد كثير من الوقائع، والترجمة لبعض الأعلام خاصة داخل الأسرة. ومؤلفه هذا يعد وثيقة اجتماعية تعكس حياة الفرد داخل مجتمعه في طرابلس وسلوك بعض المتصوفة وعلاقاتهم بالحكام والمريدين، ودور المرأة في تكوين شخصية الطفل وطرق التربية، كما يعد وثيقة تاريخية من حيث إنه يعطي لدارس التاريخ إضاءات حول هذه الفترة، وهو أيضاً نص أدبي سرد فيه تلك الأحداث والذكريات بأسلوب لا كلفة فيه مع تسجيل بعض البنى الإفرادية والتركيبية الناشئة عن اللغة الفصيحة. وما يسجل أيضاً الإكثار من سرد الكرامات والمبالغات ذات الصبغة الصوفية، وهذا أمر مستساغ في زمانه إذا ما علمنا أن هذا التوجه الصوفي جرى عليه كثير ممن خاض الكتابة المنقبيّة (57)

ومن الذين أسهموا في هذا النوع من السيرة يجدر ذكر عالم آخر كان له باع في هذا الفن؛ ونعني به أحمد زروق في كناشته (58)، ... حيث تناول فيها جانباً من سيرته الذاتية بداية بصور من الذكريات الأولى، يروي فيها بعض الأحداث العالقة في ذهنه داخل البيت الأسري وخارجه، ولم يغفل ترجمة الأعلام الذين عاصروهم أو لقيهم واحتك بداية بالجدّة الفقيهة التي كان لها الأثر الكبير في التكوين الأولي للكاتب، ثم يحكي تفاصيل رحلته بين فاس وتلمسان ذهاباً ورجوعاً، وما لاقاه أثناء سفره وأحوال البلاد من الناحية الاجتماعية والأمنية، ونلاحظ جنوحاً لذكر الكرامات والخوارق التي عرضت له في مراحل الأولى من عمره، أو التي ارتبطت بالشخصيات الصوفية التي ترجم لها (59). ثم ينتقل من سيرته الذاتية إلى الحديث عن بعض أساتذته ومعلميه بمصر وبعض المؤلفات التي قرأها هناك (60)، بأسلوب مرسل متخلص من قيود التصنع اللفظي إلا ما جاء منه عفواً على غير قصد، مع القدرة على السجع، بلغة فصيحة مع إدراج عبارات عامية وألفاظ دارجة نقلها عن أصحابها تعزز أمانة النقل لدى الكاتب (61).

الخاتمة:

مما نستخلصه أخيراً هو الاهتمام الكبير الذي أولاه علماء المغرب الإسلامي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين بفن التراجم والسير، وكتبوا فيه وفق مناهج مختلفة، كالالتزام بالقيّد الزماني أو المكاني، أو الطائفي أو المذهبي أو العلمي، روعي فيه ترتيب الأعلام ترتيباً زمنياً (ولادة أو وفاة)، أبجدياً أو هجائياً، ما بين منظوم ومنثور. تناولوا التراجم

الغيرية من المعاصرين والماضين، بتراجم جماعية ومفردة، وافية أو قصيرة بحسب المادة المتوفرة أو المنهج المتبع طولا أو قصرا، فأكثروا على كتابة سير العلماء ومناقب المشايخ والمتصوفة والأولياء، أحصينا من المؤلفات ما يربو على الثلاثين. كما كان لبعضهم تجارب في السير الذاتية كصنيع أحمد زروق في كُنَاشته، وعلي الخزوبي، وإلى جانب هذا، هناك ألوان من المؤلفات التي خصتها أصحابها لبيان سيرهم العلمية معروفة بالفهارس، وقد بلغت ما يقرب من الأربعين تأليفا. غير أننا لم نلمس تجديدا يستقطب الانتباه في هذا الفن خلا ما ذكرناه من محاولات أحمد زروق والخزوبي.

هوامش الدراسة

- 1 - ينظر: التراجم والسير، محمد عبد الغني حسن، دار المعارف، القاهرة، ط2، د.ت، ص9.
- 2 - ينظر: حركة التأليف عند العرب، أمجد الطرابلسي، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، ط2، 1376هـ/1956م، ص158.
- 3 - ينظر: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1412هـ/1992م، ج1، ص117.
- 4 - ينظر: التراجم والسير، محمد عبد الغني حسن، ص9.
- 5 - ينظر: حركة التأليف عند العرب، الطرابلسي، ص158.
- 6 - ينظر: التراجم والسير، محمد عبد الغني حسن، ص40، 47، 49، 55.
- 7 - ينظر: الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، محمد بن محمد أبو شهبه، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة، ط1، 1403هـ/1983م، ص684-688.
- 8 - ينظر: مقدمة تحقيق البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ابن مريم المليتي المديوني التلمساني، تحقيق: عبد القادر بويابة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1435هـ/2014م، ص31.
- 9 - ينظر: مقدمة المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، أحمد بن القاضي، دراسة وتحقيق: محمد زروق، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، د: ط، 1986م، ج1، ص237-239.
- 10 - ينظر: حركة التأليف عند العرب، الطرابلسي، ص158.
- 11 - معجم المطبوعات العربية والمعربة، يوسف بن إلبان بن موسى سرقيس، مطبعة سرقيس، مصر، 1346هـ/1928م، ج2، ص688، 1380.
- 12 - ينظر: هامش رسائل الأسمر عبد السلام الإدريسي الحسني، جمع وتحقيق ودراسة: مصطفى عمران رابعة، المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ص40.
- 13 - التَّبُوغ المغربي، عبد الله كنون، ج1، ص219.
- 14 - ينظر: اختصار الأخبار عما كان بسببته من سني الآثار محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ط2، الرباط، 1403هـ/1983، ص6.
- 15 - ينظر: المصدر نفسه، ص6.
- 16 - ينظر: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، أحمد بن القاضي المكناسي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، د.ط، 1973م، ج1، ص314.
- 17 - فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة - منهجيتها - تطورها - قيمتها العلمية، عبد الله المرابط الترغي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، ط1، 1420هـ/1999م، ص622.
- 18 - ينظر: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري، وذيل دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ضبط واستدراك: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/1997م، ص131. فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط، الخزانة الكتانية 1، محمد المنوني، منشورات الخزانة العامة للوثائق والكتب، ط1، 1999-2000م، ج6، ص52، رقم: 99.

- 19 - ينظر: مخطوط دستور الأعلام بمعارف الأعلام، محمد بن عمر بن عزم التونسي المالكي، ورقة: 3، 4، الموقع الإلكتروني: <https://ia600209.us.archive.org/9/items/M-000p79/NURUOSMANIYE3414.pdf>
- 20 - ينظر: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، محمد بن عسكر الحسني الشنشاوني، تحقيق: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ط2، 1397هـ/1977م، ص 1، 2.
- 21 - ينظر: تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم محمد الحفناوي، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1323هـ/1906م، ص 572.
- 22 - ينظر: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أبو العباس المقرئ التلمساني، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد العظيم شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د. ط 1358 هـ - 1939م، ج 1، ص 145.
- 23 - ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، ج 6، ص 146، 147.
- 24 - ينظر: هامش رسائل الأسمر، مصطفى عمران رابعة، ص 40. وينظر: مؤرخون من ليبيا مؤلفاتهم ومناهجهم (عرض ودراسة)، علي مصطفى المصراطي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، ط1، 1977، ص 55-63.
- 25 - حققه د: يحيى بوعزيز صدر عن المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار سنة 2004م.
- 26 - ينظر: مقدمة تحقيق: البستان، ابن مريم، ص 44، 45. ودليل مؤرخ المغرب الأقصى، ابن سودة، ص 170، رقم الترجمة: 1002.
- 27 - مؤرخون من ليبيا، علي مصطفى المصراطي، ص 67-81.
- 28 - المؤرخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية، تادايوش ليفيتسكي، ترجمة: ماهر جرار وريما جرار، منشورات مؤسسة تالوت الثقافية، د. ط 2007م، ص 21.
- 29 - المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، دار الزشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1398هـ/1978م، ج 2، ص 413.
- 30 - نفح الطيب، المقرئ، ج 5، ص 430، 433.
- 31 - ينظر: جذوة الاقتباس، ابن القاضي، ج 1، 168.
- 32 - ينظر: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ابن سودة، ج 1، ص 37.
- 33 - ينظر: المعزى في مناقب أبي يعزى، أحمد التادلي الصتومعي، تحقيق: علي الجاوي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، د. ط 1996م، ص 60-63.
- 34 - ينظر: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، محمد حجي، مطبعة فضالة، د: ط شوال 1398هـ/1978م، ج 2، ص 371.
- 35 - ينظر: مقدمة المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، أحمد بن القاضي، دراسة وتحقيق: محمد رزوق، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، د: ط 1986م، ج 1، ص 237-239.
- 36 - ينظر: مخطوط المواهب القدسية في المناقب الستوسية، محمد بن عمر الملاي التلمساني، ورقة: 3، 4، الموقع الإلكتروني: <https://archive.org/details/Al-mawahib.Al-qudsiya>
- 37 - حقق الجزء الأول منه (بلحاج محمد) مذكرة الماجستير في الحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2007-2008. وحقق الجزء الثامن (الطاهر منزل) مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الوسيط الإسلامي، تخصص علم المخطوط العربي، جامعة قسنطينة 2، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، 1432-1433هـ/2011م-20113م.
- 38 - ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، أبو القاسم سعد الله، دار البصائر، الجزائر، ط6، 2009م، ج 1، ص 73-75.

- 39 - نفح الطيب، المقرئ، ج5، ص204، 340.
- 40 - البستان، ابن مريم، ص311.
- 41 - هامش: رسائل الأسمر: عبد المتلام بن سليم الإدريسي الحسني إلى مريديه، ص40.
- 42 - نفح الطيب، المقرئ، ج5، ص340.
- 43 - ينظر: التعريف بالمقرئ لأبي العباس الونشريسي، بنعلي محمّد بوزيان، مجلة دعوة الحق، العدد 332: رجب-شعبان 1418/ نونبر-دجنبر 1997م. <http://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/8258>
- 44 - وصف إفريقيا، الحسن بن محمّد الوزان الفاسي، ترجمة: محمّد حجي ومحمّد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ج1، ص13.
- 45 - ينظر: موسوعة أعلام المغرب، محمّد حجي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1417هـ/ 1996م، ج1، ص6.
- 46 - كتاب الوفيات، ابن قنفذ القسنطيني، تحقيق: عادل نويض، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1403هـ/ 1983م، ص17، 18، 21، 23، 381.
- 47 - وفيات الونشريسي، أحمد بن يحيى الونشريسي، تحقيق: محمّد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر، دبط دبت، ص2، 5، 116.
- 48 - درة الحجال في أسماء الرجال، ابن القاضي المكناشي، تحقيق: حمد الأحمد أبو النور دار التراث، القاهرة - المكتبة العتيقة، تونس، دبط دبت، ج1، ص5.
- 49 - ينظر: فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط، ي. س. علوش وعبد الله الرجراجي، منشورات الخزانة العامة للكتب والوثائق، ط2، 1421هـ/ 2001م، ج2، الجزء الثاني (1921-1953) رقم: 2237، ص191.
- 50 - ينظر: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أبو زيد عبد الرحمن بن محمّد الأنصاري الأسدي، أكمله وعلق عليه: أبو القاسم بن عيس بن ناجي التتوخي، تحقيق: إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، مصر، ط2، 1388هـ/ 1968م، ج1، ص3.
- 51 - المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث، محمّد المنوني، 1404هـ/ 1983م، ج1، ص135.
- 52 - ينظر: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن إبراهيم السملالي، مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1413هـ/ 1993م، ج5، ص222، 223.
- 53 - ينظر: التراجم والسير، محمّد عبد الغني حسن، ص23.
- 54 - فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982، ج1، ص68، 69، 71، ج2، ص624.
- 55 - دراسات في تاريخ المغرب، محمّد زروق، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 1991، ص89-100.
- 56 - ذكر صاحب فهارس المغرب ثلاثين شخصية ألفت في هذا النوع خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين. ينظر: فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، عبد الله المرابط الترغي، ص622-633.
- 57 - مؤرخون من ليبيا، علي مصطفى المصراطي، ص35-54.
- 58 - الكناش أو الكناشة: مجموعة من الكتابات تعبر عن مزيج من أفكار وأقوال وذكريات وفوائد علمية. ينظر: الكناش، أحمد زروق، تحقيق: علي فهمي خسيم، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، 1980م، ص5.
- 59 - ينظر: الكناش، أحمد زروق، ص11-37.
- 60 - ينظر: نفس المصدر، ص38، 39.
- 61 - ينظر: ما ورد من ألفاظ وعبارات. نفس المصدر، ص11، 29، 33.

LITERARY STUDIES



مركز البصيرة للبحوث والدراسات الفكرية والعلمية

46 تعاونية الرشد القبة القديمة- الجزائر

هاتف: 021 28 97 78 فاكس: 021 28 36 48

www.baseeracenter.com / Email: markaz_bassira@yahoo.fr